



مجلة كلية اللغة العربية



مجلة علمية محكمة - تصدر عن كلية اللغة العربية بجامعة أم درمان الإسلامية - العدد العاشر 2020 م - 1442 هـ

ISSN 1858 - 7488 رمذ:

في هذا العدد

التعاقب والتناوب في العربية

أ.د. محمد غالب عبدالرحمن وراق

الروابط الاسمية وأثرها في سبك النص القرآني

د. عبدالفتاح فرح ضو

أثر الدلالة على النحو عند الأصفهاني من خلال كتابه المفردات

د. إحسان حسن صالح عبدالرحمن

القلب المكاني بين القدماء والمحدثين

د. تمام حمد المنيزل

ظاهرة الإبدال الصوتي في اللهجات العربية القديمة وأثرها

على أصوات العامية السودانية د. انتصار عثمان إبراهيم

أسس النهضة الوطنية واتجاهاتها عند شعراء مدرسة الإحياء

السودانية (قراءة في الأشعار والأفكار) أ.د. محمد الحسن علي الأمين

من مداخل الإعجاز البياني في القرآن الكريم

د. حمد محمد عثمان الحبر

النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان (١٩٤٠-١٩٥٠)

د. المعتز سعيد د. صلاح عبداللطيف

رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لبید ومسدار الصيد عند الحارثي

د. عيلة الصديق محمد عثمان

مجلة كلية اللغة العربية

تصدر عن كلية اللغة العربية

بجامعة أم درمان الإسلامية

مجلة علمية – دورية - محكمة

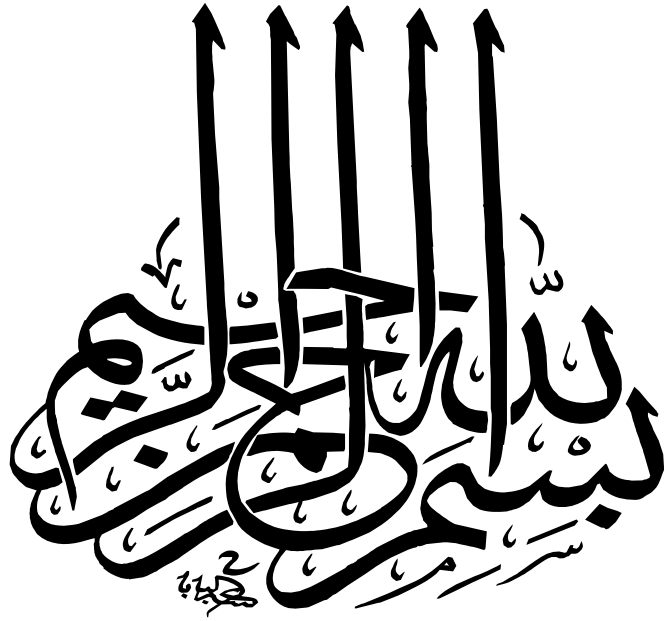
العدد العاشر - ديسمبر 2020م - جمادى الأولى 1442هـ

رمد: ISSN 1858 – 7488

كلية اللغة العربية - جامعة أم درمان الإسلامية

الموقع الإلكتروني:

<http://journal.oiu.edu.sd/ojs/index.php/fal>



المشرف العام على المجلة

أ.د. محمد الحسن علي الأمين

رئيس هيئة التحرير

د. حمد محمد عثمان

مدير التحرير

د. أحمد إبراهيم عبدالله

مقرر اللجنة

د. محمد بشير عز الدين

المشرف الإلكتروني

أ. منيب عبد العزيز عبدالقادر

أعضاء هيئة التحرير

د. انتصار عثمان إبراهيم

د. ابن عمر محمد صالح

أ. سعيد حامد عمر أحمد

الهيئة الاستشارية للمجلة

- أ.د. بكري محمد الحاج
أستاذ اللسانيات.
- أ.د. صالح آدم بيلو
أستاذ كرسي الأدب والنقد بكلية اللغة العربية
- أ.د. مصطفى محمد الفكي
أستاذ اللغة والنحو بكلية اللغة العربية.
- أ.د. عبد الحلیم محمد حامد
أستاذ اللسانيات بكلية اللغة العربية
- أ.د. بابكر الجزولي عثمان
أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية.
- أ.د. محمد غالب عبد الرحمن وراق
أستاذ اللغة والنحو بكلية اللغة العربية.
- أ.د. عصام الدين البرير
أستاذ المناهج بكلية التربية.

- 1- أن يتسم البحث بالأصالة والجدة، وأن تكون فيه إضافة للمعرفة.
- 2- ألا يكون البحث المقدم قد سبق له النشر في أي مجلة علمية أخرى
- 3- ترفق سيرة ذاتية لصاحب البحث، تشمل مسيرته العلمية والعملية، وذلك عند أول بحث يقدمه للمجلة.
- 4- يرفق مع البحث مستخلص باللغتين العربية والإنجليزية.
- 5- لهيئة تحرير المجلة أن تحذف، أو تعيد صياغة بعض الجمل والتراكيب وفق ما تقتضيه أساليب البحث ومناهجه.
- 6- يُشترط في البحث المُقدم للمجلة من الناحية الشكلية الآتي:
 - أ- أن يكون مطبوعاً من ثلاث نسخ.
 - ب- يكون نوع الخط في المتن باللغة العربية (Simplified Arabic) بحجم (14) ملتن البحث و(12) للهوامش.
 - ج- تكون أبعاد هوامش الصفحة من أعلى ومن أسفل (4.2) سم، والأيمن والأيسر (3) سم، والمسافة بين الأسطر (1.15).
 - د- عدد صفحات البحث في حدود 20 – 30 صفحة على الأكثر.
 - هـ- تسليم قرص مرن (CD) يحوي نسخة إلكترونية من البحث المقدم للمجلة قابلة للتعديل (word).

- و- أن يكون البحث مستوفياً لشروط التوثيق العلمي بالنسبة للنصوص المرجعية،
والقرآن الكريم، والحديث النبوي بصفة خاصة، وتوثيق المصادر بتدوين
المعلومات الخاصة بها وترقيمها.
- ز- أن يكون ترقيم الحواشي بالنظام التلقائي.
- ح- أن يلتزم الباحث بنقل الآيات الواردة في بحثه من برنامج "مصحف المدينة
النبوية".
- 7- تُنشر البحوث بعد عرضها على مُحكمين بمعرفة هيئة التحرير، وتكون إفادتهم فيما
يتعلق بالصلاحيّة أو عدمها نهائية.
- 8- تظهر نتيجة صلاحية البحث أو عدمها في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من تسليمه
لإدارة المجلة.
- 9- تلتزم هيئة التحرير بإخطار الباحث بما يفيد استلامها للبحث من حيث المبدأ. كما
تلتزم بإفادته بقبول البحث للنشر حال تسلمها إفادة المحكمين، أو تبليغه بعدم
صلاحية النشر.
- 10- إدارة المجلة غير ملزمة برد البحوث التي ترد إليها إلى أصحابها سواء قُبلت أم لم تُقبل.

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
1	التعاقب والتناوب في العربية أ.د. محمد غالب عبدالرحمن وراق	1
2	الروابط الاسمية وأثرها في سبك النص القرآني "الرابط الضميري نموذجاً" د. عبدالفتاح فرح ضو	19
3	حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين دراسة نحوية وصفية دلالية قريب الله بابكر مصطفى بابكر	40
4	معاني حروف الجر الثنائية في القرآن الكريم دراسة نحوية صرفية صديق خالد الحاج الإمام	61
5	الوصل والفصل في الكتابة العربية دفع الله حمد الله حسين عبدالحميد محمد كمال الدين	79
6	أثر الدلالة على النحو عند الأصفهاني من خلال كتابه المفردات (التعددية نموذجاً) إحسان حسن صالح عبدالرحمن	106
7	القلب المكاني بين القدماء والمحدثين – دراسة وتحليل تمام حمد المنيزل	130
8	ظاهرة الإبدال الصوتي في اللهجات العربية القديمة وأثرها على أصوات العامية السودانية – دراسة وصفية تاريخية انتصار عثمان إبراهيم	146
9	تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان الواقع والمأمول عبدالعزيز الهندي عثمان محمد	171

190	أسس النهضة الوطنية واتجاهاتها عند شعراء مدرسة الإحياء السودانية قراءة في الأشعار والأفكار محمد الحسن علي الأمين	10
225	من مداخل الإعجاز البياني في القرآن الكريم دراسة وصفية تحليلية حمد محمد عثمان	11
244	بنية القصيدة في شعر علي بن جبلة العكوك دراسة تحليلية نقدية محمد زروق الحسن علي	12
274	النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان (1940 – 1950) دراسة نقدية تحليلية صلاح عبداللطيف المعتز سعيد فرج الله	13
302	رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لببب ومسدار الصيد عند الحارثي دراسة تحليلية موازنة عبلة الصديق عثمان محمد	14
328	النص الأدبي عند الجليلة بنت مرة الشيباني دراسة وصفية تحليلية زينب السيد فكي	15

كلمة العدد

الحمد لله رب العالمين القائل: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) ونصلي ونسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

القارئ الكريم تواصل مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم درمان الإسلامية إصدارتها، فيصدر اليوم العدد العاشر منها، خدمة للبحث العلمي المحكم في علوم العربية المختلفة؛ نحوها، وصرفها، ولغتها، وأدبها، وبلاغتها. فقد دأبت هذه المجلة على المحافظة على المستوى الفني والفكري الذي وصلت إليه، مما جعلها قبلة للباحثين الجادين في حقول العربية المختلفة.

ففي هذا العدد مجموعة من البحوث في شتى علوم العربية المختلفة، ولأسانذة من داخل الكلية وخارجها، ومن داخل السودان وخارجه. ففي حقول الدراسات النحوية نجد بحوثاً رصينة خُطى منها النص القرآني بدراسات تناولته من جوانب مختلفة، مثل: "الروابط الاسمية وأثرها في سبك النص القرآني"، و"حذف المفعول في الفواصل القرآنية و"معاني حروف الجر الثنائية في القرآن الكريم" و"أثر الدلالة على النحو عند الأصفهاني من خلال كتابه المفردات"، كما نجد في هذا العدد دراسة متميزة "للتعاقب والتناوب في العربية".

وفي الدرس البلاغي نجد دراسة جادة "لمداخل الإعجاز البياني في القرآن الكريم". وفي الأدب العربي القديم – شعراً ونقداً – نجد دراسة لـ "بنية القصيدة في شعر علي بن جبلة العكوك" و"النص الأدبي عند الجلييلة بنت مرة الشيباني". وسعيًا من المجلة لتعميق الدراسات اللغوية والأدبية في السودان فإن هذا العدد قد حوى مجموعة من البحوث مثل: "ظاهرة الإبدال الصوتي في اللهجات العربية القديمة وأثرها على أصوات العامية السودانية" وفي الأدب مثل: "أسس النهضة الوطنية واتجاهاتها عند مدرسة الإحياء..." تأصيلًا لهذا الاتجاه الإحيائي في الشعر السوداني، كما نجد موازنة بين الأدب العربي القديم والأدب الشعبي السوداني في "رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لبید ومسدار الصيد عند الحارثي"، وفي النقد الأدبي في السودان نجد دراسة لـ "أثر النقد في تطور الحياة الأدبية في السودان".

القارئ الكريم نتمنى لك سياحة فكرية داخل هذه المجالات اللغوية المتنوعة، والقضايا الفكرية المختلفة التي رقدنا بها هذا العدد، آملين أن تجد فيها المتعة والفائدة، ونحن على استعداد أن نستقبل ما يقدمه القراء من ملاحظات، خدمة للمجلة وترقية لها، لتحقيق رسالتها في خدمة لغة القرآن نشرًا وتذوقًا، والله الموفق.

هيئة التحرير

التعاقب والتناوب في العربية

أ.د. محمد غالب عبدالرحمن وراق*

عرض النحاة واللغويون قديماً وحديثاً لظاهرة التناوب تحت عناوين متعددة، إما أبواب مستقلة وإما عرضاً. ومصطلح التناوب أكثر شيوعاً من التعاقب، وقد جمعت بينهما في هذا البحث لأنهما -عندي- مترادفان يؤديان دلالة واحدة، فالتناوب يعني أن تنوب كلمة عن كلمة، اسماً كان أم فعلاً أم حرفاً.

وظاهرة التناوب ليست محل تسليم بين النحاة واللغويين، فقد أقرها الكوفيون وأوردوا لها نماذج متعددة، مؤيدة بالشواهد القصيرة وأبكرها البصريون متعللين بقيام كل كلمة بمعنى محدد لا تتجاوز به إلى غيره، ومن ثم لجأوا إلى التأويل.

Progression (التعاقب) and Representation (التناوب) in the Arabic language.

The grammarians and linguists- in the past and present- have dealt with the phenomena of progression under many headings (either through definite sections or indirectly). The idiom of (التناوب) is more spreading than (التعاقب), but I have unified them in this study because I believe that they are synonymous and can conduct the same Runction.

Representation means that one word can replace another word being a preposition, a verb or a noun.

The phenomenon of representation is not a symphonic subject between the grammarians and the linguists. The kufis have passed it and gave many examples to approve (الكوفيون) their point of view. But the Busrain did not approve it because they believe that every word has it one meaning. So, they stick to interpretation.

* أستاذ النحو والصرف بكلية اللغة العربية - جامعة أم درمان الإسلامية

التعاقب والتناوب في العربية

لفت نظري حلول بعض الكلمات محل بعض آخر، فقد ينوب حرف عن حرف، وقد ينوب فعل عن فعل، وقد ينوب مفرد عن مثنى، وينوب جمع عن مثنى، ومؤنث عن مذكر وهكذا في سائر أنواع الكلم.

وقد تبدو هذه الظاهرة متناقضة مع طبيعة اللغة ووظيفتها في أنَّ اللغة مبنية على الإبانة والإفهام، لتقوم بوظيفتها في التواصل بين المتحدثين بها، وهذا إنما يتأتى من أن تكون لكل كلمة دلالة محددة، واستعمال واضح. وتبقى هذه الفرضية صحيحة إذا كانت اللغة تسير وفق المنطق العقلي، والمؤكد عندنا أن اللغة لا تسير وفق المنطق العقلي، وأبلغ دليل على ذلك- عندي- أحكام العدد، فالعرب تقول ثلاثة رجال، وثلاث نساء، فتؤنث مع المذكر، وتذكر مع المؤنث، والمنطق العقلي يقتضي أن تؤنث مع المؤنث وتذكر مع المذكر؟

إذا كانت اللغة لا تسير وفق المنطق العقلي، فوفق أي منطق تسير؟ الذي يؤكد الواقع اللغوي والملاحظة المتأنية والدرس الفاحص أن اللغة تسير وفق منطق المتحدثين بها الذي يمثله العرف اللغوي المتوارث لدى جماعة لغوية معينة. لذا فمن الحيف محاكمة اللغة إلى المنطق العقلي كما فعل بعض متأخري النحاة العرب.

لقد عرض النحاة واللغويون قديماً وحديثاً لدراسة ظاهرة التناوب تحت عناوين متعددة، إما بأبواب مستقلة وإما عرضاً، فالإمام ابن جنى رائد هذه الدراسة يبوب لها في سفره الخصائص باباً أسماه (باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض يقول في مفتتحه: (هذا باب يتلقاه الناس مغسولاً ساذجاً من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه. وذلك أنهم يقولون إِنَّ (إلى) تكون بمعنى مع، ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي مع الله، ويقولون إِنَّ (في) تكون بمعنى على، ويحتجون بقوله عز اسمه ﴿وَأَصْلِبْنَكُمْ فِي جَذوع النخل أي عليها...﴾ ساق أمثلة عديدة، ثم أردف يقول: (ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكننا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا، ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غُفلاً هكذا لا مقيداً لزمك عليه أن تقول: سرت إلى زيد، وأنت تريد معه، وأنت تقول زيد في

الفرس، وأنت تريد عليه ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش، ولكن ستضع في ذلك رسماً يُعمل عليه، ويؤمن التزام الصناعة لمكانه⁽¹⁾.

ويعالج ابن جني القضية ذاتها في موضع آخر من كتابه الخصائص تحت عنوان (فصل في الحمل على المعنى) يقول فيه: (اعلم أن هذا الشرح غورٌ من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً، وغير ذلك مما تراه بإذن الله)⁽²⁾.

وكذلك عرض ابن فارس - بإيجاز - لبعض أنماط ظاهرة التناوب في كتابه الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحت مجموعة من الأبواب، كباب الواحد يُراد به الجمع، وباب الجمع يراد به واحد واثنان، وباب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع⁽³⁾ ومثل ذلك فعل ابن الشجري في أماليه⁽⁴⁾، والزمخشري في مفصله، مع شرح ابن يعيش عليه⁽⁵⁾، كذا فعل ابن قتيبة في أدب الكاتب تحت عنوان (باب دخول بعض الصفات على بعض) مع شرح ابن السيد البطليوس الموسوم بالاقتضاب شرح أدب الكتاب⁽⁶⁾ كما أن ابن هشام الأنصاري وضع قاعدة لما أسماه بالتضمنين في كتابه المغني⁽⁷⁾. وأخيراً يسمي الهروي في كتابه الأزهية باب دخول حروف الخفض بعضها مكان بعض⁽⁸⁾.

أما المعاصرون فممنهم من أفرد لها دراسة مستقلة، مثل ما فعل الدكتور محمد حسن عواد في كتابه المعنون يتناوب حروف الجر وعرض لها آخرون تحت ما أسموه بالتضمنين، يلقانا ذلك عند الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه فقه اللغة المقارن، والدكتور شوقي ضيف في كتابه تيسيرات لغوية، وعالجها بعض آخر من خلال دراسته لظاهرة التذكير والتأنيث في

(1) الخصائص لابن جني، 2/306-308

(2) الخصائص لابن جني، 2/411

(3) الصحاحي في فقه اللغة، ص 348-355

(4) انظر أمالي ابن الشجري 1/13 وما بعدها

(5) يراجع: المفصل للزمخشري مع شرح ابن يعيش

(6) يراجع الاقتضاب شرح أدب الكتاب 2/338 وما بعدها.

(7) انظر: مغني اللبيب 2/762-764.

(8) الأزهية في علم الحروف، ص 267-290

العربية، فعل ذلك الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه المدخل إلى علم اللغة، والدكتور محمد أحمد خضير في كتابه ظواهر لغوية في القرآن والشعر، وغير هؤلاء كثير.

إن مصطلح التناوب أكثر ذيوغاً بين الدارسين من مصطلح التعاقب، وأكثر ما يرد مصطلح التناوب يرد عند الحديث عن تناوب حروف الجر، أما مصطلح التعاقب فربما لم يرد بلفظه إلا نادراً، إنما ورد بمعناه ودلالته، وقد جمعتُ بينهما في هذا البحث لأنني أظن أنهما يترادفان، فيؤيدان دلالة واحدة. وربما اتخذ أهل البلاغة والأدب مصطلح العدول في الدلالة على ما يؤديه معنى التناوب من معنى.

إن ظاهرة التناوب ليست محل تسليم بين اللغويين والنحويين، قديماً وحديثاً، فمنهم من يقرها ويورد لها نماذج متعددة، مؤيدة بالشواهد الفصيحة، شعراً ونثراً، ويراها مصدر ثراء وغنى للعربية، يقف على رأس هؤلاء الكوفيون، كما نُقل عنهم. ويمنع فريق آخر، منهم أكثرية البصريين ظاهرة التناوب، متعللين بقيام كل كلمة اسماً كانت أو فعلاً أو حرفاً بمعنى محدد لا تتجاوز إلى غيره. ومن ثم يلجئون للتأويل لتلك النماذج التي يبدو أن بعض الكلمات فيها تدل على معنى كلمات أخرى أكثر دلالة على المعنى المقصود.

وفي الصفحات التالية سنقف على نماذج وصور من التناوب والتعاقب، تكفي لمعرفة حجم هذه الظاهرة وذيوعها في العربية وسأبدأ بأكثرها وروداً، وهي حروف الجر.

التناوب والتعاقب بين حروف الجر:

حدَّ النحاة الحروف بحدود كثيرة، أظهرها قولهم أنه: "كلمة تدل على معنى في غيرها" ومقتضى الحد أن الحرف رابطٌ في التركيب، يتوقف معناه على ذكر متعلقاته، وإذا أُفرد فليس له معنى. والحق أن البحث عن معاني الحروف مفردةً عملٌ اللغوي، أما النحاة فيتناولون دراستها في حال تركيبها في جمل مفيدة، والجملة هي مجال عمل النحوي. وقد أُفرد كثيرٌ من النحاة الحروف بالتأليف، من مثل مغني اللبيب لابن هشام، والجنى الداني للمرازي، ورصف المباني للمالقي، والأزهية في علم الحروف للهروي.

لقد عرض هؤلاء النحاة لمسألة التناوب في عرضهم لمعاني ودلالات الحروف المختلفة، بدرجات متفاوتة في العرض والتحليل والتفسير، ولعل أول من بسط القول في هذه الظاهرة ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب، متخذاً لها عنوان (دخول بعض الصفات مكان بعض) وبإلقاء نظرة فاحصة على بعض كتب النحو التي تناولت حروف الجر أو الصفات أو الإضافة يجدهم

يذكرون لها عدة معانٍ أصلية، ويضيفون إليها معاني أخرى، يجتهدون في تأويلها لردّها إلى المعاني الأصلية، وقد لا يفعلون ذلك.

وهذا الموقف من النحاة يطرح سؤالاً هو: هل للحرف معنى واحد أو أكثر؟ وإذا قُدر أن للحرف عدة معانٍ فهل هذه المعاني محمولة على الحقيقة أو على المجاز؟ ترى طائفة من النحاة أن ليس للحروف غير معنى واحد، وقد ينجر معه معانٍ أخرى تؤول إليه.

يشير إلى ذلك المرادي بقوله: "رد كثير من المحققين سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق كما ذكر سيبويه، وجعلوه معنى لا يفارقها، وقد ينجر معه معانٍ أخر"⁽¹⁾.

وترى طائفة أخرى التنوع في معاني الحرف الواحد، يعلق المالقي في حديثه عن الباء "وهذا المعنى – يعني الإلصاق – في كلام العرب في الباء أكثر من غيره فيها، حتى إن بعض النحويين قد ردوا أكثر معاني الباء إليه، وإن كان على بعد. والصحيح التنوع"⁽²⁾.

إذن هناك مذهبان: مذهب بصري لا يرى للحرف إلا معنى واحد، يؤكد ذلك قول المرادي، "وما تقدم من نيابة الباء عن غيرها من حروف الجر هو جار على مذهب الكوفيين ومن وافقهم في أن حروف الجر قد ينوب بعضها عن بعض"⁽³⁾، وقول المرادي في موضع آخر: "ومذهب البصريين إبقاء الحرف على موضوعه الأول، إما بتأويل يقبله اللفظ، أو تضمين الفعل معنى فعلٍ آخر يتعدى بذلك الحرف، وما لا يمكن فيه ذلك فهو من وضع أحد الحرفين موضع الآخر على سبيل الشذوذ"⁽⁴⁾.

وقد أيد ابن هشام مذهب الكوفيين، فقال معلقاً: (وهذا الأخير – أي شذوذ إنابة كلمة عن أخرى – هو محمل الباب كُلّه عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين ولا يجعلون ذلك شاذاً، ومذهبهم أقلّ تعسفاً)⁽⁵⁾.

وممن ذهب مذهب الكوفيين كذلك الإمام الثعلبي المفسر، حيث أورد أمثلة كثيرة صرّح فيها بجواز تناوب حروف الجر، وقد علق على ذلك بقوله: "وتعاقب حروف الصفات شائع

(1) الجني الداني للمرادي، ص 46.

(2) رصف المباني، 143-144.

(3) الجني الداني، ص 46.

(4) الجني الداني، ص 46.

(5) مغني اللبيب لابن هشام 1/119.

مشهور في كلام العرب"⁽¹⁾، وقوله في موضع آخر: "وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض"⁽²⁾.

وقد تابع بعض المعاصرين الكوفيين ورأوا أن مذهبهم أسدُّ من مذهب الكوفيين، من هؤلاء الدكتور إبراهيم السامرائي، إذ يقول بعد أن استعرض الخلاف بين البصريين والكوفيين: "وهذا الخلاف والجدل يُظهر أن الكوفيين أسدُّ رأياً وأصوب منهجاً، ذلك أنهم اعتمدوا استعمالات بنوا عليها رأيهم، وهذا وجه علمي صائب"⁽³⁾.

كذلك يميل الدكتور شوقي ضيف لرأي الكوفيين، ويصف رأيهم بأنه أكثرُ سداداً من رأي البصريين، يقول: (واضح أن كلام ابن جني يجعل رأي الكوفيين القائلين بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض بطريق الوضع قياساً مطرداً – لا تجوّز فيه ولا تضمن ولا ما يشبه التضمن – أكثرُ سداداً من رأي البصريين، ومعنى ذلك أن حرف الجر ليس موضوعاً لمعنى واحد كما تصور البصريون، بل هو موضوع لأكثر من معنى. وبذلك أخذ أكثر النحاة بعد ابن جني مرجحين رأي الكوفيين على رأي البصريين ملغين كلَّ ما ترتب على رأي البصريين من أمثلة"⁽⁴⁾.

أما الأستاذ عباس حسن فقد جعل لنيابة حرف جر عن حرف جر آخر باباً مستقلاً، استعرض في هذا الباب وجهتي نظر الكوفيين والبصريين، متهماً من لا دراية له بفهم نيابة حروف الجر عن بعضها فهي خاطئة، يقول: "يتردد بين النحاة أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، فيتوهم من لا دراية له أن المراد هو (جواز وضع حرف جر مكان آخر بغير ضابط، ولا توقفٍ على اشتراك بينهما في تأدية معنى معين، ولا تشابه مُقَيَّدٍ في الدلالة) وهذا ضرب من الفهم المتغلغل في الخطأ، إذ يؤدي إلى إفساد المعاني والقضاء على الغرض من اللغة"⁽⁵⁾. ثم يختم هذه الموافقة بالقول: "لا شك أن المذهب الثاني – يقصد مذهب الكوفيين – نفيسٌ كما سبق، فمن الأنسب الاكتفاء به، لأنه عمليٌّ سهلٌ، بغير إساءة لغوية، ويعيد من الالتجاء إلى المجاز والتأويل ونحوهما من غير داع، فلا غرابة في أن يؤدي الحرف الواحد عدة

(1) تفسير الثعلبي 319/1

(2) المرجع السابق، 428/3.

(3) فقه اللغة المقارن ص 214.

(4) تيسيرات لغوية، لشوقي ضيف، ص 86

(5) النحو الوافي، لعباس حسن 537/2

معانٍ مختلفة وكلها حقيقي، ولا غرابة أيضاً في اشتراك عدد من الحروف في تأدية معنى واحد، لأن هذا كثيرٌ في اللغة، ويسمى المشترك اللفظي⁽¹⁾. وفيما يلي نماذج من حروف الجر المتناوبة: تناوب (في):

1- ينوب حرف الجر (في) عن الحرف (عن)، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فِي جُذُوعٍ ﴾⁽²⁾، أي على جذوع النخل، ولأن البصريين يمنعون تناوب الحروف، فقد اضطروا لتأويل الآية الكريمة حتى يبقى الحرف (في) على معناه الأصلي، يقول الزمخشري: (شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل في جذوع النخل)⁽³⁾، ويسوق أبو حيان الأندلسي خبراً في تفسير الآية، يفيد أن (في) في الآية على بابها من الظرفية، يقول: "وقيل نَقَر فرعون الخشب وصلبهم في داخله، فصار ظرفاً لهم حقيقة حتى يموتوا جوعاً وعطشاً"⁽⁴⁾، ويزيد الزركشي المسألة توضيحاً، فيقول: "ولم يقل (على) كما ظن بعضهم - يقصد الكوفيين - لأنَّ (على) للاستعلاء، والمصلوب لا يجعل على رؤوس النخل، وإنما يصلب في وسطها فكانت (في) أحسن من (على)"⁽⁵⁾.

ومن ذلك قول الشاعر:

وَهُمْ صَلَّبُوا الْعَبْدِيَّ فِي جَذَعِ نَخْلَةٍ *** فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا⁽⁶⁾

والتقدير: على جذع نخلة

ومنه قول عنترة:

بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرَحَةٍ ** يُحْدِي نِعَالًا لِسَبْتٍ لَيْسَ بِتَوَامٍ⁽⁷⁾

أي: كأن ثيابه على مسرحة

تنوب (في) الجارة عن الباء، وقد جعل بعضهم من ذلك قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ ﴾

(1) المرجع السابق، 542/2.

(2) سورة طه الآية (71).

(3) الكشف للزمخشري 546/2.

(4) البحر المحيط، لابن حيان 63/6.

(5) البرهان، للزركشي 303/4.

(6) البيت لسويد بن أبي كاهل، وهو في: الاقتضاب 338/2، والمغني 183/1 والصحاح (عبد).

(7) هذا البيت لعنترة وهو في الخصائص 313/2، والمغني 183/1، والاقتضاب 339/2، والأزهية، ص 267.

(1) أي يذروكم به، وقد اعترض ابن هشام على مجيء (في) بمعنى الباء في قوله (يذروكم فيه) حيث يقول: "وليس منه قوله تعالى (يذروكم فيه) خلافاً لزاعمه، بل هي للتعليل، أي يكثرتم بسبب هذا الجهل والأظهر قول الزمخشري أنها للظرفية المجازية (2)، "ومنه قول زيد الخيل:

وَيَرْكَبُ يَوْمَ الرُّوعِ فَمِهَا قَوَارِسُ ** بصيرونَ في طعنِ والكلى والأباهر (3)

أي: بصيرون بطعن الكلى

تناوب على:

تنوب على عن عدة حروف، من ذلك:

1- تنوب عن الحرف (عن) كما في قول الفخيف العقيلي:

إِذَا رَضِيتَ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ ** لَعَمْرُ اللَّهِ أَعَجَبِي رِضَاهَا (4)

أي إذا رضيت عني بنو قشير

2- تجيء على بمعنى (من) من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (5)، ومن ذلك قول الهذلي يصف كتيبة:

مَتَى مَا تُنْكِرُوهَا تَعْرِفُوهَا ** عَلَى أَقْطَارِهَا عَلَقُ نَفِثُ (6)

أي: من أقطارها

3- تأتي (على) بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ (7)

أي مع حبه، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ (8) أي مع ظلمهم.

(1) سورة الشورى الآية (11).

(2) مغني اللبيب لابن هشام 183/1.

(3) انظر: الاقتضاب 352/2، أمالي ابن الشجري 607/2، المغني 153/1.

(4) أمالي ابن الشجري 610/2، الأزهية، ص 277، الاقتضاب 341/2.

(5) سورة المطففين الآية (2).

(6) ديوان الهذليين 224/2، الاقتضاب 381/2.

(7) سورة البقرة الآية (177).

(8) سورة الرعد الآية (6).

تناوب الباء:

تأتي الباء مرادفة لعدة حروف، من ذلك:

- 1- تأتي الباء بمعنى (من) من ذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾⁽¹⁾، أي يشرب منها. ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ** متى لجج خضرٍ لهن نثيج⁽²⁾

أي شربن من ماء البحر

- 2- تأتي الباء مرادفة لعن، من ذلك قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾⁽³⁾، أي عن عذاب واقع، وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾⁽⁴⁾. أي عنه. ومن ذلك قول علقمة بن عبده:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي ** بِصِيرٍ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ⁽⁵⁾

أي فإن تسألوني عن النساء. ومن ذلك قول عنتره:

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ** إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي⁽⁶⁾

أي: إن كنت جاهلة عما لم تعلمي.

تناوب (من):

تأتي (من) نائبة عن عدة حروف من حروف الصفات، منها:

- 1- تأتي (من) مرادفة للباء، نحو قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾⁽⁷⁾، أي ينظرون بطرف خفي، وقيل إنها للابتداء⁽⁸⁾.

(1) سورة الإنسان الآية (6).

(2) ديوان الهذليين ص 129، وأما ابن الشجري 613/2، المحتسب 114/2، والأزهية ص 284.

(3) سورة المعارج الآية (1).

(4) سورة الفرقان الآية (59).

(5) ديوان علقمة ص 11، الأزهية 284، الاقتضاب 344/2.

(6) ديوان عنتره ص 126، الأزهية 284، وأما ابن الشجري 425/1.

(7) سورة الشورى الآية (45).

(8) انظر المغني 356/1.

2- تأتي (من) نائبة عن (عن) نحو قوله تعالى ﴿قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾، أي عن ذكر الله، وقوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾⁽²⁾ أي عن هذا. وقيل أنها في الموضعين للابتداء، وقيل أنها في الأولى للتعليل⁽³⁾.

3- وقد تنوب عن (في) نحو قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾⁽⁵⁾، تقديره: في الأرض، وفي يوم الجمعة.

4- تنوب عن (عند)، قاله أبو عبيدة، وجعل منه قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾⁽⁶⁾، أي: عند الله.

5- تأتي (من) مرادفة لعلّ نحو قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾⁽⁷⁾، أي نصرناه على القوم.

تناوب اللام:

تنوب اللام عن عدة حروف منها:

1. تنوب اللام عن (على) نحو قوله تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾⁽⁸⁾، أي على الأذقان، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾⁽⁹⁾، الجبين. ومنه قول الشاعر:

تَنَاوَلْتُ بِالرُّمَحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ فَخَرَّ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ⁽¹⁰⁾ أي: على اليدين وعلى الفم.

(1) سورة الزمر الآية (22).

(2) سورة الأنبياء الآية (97).

(3) انظر: المغني 356/1.

(4) سورة فاطر الآية (40).

(5) سورة الجمعة الآية (9).

(6) سورة آل عمران الآية (10).

(7) سورة الأنبياء الآية (77).

(8) سورة الإسراء الآية (107).

(9) سورة الصافات الآية (103).

2. تأتي نائبة عن (إلى) نحو قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾⁽³⁾، أي هدانا إلى هذا، وينادي إلى الإيمان.

3- تنوب عن (في) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾⁽⁴⁾، أي في يوم القيامة.

تأتي مرادفة ونائبة عن (مع) كقول متمم بن نويرة:

فلما تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا * لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعًا⁽⁵⁾

أراد مع طول اجتماع

التناوب بين المذكر والمؤنث:

وقع التناوب بين المذكر والمؤنث في فصيح الكلام، شعراً ونثراً، وقد عقد ابن جني لذلك باباً سماه (فصل في الحمل على المعنى) يقول فيه (اعلم أن هذا الشرح غور في العربية بعيد ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث)⁽⁶⁾ كما عرض ابن فارس لهذه الظاهرة في إيجاز في كتابه الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها⁽⁷⁾.

وتفرق اللغة العربية – كشأن بعض أخواتها الساميات- بين المذكر والمؤنث.

بأكثر من علامة، أمها تاء التأنيث، ثم ألفه المقصورة والممدودة. وتدل مقارنة اللغات السامية على أن الساميين القدامى كانوا يفرقون بين المذكر والمؤنث في اللغة، لا بوسيلة نحوية

(1) الاقتضاب 355/2، الأزهية 288، مغني اللبيب 233.

(2) سورة الأعراف الآية (43).

(3) سورة آل عمران الآية (193).

(4) سورة الأنبياء الآية (47).

(5) انظر: ديوانه ص 112، أمالي ابن الشجري 616/2، المغني 234/1، الأزهية ص 299.

(6) الخصائص، لابن جني 411/2.

(7) الصاحبي في فقه اللغة 425-426.

ولكن بكلمة للمذكر وكلمة أخرى للمؤنث، ففي العربية مثلاً حمار للمذكر في مقابل أتان لأنثى الحمير⁽¹⁾.

ويفسر الشيخ بها الدين ابن النحاس في تعليقه على المقرب عدولهم عن هذا النهج بقوله: (... لكنهم خافوا أن تكثر عليهم ويطول عليهم الأمر فاخترتوا ذلك بأن أتوا بعلامة فرقوا بها بين المذكر والمؤنث)⁽²⁾.

من يتأمل في ظاهرة التأنيث يدرك أن هناك أشياء لا صلة لها بالجنس الحقيقي مطلقاً مثل الجمادات والمعاني، كما يدرك أن التأنيث والتذكير في اللغة من خصائص الحيوان وأن إطلاقه على غير ذلك يكون على سبيل المجاز.

وقد ترتب على فقدان الصلة بين الاسم ومدلوله الجنسي أن اهتز هذا المدلول عند أصحاب اللغة، فقد رُوي التذكير والتأنيث في كثير من الكلمات التي تسمى بالمؤنثات السماعية، وينسب ذلك أحياناً إلى بعض القبائل العربية، في نحو قول أبي زيد الأنصاري: "أهل تُهامة يقولون: العُضْدُ والعُضْدُ، والعُجْزُ والعُجْزُ، ويؤنثونهما، وتميم تقول: العُجْزُ والعُضْدُ، ويذكرون"⁽³⁾.

ومن أمثلة تذكير المؤنث قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾⁽⁴⁾، يقول الثعلبي: "ولم يقل ميتة، لأنه رجع به إلى المكان والموضع"⁽⁵⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁶⁾، ويعلل ابن جني للتذكير في كلمة (قريب) من أنه أراد بالرحمة المطر، ويجوز أن يكون التذكير هنا إنما هو لأجل فعيل⁽⁷⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾⁽⁸⁾، لم يقل منها، لأنه أراد بالقسمة هنا الميراث والمال⁽⁹⁾. ومنه قوله

(1) انظر: المدخل إلى علم اللغة، لرمضان عبد التواب، ص 251.

(2) انظر: الأشباه والنظائر، للسيوطي 31/1.

(3) انظر: الغريب المصنف 361/2.

(4) سورة الفرقان الآية (49).

(5) تفسير الثعلبي، 423/4.

(6) سورة الأعراف الآية (56).

(7) انظر: الخصائص لابن جني 412/2.

(8) سورة النساء الآية (8).

(9) انظر: تفسير الثعلبي 30/3.

تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾⁽¹⁾، أي هذا الشخص أو هذا المرئي⁽²⁾.

ومن تذكير المؤنث من الشعر قول الحطيئة:

ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ وَثَلَاثُ ذَوْدٍ لَقَدْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى عِيَالِي⁽³⁾

أراد بالنفس الإنسان فذكر ومن ذلك قوله:

إِنْ أَمْرًا غَرِهَ مِنْكَ وَاحِدَةً بَعْدِي وَبَعْدَكَ فِي الدُّنْيَا لَمُغْرُورٌ⁽⁴⁾

أراد: غرته

وأمثلة تذكير المؤنث فاشية في العربية، شعراً ونثراً، بخلاف تأنيث المذكر، والسر في ذلك عند ابن جني في قوله: (وتذكير المؤنث واسع جداً، لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب)⁽⁵⁾.

أما تأنيث المذكر فأقل من سابقه، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءٍ أَخِيهِ﴾

⁽⁶⁾، قال الثعلبي: وإنما أنث الكناية في قوله تعالى (استخرجها) والصواع مذكر⁽⁷⁾. ومنه كذلك

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾⁽⁸⁾، أي من

الميراث، إذ المقصود بالقسمة هنا الميراث. ومن ذلك قراءة الحسن ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾

⁽⁹⁾ أنث لما كان بعض السيارة سيارة في المعنى.

ومن تأنيث المذكر في الشعر قول الشاعر:

أَتَهْجُرُ بَيْتاً بِالْحِجَازِ تَلَقَّعَتْ ** بِهِ الْخَوْفُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ⁽¹⁰⁾

(1) سورة الأنعام الآية (78).

(2) انظر: الخصائص 412/2.

(3) ديوان الحطيئة ص 120، والكتاب 565/3، والخصائص 414/2، والهمع 253/1.

(4) انظر: الخصائص، 414/2، وأما ابن الشجري 413/2، والإنصاف 174/1.

(5) انظر: الخصائص 415/2.

(6) سورة يوسف الآية (76).

(7) انظر: تفسير الثعلبي 396/3.

(8) سورة النساء الآية (8).

(9) سورة يوسف الآية (10).

(10) انظر: الخصائص 415/2، ولسان العرب (خوف).

يقصد بالخوف هنا المخافة. ومن ذلك أيضاً قول الآخر:

يا أيها الراكب المُرْجِي مطيَّتهُ ** سائل بني أسدٍ ما هذه الصوتُ⁽¹⁾

ذهب إلى تأنيث الاستغاثه:

وقد ورد تأنيث المذكر في النثر في غير القرآن، من ذلك ما حكاه الأصمعي عن أبي عمرو أنه سمع رجلاً من أهل اليمن يقول: فلان لغوب، جاءتته كتابي فاحتقرها. فقلت له: أتقول: جاءتته كتابي. فقال: نعم أليس بصحيفة. قلت: فما للغوب؟ قال: الأحمق⁽²⁾، ومن ذلك قولهم ما جاءت حاجتك؟ فما هنا هي الحاجة المقصودة⁽³⁾.

تناوب المفرد والمثنى والجمع:

وقع التناوب بين هذه الأجناس في القرآن وفي كلام العرب، فقد ينوب المفرد عن المثنى، وينوب المثنى عن الجمع، وينوب المثنى عن المفرد ولا تعني إنابة هذه الأجناس من الكلم عن بعضها أنها تحدث على غير نظام وقاعدة، بل إن ذلك يحدث لمقتضى يقتضيه السياق أو نكتة بلاغية، يقول سيبويه: "وسألت الخليل رحمه الله عن ما أحسن وجوهما؟ فقال لأن الاثنين جميعٌ وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذاك، لكنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون منفرداً وبين ما يكون شيئاً من شيء، وقد جعلوا المفردين أيضاً جميعاً"⁽⁴⁾.

الأصل في المثنى أن يدل على اثنين حقيقة، لكن قد يكون اللفظ ظاهره التثنية ومعناه الجمع، بشرط وجود قرينة، فيكون ملحقاً بالمثنى في إعرابه، وليس مثنى حقيقة لفقده شرط التثنية، وقد يكتفى من التثنية والجمع بالعطف أو التكرار كقول الفرزدق:

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلُهَا فُقْدَانُ مِثْلُ مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدٍ⁽⁵⁾

وقول الحكمي:

أَقْمَنَّا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ⁽⁶⁾

وكل هذا يدخل في باب الحمل على المعنى، وهو باب واسع في العربية.

(1) انظر: الخصائص 416/2، الحماسة بشرح الأعلام 164/1.

(2) انظر: الخصائص 416/2.

(3) انظر: الخصائص 415/2.

(4) الكتاب لسيبويه 48/2.

(5) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ص 190، والكامل 201/1، والهمع 129/2.

(6) ديوانه ص 295، وأمالى ابن الشجري 14/1، وأمالى الزجاجي ص 147.

ومن نيابة المفرد عن المثنى في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽¹⁾، وكانت القاعدة تقضي بأن يقول ينقونها، لكنه جاء بصيغة المفرد، لأنه أراد الزكاة⁽²⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾⁽³⁾، يعلل الثعلبي لذلك فيقول: (فإن قيل أخبر عن شيتين اثنتين ثم قال "لم يتسنه" ولم يتسنه، قيل لأن التغير راجع إلى أقرب اللفظين، واكتفى بذكر أحد المذكورين عن الآخر... ودليل هذا قراءة ابن مسعود (فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسنه)⁽⁴⁾.

ومنه في الشعر قوله:

أخو الذئب يعوى والغراب ومن يكن *** شريكه تطمع نفسه كل مطمع⁽⁵⁾
يقول ابن جني تعليقاً على هذا البيت: (أودع ضمير مَنْ في "يكن" على لفظ الأفراد وهو اسمها وجاء بشريكه خبراً ليكن على معنى التثنية فكأنه قال: وأي اثنين كانا شريكه طمعت أنفسهما كل مطمع)⁽⁶⁾.

ومن حمل المفرد على الجمع قوله تعالى: ﴿سَمَّيْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾⁽⁷⁾. قيل إن المراد بالدبر الأدبار، فأفرد والمراد الجمع، لتناسب رؤوس الآي.

وعن حمل المثنى على معنى المفرد يقول الفراء: (العرب تخاطب الواحد بفعل الاثنين، فيقال: أرحلها أرحلها يا غلام)⁽⁸⁾، وقد بوب ابن فارس لذلك في كتابه الصحاحي بعنوان (باب أمر الواحد بلفظ الاثنين) قال تقول العرب: (افعل ذلك، ويكون المخاطب واحداً)، ولعل من هذا

(1) سورة التوبة الآية (34).

(2) تفسير الثعلبي 398/3.

(3) سورة البقرة الآية (259).

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 301/4.

(5) انظر: الخصائص 423/2، والنوادر لأبي زيد ص 119.

(6) انظر: الخصائص 423/2.

(7) سورة القمر الآية (45).

(8) معاني القرآن، للفراء 114/3.

القبيل قول الشاعر: يا صاحبي، ويا خليلي، وذلك أن أدنى الرفقة إنما تكون ثلاثة نفر، فأجرى كلام الواحد على صاحبيه⁽¹⁾.

ومن هذا القبيل في القرآن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾⁽²⁾ أي تركا حوتهما، وكان النسيان من أحدهما وهو يوشع⁽³⁾. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾⁽⁴⁾، وإنما يخرجان من المالح لا العذب⁽⁵⁾. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾⁽⁶⁾ يقول الثعلبي: أراد به الزوج دون المرأة فذكرهما جميعاً لا قترانهما، كقوله (نسيا حوتهما) وإنما الناسي فتى موسى⁽⁷⁾.

ومن وروده في الشعر قول الشاعر:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَقَّانِ إِنِّ زَجِرٌ * وَإِنْ تَتْرَكَانِي أَحِمَّ عَرَضاً مُمْنَعاً⁽⁸⁾
وقد ينوب المفرد عن الجمع، يقول ابن فارس: (العرب تصف الجميع بصفة الواحد)⁽⁹⁾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾⁽¹⁰⁾ قال جنبا وهم جماعة ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾⁽¹¹⁾.

(1) الصاحبي، لابن فارس ص 363.

(2) سورة الكهف الآية (61).

(3) الصاحبي، في فقه اللغة ص 361.

(4) سورة الرحمن الآية (22).

(5) الصاحبي، في فقه اللغة ص 361.

(6) سورة البقرة الآية (229).

(7) تفسير الثعلبي 133/4.

(8) تأويل مشكل القرآن ص 225، الصاحبي ص 363، ولسان العرب (جزر) 184/7.

(9) الصاحبي، في فقه اللغة ص 351.

(10) سورة المائدة الآية (6).

(11) سورة التحريم الآية (4).

وربما وصفوا الواحد بلفظ الجميع، من ذلك قوله ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾⁽¹⁾، وإنما قال ملئهم بالجمع وفرعون واحد، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾⁽²⁾.

ومنه في الشعر قوله:

إِنْ يَشْتَجِرَ قَوْمٌ ثَقُلَ سَرَوَاتُهُمْ هُمْ ** بَيْنَنَا فَهَمْ رِضْوَهُ مُعْدَلُ⁽³⁾

ومنه قولهم: بُرْمَةٌ أَعْشَارٌ، وتعني (أعشار) مكسرة على عشر قطع.

وقد يُحمل الجمع على معنى المثنى، يقول ابن فارس في ذلك:

(ومن سنن العرب الإتيان بلفظ الجميع والمراد واحد واثنان)⁽⁴⁾.

من ذلك قوله تعالى: ﴿هَذَا نِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾⁽⁵⁾. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾⁽⁶⁾ وكان الذي نادى رجل واحد⁽⁷⁾.

خاتمة البحث:

حوت الصفات السابقة رصدًا وتفسيرًا لظاهرة التناوب والتعاقب في اللغة العربية،

ومن أهم ما وقف عليه البحث:

- إنَّ اللغة لا تسير وفق المنطق العقلي، بل تسير وفق منطق المتحدثين بها أي وفق العرف اللغوي المتوارث لمجموعة لغوية معينة، لذا من الحيف محاكمة اللغة إلى المنطق العقلي.

- تمثلت ظاهرة التناوب في التناوب بين حروف الصفات وبين المذكر والمؤنث، وبين المفرد والمثنى والجمع، وشمل ورودها القرآن الكريم وكلام العرب شعراً ونثراً.

(1) سورة يونس الآية (83).

(2) سورة الحاقة الآية (47).

(3) البيت في: الصاحبي ص 351 ومجاز القرآن 1/176، والمخصص 17/32.

(4) انظر الصاحبي في فقه اللغة ص 351

(5) سورة الحج الآية (19).

(6) سورة الحجرات الآية (4).

(7) تفسير الطبري 16/77.

- لم تكن ظاهرة التناوب والتعاقب محل تسليم بين علماء العربية، فقد منع البصريون تناوب حروف الصفات، مما اضطرهم إلى تأويل ما وقع فيه التناوب تأويلاً يقبله اللفظ، أو عدوه شاذاً.

- لا يعني نيابة كلمة عن أخرى أن هذا يعني أن ذلك يتم على غير نظام، بل إن ذلك يتم لمقتضى يقتضيه السياق، أو لنكتة بلاغية، وهو باب في الحمل على المعنى، وهو باب واسع في العربية.

المصادر والمراجع:

- 1/ الأهمية في علم الحروف، للهروي، تحقيق عبد المعين الملوحي، دار المعارف للطباعة - دمشق 1982 م.
- 2/ الأشباه والنظائر، للسيوطي، حيدرآباد، الدكن بالهند 1359 هـ.
- 3/ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1981 م.
- 4/ آمالي ابن الشجري، لابن الشجري، تحقيق محمود محمد الطناحي، مطبعة المدني - القاهرة 1992 م.
- 5/ البحر المحيط، لابي حيان الأندلسي، مطبعة السعادة/ القاهرة 1328 هـ.
- 6/ البرهان في علوم القرآن، للزركشي- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة 1958 م.
- 7/ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تفسير الثعلبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 2002 م.
- 8/ تيسيرات لغوية، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف - مصر - 1990 م.
- 9/ الجامع لإحكام القرآن، للقرطبي - دار الكتب - مصر - 1934 م - 1950 م.
- 10/ الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي - تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم - حلب 1973 م.
- 11/ الخصائص، لابن جني - تحقيق محمد علي النجار - القاهرة 1952 م - 1956 م.
- 12/ رصف المباني في حروف المعاني، للمالقي، تحقيق الدكتور أحمد الخراط - دمشق 1975 م.
- 13/ الصحابي في فقه اللغة، لابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر/ مطبعة عيسى الحلبي/ مصر 1977 م.
- 14/ فقه اللغة المقارن، للدكتور إبراهيم السامرائي - دار العلم للملايين - بيروت 1983 م.
- 15/ الكتاب، لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1977 م.
- 16/ الكشف، للزمخشري، مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة 1972 م.
- 17/ المحتسب، لابن جني، تحقيق علي النجدي وآخرين - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر 1386 هـ.
- 18/ المدخل إلى علم اللغة، للدكتور رمضان عبد التواب - مطبعة المدني 1985 م.
- 19/ معاني القرآن، للفراء، تحقيق محمد علي النجار - القاهرة 1955-1972 م.
- 20/ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام - تحقيق مازن المبارك - دار الفكر/ دمشق 1964 م.
- 21/ المفصل للزمخشري، مع شرح ابن يعيش عليه - عالم الكتب - بيروت.
- 22/ النحو الوافي، لعباس حسن، دار المعارف - مصر - 2005.

الروابط الاسمية وأثرها في سبك النص القرآني الرابط الضميري نموذجاً

د. عبد الفتاح فرح ضو*

ملخص البحث:

تناول هذا البحث الروابط الاسمية وأثرها في سبك النص القرآني، واتخذ البحث الضمير نموذجاً لذلك، وقد جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة، ومن خلال البحث تبين لنا أن الأصل في الربط النصي في القرآن الكريم يكون بالضمير، وقد يكون هذا الضمير بارزاً أو مستتراً. والربط بالضمير يكون في عناصر الجملة الداخلية، أو بين الجملة وما يجاورها من جمل، وتبين لنا كذلك أن الجمل التي كانت في حاجة إلى رابط يربطها هي جمل صغرى في الأساس، ولمعظمها موقع من الإعراب كجملة الخبر، وجملة الحال، وجملة الصفة، وجملة الشرط وجوابه، أما جملة الصلة والجملة التفسيرية فهاتان ليس لهما موقع من الإعراب، فالضمير فيهما لإزالة الإبهام فيما قبلهما. كما نجد الضمير رابطاً في بدل البعض من كل، وبدل الاشتمال، ومعمول الصفة المشبهة، وألفاظ التوكيد المعنوي.

Search Abstract

This research dealt with the nominal links and their impact on the founding of the Qur'anic text. The research took conscience as a model for this. The research came in an introduction, two researchers and a conclusion. And linking conscience is in the elements of the inner sentence, or between the sentence and the adjacent sentences, and we also show that the sentences that needed to link the link is a small sentence in the basis, and most of the site of expression such as news sentence, sentence case, adjective sentence, and sentence condition His answer, as for the sentence and the explanatory sentence Vaptan have no position of expression, the conscience to remove the thumb before them. We also find a conscience link in the allowance of some of each, and the inclusion of, and the characteristic of suspicious, and the words of moral affirmation.

* أستاذ النحو المشارك بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد:
فقد بحث قدماء علماء اللغة العربية في عوامل الترابط النصي، وفي الروابط التي تحقق العلاقات النحوية بين الألفاظ والجمل والإعراب، وبحثوا كذلك في الروابط اللفظية، والروابط الدلالية بين الألفاظ والجمل، ووقفوا على الجوانب النحوية التي تحكم الجمل وترتيب الألفاظ فيها، والتراكيب التي تحقق المعنى المفيد.
والعلماء في مسيرتهم البحثية تلك دعوا إلى انسجام الأصوات داخل الكلمة الواحدة، فعابوا تنافر الحروف، كما دعوا أيضا إلى انسجام الكلمات مع غيرها، فعابوا تفكك التراكيب وعدم اتساقها،

وقد سعى العلماء إلى تأكيد الانسجام والاتساق بين الألفاظ والجمل وهو ما يعرف بـ(السبك) والسبك هو: تلك العملية التي تقوم على الانسجام الصوتي في بنية الكلمة الواحدة، وانسجام الكلمة مع ما جاورها من كلمات، لتكوّن نصاً مفهوماً، فبانسجام الكلمات تلتحم الألفاظ، وتجرى على اللسان سهلة ميسرة، والاتساق والتماسك بين أجزاء النص على مستوى الألفاظ يسمى الاتساق اللفظي، الذي يكون أساساً في العناصر اللغوية التي تربط بنية الجمل المكوّنة للنص، والعناصر اللغوية الرابطة لجمل النص كثيرة ومتعددة، منها الاسمية والحرفية، ومنها اللفظية والمعنوية، والعناصر اللفظية الرابطة متعددة منها: الضمائر، أسماء الإشارة، وحروف العطف وغيرها.

ولما كانت الضمائر من أهم العناصر اللفظية التي تمثل رابطاً بين أجزاء النص القرآني، ذاك النص المعجز في لفظه، وفي معناه، وفي بيانه، قامت هذه الدراسة لتكشف أثر الرابط الضميري في سبك النص القرآني، وقد جاءت الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المبحث الأول: السبك النصي والروابط اللفظية.

المبحث الثاني: الرابط الضميري وأثره في سبك النص القرآني.

الخاتمة: وقد شملت خلاصة البحث ونتائجه.

أهمية البحث:

تأتي أهمية هذا البحث في كونه يبحث أثر الرابط الضميري في سبك نص متعبد بتلاوته، نص لم يحرف ولم يبدل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبذلك فهو نص

مقدس يستحق دراسة مكوناته من ألفاظ وجمل عليها تكون شواهد ومرجعيات يحذو الكتاب حذوها.

أهداف البحث:

- 1- بيان أهمية الروابط اللفظية الاسمية في العربية بعامة.
- 2- الكشف عن أثر الرابط الضميري في سبك النص القرآني.

الكلمات المفتاحية:

النص _ سبك _ الروابط _ النص القرآني

المبحث الأول

السبك النصي والروابط اللفظية

إذا بحثنا عن الدراسات النصية في أعمال النحاة العرب القدماء نجد أنهم قد قصّروا لحد ما في معالجة النصوص العربية معالجة تامة تكشف عن العلاقات التي تربط بين أجزاء النص الواحد، وهم بذلك لم يتجاوزوا الجملة إلى العلاقات التي تربط الجملة بالسياق الكلي للنص، مع أن الجملة تعد اللبنة الأولى في النص المتكامل، وهم في سعيهم ذاك تركوا عن قصد التعامل مع النص المتكامل لعلماء البلاغة الذين تجاوزوا العلاقة بين أجزاء الجملة إلى العلاقات النصية التي تجمع بين الجمل في نص واحد، ونجد ذلك جلياً عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) ذلك الكتاب الذي عالج فيه النصوص معالجة نحوية، وجعل الوظائف النحوية هدفه في تحليل النصوص على عكس ما سطره في كتابه (أسرار البلاغة) الذي كان كتاباً بلاغياً صرفاً؛ لذا نجد أن علماء البلاغة من بعده قد حذوا حذوه في (أسرار البلاغة)، وترفعوا عن مجازاة ما ورد في (دلائل الإعجاز)، لأنه كان في مفهومهم أقرب إلى الدراسات النحوية منه إلى البلاغية.

ومعلوم أن النص العربي في مجمله هو مجموعة من التراكيب والإشارات الاتصالية التي ترد في تفاعل تواصلي⁽¹⁾، والأسلوب العربي بعامة يتميز بقوة العلاقة بين جملته، والترابط بين أجزائه، فالترابط يحدد أبعاد المعنى، ويرفع منه كل لبس وإبهام؛ لذا كانت الحاجة إلى دراسة نحوية تجمع بين علم اللغة الجملي وعلم الاتصال، ومن هنا ظهر ما يعرف بنحو الجملة الذي يراد به المفهوم الشائع للنحو، كما ظهر نحو النص، وهو النحو الذي يدرس النص في ضوء وحدته اللغوية الكبرى، فيحلل الجمل في إطار علاقتها بما يجاورها، والكلمة وعلاقتها بأختها، كما يدرس

(1) مدخل إلى علم اللغة النصي ص 7

التشابه بين الجمل، ويدرس الوظيفة الدلالية للعناصر النحوية ويربطها بمضمون النص الكلي⁽¹⁾

ومضمون النص الكلي يعني التماسك أو الترابط بين أجزاء النص، والتماسك النصي نوعان: أ- تماسك نصي شكلي:

وهذا غالباً ما يكون بالألفاظ التي تحقق الترابط بين أجزاء النص كتكرار اللفظ، والضمير، واسم الإشارة، وأسماء الشرط التي كانت في أصلها تدل على الاسم الموصول مثل: (من وما)، وهذا يسمى في العربية بالسبك اللفظي، وروابطه نوعان:

1-روابط حرفية: كحروف العطف، وحروف الجر، وحروف الشرط.

2-روابط اسمية: كالضمائر، وأسماء الإشارة، وأسماء الشرط.

ويضيف بعضهم نوعاً ثالثاً وهو ما اختلف فيه بين الاسمية والحرفية نحو: إذ وإذا، ولو، ولولا⁽²⁾

ب- تماسك نصي معنوي:

وهذا غالباً ما يكون في الاتساق المعنوي بين الكلمة وما جاورها، وبين الجملة وأختها، وبين أجزاء النص الكلي. والبحث في هذا من اختصاص علماء المعاني.

وقد ذكرنا السبك أكثر من مرة فما حقيقة مراده؟ السبك بين الألفاظ يعني انسجامها قال أبو الإصبع المصري عن الانسجام: "هو أن يأتي الكلام منحدرًا كتحدّر الماء المنسجم، بسهولة سبك، وعدوبة لفظ، وسلامة تأليف حتى يكون لجملة من المنثور، وبيت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره"⁽³⁾ وقيل عن اطراد الألفاظ "وهو أن تأتي منسوقة صحيحة التسلسل غير منقطعة، من غير ظهور كلفة على النظم، ولا تعسف في السبك بحيث يشبه تحدّرها باطراد الماء لسهولة وانسجامه"⁽⁴⁾، وقال أسامة بن منقذ "خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض"⁽⁵⁾ وإلى هذا ذهب الجرجاني بقوله "معلوم أن ليس

(1) نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب مصطفى النحاس. ص4

(2) تحليل النص دراسة الروابط النصية لمحمود عكاشة 218

(3) تحرير التعبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن لأبي الإصبع 352/2

(4) الإيضاح للقزويني 534

(5) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ 163.

النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض⁽¹⁾ وعنده أن ترتيب الألفاظ يكون مقيداً بوظائفها النحوية، فالمتكلم يتوخى معاني النحو في نظم اللفظ⁽²⁾. ولو رجعنا لمفهوم السبك عند المحدثين لوجدناه يعني عندهم التماسك أو الترابط اللفظي على سطح النص من خلال وسائل لغوية تربط بين أجزاء الكلام، فيتحقق التلاحم النصي. وهناك مصطلح آخر له علاقة بمصطلح السبك وهو مصطلح الحبك، ويراد به الالتحام بين أجزاء الخطاب. وجاء في معناه الاتصال والامتزاج والالتئام والالتحاق والتلاحق والاتساق⁽³⁾. وعندي أن السبك أمر شكلي يكون في اللفظ، بينما الحبك أمر معنوي يكون في المعنى. ويراد به الترابط الدلالي بين الألفاظ والجمل.

ولتحقيق مفهوم السبك لا بد من وجود ترابط يحدد أبعاد المعنى، ويرفع الالتباس؛ لأن الربط قائم بين جزء من الجملة الاسمية أو الفعلية، أو الجمل الأخرى بأنواعها المختلفة من شرطية وحالية وصلة وصفة وهذه لا بد من وجود ما يربطها بسابقتها، ويربط داخلها بيت ألفاظها برابط يحقق الانسجام اللفظي والمعنوي للجملة.

وقد شهد التركيب اللغوي في لغة العرب أنواعاً أخرى من الروابط غير التي ذكرناها، فقد وقع الربط في العربية بالاسم الظاهر وبالصيغة وبالعموم.

والربط في الأساليب العربية ليس محصوراً في الروابط اللفظية الحرفية منها والاسمية، فإذا نظرنا في الشعر العربي نجد أن الشعراء العرب قد بنوا قصائدهم بناءً محكماً مرتبطاً ببعضه ببعض محكوماً بعاطفة جياشة ممزوجة بفكرة واضحة، مما يدل على أن الشعراء العرب كانوا يهتمون بالترابط في القصيدة الواحدة بعلاقة التوكيد، أو التعليل، أو الإجابة عن تساؤلات محددة أو غير ذلك، ونجد ذلك جلياً في قول أحدهم للآخر: "أنا أشعر منك. فقيل: وكيف؟، قال: لأني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمه"⁽⁴⁾.

(1) دلائل الإعجاز 55.

(2) دلائل الإعجاز 51.

(3) الصناعتين للعسكري 142-142.

(4) الربط وأثره في التراكيب اللغوية 137.

المبحث الثاني

الرابط الضميري وأثره في سبك النص القرآني

تُعرف الجملة العربية بأنها لفظ مركب أفاد أو لم يفد، والمقصود بالتركيب هنا التركيب الإسنادي دون غيره من أنواع المركبات، ومعنى هذا القول إن الجملة العربية تتركب من مسند ومسند إليه، وهي نوعان جملة كبرى وجملة صغرى، والجملة الصغرى هي في حاجة دائمة إلى رابط يربط بينها وبين المسند إليه الموجود في الجملة الكبرى، وقد كثر دوران الضمير في اللغة العربية رابطاً بين الجمل، وذلك لكونه الرابط الأصل والأساس، وهو المعول عليه في الربط بين الجمل الصغرى والجمل الكبرى. وقبل الدخول إلى موضوع الرابط الضميري نقف يسيراً مع تعريف الضمير.

الضمير لغة:

الضمير هو: الشيء الذي تضمه في قلبك، تقول: أضمرت صرف الحرف إذا كان متحركاً فأسكنته، وأضمرت في نفسي شيئاً، والاسم الضمير، والجمع الضمائر⁽¹⁾.

الضمير في الاصطلاح:

والضمير في الاصطلاح يقال له المضمّر والضمير وهما مصطلحان بصريان، والكوفي يسميه كناية ومكنياً؛ لأنه ليس بصريح والكناية تقابل الصريح، وهو لما وضع لمتكلم ك (أنا)، أو المخاطب ك (أنت)، أو الغائب ك (هو)، أو لمخاطب تارة ولغائب أخرى، هو: الألف ك (قوما وقاما) والواو نحو (قوموا وقاموا) والنون في نحو (قمن)⁽²⁾.

والأصل في الضمير الإضمار وهذا مفهوم من تسميته فالمتكلم يضم ما سبق ذكر لفظه، فيقدر ما يغني عنه في اللفظ مثل العائد على مفرد مذكر أو أنثى، وقد يبرز في اللفظ فلا يضم للدلالة على عدده مثل إظهار ضمير المثني والجمع، فلا يعاد ذكر الاسم السابق المتقدم، فيغني الضمير عن الاسم اختصاراً، ويغني عن الاسم إيجازاً؛ لأنك تستغني عن الاسم بالقليل من الحروف. والأصل في الضمير أن يدل على متقدم في اللفظ؛ لأن المتقدم يفسر المتأخر، وقد يدل على متأخر لعل لفظية أو معنوية.

(1) لسان العرب مادة: ضمير 60/9

(2) النحو العربي أبوابه ومسائله محمود الدريني 82

والضمير واحد من روابط متعددة في الجملة العربية، بل من أهمها فهو أصل الربط؛ لذا نجده يربط به مذكوراً كقولنا (زيد ضربته)، ومحذوفاً مرفوعاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاجِرَانِ﴾ سورة طه الآية 63.

بتقدير لهما ساحران، ومنصوباً كقراءة ابن عامر⁽¹⁾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ الحديد الآية 10. أي وعده وذلك برفع (كل) على أنها مبتدأ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره (أولئك)، وربط بالضمير محذوفاً مجروراً في قولهم: (السمن منوان بدرهم) أي: منه.

والضمير كما ذكرنا هو أقوى عناصر الربط النصي لتعذر الاستغناء عنه إلا بدليل يدل عليه؛ لذا نجده سيد الموقف في الربط بين الجمل الصغرى والجمل الكبرى، والجمل الصغرى هذه نجدها تقع في مواضع نحوية كثيرة وأهم هذه المواضع في القرآن الكريم ما يلي:

الموضع الأول: جملة الخبر:

جملة الخبر هي جملة مكملة للمبتدأ (المسند إليه)، أو ما أصله المبتدأ، وهي قد تكون اسمية أو فعلية، أو شرطية، وهي في أساسها جملة صغرى تحتاج إلى رابط يربطها بالمسند إليه، أي هي في حاجة إلى ضمير يعود على المبتدأ لئلا تقع جملة الخبر جملة أجنبية عن المبتدأ، وقد جاء ذلك في كثير من آية القرآن الكريم ففي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ الأنفال: 67 فلفظ الجلالة في الآية مبتدأ والفعل (يريد) فعل مضارع فاعله ضمير مستتر فيه تقديره (هو) يعود على لفظ الجلالة، وقد ربط بين المبتدأ والخبر، وعلى شاكلة هذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية التي جاء خبرها جملة فعلية، ربط الضمير فيها بين المسند والمسند إليه، ولولا هذا الضمير لجاءت جملة الخبر أجنبية عن المبتدأ، فأحدث الضمير ربطاً معنوياً بين المبتدأ والخبر، وقد تكون جملة الخبر جملة اسمية وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يس الآية: 12.

فنجد هنا أن ما أصله المبتدأ أي: اسم (إنّ) جاء ضميراً خبره جملة اسمية وفق الإعراب الآتي: (إنّ) حرف مشبه بالفعل واسمه الضمير (نات)، و(نحن) ضمير مبني في محل رفع مبتدأ، و(نحي الموتى) جملة من فعل وفاعل ومفعول في محل رفع خبر المبتدأ (نحن)، والجملة الاسمية (نحن نحي الموتى) في محل نصب خبر (إنّ)، ويرى بعضهم أن الضمير (نحن) توكيد للضمير (نا)، بذا يكون الخبر الجملة الفعلية (نحي)، والأول عندي أجود كما قال صاحب الجدول؛ لكون الضمير

(1) مغني اللبيب 647

(نحن) ضمير رفع و(نا) محلها النصب إلا إذا استعير الضمير (نحن) للنصب.⁽¹⁾ وقد يكون المبتدأ اسم شرط وخبره جملة فعلية كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ النساء: ٨٠. ففي هذه الآية نجد أن المبتدأ قد جاء اسم شرط، ومعلوم أن هناك خلافاً بين النحويين في الخبر مع هكذا مبتدأ: هل الخبر فعل الشرط، أم الجواب الشرط، أم هما معاً؟ وهذا الخلاف لا يؤثر في حاجة جملة الخبر إلى رابط، وفي الآية الكريمة نجد أن فعل الشرط وجوابه (يطع وأطاع) قد اشتملا على ضمير رابط تقديره (هو) يعود على المبتدأ، وهذا الضمير ساعد في سبك الآية لفظياً، وحبكها معنوياً فلولاه لاختل المعنى. وقريباً من هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف: 132.

ففي هذه الآية نجد الضمير الرابط الهاء في قوله (به)، ولو حذفنا هذا الضمير لانفصلت الآية إلى جزأين غير متصلين في المعنى، وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة: 115. فنجد هنا أن ضمير الفاعل في فعل الشرط (يكفر) يعود على المبتدأ (من)، وضمير المفعول به في قوله (أعذبه) يعود كذلك على المبتدأ، وبالضمير حصل الربط بين المبتدأ وجملة الخبر فاستقام المعنى وبان المراد.

وقد تقع جملة الخبر شبه جملة (ظرفاً أو جاراً ومجروراً)، وفي هذه الحالة لا بد أن يتعلقا بمحذوف وجوباً، وقال بعضهم الخبر هو الظرف والجار والمجرور وحدهما، وقيل هما ومتعلقهما والمتعلق جزء من الخبر واختاره الرضي⁽²⁾ وذكر ابن هشام: أن الخبر هو المتعلق واختلف في التقدير فقال الأخفش والفارسي والزمخشري (التقدير كان أو استقر)، والصحيح عند جمهور البصريين أن تقديره (كائن)، وعلى هذا القول بأن لهما متعلقاً تقديره (كائن) أو (كان) فإن الظرف أو الجار والمجرور بهما رابط يربطهما بالمبتدأ وسواء أكان الضمير مستكنّاً في المتعلق أو انتقل إلى الظرف فالرابط موجود⁽³⁾ ومثال الظرف قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ يس: 19 ف(طائركم) طائر مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة، وهو مضاف و الكاف ضمير مبني في محل جر مضاف إليه، والميم علامة الجمع، و(معكم) مع ظرف منصوب متعلق

(1) انظر الجدول في إعراب القرآن 294/11

(2) الربط وأثره في التراكيب العربية 139/1

(3) انظر المرجع السابق 139/1

بمحذوف تقدير (كائن أو يكون) خبر المبتدأ (طائركم) وفي المتعلق به المحذوف ضمير مستتر تقديره (هو) يربط المبتدأ بالخبر. وأمّا مثال الجار والمجرور نجده في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: يس الآية: 17.

ف(ما) نافية، و(علينا) جار ومجرور متعلقان بمحذوف تقديره (مستقر أو كائن) خبر مقدم، و(البلاغ) مبتدأ مؤخر مرفوع، وفي المتعلق به ضمير مستتر يربط المبتدأ بالخبر، ولولا هذا الضمير المقدر لاختل المعنى ووقع الإبهام.

ومع إدراكنا التام لأهمية الضمير الرابط لجملة الخبر نتساءل: هل يجوز حذف هذا الضمير؟ في قضية حذف الضمير الرابط بين المبتدأ وجملة الخبر وقع خلاف كبير بين النحاة، ولكن سيبيوه - رحمه الله - ذهب إلى أنه لا يجوز حذف الضمير الرابط مطلقاً، ولكن بالتحقيق إن كانت جملة الخبر هي ذات المبتدأ في المعنى فالغالب أنها لا تحتاج إلى رابط، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: 1 فإذا أعربنا (هو) فهو مبتدأ و(الله أحد) جملة اسمية هي خبر المبتدأ، وهي عين المبتدأ في المعنى؛ لأنها مفسّرة والمفسّر عين المفسّر⁽¹⁾، والجملة إذا كانت نفس المبتدأ في المعنى فهي بمثابة المفرد⁽²⁾ والمفرد لا يحتاج إلى رابط وهي بالطبع كذلك، وهذا ما أشار إليه الصبان في حاشيته بقوله: "إذا كانت الجملة الخبرية نفس المبتدأ في المعنى اكتفي بها عن الربط، والمعنى أنه لا ضمير فيها؛ لأنه مستغنى عنه"⁽³⁾

الموضع الثاني: جملة الحال:

الأصل في الحال أن يكون مفرداً، ولكنه قد يأتي جملة، أو شبه جملة، وهنا لابد أن تؤول بمفرد مناسب، وجملة الحال في الأساس تتكون من مسند ومسند إليه سواء أكانت اسمية أم فعلية، والجملة التي تقع حالاً لابد لها من رابط يربط بين جزأها المسند والمسند إليه، وفي الأصل تربط بالضمير، وقد تربط بالواو، وقد تربط بهما معاً، وفي بحثنا هذا سنتناول الجمل التي يتعين ربطها بالضمير فقط، وذلك يكون في المواضع الآتية:

1- الجملة المؤكدة لمضمون جملة سابقة: وذلك كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ سورة البقرة الآية: 2.

(1) التصريح على التوضيح 202/1

(2) انظر شرح الكافية الشافية 343/1

(3) حاشية الصبان 197/1

فجملته (لا ريب فيه) حالية جاءت مؤكدة لمضمون الجملة التي قبلها، وهي (ذلك الكتاب) والرباط في جملة الحال هذه الضمير المتصل بحرف الجر (في)، والربط بالضمير هنا أفاد السبب.

2- الجملة الفعلية المصدرة بـ (إلا)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الحجر الآية: 11.

فجملته (كانوا به يستهزئون) حال من الضمير (هم) في جملة (يأتيمهم)، وقد ربط الضمير الجملة بصاحب الحال.

3- الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع غير المقترن بـ (قد)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ سورة المدثر الآية: 6.

جملة (تستكبر) وقعت حالا من فاعل الفعل (تمنن)، وقد ربطت بالضمير المستتر (أنت)، ولم تربط بالواو، لأن الفعل المضارع يشبه اسم الفاعل في الوزن والمعنى، والواو لا تدخل اسم الفاعل، فكذا لا تدخل شبيهه.

4- أن تكون جملة الحال بعد عاطف، وذلك نجده في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ سورة الأعراف: 4.

فـ (بياتاً) مصدر وقع موقع الحال بمعنى (بائتين) وقوله: (وهم قائلون) جملة حالية معطوفة على (بياتاً) وربطت بالضمير (هم)، فكأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين من القيلولة⁽¹⁾ وعند المحققين أن الجملة الحالية إذا عطفت بأداة عطف حذفت منها أداة العطف لاستثقال تكرار أدوات العطف، ولكن الحق الذي لا شك فيه أنه إذا عطفت الجملة الحالية على حال بأداة عطف تحذف منها واو الحال وليس أداة العطف؛ لأن واو الحال تشبه أداة العطف، فيستثقل إثباتها مع أداة العطف⁽²⁾، وحينئذ يكون الضمير هو الرابط؛ لأن الربط بالضمير في الجملة الحالية يغني تماماً عن الربط بالواو.

5- أن تكون الجملة الفعلية فعلها مضارع منفي بـ (لا) وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ المائدة: 84.

وقوله تعالى: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ﴾ النمل: 20.

(¹) انظر الكشف للزمخشري 87/2 وانظر الدر المصون 252/5

(²) التصريح 611/1

ففي الآية الأولى جملة (نؤمن بالله) حال من الضمير المجرور باللام (نا)، ولم تقتزن بالواو؛ لأن المضارع المنفي بـ (لا) بمنزلة اسم الفاعل المضاف إليه (غير) فأجري مجراه، ألا ترى أن معناه ما لنا غير مؤمنين، فلما لا يقال ما لنا وغير مؤمنين (هكذا بإثبات الواو)، لا يقال ما لنا ولا نؤمن، و(لا نؤمن) جملة حالية رُبِطت بالضمير في (نؤمن) والتقدير غير مؤمنين⁽¹⁾.

وقد تقع الحال شبه جملة كالخبر والصفة تماماً، وحينئذ لا بد من رابط يربط شبه الجملة بصاحب الحال، ونجد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ القصص: 79.

الجار والمجرور (في زينته) في موقع حال من فاعل الفعل (خرج) العائد على قارون، والهاء ضمير رابط بين الحال وصاحب الحال، ومعلوم أن الظرف والجار والمجرور إذا وقعا حالين يتعلقان بمحذوف تقديره (مستقراً)⁽²⁾.

ثالثاً: جملة النعت (الصفة):

النعت هو التابع الذي يكمل متبوعة (المنعوت) بصفة من صفاته، أو من صفات اسم آخر له صلة بالمنعوت، وتنعت النكرة أو توصف في الأسلوب العربي دائماً بجملة مكونة من فعل وفاعل⁽³⁾، أو مبتدأ وخبر، أو مكونة من شرط وجزاء، كما توصف بالظرف أو الجار والمجرور، وهذه الصفات تحتاج إلى ضمير يربط الصفة بالموصوف، ليحصل بهذا الربط اتصاف الموصوف بالصفة ويتحقق بذلك التخصيص أو التعريف المطلوب.

والرابط قد يكون ملفوظاً، وقد يكون ملحوظاً محذوفاً أو مقدراً، ومثال الرابط المذكور قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة: 281.

فنجد أن جملة الصفة (ترجعون فيه) قد اشتملت على ضمير يعود على المنعوت (يومًا) وهو مذكور في كلمة (فيه).

أما مثال الضمير المحذوف أو المقدر فنجده في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ البقرة: 48.

(1) انظر البحر المحيط 347/4

(2) التصريح 608/1

(3) شرح المفصل 341/2

وتقدير القول: أي: لا تجزي فيه، وهنا نشب خلاف في المحذوف هل حذف الجار والمجرور معاً، أو حذف حرف الجر وحده، فانتصب الضمير، واتصل بالفعل، ثم حذف منصوباً؟ فالقول الأول عن سيبويه، والقول الثاني عن الأخفش.⁽¹⁾

وما ذكر آنفاً كان في شأن النعت الحقيقي، أما النعت السببي الذي يكمل منعوته بصفة من صفات اسم آخر له صلة بالمنعوت، أو هو كما قال محمد عيد "ما اتجه فيه النعت من المعنى لوصف اسم ظاهر بعده ... واتجه من حيث اللفظ إلى المتبوع السابق عليه (المنعوت) ووجدت الصلة بين المنعوت المتقدم والموصوف المتأخر بضمير يحمله الاسم اللاحق"⁽²⁾

ونجد الضمير رابطاً في النعت السببي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ النساء: 75.

فالنعت هو كلمة (الظالم)، والاسم السابق لها (القرية)، والاسم اللاحق (أهلها) والرابط بينهما الضمير (الهاء) المتصل بالاسم اللاحق (أهلها) ..

وكما في الخبر والحال قد يكون النعت (الصفة) شبه جملة مكونة من الظرف أو الجار

والمجرور التامين، ونجد مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الأنعام: 7

فالجار والمجرور (في قِرطاس) متعلقان بمحذوف تقديره (كائن أو كان)، وفي المحذوف المقدر ضمير مستتر يعود على (الكتاب)، ونجد أن الجار والمجرور قد خصصا الكتاب، وضيقا دائرة عمومهما فهما في موضع الصفة لمجيئهما بعد نكرة.

جملة الصلة:

لكل موصول صلة، ويقصد بالصلة: ما اتصل بالموصول مباشرة دون فاصل بينهما ليوضح به المتكلم المراد من الموصول. والموصولات نوعان: اسمية وحرفية. وتتميز الموصولات الاسمية عن الموصولات الحرفية بأن الموصولات الاسمية لا بد في صلتها من كائن يعود إلى الموصول ليحصل به الربط والسبك بين الموصول وصلته، فجملة الصلة مع عائدها يوضحان مفهوم الاسم الموصول.

(1) التصريح 116/2، وانظر مغني اللبيب 653

(2) النحو المصنف 576

والجملة التي تقع صلة لابد أن تتوافر فيها شروط كأن تكون خبرية، وأن تكون خالية من التعجب، وألا تكون مفتقرة لكلام قبلها، وأن تشتمل على ضمير يعود على الاسم الموصول⁽¹⁾، فالارتباط بين الاسم الموصول والصلة لا يتحقق إلا بهذا الضمير، وبدون هذا الضمير تنفك العلاقة بين الموصول وصلته، فلا يتبين المعنى الذي يُهدف إليه منهما.

والاسم الموصول في دلالة ينقسم إلى: اسم موصول خاص وهو ثمانية أسماء: الذي والذي، واللذان واللتان، والذين، واللاتي واللائي، والألى، واسم موصول مشترك وألفاظه أشهرها: من، وما، وأل، وذو وذات، وذا، وأي.

وفي الاسم الموصول الخاص نجد الضمير الرابط مطابقاً للاسم الموصول في الإفراد والتثنية والجمع، وفي التذكير والتأنيث، ومثال ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ فصلت: 29.

فجملة (أضلانا) هي صلة الموصول (الذين)، والاسم الموصول قد جاء مثنى، والرباط بينهما (ألف الاثنين)، وهو مطابق للاسم الموصول في التثنية والتذكير، وهذا شأن كل الروابط الضميرية في الاسم الموصول الخاص، تكون مطابقة للاسم الموصول ورابطة للمعنى والسياق. أما في الاسم الموصول المشترك فأمر مطابقة الضمير للاسم الموصول فيه وجهان:

الأول: مراعاة لفظ الاسم الموصول في الإفراد مع الجمع، وهذا الشائع والأكثر في العربية، ومثاله في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ سَوَّجَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ الأنعام: 25. فصلة الموصول جملة (يستمع)، وفي هذه الجملة ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على الاسم الموصول (من)، ونجد الضمير قد وافق الاسم الموصول في لفظ الإفراد. وشبهاً بهذا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ يونس: 43.

فصلة الموصول في الآية يمكن أن توجه ذات التوجيه بالفعل (ينظر) يحمل ضميراً يعود على الاسم الموصول (من)، وقد وافقه في لفظ الإفراد.

الثاني: مراعاة معنى الاسم الموصول: وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ يونس: 42.

(1) انظر التكملة والتسهيل لشرح ابن عقيل 125/1

فالصلة هي جملة (يستمعون)، والضمير فيها عائد على معنى (من) وليس على لفظها، ومن مراعاة المعنى كذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ الأنبياء: 82 فالصلة جملة (يغوصون)، والضمير فيها عاد على معنى الجمع في (من).

وقد يجتمع الوجهان كما في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: 8.

ففي هذه الآية نجد أن الصلة قد طالت وهي (يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) والاسم الموصول المشترك هو (من)، ونجد في الصلة ضميرين الأول منهما جاء مفرداً باعتبار اللفظ وهو الضمير المستتر في قوله (يقول)، وجاء الضمير الثاني جمعاً باعتبار المعنى في قوله (ما هم بمؤمنين)، وكذا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ النساء: 13.

فنجد أنه قد أفرد الضمير في (يطع) و(يدخله)، وجمع الوصف الواقع حالاً من الضمير في الفعل يدخله (خالدين) باعتبار المعنى.⁽¹⁾

وقد يكون الاعتبار باللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لقمان: 6

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لقمان: 7.

ففي هاتين الآيتين المعنى يكمل بعضه بعضاً وبين الآيتين ترابط وثيق في السياق، فنجد أنه قد أفرد الضمير المستتر في الفعل (يشترى) أي: هو، ثم قال (أولئك لهم عذاب مهين) فجمع اسم الإشارة، ثم قال (وإذا تلى عليه آياتنا) فأفرد الضمير مرة أخرى. فانتقل من مراعاة اللفظ، إلى مراعاة للمعنى، ثم إلى مراعاة للفظ مرة أخرى.

(1) معنى اللبيب 655

والضمير الرابط في جملة الصلة يمكن أن يخلفه الاسم الظاهر وهذا قليل، وذلك ما ذهب إليه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ الأنعام: 1

ولكون العطف بـ(ثم) على الجملة الفعلية ضعيف فإنه يلزمه أن يكون من هذا القليل، فيكون الأصل (كفروا به) بدلاً من (كفروا برهيم)⁽¹⁾، وهنا قد أناب الاسم الظاهر عن الضمير، وإنابة الاسم عن المضممر يكون لكون الجملتين كالجملتين الواحدة، وبهذه الإنابة يتحقق الربط القوي بينهما. وكما في جملة الخبر وجملة الحال، وجملة الصفة، يمكن أن تكون الصلة شبه جملة، وحينها يكون متعلق الظرف أو الجار والمجرور المحذوف مقدراً. (استقر)⁽²⁾ والعائد ضمير مطابق متعلق بالاسم الموصول. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 96.

فنجد أن الصلة هي (ببكة)، جار ومجرور متعلقان بمحذوف تقديره (استقر) صلة الموصول (الذي) ومن الموصولات أيضاً (أل) الموصولة، و(أل) هذه لا بد أن تكون صلتها صفة صريحة خالصة للوصفية كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة وغيرها، وهذه الصلة في حقيقتها هي اسم في اللفظ وفعل في المعنى، ومن ثم حسن عطف الفعل عليها ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ العاديات: 3. وكذا قوله: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ الحديد: 18.

ففي الآية نجد أن (أل) الموصولة جاء عاندها باعتبار المعنى جمعاً مع الجمع، ومفرداً مع المفرد، مؤنثاً مع المؤنث، ومذكراً مع المذكر. والضمير الرابط في جملة الصلة يعرب على حسب موقعه في جملة الصلة، كما يجب ذكره إذا لم يصلح الباقي بعد حذفه لأن يكون صلة سواء أكان ضمير رفع، أم نصب، أم جر، كما يجوز حذفه إن لم يقع بحذفه التباس في كل المواقع الإعرابية كما يلي:

1- في الرفع: يجوز حذف العائد المرفوع إذا كان مبتدأ، وكان خبره مفرداً، بشرط طول الصلة، وجاء ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ الزخرف: 84.

(1) انظر الكشف للزمخشري 4/2، وانظر البحر المحيط 430/4

(2) همع الهوامع للسيوطي 340/1

والتقدير (وهو الذي هو في السماء إله)، أما إذا لم تطل الصلة فالحذف قليل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ الأنعام: 154 وذلك في قراءة الرفع، والتقدير (هو أحسن)⁽¹⁾، فالصلة لم تطل، ومع ذلك وقع الحذف وهو قليل.

أما الضمير المبتدأ مع (أي) الموصولة فيحذف وإن لم تطل الصلة، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ مريم: 69 فنجد (أي) هنا قد بُنيت؛ لأنها مضافة وحذف صدر صلتها ونقصد بصدر صلتها الضمير (المبتدأ)، والتقدير (أيهم هو أشد)

2- في النصب: يجوز حذف العائد المنصوب بشرطين: أولهما أن يكون العائد ضميراً متصلاً، وثانيهما أن يكون منصوباً بفعل تام، أو وصف المنصوب بالفعل التام، وقد جاء حذف العائد المنصوب في القرآن في مواطن منها قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ المدثر: 11. أي: خلقته (فحذف الضمير الهاء)، وكذا قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ لفرقان: 41. أي: بعثه الله رسولاً فقد حذف الضمير العائد المنصوب في الآيتين الكريمتين؛ وذلك لدلالة المعنى عليه.

3- في الجر: والجر قد يكون بالإضافة وقد يكون بالحرف، أما في حالة الجر بالإضافة فلا يحذف العائد المجرور إلا إذا كان مجروراً بإضافة اسم فاعل بمعنى الحال أو الاستقبال⁽²⁾، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ طه: 72. والتقدير ما أنت قاضيه، فحذف الهاء وهي الضمير العائد، وقد اتصلت باسم فاعل دل على الحال والاستقبال.

أما إذا كان الضمير مجروراً بالحرف فلا يحذف العائد إلا إذا دخل على الموصول حرف جر مثله، لفظاً ومعنى واتفق العامل فيهما مادة، ونجد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ المؤمنون: 33. فقد جاز حذف العائد المجرور لكون الموصول (ما) جاء مجروراً بحرف الجر (من) المدغمة في (ما)، وهو ذات الحرف الذي جر العائد، والتقدير (مما تشربون منه) كما اتحد العاملان في المادة.

(1) انظر التكملة والتسهيل 131/1

(2) انظر التكملة والتسهيل 134/1

جملة الشرط وجوابه:

كثيراً ما نجد في أساليب اللغة العربية المشتملة على جملة شرط وجواب أن اسم الشرط إذا وقع مبتدأ فإن جملة جواب الشرط تشتمل على ضمير يعود على ذاك المبتدأ، وإذا وقع اسم الشرط مفعولاً به، فإن جملة الجواب تشتمل على ضمير يعود على المفعول به المقدم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ النساء: 80.

نجد في هذه الآية أن اسم الشرط (من) قد وقع مبتدأ، فجاء في الفعلين (يطع وأطاع) ضميران يعودان إلى اسم الشرط، ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة: 115.

فنجد في الفعل (يكفر) ضميراً يعود على اسم الشرط (من)، والضمير في (أعذبه) يعود على (من) أيضاً، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المزمل: 20.

ف(ما) مفعول به، والضمير (الهاء) في تجدوه عائد عليه، وشبيه ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: 106.

معمول الصفة المشبهة:

ومعمول الصفة المشبهة لا يربطه إلا الضمير، نحو: عمرو حسن طبعه، فالطبع فاعل الصفة المشبهة (حسن)، التي تعمل عمل الفعل والرباط هو الضمير (الهاء)، وفي القرآن الكريم نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ النساء: 75، ففي الآية (أهلها) فاعل الصفة المشبهة باسم الفاعل (الظالم)، والرباط فيها الضمير الهاء في (أهلها)، والربط بالضمير هنا حتي لعدم وجود رابط آخر.

الجملة التفسيرية:

والجملة التفسيرية هي الفضلة الكاشفة لحقيقة ما تليه، ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران: 59. فخلق هو ما بعده

تفسير لمثل آدم⁽¹⁾، والرباط فيها الضمير في (خلقه) وكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الصف: 10. فجملة (تؤمنون) تفسير للتجارة والرباط فيها الضمير.

بدل البعض وبدل الاشتمال:

أولاً: بدل البعض من كل هو بدل جزء من كل، وهذا النوع لابد فيه من ضمير رابط، وذلك مثل قولك (أكلت الخبز نصفه) ف(نصفه) بدل بعض من الخبز والضمير (الهاء) رابط بينهما. ونجد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ المائدة: 71. ف(كثير) بدل بعض من كل، وقد تم الربط فيها بالضمير.

ثانياً: بدل الاشتمال: وهو يدل على شيء من شيء يشتمل عامله على معناه نحو (أعجبنى البلبل صوته) ف(صوته) بدل اشتمال من البلبل، والرباط بينهما الضمير الهاء. وفي القرآن الكريم نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ البقرة: 217. ف(قتال) بدل اشتمال من (الشهر)، والضمير في (فيه) يعود على (الشهر)، وهو الرابط بين البديل والمبدل منه.

وقد أشرت أكثر النحاة وجود الضمير الرابط في بدل البعض من كل وبدل الاشتمال، غير أن ابن مالك رأى وجوده أكثر، لا واجب، وقد جاء في شرح الكافية الشافية " واشترط أكثر النحويين مصاحبة بدل البعض والاشتمال ضميراً عائداً على المبدل منه، والصحيح عدم اشتراطه، لكن وجوده أكثر من عدمه "⁽²⁾، وقريباً من هذا ذهب ابن عصفور الذي يرى أنه لا يأتي دون الضمير إلا قليلاً⁽³⁾

ومن شواهد بدل البعض الخالي من الرابط على رأي ابن مالك وابن عصفور قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 97. لاحتتمال كون "من" بدلاً من الناس بدل بعض من كل، وقد حذف الرابط للعلم به، أي: من

استطاع منهم تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾﴾ البروج: 4-5. فقد قرا

(1) مغني اللبيب 522

(2) شرح الكافية الشافية 3/ 1279

(3) انظر شرح الجمل لابن عصفور 285/1

الجمهور (النار) بالجر فهي بدل اشتمال أي: أخذود النار⁽¹⁾، وقد خلا البديل من الضمير الرابط بينه وبين المبدل منه. وأما بدل الكل من كل فلا يحتاج إلى رابط؛ لأنه نفس المبدل منه في المعنى مثله في ذلك مثل الجملة التي هي المبتدأ نفسه في المعنى فلا تحتاج إلى رابط.

ألفاظ التوكيد:

التوكيد: هو استخدام طرق خاصة لتأكيد الكلام السابق وتقويته، وتثبيتته في ذهن المتلقي، وقد يكون ذلك بإعادة اللفظ وهو ما يعرف بالتوكيد اللفظي، أو باستعمال كلمات خاصة تؤدي إلى تقوية المعنى، وهو ما يسمى بالتوكيد المعنوي، والأخير هو الذي يخصص بحثنا أي: التوكيد المعنوي الذي يكون بألفاظ (نفس- عين - كلا - كلتا - كل - جميع) وكل هذه الألفاظ لتكون توكيداً معنوياً لا بد أن تضاف إلى ضمير يطابق المؤكّد، ويكون هذا الضمير رابطاً بين المؤكّد والمؤكّد ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: 31. فلفظ (كلها) توكيد معنوي اشتمل على ضمير هو (الهاء) يعود على (الأسماء) وهي مؤكّد، وقد ربط الضمير بين اللفظين التابع والمتبوع.

ولما كان وجود الضمير في التوكيد لازماً فقد أعربوا (جميعاً) في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 29. توكيداً، وقال ابن مالك " حذف الضمير استغناءً بنية الإضافة"⁽²⁾ أي: جميعه، وفي البحر: وانتصب (جميعاً) على الحال المخلوق وهي حال مؤكدة؛ لأن لفظ (ما في الأرض) تفيد العموم فهي مراد من حيث اللفظ ل(كل) كأنه قيل: ما في الأرض كله، ولا تدل على الاجتماع في الزمان، وهذا الفرق بين معاً وجميعاً⁽³⁾، فقد أثبت لها معنى (كل)، وقد فرّق بين (معاً) المنصوبة على الحالية، و(جميعاً) التي فيها معنى التوكيد.

وبالحديث عن الضمير الرابط في ألفاظ التوكيد نكون قد وصلنا إلى خاتمة بحثنا هذا الذي تناولنا فيه الروابط الاسمية وأثرها في سبك النص القرآني، وقد أخذنا الضمير في صوره المختلفة نموذجاً لذلك، ونسأل الله العليّ القدير أن نكون قد وفقنا في جمع شوارده، ونأمل أن يستفيد منه كل مطلع ودارس.

الخاتمة:

(1) البحر المحيط 444/10

(2) التسهيل لابن مالك 164

(3) البحر المحيط 216/1

بعد هذا السرد نصل إلى أن الضمير هو الرابط اللفظي الاسمي النصي الأكثر استعمالاً في آية القرآن الكريم، فقد أدى وظيفته تماماً في الربط بين جمل الآيات ومفرداتها، فكل آية شكلت وحدة متماسكة، وكان الضمير هو لكمة هذا التماسك، وأصرة الربط بين الألفاظ فيها، ومن خلال البحث تبين لنا أن جمل الآيات التي كانت بحاجة إلى رابط هي جمل صغرى في الأساس ولمعظمها موقع من الإعراب، إلا في جملة الصلة والجملة التفسيرية، فهاتان ليس لهما موقع من الإعراب، فالضمير فيهما لإزالة الإبهام فيما قبلهما. ومما سبق نستنتج الآتي:

1. أن الأصل في الربط النصي في القرآن الكريم يكون بالضمير، وقد يكون هذا الضمير بارزاً أو مستتراً.
2. الضمائر في القرآن الكريم تحقق الترابط بين الجمل في الآية الواحدة بعناصرها الداخلية، وما يجاورها من جمل في آيات أخرى.
3. إذا كان الرابط في جملة الخبر ضميراً قد يكون هذا الضمير في محل رفع أو نصب أو جر، ولا يجوز حذفه على رأي الجمهور.
4. يتعين أن يكون الرابط لجملة الحال أن تكون هذه الجملة مؤكدة لما قبلها، أو فعلية فعلها ماض متلو ب (أو)، أو تقع بعد عاطف، أو أن تكون فعلية فعلها مضارع منفي ب(ما)، أو منفي ب(لا)، أو غير مقترن ب(قد).
5. تربط جملة النعت بنوعيه الحقيقي أو السببي بالضمير الملفوظ، أو المقدر، وقد يحذف هذا الضمير من جملة النعت إذا كان معلوماً من الكلام.
6. جملة الصلة في الموصول الاسمي ارتباطها بالضمير واجب؛ لأن الارتباط بين الاسم الموصول والصلة لا يتحقق إلا بهذا الضمير.
7. الجملة التفسيرية وجملة جواب الشرط المرفوع بالابتداء، ومعمول الصفة المشبهة لا يربطهما إلا الضمير ظاهراً كان أو مقدراً.
8. بدل البعض من كل، وبدل الاشتمال في القرآن الكريم لا يربطهما إلا الضمير، بينما بدل الكل من كل لا يحتاج إلى رابط؛ لأنه نفس المبدل منه في المعنى.
9. ألفاظ التوكيد المعنوي في القرآن الكريم وفي غيره لا بد أن تضاف إلى ضمير يطابق المؤكّد، ويكون هذا الضمير رابطاً بين التابع والمتبوع.

المراجع

1. أوضح المسالك لابن هشام، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م.
2. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت.
3. البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، ت أحمد بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
4. تحرير التحرير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن ابن أبي الإصبع، ت حفي شرف، دار إحياء التراث،
5. تحليل النص دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، محود عكاشة، الرشد، 2014م.

6. التكملة والتسهيل لشرح ابن عقيل، د. عبد الفتاح فرح، مكتبة الرشد، الرياض، 2010م.
7. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي، دار الفكر العربي، ط1 2008م.
8. جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني، دار الحديث القاهرة، 2005م.
9. الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، لمحمود صافي، دار الرشيد، دمشق وبيروت، بدون.
10. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، ضبط يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، 2003م.
11. حاشية الصبان على شرح الأشموني، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م.
12. الدر المصون للسمين الحلبي، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.
13. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ت محمود شاكر، مكتبة الأسرة، القاهرة 2000م
14. الرابط وأثره في التراكيب العربية، د. حمزة النشرتي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة 1985م.
15. شرح الأشموني، لنور الدين الأشموني، دار الكتب العلمية بيروت ط1 1419هـ.
16. شرح التصريح على التوضيح للأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت 2000م.
17. شرح الكافية الشافية لابن مالك، ت عبد المنعم هريدي، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ط1.
18. شرح المفصل لابن يعيش، ت إميل يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت.
19. القواعد الأساسية للغة العربية، السيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت 2007م.
20. كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية 1952م.
21. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، دار الكتاب العربي وبيروت، ط الثالثة 1407هـ.
22. لسان العرب لأبي الفضل بن منظور الإفريقي المصري، مكتبة الهلال بدون.
23. مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فالح العجبي، جامعة الملك سعود 1999م.
24. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، ت مازن المبارك، دار الفكر، دمشق 1985م.
25. النحو المصنف لمحمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، بدون، وعالم الكتب القاهرة 2005م.
26. نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب د. مصطفى النحاس، ذات السلاسل، الكويت، 2001م.
27. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي، ت عبد الحميد هنداي، المكتبة التوفيقية، مصر.

حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين

دراسة نحوية وصفية دلالية

د. قريب الله بابكر مصطفى بابكر*

مستخلص البحث:

عنوان البحث حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين دراسة نحوية وصفية دلالية، ومنهج وصفي، ومن أهم أهدافه: دراسة أسباب حذف المفعول به، ودراسة المواضيع التي حذف فيها المفعول به في الفواصل في الجزء الثلاثين، ودراسة العلاقة بين توافق الفواصل والمعاني المرادة، وأحتوى البحث على مستخلص ومقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع، ومن أهم نتائج البحث: 1- يجوز حذف المفعول به من الجملة إن لم يؤثر في إضعاف المعنى، 2- يحذف المفعول به لأغراض لفظية كالإيجاز وتناسب الفواصل، ولإغراض معنوية كالتركيز على الفعل، والعلم به، والتعميم، وغير ذلك، 3- قد يجعل الفعل المتعدي كالفعل اللازم؛ لغرض إثبات المعنى الذي اشتق منه الفعل، فلا يظهر المفعول به لا لفظاً ولا تقديراً، 4- قد يكون في بعض المواضع حذف المفعول به أفضل من ذكره والغرض لا يصح إلا بتركه، 5- جمال اللفظ بتناسب الفواصل القرآنية يكمن وراءه معاني دلالية عميقة تظهر جلية لمن يتدبرها، 6- في كل المواضيع التي تمت دراستها ظهر أن حذف المفعول به أبلغ من ذكره، وقد أفاد الإيجاز، ولو ذكر لأضعف المعنى وأخلّ بتناسب الفواصل، 7- عدد مواضع حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين خمسون موضعاً، وزّعها الباحث على ثلاث وثلاثين مسألة، 8- الضمير العائد على الموصول كثر حذفه في الفواصل 9- المعاني الدلالية لحذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين اشتملت على: أ- حذف المفعول به لغرض التركيز على الفعل وهي ثماني مسائل، ب- حذف المفعول به لغرض التعميم وهي سبع مسائل، ج- حذف المفعول به لغرض العلم به وهي إحدى عشرة مسألة، أما التوصيات فهي: 1- دراسة بقية الآيات القرآنية التي حدث فيها حذف للمفعول به، 2- دراسة بقية المحذوفات في الفواصل القرآنية كالجار والمجرور، 3- دراسة التقديم والتأخير في الفواصل القرآنية مع مراعاة تناسب الفواصل.

* أستاذ مساعد في كلية اللغة العربية بجامعة أم درمان الإسلامية ومتعاقد مع جامعة الملك خالد في المملكة العربية السعودية

مقدمة البحث

الحمد لله منزل الكتاب بالحق والصواب ، على أفضل خلقه وصفوة رسله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، أما بعد فإن من أعظم ما يشغل به أهل العلم دراسة كتاب رب العالمين ، المنزل باللسان العربي المبين ، وقد أعجز الأولين والآخرين بما فيه من الآيات والذكر الحكيم ، وقد جاء تبیاناً وتفصيلاً لكل شيء ، وقد ورد ذلك بأفصح أساليب القول من الحذف والذكر ، والإيجاز والإطناب ؛ ومن هذا المنطلق اختار الباحث هذا الموضوع وهو " حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين دراسة نحوية وصفية دلالية " .

أهداف البحث:

- 1- دراسة أسباب حذف المفعول به.
- 2- دراسة المواضع التي حذف فيها المفعول به في الفواصل في الجزء الثلاثين.
- 3- دراسة العلاقة بين توافق الفواصل والمعاني المرادة.

هيكل البحث:

يتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسباب حذف المفعول به.

المبحث الثاني: مواضع حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين.

المبحث الثالث: المعاني المستفادة من حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين. وقد ختم البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات ثم قائمة بأهم المصادر

والمراجع

منهج البحث: اتبع الباحث المنهج الوصفي القائم على التحليل

المبحث الأول: أسباب حذف المفعول به

حذف المفعول به عند النحويين: حذف المفعول به عند النحويين من باب حذف الفضلات في الكلام ، وحكمه جائز إن لم يُحْدِث ضرراً ، وقد قال ابن مالك في الألفية:

وحذف فضلة أجز ، إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

و الفضلة: خلاف العمدة ، والعمدة: ما لا يستغنى عنه كالفاعل ، والفضلة: ما يمكن الاستغناء عنه كالمفعول به ، فيجوز حذف الفضلة إن لم يضر ، كقولك في " ضربت زيداً " : " ضربت " بحذف المفعول به ، وكقولك في " أعطيت زيدا درهما " : " أعطيت " ، ومنه قوله تعالى: " فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ⁽¹⁾ ، و " أعطيت زيدا " ، ومنه قوله تعالى: " وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

فَتَرَضَى" (2)، و "أعطيت درهما" قيل: ومنه قوله تعالى: "حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ" (3) التقدير - والله أعلم - حتى يعطوكم الجزية، فإن ضر حذف الفضلة لم يجز حذفها، كما إذا وقع المفعول به في جواب سؤال، نحو أن يقال: "من ضربت؟" فتقول: "ضربت زيدا" أو وقع محصوراً، نحو "ما ضربت إلا زيدا"، فلا يجوز حذف "زيداً" في الموضعين، إذ لا يحصل في الأول الجواب، ويبقى الكلام في الثاني دالاً على نفي الضرب مطلقاً، والمقصود نفيه عن غير "زيد"، فلا يفهم المقصود عند حذفه. (4)

وقد ذكر ابن مالك أغراض حذف المفعول به في قوله: يجوز حذف المفعول لغرض: إما لفظي كتناسب الفواصل في نحو "مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى" (5) ونحو: "إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى" (6) وكالإيجاز في نحو: "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا" (7). وإما معنوي كاحتقاره في نحو: "كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَى" (8) أى: الكافرين أو لاستهجانهم كقول عائشة رضي الله عنها: "ما رأى مِئِي وَلَا رَأَيْتُ مِنْهُ" (9) أى: العورة. وقد يمتنع حذفه كأن يكون محصوراً نحو "إِنَّمَا ضَرَبْتُ زَيْدًا" أو جواباً كـ "ضَرَبْتُ زَيْدًا" جواباً لمن قال: "مَنْ ضَرَبْتُ" (10)

حذف المفعول به عند البلاغيين:

قد أبرز الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) ما يكمن وراء حذف المفعول به من دقائق ولطائف، وعند الرجوع إلى كتابه المذكور؛ يتبين أن كل مَنْ جاء بعده من البلاغيين قد استمدوا وأفادوا من حديثه عن المفعول، ومن تجليته لما يكمن وراء حذفه من مزايا وأسرار بلاغية، وقد بدأ الحديث عن الحذف عموماً بقوله: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين. وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر. وأنا أكتب لك بديلاً أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه" (11)

ومعلوم أن الفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول، نحو: فرح محمد، وسعد علي، وبكى عمرو، وشقي الكافر؛ ولذا لا يدخل معنا في حذف المفعول؛ إذ لا مفعول له أصلاً، إلا إذا عديته بالهمزة أو بالتضعيف، فقلت: أسعدت عليّاً، وأبكيت عمرّاً، وأشقيت فلاناً، فعندئذٍ يصير الفعل متعدياً ويجري عليه ما يجري على الفعل المتعدي من أحكام.

والفعل المتعدي: له مفعول يقع عليه، ولا يحذف ذلك المفعول إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيها المقام، وقد بين ذلك عبد القاهر بقوله: فاعلم أن أغراض الناس

تتلخص في ذكر الأفعال المتعدية فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين. فإذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي مثلاً في أنك لا ترى مفعولاً لا لفظاً ولا تقديرًا. ومثال ذلك قول الناس: فلان يحل ويعقد ويأمر وينهى، ويضر وينفع. وكقولهم: هو يعطي ويجزل، ويقرى ويضيف. المعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة من غير أن يتعرض لحديث المفعول، حتى كأنك قلت: صار إليه الحل والعقد، وصار بحيث يكون منه حل وعقد وأمر ونهى وضر ونفع، وعلى هذا القياس. وعلى ذلك قوله تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (12) المعنى: هل يستوي من له علم ومن لا علم له، من غير أن يقصد النص على معلوم. وكذلك قوله تعالى: "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى" (43) "وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا" (44) [النجم/43، 44] وقوله: "وَأَنَّهُ هُوَ أَعَى وَأَقْنَى" [النجم/48] المعنى: هو الذي أحياه و الإماتة والإغناء والإقناء.

وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء، وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه، أو لا يكون إلا منه، أو لا يكون منه. فإن الفعل لا يعدى هناك، لأن تعديته تنقص الغرض وتغير المعنى. ألا ترى أنك إذا قلت: هو يعطي الدنانير، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل في عطائه، أو أنه يعطيها خصوصاً دون غيرها، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء في نفسه. ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه بل مع من أثبت له إعطاء. إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك، فإنه أصل كبير عظيم النفع. فهذا قسم من خلو الفعل عن المفعول، وهو أن لا يكون له مفعول يمكن النص عليه. (13)

وقسم ثان وهو أن يكون له مفعول مقصود، قصده معلوم. إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه، وينقسم إلى جلي لا صنعة فيه، وخفي تدخله الصنعة. فمثال الجلي قولهم: أصغيت إليه: وهم يريدون أذني، و: أغضيت عليه: والمعنى جفني. وأما الخفي الذي تدخله الصنعة فيتفنن ويتنوع. فنوع منه أن تذكر الفعل، وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه، إما لجري ذكر أو دليل حال. إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى شيء، أو تعرض فيه لمفعول.

وهناك نوع آخر منه، وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قصده، قد علم أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أو ما سبق من الكلام، إلا أنك تطرحه وتتناساه

وتدعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذي مضى، وذلك الغرض أن تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل، وتخلص له وتنصرف بجملة، وكما هي إليه.

إلا أنك تجد المعنى يلزمك أن لا تنطق بهذا المفعول، ولا تخرجه إلى لفظك. والسبب في ذلك أن تعديتك له توهم ما هو خلاف الغرض، فقد يذكر الفعل كثيراً، والغرض منه ذكر المفعول، مثاله أنك تقول: أضربت زيداً؟ وأنت لا تنكر أن يكون كان من المخاطب ضرب. وإنما تنكر أن يكون وقع الضرب منه على زيد، وأن يستجيز ذلك أو يستطيعه.⁽¹⁴⁾

وإن أردت أن تزداد تبييناً لهذا الأصل أعني وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله، ولا يدخلها شوب فانظر إلى قوله تعالى: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذِينٌ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ" ⁽¹⁵⁾ ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما. ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقاً. وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي. فأما ما كان المسقي غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض، وموهم خلافه. وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود كما أنك إذا قلت: ما لك تمنع أخاك؟ كنت منكراً بالمنع، لا من حيث هو منع بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه.⁽¹⁶⁾

وختم عبد القاهر بقوله: "وليس لنتائج هذا الحذف، أعني حذف المفعول، نهاية، فإنه

طريق إلى ضروب من الصنعة، وإلى لطائف لا تحصى".⁽¹⁷⁾

المبحث الثاني: مواضع حذف المفعول به في الفاصلة القرآنية

1- قال تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)} [النبا/4، 5]

التقدير- والله أعلم- سيعلمون الوعيد عند الموت وفي الآخرة، ويتبين لهم بالمعينة، أو سيعلمون عاقبة تكذيبهم. فالمفعول به المحذوف هو (الوعيد) أو (عاقبة تكذيبهم).⁽¹⁸⁾

- 2- قال تعالى: {وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات/19] التقدير- والله أعلم- فتخشى عقابه بأداء ما ألزمك من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه، أو فتخشاه؛ فالمفعول به المحذوف (عقابه) أو الضمير المحذوف (الله).⁽¹⁹⁾
- 3- قال تعالى: {فَكَذَّبَ وَعَصَى} [النازعات/21] حذف المفعول من كل فعل، فالتقدير - والله أعلم- فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وعصى الله تعالى بعدما علم صحة ما أتى به موسى، أو عصى موسى فيما أمره به من طاعته ربه، وخشيته إياه؛ فمفعول كذب (موسى)- عليه السلام- ومفعول عصى (الله)- جل جلاله- أو (موسى) عليه السلام.⁽²⁰⁾
- 4- قال تعالى: {فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات/23] حذف المفعول من كل فعل، فالتقدير- والله أعلم- فحشر قومه فناداهم؛ فمفعول حشر (قومه)، ومفعول نادى الضمير (هم).⁽²¹⁾
- 5- قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى} [النازعات/26] التقدير- والله أعلم- لمن يخشى عقوبة الله تعالى، أو لمن شأنه الخشية؛ فمفعول يخشى على التقدير الأول (عقوبة الله)، وعلى التقدير الثاني لا يحتاج إلى مفعول.⁽²²⁾
- 6- قال تعالى: {بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى} [النازعات/36] التقدير- والله أعلم- لمن يراها، أو لمن ينظر، أي: لكل راء بحيث لا تخفى على أحد؛ فعلى التقدير الأول مفعول يرى الضمير المحذوف (ها)، أما على التقدير الثاني فلا يحتاج الفعل إلى مفعول.⁽²³⁾
- 7- قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى} [عبس/9] التقدير- والله أعلم- وهو يخشى الله ويتقيه، أو يخشى أذى الكفار، أو يخشى العثار وكبوة الطريق؛ فعلى التقدير الأول مفعول يخشى المحذوف لفظ الجلالة (الله)، وهو الأرجح، وعلى التقدير الثاني (أذى الكفار)، وعلى الثالث (العثار).⁽²⁴⁾
- 8- قال تعالى: {عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ} [الإنفطار/5] التقدير- والله أعلم- ما قدمته من خير، وما أخرته من حق الله؛ فالمفعول المحذوف هو الضمير العائد على الموصول؛ وقد كثر حذف ذلك في لغة العرب. قال ابن مالك في الألفية: والحذف عندهم كثير منجل* في عائد متصل إن انتصب* بفعل أو وصف كمن نرجوا يهب. والتقدير من نرجو يهب.⁽²⁵⁾
- 9- قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11)} [الأنفطار] التقدير- والله أعلم- كاتبين أقوالكم وأعمالكم؛ فالمفعول المحذوف (أقوالكم) ومعطوف عليه الأعمال.⁽²⁶⁾

- 10- قال تعالى: {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الإنفطار/12] التقدير- والله أعلم- يعلمون ما تفعلونه من خير أو شر؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).⁽²⁷⁾
- 11- قال تعالى: {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين/3] التقدير- والله أعلم- يُخْسِرُونَهُمْ؛ أي: ينقصونهم؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير (هم)، ويخسرون معدى بالهمزة، يقال: خسِر الرجل وأخسره غيره.⁽²⁸⁾
- 12- قال تعالى: {كَأَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين/14] التقدير- والله أعلم- ما كَانُوا يَكْسِبُونَهُ؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).
- 13- قال تعالى: {هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين/36] التقدير- والله أعلم- ما كَانُوا يَفْعَلُونَهُ بالمؤمنين من الاستهزاء والضحك؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).
- 14- قال تعالى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الأنشقاق/23] التقدير- والله أعلم- بِمَا يُوعُونَهُ؛ أي: بما توعيه صدورهم؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).⁽²⁹⁾
- 15- قال تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ} [البروج/13] التقدير- والله أعلم- يبدئ الخلق ويعيده بعد فنائه ويبدئ العذاب ويعيده؛ فحذف مفعول الفعل {يبدئ} وتقديره (الخلق) أو (العذاب)، وحذف مفعول الفعل {يعيد} وتقديره ضمير المفعول الأول وهو (الهاء).⁽³⁰⁾
- 16- قال تعالى: {فَعَالٌ لَّيَّا يُرِيدُ} [البروج/16] التقدير- والله أعلم- فعال لما يريد؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).
- 17- قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى/2، 3] التقدير- والله أعلم- الذي خلق الأشياء فسوى خلقها، والذي قدر ما شاء لمن شاء وهداه إلى إتيان ما قدره له وعليه؛ فكل فعل من الأفعال الأربعة حذف مفعوله، فعلى التقدير السابق مفعول الفعل {خلق} (الأشياء)، ومفعول {سوى} (خلقها)، ومفعول {قَدَّرَ} الموصول (ما)، ومفعول {هدى} الضمير (الهاء).⁽³¹⁾
- 18- قال تعالى: {سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى} [الأعلى/6] التقدير- والله أعلم- سنقرئك فلا تنساه؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير (الهاء) العائد على القرآن ولم يصرح به لأنه معلوم من السياق، وأثبتت الألف في (فلا تنسى)، وإن كان مجزوماً بـ(لا) التي للنهي لتعديل رؤوس الآيات.⁽³²⁾

- 19- قال تعالى: {سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى} [الأعلى/10] التقدير- والله أعلم- مَنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فالمفعول به المحذوف هو لفظ الجلالة (الله)، وفي بعض التقديرات عطف عليه (سوء العاقبة) أي: مَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَسُوءَ الْعَاقِبَةِ.⁽³³⁾
- 20- قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل/1] التقدير- والله أعلم- يَغْشَى النَّهَارَ بظلامه فيذهب بضوئه، أو يَغْشَى الشَّمْسَ؛ فالمفعول به المحذوف هو (النهار) أو (الشمس).⁽³⁴⁾
- 21- قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى} [الليل/5] التقدير- والله أعلم- فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ مَالَهُ الْفُقَرَاءُ ، أو الْمَسَاكِينَ، أو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاتَّقَى رِيَّهَ، أو اتَّقَى الْبَخْلَ؛ فالفعل أعطى حذف مفعولاه: الأول (ماله) والثاني (الفقراء) أو (المساكين) أو (في سبيل الله)، أما الفعل اتقى فمفعوله المحذوف (ريته) أو (البخل).⁽³⁵⁾
- 22- قال تعالى: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى/3] التقدير- والله أعلم- وما قلاك؛ فالمفعول به المحذوف هو ضمير المخاطب (الكاف).⁽³⁶⁾
- 23- قال تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى/5-8] التقدير- والله أعلم- ولسوف يعطيك الشفاعة حتى ترضى. وقيل: يعطيك الثواب، وقيل: يعطيك النصر، والتمكين، وكثرة المؤمنين؛ فحذف المفعول الثاني للفعل يعطي، واختلف التقدير عند أهل التفسير فإمّا (الشفاعة) أو (الثواب) أو (النصر)، والتقدير للآيات التالية- والله أعلم- أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَاكَ ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَاكَ ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَاكَ؛ فالمفعول به المحذوف هو ضمير المخاطب (الكاف) في كل فاصلة.⁽³⁷⁾
- 24- قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق/1، 2] التقدير- والله أعلم- خلق الإنسان؛ فبداية الآية الثانية بينت المفعول المحذوف في فاصلة الآية الأولى؛ فالمفعول به المحذوف هو (الإنسان).⁽³⁸⁾
- 25- قال تعالى: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق/4، 5] التقدير- والله أعلم- ما لم يعلمه من سائر العلوم والمعارف؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).⁽³⁹⁾
- 26- قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق/14] التقدير- والله أعلم- أَلَمْ يَعْلَمْ أَبُو جَهْلٍ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ ، أو يرى فعله فيجازه به؛ فالمفعول به المحذوف هو إمّا ضمير المخبر عنه (الهاء) أو (فعله) على حسب تفسير الآية.⁽⁴⁰⁾

- 27- قال تعالى: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ} [العاديات/9] التقدير- والله أعلم- أفلا يعلم الآن مآله إذا بعثر من في القبور من الموتى؛ فالمفعول به المحذوف هو مفعول الفعل يعلم وتقديره (مآله).⁽⁴¹⁾
- 28- قال تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر/3، 4] التقدير- والله أعلم- سَوْفَ تَعْلَمُونَ سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته والعلم بمعنى المعرفة المتعدية لواحد، ونقل عن علي - رضي الله عنه - : { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } في الدنيا { ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } في الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما؛ لأجل تغاير المتعلقين ، و « ثُمَّ » على بابها من المهلة؛ فمفعول الفعل تعلمون تقديره (سوء المغبة).⁽⁴²⁾
- 29- قال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون/6، 7] التقدير- والله أعلم- يراؤون الناس ، ويمنعون الناس الماعون .لقوله تعالى { يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء/142]؛ فالمفعول به المحذوف في فاصلة الآية المتقدمة هو (الناس)، أما في الآية الأخرى فقد حذف المفعول الأول للفعل يمنعون وهو (الناس).⁽⁴³⁾
- 30- قال تعالى: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون/2-5] التقدير- والله أعلم- لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ الْآنَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ فِي مَا تَسْتَقْبِلُونَ أَبَدًا مَا أَعْبُدُ الْآنَ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمُوهُ فِي مَا أَسْتَقْبِلُ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ فِي مَا تَسْتَقْبِلُونَ أَبَدًا مَا أَعْبُدُ الْآنَ؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).⁽⁴⁴⁾
- 31- قال تعالى: {مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد/2] التقدير- والله أعلم- { وَمَا كَسَبَ } أي والذي كسبه على أن ما موصولة ويجوز أن تكون مصدرية أي وكسبه؛ فعلى تقدير أن ما موصولة فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).⁽⁴⁵⁾
- 32- قال تعالى: {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفرق/2] التقدير- والله أعلم- من شر ما خلقه من الثقيلين وغيرهم؛ فالمفعول به المحذوف هو الضمير العائد على الموصول وهو (الهاء).⁽⁴⁶⁾
- 33- قال تعالى: {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفرق/5] التقدير- والله أعلم- ومن شر حاسد إذا حسدك، أو حسد أي أحد من الناس؛ يعنى اليهود حين حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [النساء/54]؛ فالمفعول به المحذوف هو ضمير المخاطب (الكاف).⁽⁴⁷⁾

المبحث الثالث: المعاني الدلالية لحذف المفعول به في الفاصلة القرآنية

أولاً- حذف المفعول به لغرض التركيز على الفعل:

1- {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)} [النبأ/4، 5] المعنى- والله أعلم- سيعلم هؤلاء الكفار المُنكرون وعيد الله أعداءه، ما الله فاعل بهم يوم القيامة، ثم أكد الوعيد بتكرير آخر، وهذا التكرار يقوّي التركيز على الفعل، وكذلك حذف المفعول به وهو (وعيد الله) وبعضهم زعم: أنّه من باب التوكيد اللفظي، ولا يضرّ توسّط حرف العطف، والنحويون يأبون هذا، ولا يسمونه إلا عطفاً وإن أفاد التأكيد.⁽⁴⁸⁾

2- {وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات/19] المعنى- والله أعلم- فتخشى عقابه بأداء ما ألزمت من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه؛ والخشية لا تكون إلا بالمعرفة، قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: 28] أي العلماء به. وعن بعض الحكماء: اعرف الله فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين. فالخشية ملاك الأمور من خشية الله أتى منه كل خير، ومن آمن اجتراً على كل شر⁽⁴⁹⁾، ولذا كان التركيز على الفعل وهو (تخشى) وحذف المفعول به (عقابه).

3- {فَكَذَّبَ وَعَصَى} [النازعات/21] المعنى- والله أعلم- فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وعصى الله تعالى بعدما علم صحة ما أتى به موسى، وإنما أوهم أنه سحر، هذا على أكثر أقوال المفسرين، ومنهم من جعل المفعول به للفعل (عصى) موسى كذلك، أي: كذب فرعون موسى وعصاه.⁽⁵⁰⁾ وعلى كل حال فحذف المفعول يفيد التركيز على الفعل وشناعته، مع مراعاة توافق الفواصل، وحسن الألفاظ.

4- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} (26) [النازعات/26، 27] المعنى- والله أعلم- إن في هلاك فرعون وقومه لعبرة لمن يخشى عقوبة الله تعالى، أو لمن كان من شأنه الخشية، يخوف كفار مكة لئلا يكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيجازيهم مثل ما حل بقوم فرعون من العذاب.⁽⁵¹⁾

ولأجل التركيز على الخشية حذف المفعول به، وكذلك لا يخفى جمال اللفظ بتوافق الفواصل.

5- {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى} [النازعات/36] المعنى- والله أعلم- وأظهرت الجحيم لمن يراها، أو لمن ينظر أي: لأبصار الناظرين.⁽⁵²⁾

على التقدير الأول حُذِفَ المفعول به وهو الضمير (ها) للتركيز على الفعل (يرى) ، أما التأويل الثاني فجعل الفعل من غير مفعول كاللزام تماماً ، وهذا أفاد التركيز على الفعل ، مع مراعاة حسن توافق الفواصل .

6- {وَهُوَ يَخْشَى} [عبس/9] المعنى- والله أعلم- وهو يخشى : أي يخشى الله ، أو يخاف الكفار وأذاهم ، أو يخاف العثار ، هذا ما ذكره أهل التفسير.(53)

ومهما تعددت التقديرات للمفعول به المحذوف يبقى المعنى المقصود وهو التركيز على الفعل (يخشى) ، والتركيز على الخشية تكرر في فواصل سور الجزء الثلاثين.

7- {سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى} [الأعلى/10] المعنى- والله أعلم- سَيَذَكَّرُ يا محمد من يخشى الله ، وسوء العاقبة .(54)

يكاد أهل التفسير أن يجمعوا على أن المفعول به المحذوف هو لفظ الجلالة (الله) ، ومنهم من عطف عليه؛ فيظهر بذلك التركيز على الفعل ، وحسن توافق الفواصل.

8- {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى} [الليل/5] المعنى- والله أعلم- فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ مَالَهُ الْفُقَرَاءُ ، أو الْمَسَاكِينَ ، أو فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاتَّقَى رِيَّه ، وَاتَّقَى الْبَخْلَ ، فحذف مفعولي أعطى ، إذ المقصود الثناء على المعطى دون تعرض للمعطى والعطية . وظاهره بذل المال في واجب ومندوب ومكرمة ، وحذف مفعول اتقى كذلك.(55) من المعاني التي ذكرها أهل التفسير يتضح سبب حذف المفعولات وهو التركيز على الفعل لتقوية معناه ، كما يظهر حسن توافق الفواصل.

ثانياً- حذف المفعول به لغرض التعميم:

1- {فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات/23]

المعنى- والله أعلم- فحشر قومه فناداهم ، فلم يذكر مفعولاهما ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : فنادى فحشر؛ لأنَّ النداء قبل الحشر ، فالحشر عام وكذلك النداء ، فقيل حشر قومه ، وقيل السحرة ، وقيل أصحابه ، وقيل الناس ، وقيل جنوده ، وقيل القبط.(56)

ومن هذه الآراء يتضح أن حذف المفعولين يفيد التعميم ، وكذلك فيه مراعاة توافق الفواصل.

2- {عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ} [الإنفطار/5] المعنى- والله أعلم- ما قَدَّمْتُ من الفرائض التي أدتها ، وما أَخَّرْتُ من الفرائض التي ضيعتها. وقيل: ما قَدَّمْتُ من طاعة الله ، وما أَخَّرْتُ مما أُمرْتُ به من حقِّ الله عليه لم تعمل به. وقيل: ما قَدَّمْتُ من خير ، وما أَخَّرْتُ من حق الله عليها لم تعمل به. وقيل: ما قدمت من طاعة الله وما أخرت من حق الله. وقيل: ما قَدَّمْتُ أي: عملت ، وما أَخَّرْتُ أي: تركت وضيعت. وقيل: ما قَدَّمْتُ من خير أو شرٍّ ، وأَخَّرْتُ من خير أو شرٍّ. وقيل: "ما

قدمت "من عمل صالح أو سيئ" وأُخِرَت "من سنة حسنة أو سيئة. وقيل: "ما قدمت" من الصدقات و"أُخِرَت" من التركات. وقيل: ما قدمت من الأعمال في أول عمرها وما أُخِرَت في آخر عمرها. (57)

ومن هذه الآراء يظهر عموم المعنى في الآية الكريمة حيث أنَّ المفعول للفعل قدم وللفاعل آخر يشمل كلَّ ما يمكن أن يقدمه الإنسان فيفرح به عند لقاء ربه، وكذلك يشمل كلَّ ما يؤخره فيندم، وكذلك لا يخفى جمال توافق الفواصل بعد الحذف.

3- {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ} [البروج/13] المعنى- والله أعلم- إن الله يبدي الخلق، ثم يعيدهم أحياء بعد مماتهم. وقيل: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي العذاب ويعيده. وقيل: أي يبدي البطش ويعيده؛ يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة وقيل: هو عام في جميع الأشياء، أي كلَّ ما يبدأ وكلَّ ما يعاد. (58)

يظهر معنى التعميم في شمول قدرة الله تعالى لكل المخلوقات في البدء والإعادة؛ فهو تعالى قادر على خلق كلِّ شيء، وقادر على إعادته، وكذلك يظهر جمال توافق الفواصل.

4- {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى/2، 3] المعنى- والله أعلم- خلق الأشياء فسوَّى خلقها، والذي قَدَّر خلقه فهدهم. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عني بقوله: (فَهَدَى)، فقال بعضهم: هدى الإنسان لسبيل الخير والبهائم للمراتع. وقال مقاتل والكلبي: قدر لكل شيء مسلكه، "فهدي" عرّفها كيف يأتي الذكر الأنثى. وقيل: قدر الأرزاق وهدي لاكتساب الأرزاق والمعاش. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدي الإنسان لوجه استخراجها منها. قيل: قدر ما شاء لمن شاء وهدها إلى إتيان ما قدره له وعليه. (59)

المفعولات في هذه الآية قدرت متنوعة وشملت عدداً من الأشياء؛ لذا حسن حذفها، وكذلك ظهر حسن توافق الفواصل.

5- {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق/13، 14] المعنى- والله أعلم- أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجزيه على فعله أتم الجزاء، وقيل: ألم يعلم بأنَّ الله يرى ذلك الفعل فيجزيه به. (60)

حذف مفعول الفعل (يرى) للتقرير برؤية الله تعالى لكل الأشياء ولكل المخلوقين وما يصدر منهم، وفيه تفرغ وتوبيخ ووعيد شديد وتهديد عظيم، وكذلك يظهر حسن توافق الفواصل.

6- {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ} [العاديات/9] المعنى- والله أعلم- أفلا يعلم الآن مآله إذا بعث من في القبور من الموتى، فمفعول يعلم محذوف، و وهمزة الاستفهام للإنكار وفيه تهديد ووعيد. (61)

مفعول يعلم يمكن أن يقدر بعدد من الأشياء منها المآل أو المصير أو الحال، أو غير ذلك؛ فحذفه يدل على عمومته.

7- {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر/3، 4] المعنى- والله أعلم- سَوْفَ تَعْلَمُونَ سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته والعلم بمعنى المعرفة المتعدية لواحد، وقيل: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله. وقيل: سَوْفَ تَعْلَمُونَ ما ينزل بكم من العذاب في القبور ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ما يحل بكم من العذاب في الآخرة، فالتكرار للحالين.⁽⁶²⁾

حذف المفعول به للفعل (تعلمون) أفاد التعميم؛ أي: سوف تعلمون كل شيء، وحسن توافق الفواصل.

ثالثاً- حذف المفعول به للعلم به:

1- {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11)} [الأنفطار/10-11] المعنى- والله أعلم- المراد بالحافظين: الرُقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم. (كراماً) على الله (كاتبين) يكتبون أقوالكم وأعمالكم.⁽⁶³⁾

حذف المفعول به لاسم الفاعل (كاتبين) وهي الأقوال والأفعال التي تكتب؛ وذلك للعلم به، وقد فسر في الآية التالية لهذه الآية: وهي قوله تعالى {يعلمون ما تفعلون (12)}، وقد أفاد الحذف الإيجاز كذلك، وفيه إنذار وتهويل للعصاة ولطف للمؤمنين وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين، ويظهر جمال اللفظ بتوافق الفواصل.

2- {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الأنفطار/12] المعنى- والله أعلم- يعلم هؤلاء الحافظون ما تفعلونه من خير أو شر، من الأفعال قليلاً كان أو كثيراً ويضبطونه نقيراً أو قطميراً.⁽⁶⁴⁾

حذف المفعول به للفعل (تفعلون) وهو الضمير العائد على الموصول، وتفسيره (من خير أو شر)؛ وذلك للعلم به؛ لأن ما يفعله الإنسان يشمل الخير والشر، ويظهر جمال اللفظ بتوافق الفواصل.

ومثل حذف الضمير العائد على الموصول وهو مفعول به، قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين/14] حيث التقدير (يكسبون) وقوله تعالى: {هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين/36] والتقدير (يفعلونه)، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} [الأنشاق/23] والتقدير (يوعونه)، وقوله تعالى: {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [البروج/16] والتقدير: (يريد) وقوله تعالى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق/4، 5] والتقدير: (يعلمه)، وقوله تعالى: {لَا أَعْبُدُ

مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ { [الكافرون/2-5] والتقدير (تعبدونه، أعبد، عبدتموه، أعبد) وقوله تعالى: {مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد/2] والتقدير (وما كسبه)، وقوله تعالى: {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق/2]، والتقدير (ما خلقه).

في كل هذه الآيات السابقة حذف المفعول به في الفاصلة وهو الضمير العائد على الموصول، وحذفه مشتهر ومعلوم؛ لذا كان حذفه أولى من ذكره، وفيه من الإيجاز ما لا يخفى، وكذلك ظهر حسن توافق الفواصل.

3- {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين/3] المعنى- والله أعلم- يُخْسِرُونَ الكيل والميزان، أي: ينقصون.⁽⁶⁵⁾ المفعول به للفعل (يخسر) محذوف للعلم به؛ لتقدم ذكر الكيل والميزان، وفيه إيجاز كذلك، ويظهر جمال اللفظ بتوافق الفواصل.

4- {سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى} [الأعلى/6] المعنى- والله أعلم- (فلا تنسا) وأثبتت الألف في { فلا تنسى } ، وإن كان مجزوماً بلا التي للنهي لتعديل رءوس الآي، على رأي أبي حيان، وحذف المفعول وهو الضمير العائد على القرآن المحذوف كذلك؛ للعلم بهما، حيث التقدير (سنقرئك القرآن فلا تنساه بإذننا)، وقيل: (لا) نافية، كما ذكر صاحب اللباب.⁽⁶⁶⁾

5- {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل/1] المعنى- والله أعلم- (والليل إذا يغشى النهار، أو يغشى الشمس)؛ لقوله تعالى في سورة الشمس: {والليل إذا يغشاها} [الشمس: 4]، أو في قوله تعالى: { يغشى الليل النهار } [الأعراف: 54]، وقد ذكر صاحب اللباب غرض الحذف في قوله: ولم يذكر مفعولاً، للعلم به.⁽⁶⁷⁾

6- {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى/3] المعنى- والله أعلم- (وما قلاك) أي: ما أبغضك اكتفاء بفهم السامع لمعناه، إذ كان قد تقدّم ذلك قوله: (مَا وَدَّعَكَ) فعرف بذلك أن المخاطب به نبي الله صلى الله عليه وسلم. هذا ما ورد في تفسير الطبري، ولكن الألوسي أضاف معاني أخرى وهو قوله: { وَمَا قَلَى } أي وما أبغضك وحذف المفعول لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت في كلام منفية لطفاً به صلى الله عليه وسلم وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام، أو لنفي صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم، أو لأحد من أصحابه ومن أحبه صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة أو للاستغناء عنه بذكره من قبل مع أن فيه مراعاة للفواصل.⁽⁶⁸⁾

7- { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى } [الضحى/5-8]

المعنى- والله أعلم-(فأواك، فهذاك، فأغناك) ذكر الألوسي في تفسير الآيات أن سبب حذف المفعول في الأفعال الثلاثة هو ظهور المراد مع رعاية الفواصل وقيل ليبدل على سعة الكرم والمراد أواك وأوى لك وبك وهذاك ولك وبك وأغناك ولك وبك، وقال أبو حيان: حذف المفعول اختصاراً في { قلى }، وفي { فأوى } وفي { فهدى }، وفي { فأغنى }، إذ يعلم أنه ضمير المخاطب، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم.⁽⁶⁹⁾

والظاهر أن غرض الحذف يتعدى توافق الفواصل؛ لأن الفاصلة يمكن أن تكون متوافقة مع ذكر المفعولات حيث تصبح كافاً، كما تحولت إلى الراء في قوله تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) [الضحى/9، 10])

8- { أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ [العلق/1، 2] المعنى- والله أعلم- (الذي خلق الإنسان)، وقد حذف المفعول في فاصلة الآية الأولى لأنه مذكور ومفسر في مطلع الآية الثانية، وكذلك لا يخفى حسن توافق الفواصل.

9- { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [العلق/4] المعنى- والله أعلم-(علم بالقلم الإنسان)؛ وقد ورد ففي الآية التالية في قوله تعالى: { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) } [العلق/5] فالواضح أن المفعول في الآية الأولى حذف للعلم به، وقد أضاف الألوسي غرضاً آخر حيث قال: وفي حذف المفعول أولاً وإيراده بعنوان عدم المعلوماتية ثانياً من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه عز وجل والإشعار بأنه تعالى يعلمه عليه الصلاة والسلام من العلوم ما لا يحيط به العقول.⁽⁷⁰⁾

10- { الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } [الماعون/6، 7] المعنى- والله أعلم-(يرأون الناس، ويمنعونهم الماعون) والماعون هو ما يتعاطاه الناس بينهم، كالفأس والدلو والآنية.⁽⁷¹⁾ فحذف المفعول للعلم به لأن الرياء يكون للناس وقد صرح به في قوله تعالى: { يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء/142]؛ وقد ظهر الإيجاز وحسن توافق الفواصل.

11- { وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } [الفلق/5] المعنى- والله أعلم-(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَكَ) قال مقاتل: يعنى اليهود حين حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل معنى (إذا حسد) أي: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه.⁽⁷²⁾

حسن حذف المفعول وهو الضمير لعلم به؛ لأن مطلع السورة خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } [الفلق/1]، وقد ظهر كذلك حسن توافق الفواصل.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على حبيبه ومصطفاه المؤيد بالآيات
البيّنات، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان على مدى الأوقات.
أما بعد فقد تم بعون الله وفضله بحث حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في
الجزء الثلاثين، وقد توصل الباحث إلى النتائج الآتية:

- 1- يجوز حذف المفعول به من الجملة إن لم يؤثر في إضعاف المعنى.
- 2- يحذف المفعول به لأغراض لفظية كالإيجاز وتناسب الفواصل، ولإغراض معنوية كالتركيز
على الفعل، والعلم به، والتعميم، وغير ذلك.
- 3- قد يجعل الفعل المتعدي كالفعل اللازم؛ لغرض إثبات المعنى الذي اشتق منه الفعل، فلا
يظهر المفعول به لا لفظاً ولا تقديراً.
- 4- قد يكون في بعض المواضع حذف المفعول به أفضل من ذكره والغرض لا يصح إلا بتركه.
- 5- جمال اللفظ بتناسب الفواصل القرآنية يكمن وراءه معاني دلالية عميقة تظهر جلية لمن
يتدبرها.
- 6- في كل المواضع التي تمت دراستها ظهر أن حذف المفعول به أبلغ من ذكره، وقد أفاد
الإيجاز، ولو ذكر لأضعف المعنى وأخلّ بتناسب الفواصل.
- 7- عدد مواضع حذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين خمسون موضعاً،
وزّعها الباحث على ثلاثة وثلاثين مسألة.
- 8- أكثر الحذف وقع على الضمير العائد على الموصول.
- 9- المعاني الدلالية لحذف المفعول به في الفواصل القرآنية في الجزء الثلاثين اشتملت على:
أ- حذف المفعول به لغرض التركيز على الفعل وهي ثماني مسائل،
ب- حذف المفعول به لغرض التعميم وهي سبع مسائل،
ج- حذف المفعول به لغرض العلم به وهي إحدى عشرة مسألة.

التوصيات:

يوصي الباحث بالآتي:

- 1- دراسة بقية الآيات القرآنية التي حدث فيها حذف للمفعول به .
- 2- دراسة بقية المحذوفات في الفواصل القرآنية كالجار والمجرور.
- 3- دراسة التقديم والتأخير في الفواصل القرآنية مع مراعاة تناسب الفواصل.

الهوامش

- 1- [الليل/5]
- 2- [الضحى/5]
- 3- [التوبة/29]
- 4- شرح ابن عقيل - (ج 1 / ص 543-544)
- 5- [الضحى/3]
- 6- [طه/3]
- 7- [البقرة/24]
- 8- [المجادلة/21]
- 9- شرح البخاري لابن عثيمين الصفحة 372/1، خلاصة الحكم: ضعيف
- 10- أوضح المسالك - (ج 1 / ص 85)
- 11- دلائل الإعجاز - (ج 1 / ص 42)
- 12- [الزمر/9]
- 13- دلائل الإعجاز - (ج 1 / ص 44) بتصرف
- 14- دلائل الإعجاز - (ج 1 / ص 45) بتصرف
- 15- [القصص/23، 24]
- 16- دلائل الإعجاز - (ج 1 / ص 46) بتصرف
- 17- دلائل الإعجاز - (ج 1 / ص 47)
- 18- بحر العلوم للسمرقندي - (ج 4 / ص 360)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 353)
- 19- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 201)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 359)
- 20- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 202)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 429)
- 21- تفسير اللباب لابن عادل - (ج 16 / ص 212)
- 22- تفسير مقاتل - (ج 4 / ص 181)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 367)
- 23- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 211)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 368)
- 24- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 336)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 435)
- 25- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 268)
- 26- تفسير اللباب لابن عادل - (ج 16 / ص 255)
- 27- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 271)، تفسير البغوي - (ج 8 / ص 357)
- 28- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 278)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 447)

حذف المفعول به في الفواصل القرآنية

- 29- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 326)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 312)
- 30- تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 459)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 387)
- 31- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 368)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 390)
- 32- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 401)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 467)
- 33- تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 392)، الكشف - (ج 7 / ص 277)
- 34- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 442)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 478)
- 35- تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 482)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 492)
- 36- تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 405)
- 37- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 455)، تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 13)
- 38- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 519)
- 39- أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 415)
- 40- تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 400)، تفسير الخازن - (ج 6 / ص 288)
- 41- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 99)
- 42- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 113)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 441)
- 43- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 642)
- 44- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 661)
- 45- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 171)
- 46- تفسير النسفي - (ج 4 / ص 61)
- 47- تفسير مقاتل - (ج 4 / ص 250)
- 48- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 151)، بحر العلوم للسمرقندي - (ج 4 / ص 360)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 183).
- 49- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 201)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 367)، تفسير النسفي - (ج 4 / ص 6).
- 50- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 202)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 429)
- 51- تفسير مقاتل - (ج 4 / ص 181)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 143)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 367)
- 52- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 211)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 368)، الدر المنثور - (ج 10 / ص 195)

- 53- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 336)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 174)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 435)
- 54- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 372)، الكشف - (ج 7 / ص 277)، الوسيط لسيد طنطاوي - (ج 1 / ص 4490)
- 55- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 442)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 491)، تفسير الخازن - (ج 6 / ص 272)
- 56- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 202)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 212)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 367)، تفسير مقاتل - (ج 4 / ص 181).
- 57- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 268)، تفسير البغوي - (ج 8 / ص 352)، تفسير الرازي - (ج 16 / ص 388)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 251)، فتح القدير - (ج 7 / ص 435)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 244)، تفسير الخازن - (ج 6 / ص 229)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 373).
- 58- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 345)، تفسير البغوي - (ج 8 / ص 388)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 330)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 459)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 291)، الكشف - (ج 7 / ص 267)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 387).
- 59- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 368)، تفسير البغوي - (ج 8 / ص 400)، الكشف - (ج 7 / ص 275)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 390).
- 60- تفسير ابن كثير - (ج 8 / ص 438)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 400)، تفسير الخازن - (ج 6 / ص 288).
- 61- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 99)
- 62- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 113)، تفسير البحر المحيط - (ج 11 / ص 18)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 441).
- 63- تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 255)، الكشف - (ج 7 / ص 248)
- 64- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 271)، تفسير البغوي - (ج 8 / ص 357)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 251).
- 65- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 278)، تفسير الخازن - (ج 6 / ص 233)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 447)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 376)
- 66- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 401)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 467)، تفسير الباب لابن عادل - (ج 16 / ص 305)، أيسر التفاسير للجزائري - (ج 4 / ص 390).

حذف المفعول به في الفواصل القرآنية

- 67- تفسير البغوي - (ج 8 / ص 442)، تفسير الألوسي - (ج 22 / ص 478)، تفسير اللباب لابن عادل - (ج 16 / ص 366)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 403)، تفسير الخازن - (ج 6 / ص 272).
- 68- تفسير الطبري - (ج 24 / ص 485)، تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 3)، تفسير البيضاوي - (ج 5 / ص 405).
- 69- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 13)، تفسير البحر المحيط - (ج 10 / ص 494).
- 70- تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 41).
- 71- تفسير البحر المحيط - (ج 11 / ص 26).
- 72- تفسير مقاتل - (ج 4 / ص 250)، تفسير الألوسي - (ج 23 / ص 190).

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، المكتبة الشاملة.
- 2- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: 761هـ) المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة الشاملة.
- 3- أيسر التفاسير المؤلف: أبو بكر الجزائري، المكتبة الشاملة.
- 2- بحر العلوم، المؤلف: السمرقندي، المكتبة الشاملة.
- 3- البحر المحيط، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، المكتبة الشاملة.
- 4- تفسير اللباب، المؤلف: ابن عادل، المكتبة الشاملة.
- 5- تفسير مقاتل، المؤلف: مقاتل، المكتبة الشاملة.
- 6- التفسير الوسيط، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، المكتبة الشاملة.
- 7- جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، [224 - 310 هـ]
- المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م، المكتبة الشاملة.
- 8- الدر المنثور في التأويل بالمأثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المكتبة الشاملة.
- 9- دلائل الإعجاز، المؤلف: الجرجاني، المكتبة الشاملة.

- 10- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، المؤلف : شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي ، المكتبة الشاملة.
- 13 - شرح ابن عقيل ، المكتبة الشاملة.
- 14 - الكشف ، المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله ، المكتبة الشاملة.
- 15 - لباب التأويل في معاني التنزيل ، المؤلف : الخازن ، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي ، المكتبة الشاملة.
- 16 - مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المؤلف : عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي ، المكتبة الشاملة.
- 17- معالم التنزيل ، المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516 هـ] ، المحقق : حقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ، الناشر : دار طبعة للنشر والتوزيع ، الطبعة : الرابعة ، 1417 هـ - 1997 م ، المكتبة الشاملة.

معاني حروف الجر الثنائية في القرآن الكريم "دراسة نحوية صرفية"

د. صديق خالد الحاج الإمام*

المستخلص باللغة العربية:

يتناول هذا البحث (بعض معاني حروف الجر الثنائية في القرآن الكريم -دراسة نحوية صرفية)

يعد هذا البحث معاني الحروف من الأمور المتفرقة والمتشعبة في المصادر والمراجع؛ لذا جاء البحث جامعاً لذلك وما يتعلق بها من مسائل نحوية في مكان واحد، ومن ثم هدف لتحقيق الأهداف التالية:

- 1- التأصيل لعلم النحو من خلال ربط هذه الدراسة بالقرآن الكريم المتحدي به العرب أهل الفصاحة والبيان.
- 2- تنبع أهمية الحرف بمعناه إذ أنه يمثل ركناً أساسياً من أركان الكلمة العربية-وخاصة النحو العربي-لأن الحرف واحد من الأقسام الثلاثة التي يتكون منها الكلام العربي.
- 3- كذلك يستمد البحث أهميته من ارتباط الدراسة بالقرآن الكريم الذي وضع النحو لخدمته.

وقد اشتمل البحث علي ثلاثة مباحث: الأول أتى لحرف عن، والثاني لحرف في، والثالث لحرف من. اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي. ثم كانت الخاتمة: التي حوت: الخلاصة، والنتائج ومنها:

- (1) حرف (من) من أكثر الحروف معانياً في القرآن الكريم.
- (2) حرف (في) من أقل الحروف معانياً في القرآن الكريم.

والتوصيات ومنها: تشجيع الطلاب على ربط بحوثهم بالقرآن الكريم، وهي سانحة طيبة لمعايشة هذا الكتاب الذي هجره الكثيرون، وبجعله الأكثرون. ومن ثم جاء ذكر قائمة المصادر والمراجع.

Abstract

This research deals with the meaning of preposition in Arabic language in reference to the holy Quran. It studies them from Grammatical Point of view. This research considers the preposition as

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية. جامعة شندي. كلية الآداب

multiplied and variable issue in the Sources as well as references, so this research collects all these and the related Grammatical matters in one area, hence, the research aims at fulfilling the following purposes.

1-Fundamentalising this science of grammar, by connecting it with the holly Quran which challenges the Arabs who are the experts of Linguistics.

2- The importance of the Arabic preposition springs from its meaning and it also represents a basic angle of the Arabic word, specially in the Case of the Arabic grammar as the preposition is one of the three divisions of which the Arabic language is composed of.

3-The research is important as it deals with the holly Quran which put forwards consideration for grammar science to be in its service.

The research consists of three chapters, the first one deals with the preposition "An", "عن" the Second is about the preposition "Fi", "في", the third deals with the preposition "Min", "من".

The researcher used the analytic descriptive method.

The conclusion includes the summing up and the results of which are:

1-The preposition "Min" is the most preposition that has different meaning in the Quran.

2- The preposition "Fi", have the least meaning in the Quran.

Of The recommendations is that the study encourages students to correlate their researches with the holly Quran, as this is a good opportunity for coping with this holly Quran book which a lot of People ignore and are at distance away from it.

مقدمة:

قبل أن ندخل إلي لب الموضوع هناك بعض الأمور لابد من التطرق إليها، وهي:
الحرف، والأثر المعنوي، والأثر الإعرابي.

الحرف: ورد في (لسان العرب): الحرف من حروف الهجاء، معروف بأنه أحد حروف التهجئة.
والحرف: الأداة التي تسمى الرابطة لأنها، تربط الاسم بالاسم، والفعل بالفعل، مثل: (عن) و(على) ونحوهما. والحرف هو القراءة التي تقرأ على أوجه. وما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ " أريد بالحرف اللغة. والحرف في الأصل هو الطرف والجانب، والحرف من كل شيء طرفه وشفيره، وحدة من الجبل وهو أعلاه المحدد⁽¹⁾-وفي القرآن الكريم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾ الحج من الآية

(1) لسان العرب لابن منظور أنظر مادة (حرف).

11. أي: إذا رأى ما لا يحبه انقلب على وجهه. وقيل هو من يعبد على السراء دون الضراء. وقيل على غير طمأنينة، وبذا يدخل في الدين غير متمكن.

الحرف يجمع على أحرف وحروف وحِرْفَة. والحرف من الشيء ناحيته. ولأن على حرف من أمره أي: على ناحية منه ينتظر ويتوقع، فإن رأى من ناحية ما يحل حبه، وإلا مال إلى غيره. وحرف عن الشيء يحرف حَرْفًا وَتَحَرَّفَ وَاحْرُؤَزَفَ: عدل، وتحريف الكلم عن مواضعه تغييره، والمُحَرَّفُ الذي ذهب ماله، والمحارف الذي لا يصيب خيراً من توجه له.

المصدر: الحَرْفُ. والاسم: الحَرْفَة. أما الحرفة: فهو اسم من الاحتراف وهو الاكتساب. ويقال هو يحترف لعياله. والمحترف الصانع، والحِرْفَة الصناعة⁽¹⁾.

الأثر الإعرابي والمعنوي:

الحروف كما هو معروف عند النحاة كلها مبنية، وتنقسم الحروف إلى أقسام كثيرة منها: مختص، وغير مختص. وتنقسم إلى ما يتركب حرف واحد: "كالهمزة، والباء، ..." وما يتركب من حرفين: "كمن، وعن، ..." وتنقسم الحروف إلى عامل، وعاطل⁽²⁾ – فالعامل: كأحرف: النصب، والجزم، والجر... والعاطل كأحرف: لو، هلا، ونعم... ..

العوامل ثلاثة:

- أصلية وهذه لا يمكن الاستغناء عنها كأحرف النصب والجزم وبعض حروف الجر.
 - زائدة وهي يمكن الاستغناء عنها كأحرف (الباء) و(من).
 - شبيهة بالزائد وتنحصر هذه في بعض أحرف الجر التي تؤدي معنى جديداً في الجملة دون أن تحتاج إلى متعلق.
- تنقسم العوامل من حيث ظهورها في النطق إلى قسمين:
- لفظية تظهر في النطق والكتابة.
 - معنوية وهي تدرك بالعقل دون الكتابة مثل: الابتداء والاستفهام.
- يتلخص تصور عامة النحاة في اتجاهين:
- أن العوامل مؤثرة حقيقة، وأثرها هو تلك الحركات والحروف والسكنات.

(1) المصدر السابق أنظر مادة (حرف).

(2) عاطل يقصد بها جهة الإعراب لا جهة المعنى.

- إنما أطلق عليها العوامل ليست عوامل حقيقة، وإنما هي إشارات كلامية. ولذلك يرى ابن جني أن العامل هو المتكلم ويقول: "إن العوامل اللفظية راجعة في الحقيقة إلى أنها معنوية، ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جعفرًا، إن الضرب لم تعمل في الحقيقة شيئًا، وهل تحصل من قولك ضرب إلا على لفظ بالضادية والراء والباء على صورة فعل هذا الصوت، والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوباً إليه الفعل" ويقول: "إنما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي، ليروك أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه، كمررت بزيد، وليت عمرو قائم. وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلق به كرفع المبتدأ بالابتداء، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم"⁽¹⁾

المبحث الأول

حرف عن

عن حرف جرّ أصلي ويدخل على الظاهر والمضمر، ومن ثم يكون اسماً وحرفاً.و(عن) عند البصريين معناها المجاوزة لا تتعدها. وقال سيبويه: "وأما (عن) فلما عدا الشيء، وذلك قولك: أطعمه عن جوع، وجعل الجوع منصرفاً تاركاً، قد جاوزه. وقال: سقاه عم العيمة، والعيمة هي شهوة اللبن"⁽²⁾ فالمجاوزة عند سيبويه "تشمل بعد المجرور عن الشيء قبله، وبعد الشيء عن المجرور، لأنّ أطعمه عن جوع، فيه الجوع وهو المجرور أبعد بالإطعام، ورميت عن القوس، أبعد فيه السهم عن المجرور وهو القوس"⁽³⁾.

أما عند الكوفيين فقد ذهبوا إلى أن (عن) تأتي لعدة معاني، وذلك على طريق التأويل، ونيابة الحروف عن بعضها البعض في وظائفها ومرادفتها للمعاني⁽⁴⁾ أما المعاني التي تؤديها فهي على النحو التالي:
أولاً. المجاوزة:

لم يذكر البصريون سواء، وذلك نحو: سافرت عن القرية. ورميت السهم عن القوس، ورغبت عن اللهو. قال ابن مالك في: (رميت السهم عن القوس)⁽⁵⁾ عن للاستعانة بمعنى الباء،

(1) الخصائص لابن جني ج/1، ص5-10.

(2) الكتاب لسيبويه ج/4، ص226-227.

(3) أسرار حروف الجرّ في الذكر الحكيم. د/ محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، ط/1، 1409هـ-1989م. ص229.

(4) مغني اللبيب لابن هشام، ص196.

(5) شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محي الدين ج/2، ص30.

وذلك يقولون: رميت بالقوس، وعن القوس حكاهما الفراء والحريري يقول: "إلا إذا كانت القوس هي المرمية⁽¹⁾" ومن الشواهد القرآنية على المجاوزة:

1/ قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ...﴾ التوبة من الآية 43.

2/ قال تعالى: ﴿... فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ...﴾ المائدة من الآية 13.

3/ قال تعالى: ﴿... نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾ النساء من الآية 31.

4/ قال تعالى: ﴿... وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا...﴾ آل عمران من الآية 193.

وقد عبر عنها المالقي في كتابه (رصف المباني) بـ (المزيلة)⁽²⁾.

ثانياً. البديل:

في هذه الحالة تكون (عن) بمعنى كلمة (بدل) وذلك على رأي الكوفيين، وذلك نحو:

1/ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا...﴾ البقرة من الآية 48.

2/ قال الفرزدق:

كيف تراني قالباً مجني؟ ** قد قتل الله زياداً عني⁽³⁾

فالشاهد في قوله: "عني" أي: بدلي.

3/ قال شاعر:

وتكفل الأيام عن آبائهم ** حتى وددنا أننا أيتام⁽⁴⁾

فالشاهد في قوله: "عن آبائهم" أي: بدلهم.

ثالثاً. الاستعلاء:

وفي هذه الحالة تكون (عن) مرادفة لمعنى (على) على سبيل الاستعلاء المجازي. وذلك

على رأي الكوفيين دون البصريين ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿... فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ...﴾ محمد من الآية 38. فالشاهد في قوله:

عَنْ نَفْسِهِ "أي: على نفسه.

2/ قال قيس بن الخطيم:

لو أنك تلقى حنظلاً فوق بيضنا ** تدحرج عن ذي سامه المتقارب⁽¹⁾

(1) التصريح على التوضيح للأزهري ج/2، ص15.

(2) رصف المباني في حروف المعاني للمالقي، ص430.

(3) ديوان الفرزدق ص304.

(4) النحو الوافي لعباس حسن ج/2، ص513.

فالشاهد في قوله: "عن ذي" أي: على ذي.

3/ قال ذو الأصبع العدواني:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب**عني ولا أنت ديانني فتخزونني⁽²⁾

فالشاهد في قوله: "عني" أي: على.

رابعاً. التعليل:

في هذه الحالة يكون ما بعد (عن) سبباً وعلّة فيما قبلها، ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ...﴾ التوبة من الآية

114

فالشاهد في قوله: "عن مَوْعِدَةٍ" أي: من أجلها كان الدعاء.

2/ قال تعالى: ﴿...وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ هود من الآية 52

فالشاهد في قوله: "عن قَوْلِكَ" أي: من أجله.

3/ وافق عن طمع. أي: من أجل الطمع كانت الموافقة.

خامساً. البعدية:

تكون (عن) مرادفة لمعني (بعد) التي تدل على البعد، وهذا ما ذهب إليه الكوفيون

دون البصريين، ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ...﴾ المؤمنون من الآية 40.

فالشاهد في قوله: "عَمَّا" أي: بعدما.

2/ قال تعالى: ﴿...يُخْرِقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ النساء من الآية 46.

فالشاهد في قوله: "عن مَوَاضِعِهِ" أي: بعد مواضعه.

3/ قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ الانشقاق الآية 19.

فالشاهد في قوله: "عن طَبَقٍ" أي: بعد طبق، وذلك حالة بعد حالة.

سادساً. الظرفية:

تكون (عن) للظرفية، ففي هذه الحالة تأتي مرادفة لمعني (في). ومن أمثلة ذلك:

4/ قال الأعشى:

وأس سراة الحي حيث لقيتهم**ولا تك عن حمل الرباعية وانيا⁽¹⁾

(1) ديوان قيس بن الخطيم، ص 11.

(2) مغني اللبيب لابن هشام، ص 196.

الشاهد في قوله: "عن حمل" أي: في حمل.

سابعاً. التبعية:

تكون (عن) مرادفة لمعنى (من التبعية) ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ النجم الآية 3.

الشاهد في قوله: "عن الهوى" أي: بالهوى.

2/ قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا...﴾ الأحقاف من الآية 16.

الشاهد في قوله: "عنهم" أي: منهم، بمعنى بعضهم.

ثامناً. مرادفة الباء:

تأتي (عن) بمعنى كلمة (الباء) ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ النجم الآية 3.

الشاهد في قوله: "عن الهوى" أي: بالهوى. وذهب ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب) إلى (عن)

في الآية السابقة عن الهوى على حقيقتها وليست مرادفة للباء⁽²⁾.

2/ قال امرؤ القيس:

"تصد وتبدي عن أسيل وتتقي ** بناظرة من وحش وجرة مطفل"⁽³⁾

الشاهد في قوله: "عن أسيل" أي: بأسيل.

3/ رميت عن القوس. أي: بالقوس وهنا (عن) للاستعانة وهذا ما قاله ابن مالك⁽⁴⁾. وهذا ما

حكاه الفراء بقوله: لأن القوس رميت بالقوس.

تاسعاً: الزائدة للتعويض:

تكون (عن) زائدة للتعويض من أخرى محذوفة، ومن أمثلة ذلك:

1/ قال زيد بن رزين:

أُنْجِزَ أَنْ نَفْسَ أَتَاهَا حَمَامُهَا ** فُهَلَا الَّتِي عَنْ بَيْنِ جَنْبَيْكَ تَدْفَعُ⁽⁵⁾

(1) طبقات فحول الشعراء لابن السلام الجمعي ج/1، ص 197.

(2) مغني اللبيب لابن هشام، ص 198.

(3) رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، ص 432.

(4) ابن عقيل ج/2، ص 29.

(5) مغني اللبيب لابن هشام، ص 198.

في هذا الشاهد يقول ابن جني: "أراد فهلا التي تدفع التي بين جنبيك، فحذفت (عن) من أول الموصول وزيدت بعده⁽¹⁾" لكن سيبويه يمنع زيادة عن في هذا الموضع⁽²⁾.
يجوز أن تدخل (ما) على (عن) ولا تبطل عملها وهذا ما ذهب إليه ابن مالك بقوله: "وبعد (من) و(عن) و(باء) زيد(ما)* * فلم يعق عن عمل قد علما⁽³⁾"
2/ قال شاعر:

إذا كنت في أمر فكن فيه محسنا * فعمّا قليل أنت ماضٍ وتاركه⁽⁴⁾
الشاهد في قوله: "فعمّا قليل" حيث دخلت (ما) على (عن) فلم تبطل عملها ومعناها.

المبحث الثاني

حرف في

حرف (في) حرف جرّ يجرّ الظاهر والمضمر، وفي الغالب يكون أصلياً. وعند البصريين يأتي لمعنى واحد وهو "الظرفية" وما سواه من المعاني الأخرى كلها ترجع إليه. أما عند الكوفيين فيأتي لعدة معاني، وذلك على سبيل نيابة الحروف عن بعضها البعض، ومرادفتها للمعاني، ومن أهم المعاني التي تؤدّيها (في):
أولاً. الظرفية:

الظرفية والوعاء هي الأصل في معانيها، وبه أقر البصريون، ولم يثبتوا لها معنى غيره. والظرفية تكون حقيقية ومجازية، وذلك نحو:

أ/ الظرفية الحقيقية:

1/ الماء في الكأس. (في) هنا للوعاء، أي: أن الماء مستقر في الكأس، أو أن الكأس يحوي الماء بداخله.

2/ قال تعالى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ...﴾ الروم من الآية 3.

3/ قال تعالى: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ...﴾ الروم من الآية 4.

ب/ الظرفية المجازية:

1/ قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ البقرة من الآية 179.

(1) النحو الوافي لعباس حسن ج/ 2، ص 515.

(2) مغني اللبيب لابن هشام، ص 198.

(3) ابن عقيل ج/ 2، ص 29.

(4) مغني اللبيب لابن هشام، ص 198.

2/ قال تعالى: ﴿...وَلَتَنَارَعُتُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ الأنفال من الآية 43.

3/ قال تعالى: ﴿...ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً...﴾ البقرة من الآية 208.

4/ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ...﴾ يوسف من الآية 7.

ثانياً. المصاحبة:

في هذه الحالة تكون (في) بمعنى (مع) التي تفيد الصحبة، وذلك على سبيل التأويل.
ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿...ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ الأعراف من الآية 38.

فالشاهد: "في أُمَمٍ" أي: مع أُمَم.

2/ قال امرؤ القيس:

وهل ينعمن من كان أحدث عهده ** ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال⁽¹⁾

فالشاهد: "في ثلاثة أحوال" أي: مع ثلاثة أحوال.

3/ قال النابغة الجعدي:

ولوح ذراعين في بركة ** إلي جوجو وهل المنكب⁽²⁾

فالشاهد: "في بركة" أي: مع بركة.

ثالثاً. التعليل:

في هذه الحالة تكون (في) سبباً وعلة فيما سيأتي بعدها، وذلك على سبيل التأويل،
ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿...مَسَكُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ...﴾ الأنفال من الآية 68.

الشاهد: "فِيمَا أَخَذْتُمْ" أي: بسبب ما أخذتم مسكم العذاب الأليم.

2/ قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنِي فِيهِ...﴾ يوسف من الآية 32.

الشاهد: "فِيهِ" أي: فذلك الذي لمتني بسببه.

3/ كان هذا القاضي مغموراً، فاشتهر في قضية خطيرة حكمها، وذاع اسمه، وعرفت مكانته. الشاهد: "في قضية" أي: بسببها.

رابعاً. الاستعلاء:

في هذه الحالة تكون (في) بمعنى (على)، وذلك على سبيل التأويل، ومن أمثلة ذلك:

(1) ديوان امرؤ القيس، ص 57.

(2) طبقات فحول الشعراء لابن السلام الجمحي ج/1، ص 297.

1/ قال تعالى: ﴿...وَلَا ضَلَّ بَيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ...﴾ طه من الآية 71.

الشاهد: " في جُدُوع " أي: على جدوع.

2/ قال تعالى: ﴿...فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا...﴾ الملك من الآية 15.

الشاهد: " في مَنَاكِبِهَا " أي: على مناكبها.

3/ أدخلت الخاتم في الأصبع. أي: على الأصبع.

خامساً. معنى إلي:

عند هذه الحالة تكون (في) مرادفة لمعنى (إلي)، وذلك على سبيل التأويل، ومن أمثلة ذلك: 1/

قال تعالى: ﴿...فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَهِهِمْ...﴾ إبراهيم من الآية 9.

الشاهد: " في أَفْوَهِهِمْ " أي: إلي أفواههم.

2/ قال تعالى: ﴿.. أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا...﴾ النساء من الآية 97.

الشاهد: " فِيهَا " أي: إليها.

سادساً. معنى من:

عند هذه الحالة تكون (في) مرادفة لمعنى (من)، وذلك على سبيل نيابة الحروف عن بعضها،

ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿...يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ النمل من الآية 25.

الشاهد: " في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " أي: من السموات والأرض.

سابعاً. المقايسة أو الموازنة:

ذكره المرادي في كتابه (الجني الداني في حروف المعاني) بأن (في) في هذه الحالة تعرف

بأنها تدخل على تالٍ يقصد تعظيمه، وتحقيقه متلوه-⁽¹⁾ والمقايسة تعرف بأنها هي وزن أمر بأمر،

ثم الحكم عليه بعد ذلك حسناً أو قبيحاً، أو زيادة أو نقصان، ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: ﴿...فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ...﴾ التوبة من الآية 38.

الشاهد في قوله: " في الْآخِرَةِ " أي: إذا وزن متاع الحياة الدنيا، وقيس بمتاع الآخرة فإنه لا

يساوي شيئاً بالنسبة إلي متاع الآخرة.

(1) الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص 251.

المبحث الثالث

حرف من

حرف (من) حرف جرّ يجرّ الظاهر والمضمر، ويقع أصلياً وزائداً. وعند البصريين يأتي معنى واحد وهو "ابتداء الغاية" وما سواه من المعاني الأخرى كلها ترجع إليه. أما عند الكوفيين فيأتي لعدة معاني، وذلك على سبيل نيابة الحروف عن بعضها البعض، ومرادفتها للمعاني، ومن أهم المعاني التي تؤدّيها (من):
أولاً. ابتداء الغاية:

قال البصريون: الغاية تكون للمكان فقط دون الزمان، أما الكوفيون والأخفش والمبرد وابن دستوريه: أجازوا ابتداء الغاية للزمان، وساقوا لذلك عدة أمثلة منها⁽¹⁾:

1/ قال تعالى: ﴿... مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ التوبة من الآية 108.

2/ مطرنا من يوم الجمعة إلى الجمعة.

3/ قال النابغة الذبياني:

تخيرن من أزمان يوم حليلة ** إلى اليوم قد جربن كل التجارب⁽²⁾

4/ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ...﴾ الإسراء من الآية 1.

الشاهد في قوله: "مِنَ الْمَسْجِدِ" أي: المكان الذي بدأت منه الرحلة.

5/ قال تعالى: ﴿... لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ التوبة من الآية 108.

الشاهد في قوله: "مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ" وهنا (من) ابتدائية زمنية وهذا خلافاً للبصريين الذين منعوا هذا المعنى لـ(من)، وتعليل البصريين من أول يوم على وتقدير من تأسيس أول يوم.

5/ قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ...﴾ آل عمران من الآية 121.

الشاهد في قوله: "مِنْ أَهْلِكَ" أي: من مكانهم.

6/ فلان ميمون الطلعة من يوم ولادته. الشاهد في قوله: "من يوم" فمن هنا لابتداء زمنية أي: من أول نشأته.

(1) شرح المفصل لابن يعيش ج/8، ص10.

(2) ديوان النابغة الذبياني، ص12.

ثانياً. التبعية:

في هذه الحالة يكون ما قبل (من) في الغالب جزءاً من المجرور بها مع صحة حذفها، ووضع كلمة (بعض) مكانها، وهذا ما ذهب إليه الكوفيون. ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿...حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ آل عمران من الآية 92.

فالشاهد: "مِمَّا تُحِبُّونَ" أي: بعض ما تحبون.

2/ قال تعالى: ﴿...مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ...﴾ البقرة من الآية 253.

فالشاهد: "مِنْهُمْ" أي: بعضهم.

3/ خذ من الدراهم. أي: بعضها.

4/ ادخر من غناك لفقرتك ومن قوتك لضعفك. أي: بعضه و بعضها.

ثالثاً. بيان الجنس:

عند هذه الحالة يصح الإخبار بما (من) عمّا قبلها، وأن يخلفها اسم موصول مع ضمير يعود على ما قبلها⁽¹⁾ ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿... فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ...﴾ الحج من الآية 30.

الشاهد: "مِنَ الْأَوْثَانِ" فالأوثان فئة من جنس عام. أي: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن.

2/ قال تعالى: ﴿... وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ...﴾ الكهف من الآية 31.

الشاهد: "مِنْ سُنْدُسٍ". أي: الذي هو سندس.

وكثيراً ما تقع (ما) و(مهما) قبل (من) ومن أمثلة ذلك:

3/ قال تعالى: ﴿... مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا...﴾ فاطر من الآية 2.

الشاهد: "مِنْ رَحْمَةٍ" أن (ما) سبقت (من) أي: التي هي رحمة.

4/ قال تعالى: ﴿... مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ...﴾ الأعراف من الآية 131.

الشاهد: "مِنْ آيَةٍ" أن (مهما) سبقت (من) أي: التي هي آية.

رابعاً. الظرفية:

تكون (من) في هذه الحالة بمعنى (في) ووجب عليها أن تحوي المعنى كاحتواء الظرف بمظروفه⁽²⁾ وذلك مثل:

(1) النحو الوافي لعباس حسن ج/2، ص419.

(2) التصريح على التوضيح للأزهري ج/2، ص10.

1/ قال تعالى: ﴿... إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ...﴾ الجمعة من الآية 9.

الشاهد: " مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ " أي: في يوم الجمعة. فالظرفية زمانية.

2/ قال تعالى: ﴿...أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ...﴾ فاطر من الآية 40.

الشاهد: " مِنَ الْأَرْضِ " أي: في الأرض. فالظرفية مكانية.

3/ قال شاعر:

عسى سائل ذو حاجة إن منعه ** من اليوم سؤلاً أن يسرفي غد⁽¹⁾

فالشاهد في قوله: "من اليوم" أي: في اليوم. فالظرفية زمانية.

خامساً. التعليل:

عند هذه الحالة تكون (من) بمعنى (من أجل) أو سبب. وهنا لزم أن يكون ما قبلها سبباً فيما بعدها. ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا...﴾ نوح من الآية 25.

الشاهد: "مِمَّا" أي: بسببها كان الإغراق.

2/ قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ...﴾ البقرة من الآية 19.

الشاهد: "مِنَ الصَّوَاعِقِ" أي: بسبب تلك الصواعق جعلوا أصابعهم في آذانهم.

3/ قال تعالى: ﴿...مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ المائدة من الآية 32.

الشاهد: "مَنْ أَجَلِ" أي: بسبب ذلك.

4/ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾ البقرة من الآية 74.

الشاهد: "مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" أي: بسببها.

سادساً. المجاوزة:

تكون (من) مرادفة لمعنى (عن) للمجاوزة المجازية، وذلك عن طريق التأويل والمجاز.

ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ...﴾ قريش الآية 4.

الشاهد: "مِنْ جُوعٍ" أي: عن جوع. لكن ذهب البصريون إلى أن (من) هنا لا ابتداء الغاية، وساقوا

الحجة لذلك بأن الإطعام من أول بدء الجوع، فإنهم لم يحسوا بمرارة الجوع ولم يقاسوه، وأن

الله أكرمهم بأن أطعمهم من بدايته، فعندهم أن الجوع مبعّد ببداية الإطعام.

2/ قال تعالى: ﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ الزمر من الآية 22.

(1) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص314..

الشاهد: " مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ " أي: عند ذكر الله.

3/ قال تعالى: ﴿...يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا...﴾ الأنبياء من الآية 97.

الشاهد: " مِنْ هَذَا " أي: عن هذا.

سابعاً. الاستعانة:

في هذه الحالة تكون (من) مرادفة لمعنى اللبأ التي تأتي للاستعانة. ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿...يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ...﴾ الشورى من الآية 45.

الشاهد في قوله: " مِنْ طَرْفٍ " أي: بطرف.

2/ قال تعالى: ﴿...يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ الرعد من الآية 11.

الشاهد في قوله: " مِنْ أَمْرِ اللَّهِ " أي: بأمر الله. ونقل الرماني في كتابه (معاني الحروف) إلى أن

بعض أهل المدرسة البصرية يقولون في هذا المعنى: له معقبات من أمر الله⁽¹⁾.

3/ قال تعالى: ﴿...مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ...﴾ القدر من الآية 4.

الشاهد في قوله: " مِنْ كُلِّ " أي: بكل.

ثامناً. الاستعلاء :

تأتي (من) بمعنى (على)، وذلك على سبيل الاستعلاء المجازي، وهذا ما ذهب إليه

الكوفيون وأبو الحسن الأخفش⁽²⁾ وذلك عن طريق التأويل ومرادفة حروف الجر لبعضها

ونياتها لبعض وهذا خلافاً للبصريين الذين منعوا ذلك ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: ﴿...وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ...﴾ الأنبياء من الآية 77.

الشاهد في قوله: " مِنَ الْقَوْمِ " أي: على القوم.

تاسعاً: البديل:

تكون (من) بمعنى كلمة (بديل)، ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ﴿...أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ مِنَ اللَّهِ...﴾ التوبة من الآية 38.

الشاهد في قوله: " مِنَ الْآخِرَةِ " أي: بدلها.

2/ قال تعالى: ﴿...لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً...﴾ الزخرف من الآية 60.

الشاهد في قوله: " مِنْكُمْ " أي: بدلکم.

3/ قال تعالى: ﴿...لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾ آل عمران من الآية 10.

(1) معاني الحروف للرماني ص 98.

(2) التصريح على التوضيح للأزهري ج/2، ص 10.

الشاهد في قوله: " مِنْ اللَّهِ " أي: بدل طاعة الله، أو بدل رحمة الله.

عاشراً. الفصل:

في هذه الحالة تأتي (من) لتمييز ما قبلها عن ما بعدها، وقد عرفت بأنها تدخل على المتضادين، أو متباينين على غير تضاد، ثم تميز بينهما⁽¹⁾:

1/ قال تعالى: ﴿...وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ...﴾ البقرة من الآية 220.

الشاهد في قوله: " مِنَ الْمُصْلِحِ " حيث دخلت (من) على متضادين (المفسد_المصلح) وميزت بينهما.

2/ قال تعالى: ﴿...حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ آل عمران من الآية 179.

الشاهد في قوله: " مِنَ الطَّيِّبِ " حيث دخلت (من) على متضادين (الخيث_الطيب) وميزت بينهما.

الحادي عشر. التوكيد:

في هذه الحالة تكون (من) زائدة، وقيل دخولها كخروجها. وهي تزداد في حالتين: الحالة الأولى. وتعرف بالزائدة لتوكيد للاستغراق: وهي أن تدخل على الأسماء التي تأتي من أجل العموم، ويجب في هذه الحالة أن تكون مختصة بنفي، مثل: ما قام من أحد. أي: ما قام أحد. فهنا من زائدة وتفيد التوكيد⁽²⁾.

الحالة الثانية. زائدة تفيد التنصيص على العموم: وعرفه المرادي في كتابه (الجني الداني في حروف المعاني) بأنها الزائدة لاستغراق الجنس. وهي داخلة على نكرة لا تختص بالنفي، مثل: ما في الدار من رجل⁽³⁾.

أما عند سيبويه وجمهور البصريين ف(من) لا تزداد إلا بشرطين:

الشرط الأول / أن تكون ما قبلها غير موجب منفي، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ الأعراف من الآية 59. والنهي نحو: " لا يقيم من أحد " والاستفهام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿...هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ...﴾ فاطر من الآية 3. وعندهم لا يحفظ إلا لهل فقط دون أخواتها الباقيات للاستفهام. الشرط الثاني / أن يكون مجرورها نكرة.

(1) الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص314..

(2) المصدر السابق ص316..

(3) الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص316.

وزاد ابن يعيش في كتابه (شرح المفصل) شرطاً ثالثاً وقال: "اشتراط سيبويه ثلاثة شروط: أحدهما أن تكون نكرة، والثاني أن تكون عامة، والثالث أن تكون غير موجب⁽¹⁾". وسار معهم في هذا المذهب الكسائي وأبو الحسن الأخفش. أما عند الكوفيين فإن الزيادة اشترط لها شرط واحد: هو تنكير مجرورها. ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى: ... ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأنعام من الآية 34.

2/ قال تعالى: ... ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ الكهف من الآية 31.

أما أهل البصرة فرفضوا تعليل تلك الشواهد، وأرجعوا (من) إلي معناه الأصلي وهو الابتداء.

الخاتمة:

الحمد لله الذي باسمه يبدأ كل أمر ويختتم، وأحمده تعالى على ما هدى وأنعم، والصلاة والسلام على سيد العرب، والعجم، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ذوي المكارم والشيم، وبعد:

بفضله تعالى قد اكتملت دراسة هذا البحث، فأرجو أن أكون بهذا الجهد المتواضع قد قدمت خدمة للغة القرآن، ولدارسها والمهتمين بشأنها.

الخلاصة:

قد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لحرف عن المبحث الثاني: لحرف في المبحث الثالث: لحرف من النتائج

لقد توصل البحث لعدد من النتائج نؤجر أهمها في التالي:

- 1- حرف (من) من أكثر الحروف معاني في القرآن الكريم.
- 2- حرفا (في) من أقل الحروف معاني في القرآن الكريم.
- 3- لقد استطاعت الدراسة – بعون الله – أن تجمع معاني حروف الجرّ الأحادية وما يتعلق بها من مسائل، والتي جاء الحديث عنها مفرقاً في المصادر والمراجع النحوية – دون القليل منها في مكان واحد.
- 4- مهدت الدراسة وهيأت لإمكانية عمل معجم مفهرس خاص بحروف المعاني في القرآن الكريم. ومن هنا أناشد الباحثين في هذا المجال بضرورة إثراء المكتبة العربية بهذا المعجم المفهرس لحروف المعاني في القرآن الكريم حسب معانيه وعملها.

(1) الكتاب لسيبويه ج/4، ص 226-228.

التوصيات:

- صور للكثير من أبناء الأمة العربية أن لغتهم متخلفة وغير مواكبة؛ لذا ضعف اهتمامهم بها، وانصرفوا إلى العناية باللغات الأخرى، ظناً منهم بأنها مدخل لمصادر الرزق، ففشا اللحن بينهم في محافلهم، ومحاضراتهم دون أن يحسوا بالجرح، وحتى تتغير هذه الصورة المؤسفة، وتعاد للغة الثقة في نفوس أبنائها، أوصي بالتالي:
- (1) تشجيع الطلاب على ربط بحوثهم بالقرآن الكريم، وهي ساحة طيبة لمعيشة هذا الكتاب الذي هجره الكثيرون، ويجعله الأكثرون.
 - (2) أن تهتم شعبة إعداد المناهج بوزارتي التربية والتعليم العام و العالي. بمسألة وضع قواعد النحو في إطار وظيفته وأهميته، وبذا يتعلم طلابنا، الغرض الأساسي الذي من أجله وضع النحو؛ وذلك ليكون اللسان سليماً من الخطأ، وليس حفظ قواعد، ونظريات دون تطبيق اللسان.
 - (3) تيسير تدريس قواعد اللغة العربية، واستخدام الوسائل التعليمية الحديثة من: حاسبات آلية، وأفلام سينمائية، وتلفزيونية، وغير ذلك مما يساعد على الاستيعاب، ويشجع على استخدام اللغة الفصحى في الحياة العامة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- (1) الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنبار تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار إحياء التراث العربي - طبعة رابعة - 1380هـ - 1961م.
- (2) أوضح المسالك لابن هشام تحقيق وضبط وشرح: مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - طبعة سادسة - 1980م.
- (3) التصريح على التوضيح لخالد الأزهر دار إحياء الكتب العلمية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- (4) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح شواهد للعيني - نور الدين أبي الحسن الأشموني - دار إحياء الكتب العربية - بدوت / ط.ر.
- (5) حروف المعاني - للزجاجي تحقيق وتقديم: على توفيق الحمد. مؤسسة الرسالة بيروت - دار الأمل الطبعة الثانية 1406هـ 1986م.
- (6) الجني الداني في حروف المعاني - الحسن بن قاسم المرادي
- (7) تحقيق: فخر الدين قباوة. منشورات دار الآفاق جديدة- بيروت الطبعة الثانية 1403هـ 1983م.
- (8) الخصائص لابن حنيت تحقيق: محمد علي النجار - طبعة ثانية - 1371هـ - 1952م.
- (9) ديوان امرؤ القيس تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1984م
- (10) ديوان الفرزدق تحقيق: كرم البستاني، دار صادر بيروت، بدون / ت/ ط.
- (11) ديوان النابغة الذبياني المكتبة الثقافية بيروت، بدون / ت/ ط.

- (12) رصف المباني في شرح حروف المعاني - للمالقي تحقيق: د. احمد محمد الخراط. دار القلم - دمشق - بيروت الطبعة الثانية 1405 هـ - 1985 م.
- (13) شرح ابن عقيل ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل محمد محي الدين عبد الحميد - مكتبة دار التراث - القاهرة - 1420 هـ - 1999 م.
- (14) شرح المفصل لابن يعيش - مكتبة المتنبي - القاهرة - بدون تاريخ طبعة.
- (15) شرح جمل الزجاج لابن هشام دراسة وتحقيق: د. علي محمد عيسى مال الله. عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية - طبعة ثانية - 1406 هـ - 1986 م.
- (16) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي وتحقيق: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. بدون: ت/ط/ر.
- (17) كتاب الجمل في النحو تصنيف: الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق: د. فخر الدين قباوة - طبعة خامسة - 1416 هـ - 1995 م.
- (18) الكتاب لسيبويه تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون - دار الجيل - بيروت - طبعة أولى - 1411 هـ - 1991 م.
- (19) لسان العرب لابن منظور دار صادر - بيروت - بدون - تاريخ طبعة.
- (20) معاني الحروف للرماني. تحقيق وتعليق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله - مراجعة: سعيد الأفغاني - دار الفكر - بيروت - طبعة سادسة - 1985 م.
- (21) مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام تحقيق وشرح وتقديم: د. عبد الفتاح إسماعيل شلي دار الشروق - جدة - الطبعة الثالثة - 1404 هـ - 1984 م.
- (22) من أسرار حروف الجرّ في الذكر الحكيم د. محمد الأمين الخضري مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى - 1409 هـ - 1989 م.
- (23) النحو الوافي لعباس حسن دار المعارف - القاهرة - الطبعة الحادية عشرة - بدون تاريخ طبعة.

الوصل والفصل في الكتابة العربية

د. دفع الله حمد الله حسين*

د. عبد الحميد محمد كمال الدين**

المبحث الأول

الإطار العام للمبحث

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الهادي الأمين، وعلى آله وصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الكتابة العربية . بما انفردت به من مزايا كثيرة عن اللغات الأخرى . قد جعل الكلمة المكتوبة تلعب دوراً مهماً في حياتنا المعاصرة؛ في المجالات كافة، سواء في حقل التعليم، أو الإفتاء، أو وسائل الإعلام، وغيرها من المجالات، وأصبحت السلامة النحوية والإعلامية، فيما نقرأ ونكتب، جزءاً مكملاً لسلامة مخرجات هذه المؤسسات، كما أن الخطأ في كتابة كلمة ما قد يؤدي إلى مواقف لا يؤمن سوء عاقبتها.

ومع هذا التنبيه والحرص، نجد أن الخطأ في الكتابة واقع فيما نكتب، فما السبب إذن؟! إن السبب قد يعود إلى طبيعة الكلمة العربية، بل الحرف العربي بعامته، وربما يعود إلى الرسم الإملائي، وتشعبه واختلاف النظر في قواعده، وطرق تدريسه.

إن التأمل إلى واقعنا المعاصر يرى أن تحقيق السلامة الإملائية في الكتابة أصبح بعيد المنال، ويعد ذلك مشكلة؛ إذ نكتب الكلمة نريد بها معنى محدداً، ونخطأ في كتابتها فيذهب هذا الخطأ بمدلولها إلى معنى آخر. وهذا الأمر أصبح يورق كتاب استراتيجيات التعليم، وكذا المعلمين الذين تقع عليهم عملية التعليم والتعلم، ونرى أن الأمر قد تطور وتجاوز محيطه، ليعمل على اهتزاز الثقة في مخرجات التعليم في جانب الكتابة العربية، لذا كان لا بد أن توجه الجهود نحو إصلاح هذا الواقع.

وأول ما تصوب إليه جهود الإصلاح هو القواعد الإملائية؛ ففي صلاح هذه القواعد عند النشء، صلاح للعملية التعليمية برمتها. ونرى أن هذا البحث، والذي جاء تحت عنوان:

* أستاذ النحو والصرف المدير التنفيذي لمركز بحوث القرآن الكريم والسنة النبوية.

** أستاذ النحو والصرف رئيس وحدة دائرة الخريجين جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

(الوصل والفصل الكتابة العربية مضافاً إلى تقدّم من جهود الباحثين والدّارسين، البذرّة الأولى في مسيرة العناية بالكتابة ككلّ، ولعلّ اقتصار البحث على الوصل والفصل إنّما يعود إلى أن الدّرس حول الوصل والفصل لم ينل حظّه في التّعليم الأساس، بل يتأخّر تناوله في بعض الأحيان. إلى المرحلة الجامعيّة.

• أهميّة الموضوع:

إنّ الأصل في الكتابة العربيّة فصل الكلمة من أختها؛ لأنّ كلّ كلمةٍ على معنى غير الذي تدلّ عليه الكلمة الأخرى: وكذا الحروف: أحاديّة أو ثنائيّة أو ثلاثيّة أو رباعيّة، توصل مع بعضها لتؤلّف كلمةً لها معنى، وتفصل فيكون لكلّ حرفٍ ممّا وصّلت معنىً مستقلاًّ بالفهم. إنّ قواعد الإملاء نظامٌ لغويّ معيّن، موضوعه في هذا البحث، الكلمات التي يحب فصلها، وتلك التي ينبغي وصلها. وللوصول إلى هذه الغاية يمكن بلورة أهميّة الموضوع في النقاط الآتيّة:

1. إنّ التزام قواعد النّحو والصّرف في الكتابة العربيّة وسيلةٌ لضمان أن تسلم كتابتها من النّاحيتين: الإعرابيّة والاشتقاقية.
 2. إنّ الإملاء هي الوسيلة التي تصوّر لنا الكلمة، وتُعطينا الرّمز الكتابيّ الذي تعبّر به عن هذه الكلمة.
 3. إنّ سلامة الكتابة ضرورة لاستكمال عمليّة الاتصال، ونقل مدلولاته على النّحو الذي يُريده منتج الفكرة، يتمّ ذلك عند ممارسة أيّ فعلٍ كتابيّ أو شفاهيّ، تكون اللّغة هي الأداة النّاقلة له.
 4. إنّ الكتابة هي سجلّ حضارات العالم والمخزون المعرفيّ المنقول من جيلٍ إلى جيل، ففي سلامة هذه الكتابة سلامةٌ لهذا السّجل.
 5. إنّ الخطأ الإملائيّ. كما ذكرنا. يُشوّه الكتابة، وقد يعوق فهم الجملة، فيقود إلى زعزعة ثقة القارئ بالكاتب.
- والمقصود بالخطأ الإملائيّ، هو عدم قدرة الفرد على تمثيل القواعد الإملائيّة، بشكلٍ سليم، أثناء الكتابة، كما أنّ مظاهر هذا الخطأ قد تبدو في كتابة الهمزات بأنواعها ومواضعها المختلفة، أو أن يفصل الكاتب بين الحروف التي يجب وصلها، أو يحذف الحروف التي حقّها أن تزداد في الكلمة، والعكس صحيح.

• أسباب اختيار الموضوع:

1. إكساب القارئ والكاتب . على السواء . المعلومات التي تُعينه على رفع كفايته وقدرته على الكتابة.
2. الإسهام في تحسين واقع الممارسة في الجانب الكتابي التي تدفع المتعلم للاهتمام بما يكتب.
3. رفع معدل الرّفص بأنّ الأخطاء الشائعة في الكتابة ليست سبباً في القول بصعوبة اللغة العربيّة، وإنّما الأمر متعلّق بضعف الاهتمام بمادّة القواعد الإملائيّة وطرق تدريسها.

• مشكلة البحث:

يؤدّي الخطأ في الكتابة إلى تحريف المعنى وإلى غموض الفكرة. ولهذا تعدّ الكتابة السليمة من الأخطاء مهارة مهمّة في التّعليم، وضروريّة في نقل الأفكار والتّعبير عنها بوعي وإدراك.

وهذا الخطأ أبأوه كُتُبُ؛ فأول ما تُوجّه إليه سهاّم النّقد والانتهاّم هو المعلّم بصفة عامّة، ومعلّم اللغة بصفة خاصّة. لما يحتلّ هذا المعلّم من مكانة لدى المتعلّمين، باعتباره القدوة في لغته سواء تكلم أم كتب. وهذا الأمر يتماهى مع الأصوات التي ترى أنّ إصلاح هذا الواقع في إصلاح المعلّم.

إنّ مفتاح الحلّ . في رأينا ليس المعلّم فقط، في إطار إصلاح بيئة عمله، وإعداداته علمياً ومهنياً؛ إنّ القضية شائكة ومتشعبة، يتقاطع فيها فعل المعلّم مع وسائط أخرى، فالبيت والأسرة مثلاً ليسا بمنأى عن المسؤولية، وكذا وسائل الإعلام: المكتوبة والمرئية والمسموعة، يضاف إلى ذلك النظام التّعليمي والمقرّرات الدّراسيّة، ولجان الاختبار والقَبُول، وما تضعه من معايير لاختيار عناصر تتم عبرها تنسيب المعلمين إلى كليات التّربية واللّغة العربيّة وآدابها، وكلّ كليّة لها اتصال وتأثير على العمليّة التّعليميّة.

وتظلّ الشّكوى من الأخطاء في الكتابة متواصلة، وتواتر الأخطاء وتكرارها في كتابات عددٍ غير قليل من المتعلّمين، وكتابات طلّاب الجامعات الذين ستكون اللّغة العربيّة تخصّصهم الأكاديمي . تظلّ هذه الشّكوى قائمة، وأرجو أنّ يكون مردّ ذلك ليس إلى اللّغة العربيّة وما يُقال عن صعوبتها. فالظّاهرة أصبحت محيطاً اهتمام كبير من الغيورين على لغتنا الجميلة. وتمّ بلورة الظّاهرة في أنّها ضعف لغويّ بشكل عامّ، وضعف كتابيّ بشكل

خاصّ، مظاهرها تبدو بأنّها أخطاء إملائيّة ونحويّة في لغة الكتابة، وأخطاء صرفيّة وإعرابيّة في لغة الحديث، فالمشكلة إذن. تتبلور في أنّ الأخطاء قد طالت الاتّصال اللّغويّ والشّفويّ والكتابيّ.

• أهداف البحث:

1. إعداد مادّة تعمل على تمكين طلاب العلم من تمثيل القواعد الإملائيّة تمثيلاً صحيحاً أثناء الكتابة.
2. الإشارة إلى أنّ الخطأ الإملائيّ يُؤدّي إلى تحريف المعنى، وغموض الفكرة، وتشويه الكتابة؛ ويعمل على إعاقة فهم الجملة.
3. تزويد معلّي اللّغة بمعارف تساعد في تقليل نسب الأخطاء الإملائيّة لدى الطّلاب.
4. لفت النّظر إلى أنّ القرآن الكريم خير معين لتلافي هذه الأخطاء، ويساعد في إكمال الأنشطة والمهارات الإملائيّة في الكتب التي يدرسها الطّلاب.

• حدود البحث:

يقتصر موضوع البحث على دراسة الفصل والوصل في الكتابة العربيّة، يعرض أهمّ ما يوصل وما يفصل في إطار نماذج مختارة وعرض آراء علماء النّحو حول ذلك، ويمكن للوصول إلى رؤية يمكن أن نتصور بها الأخطاء الإملائية الأخرى الشّائعة.

• منهج البحث:

تقتضي طبيعة البحث التزام المنهج الوصفيّ الذي يعتمد على تتبّع الواقع من مصادره ووصفه وصفاً دقيقاً يُوصل إلى حقائق علميّة تُفضي إلى نتائج تحقّق الأهداف.

• هيكل البحث:

يتكون هيكل البحث من مقدّمة و أربعة مباحث وخاتمة، وتُفصيل المباحث على النّحو التالي:-

- المبحث الأول: الإطار العامّ للبحث.
- المبحث الثاني: ما يُوصل في الكتابة العربيّة.
- المبحث الثالث: ما يفصل في الكتابة العربيّة.
- المبحث الرابع: معنى (ما) مفصولة بأكثر من معنى.

المبحث الثاني

ما يوصل في الكتابة العربية

في اللغة العربية تُوصل كل كلمة لا يصح الابتداء بها، أو الوقوف عليها، وهي قاعدة مطردة في الرسم الإملائي؛ فلا يصح ((الابتداء أو الوقوف على ضمائر الوصل وتاء التانيث ونوني التوكيد الخفيفة والثقيلة، وعلامات الإعراب الفرعية (الواو والألف و الباء) والألف والتاء في جمع المؤنث السالم، وحروف الزيادة المجتمعة في (سألتمونيها)، وبعض حروف الجرّ التي على حرف واحد، مثل الباء واللام، وتاء القسم، و(أل) التعريف، وها التنبية))⁽¹⁾. ومن مواضع الوصل التي نسوقها ههنا ما يلي:

• وصل (لا) بأنّ الناصبة للمضارع و(إن) الشرطية:

تُوصل (لا) بأنّ الناصبة للفعل المضارع، ويكثر ذلك في كلام العرب نثراً وشعراً، ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَيْتَ لَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁽²⁾. وتوصل مع أن الشرطية في نحو وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾⁽³⁾. وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾⁽⁴⁾.

ويُرى حذف التّون مع قوله: (نَضْرُوهُ) و(ك) تخفيفاً للجزم الحادث عن (إن) الشرطية المدغمة في (لا).

• وصل (من) بما ذكر قبلها.

ومنها (من) الاستفهامية، وهي توصل بحرف الجرّ السابق عليها، خاصّة الحرفين: (من) و(عن) نحو قولك: (عمّن أخذت الكتاب) أو أن تقول: (ممن استعرت هذا الكتاب)؟.

(1) مهارات لغوية، د. حسين عباس الزقايعة، وعبد. الحليم الرّهوط، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، 1426هـ

2006م، ص 51

(2) سورة الحديد: ٢٩.

(3) سورة التوبة: ٤٠.

(4) سورة الأنفال: ٧٣.

وتوصل (مَنْ) الموصولة بحروف الجرّ، أيضاً؛ فمع (مِنْ) تقول: (خذ العلم مِمَّنْ تثق به) وفي (عن) تقول: خذ العلم عمن تثق به؛ وكلاهما صحيح. ويمكن تمثيل ذلك على الجدول الآتي:

نوع (مَنْ)	التركيب	الاتصال	الأمثلة
استفهامية	مِنْ + مَنْ	مِمَّنْ	- مِمَّنْ هذا الكتاب؟.
استفهامية	فِي + مَنْ	فيمن	- فِيمَنْ رغبت؟.
استفهامية	عَنْ + مَنْ	عَمَّنْ	- عَمَّنْ سأل؟.
موصولة	عَنْ + مَنْ	عَمَّنْ	- أسأل عَمَّنْ تحب.
موصولة	فِي + مَنْ	فيمن	- فِيمَنْ ترغب.
شرطية	عَنْ + مَنْ	عَمَّنْ	- تَدافعُ الحقَّ أدافع.
شرطية	عَنْ + مَنْ	عَمَّنْ	- عَمَّنْ تبحثُ أبحث.

• وصل (ما) الزائدة والاستفهامية والكافة:

تناول النحاة (ما) من جهة أنها زائدة للعوض أو لغيره⁽¹⁾. وتكون عوضاً عن (كان) واسمها كقولك: (افعل هذا إما لا)، أي إن كنت لا تفعل غيره.

وزيدت (ما) عوضاً عن (كتب) في قول الشاعر⁽²⁾:

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذَا نَقَرٍ * فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضَّيْعُ

وعلق سيبويه عن (أَمَّا) الواردة بالبيت بقوله: ((فإنما هي (أَنْ) ضُمَّتْ إِلَيْهَا (ما) وهي (ما) التوكيد. ولتكون عوضاً من ذهاب الفعل))⁽³⁾. والفعل الذي يعنيه هو (كنت) المتصرفة عن (كان).

(1) الأدوات النحوية ومعانيها في القرآن الكريم، عرض وتحليل، د. محمد علي سلطاني، ط، دار العصماء سوريا، دمشق 1416هـ 2005م، ص172.

(2) البيت لعباس بن مرداس، انظر: الكتاب؛ 293/1، وخزانة الأدب 10/2.

(3) الكتاب؛ 293/1.

هذا، وتوصل (ما) الزائدة بحرق الجرّ، إذا وقعت بين الجار والمجرور، نحو قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (1). وقوله سبحانه: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ (2) قوله في سورة نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ (3) في الآية الأولى وصلت (ما) مع حرف الباء وفي الثانية بالحرف (عن) والثالثة مع الحرف (مَنْ). وتستطيع أن تقدّر حذفها في غير القرآن بقولك: (فبرحمة من الله) و(عن قليل ليصبحن) و(من خطيئاتهم أغرقوا). ومما توصل به (ما) الزائدة أيضاً حرف الشرط (إن) وأسماء الشرط السابقة عليها، نحو قوله تعالى ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُغْنِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (4)

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (5). وتوصل مع (أي) نحو قوله تعالى: ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ (6)، وتوصل مع (حيث)، من ذلك ما رواه أبو ذر (7) ومعاذ (8) (رضي الله عنهما) عن رسول الله ﷺ مثال: ((أتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن)) (9).

(1) سورة آل عمران: 159.

(2) سورة المؤمنون: 40.

(3) سورة نوح: 25

(4) سورة الإسراء: 23

(5) سورة فصلت: 36

(6) سورة القصص: 28.

(7) هو أبو ذر جندب بن جندب أو جنادة، من غفار، يجتمع مع النبي ﷺ في كنانة، كان من المبشرين لاعتناق الإسلام، كان من أحبّ الرجال إلى رسول الله ﷺ روى له الشيخان البخاري ومسلم - مائة حديث، وكان أكثر الصحابة مجاهرة بالحق ((رحم الله أبا ذر عيش وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة وحده)) أخرجه المستدرك على الصحيحين في التلخيص، ج3، ص52.

(8) هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري، أسلم شاباً وكان عمره ثماني عشرة سنة، شهد العقبة والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان أعلم الناس بالحلال والحرام، أنبأه رسول الله ﷺ بحبه، بعثه رسول الله ﷺ داعياً إلى اليمن، أنظر تراجم الصحابة - كتاب المعاني والأحكام في شرح الأربعين النووية للشيخ أحمد علي الإمام، ط1/ 1435 هـ/ 2014م، ص 735-738، دار النشر الخرطوم: شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

(9) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرّة الناس ج7، ص 488، حديث رقم 2115، ولمعرفة درجة الحديث انظر هامش ص 298، كتاب المعاني والأحكام في شرح الأربعين النووية للشيخ أ.د. أحمد علي الإمام، سبق ذكره.

وتُوصل (ما) أيضاً مع (كن) كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾⁽¹⁾.
وكما تُوصل مع (أين) نحو قوله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾⁽²⁾.

• وصل (ما) الكافة:

من صور وصلها دخولها على الحروف المشتملة بالفعل وهي: (إنَّ) و(أَنَّ) و(كأنَّ) و(لعلَّ) و(لكنَّ) و(ليتَّ) فتكفها عن العمل (3) وعن عملها هذا يعنى نظم ابن مالك:
وَوَصَلُ (مَا) بِذِي الْخُرُوفِ مُبِطِلٌ ** إِعْمَالُهَا، وَقَدْ بَيَّنَّ الْعَمَلُ
ومن الأمثلة التي تُجرى لذلك حديثه ﷺ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"⁽⁴⁾.
قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾⁽⁵⁾، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾⁽⁶⁾ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾⁽⁷⁾ ومنه قول الشاعر: في وصل (لكنَّ) ب (ما) (8).

أَصَا حُكْ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ** وَيَخْصُبُ عِنْدِي وَالْمَجْلُ جَدِيبُ
وَمَا الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى ** وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ
وتُوصل (ما) الكافة بحرف الجر الشبيه بالزائد (رَبَّ) نحو قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾⁽⁹⁾.

(1) سورة الأعراف: 38

(2) سورة النساء: 87.

(3) شرح ابن عقيل ج 1 ص 373

(4) مسلم، كتاب الجهاد، حديث رقم 3530، ج 10، ص 13، والبخاري في كتاب بدء الوحي، حديث رقم (1)، ج 1، ص 3، وأبو داود في كتاب الطلاق، باب فيما عني به الطلاق بالنيات، حديث رقم 188، ج 6، ص 117،، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد، حديث رقم 1646.

(5) سورة الحجرات: 10

(6) سورة الأنفال: 46.

(7) سورة الرعد: 7

(8) انظر مهارات لغوية، ص 53.

(9) سورة الحجر: 2

وتُوصل (ما) الكافة بالأفعال: (طال) و(قلّ) نحو قولك: (قلّمًا يخطئ المجتهد). وتوصل بالظروف: (بين) و(قبل) و(بعد) تقول فيها: (بينما) و(قبلما) و(بعدما).

● وصل (ما) الاستفهامية:

تأتي (ما) الاستفهامية ولها ثلاث صور: فالصورة الأولى: تكون مفردة كقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾⁽¹⁾، والثانية: تأتي مقرونة بـ (ذا) فتعدّان كلمة واحدة (2) كقولك: (ماذا فعلت)؟. أو هما كلمتان؛ فإن تلاهما فعل كانت (ذا) موصولة كقولك: (ماذا تفعل)؟. بمعنى: ما الذي تفعل؟.

وإن تلاهما اسم، فهي اسم إشارة. مثل قولك: (ماذا التّهانون)؟، أي: (ما هذا التّهانون)؟ فهي توصل مع حرف الجرّ السابق لها، مثل: (عن)، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ^(٢) ومثل: (في) كقول الشاعر الطغرائي:

فِيمَ الإِقَامَةِ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنَى * بِهَا وَلَا نَاقَتِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي

وتحذف ألف (ما) إذا تقدمها حرف جرّ كما مثلنا بآية (النبا) وبيت الشاعر وتعود ألفها إذا تلاها (ذا) فنقول: عمّا ذا تسأل؟. وفيما ذا تنظر؟. وتكون (ما) الاستفهامية. عند الإمام الزركشي⁽⁴⁾ بمعنى (أي شئ) ولها صدر الكلام كالشّروط ويُسأل بها عن أعيان ما لا يعقل وأجناسه وصفاته عن أجناس العقلاء، وأنواعهم وصفاتهم⁽⁵⁾ ومثّل لذلك بقوله تعالى: (ما هي)⁽⁶⁾ و(ما لونها)⁽⁷⁾، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾⁽⁸⁾.

(1) سورة طه: 17

(2) انظر: الأدوات النحوية ومعانيها في القرآن الكريم، ص 16.

(3) سورة النبا: 1-2

(4) هو محمّد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ببدر الدين، أبو عبد الله صاحب التصانيف الكثيرة، ومنها كتابه البرهان في علوم القرآن ولد سنة 745هـ. انظر: ترجمته في مقدمة البرهان تحقيق أبي الفضل الدمياطي، ص 208.

(5) البرهان، ص 1170.

(6) سورة البقرة: 68.

(7) سورة البقرة: 69.

(8) سورة طه: 17

هذا ووصل (ما) بـ (ذا) نتج عنها الأداة: (ماذا) والتي نظر إليها السيوطي⁽¹⁾. فقدّر أنّها على ستّة أوده، يمكن تحريرها على النحو الآتي⁽²⁾:

• الأول: أن تكون (ما) استفهامية و(ذا) موصولة، وهذا أرجح الوجهين، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾⁽³⁾ عمد من قرأ بالرفع، أي الذي ينفقونه العفو؛ إذا الأصل أن تجاب الاسمية بالاسمية، والفعلية بالفعلية.

- الثاني: أن تكون (ما) استفهامية و(ذا) إشارة.
 - الثالث: أن تكون (ماذا) كلّها استفهاماً على التركيب ومثاله آية البقرة التي مضت، في قراءة النّصب، أي ينفقون العفو.
 - الرابع: أن تكون (ماذا) كلّها اسم جنس بمعنى (شيء) أو موصولاً بمعنى (الذي).
 - الخامس: أن تكون (ما) زائدة و(إذا) للإشارة.
 - السادس: أن تكون (ما) استفهاماً و(ذا) زائدة.
- والجدول يبيّن أنواع (ما) والتركيب والأمثلة التي جاءت وفقاً له:

نوع (ما)	التركيب	الاتصال	الأمثلة
زائدة	بـ + ما	بما	﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ﴾
زائدة	أي + ما	أيما	﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ فَضَيْتُ﴾
كافة	إنّ + ما	إنّما	﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ﴾

(1) السيوطي: هو أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، نشأ يتيماً. وكان ذكياً، له مؤلفات كثيرة منها الأشباه والنظائر، وبغية الوعاة، والاقتراح، وجمع الهوامع وشرحه وجمع الهوامع، المزهر، والإنتقان في علوم القرآن، توفي بالقاهرة سنة 911 هـ. انظر: الأعلام 301/3، ونشأة النحو 172، ومعجم البلدان 377/2، والضوء اللامع 72/11.

(2) انظر: الإنتقان في علوم القرآن. وانظر: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم، ص 57.

(3) سورة البقرة: ٢١٩

كافة	إنَّ + ما	إنَّما	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾
استفهامية	ما + ذا	ماذا	ماذا تريد يا رجل
استفهامية	ما + ذا	ماذا	﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾

• مواضع متفرقة للوصل:

(إذ):

تُوصل (إذ) المؤنثة إذا أُضيفت إلى ظروف الزمان نحو: ليلتَنِدِ، حينَتَدِ، ساعتَنِدِ، يومَنِدِ، وعليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنًا لِّمُرُوا أَعْمَلَهُمْ﴾⁽¹⁾ و(إذ) هذه ظرف للزمن الماضي، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهِ الدِّكْرَى﴾⁽²⁾ إذ إنَّ (إذ): اسم ظرف يشير للزمن الماضي مضاف إليه، والتَّوْنين بدل من جملة محذوفة يدلُّ عليها ما قبلها، وتقديرها: (إذا جاء ربُّك والملك صفًّا صفًّا) ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾⁽³⁾ وَأَنْتُمْ حِينِذٍ تُنْظَرُونَ⁽⁴⁾ الواقعة: 83 – 84 ف (حين): ظرف زمان مضاف، و (إذ) ظرف للزمن الماضي مضاف إليه وتقديره (انظر يومئذ).

(حَبَّ):

تُوصل معاسم الإشارة (ذا) في التَّفي والإثبات، والتَّركيب هو (حَبَّ + ذا) نحو قول الشَّاعر:

حَبَّذَا الْعَيْشَ حِينَ قَوْمِي جَمِيعَ * لَمْ تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءَ

(ما):

(ما) توصل بكلمة (سي) دائماً، نحو قول الشَّاعر امرئ القيس بحر الطَّويل⁽⁴⁾:

أَلَا رَبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ لَّكَ مِنْهُمَا * وَلَا سِيماً يَوْمًا بَدَارَةَ جُلْجُلٍ

(1) سورة الزلزلة: 6.

(2) سورة الفجر: 23.

(3) سورة الواقعة: 83-84

(4) انظر: شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 32.

تُوصِل (وي) مع (كأن) وينتج عن وصلهما قولك: (ويكأن) وجاء فيها موضع واحد في القرآن الكريم حكاية عن قارون من قوم موسى، قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾⁽¹⁾.

تُوصِل (ما) الاستفهامية بحروف الجر من مثل: (من) و(عن) و(في) و(إلى) و(اللام) و(حتى)، وينفصل عنها الألف، نحو قولك: (ممّ تخاف؟)، (وعمّ تسأل؟)، (وفيم تفكر؟)، (والأم تعزي نجاح أحمد؟)، (وبمّ تسافر غداً؟)، (ولمّ تسافر دائماً)، (حتام الحزن يا أخي؟). كما توصل بالاسم المضاف إليه نحو: بمقتضام خرجت من قائمة الدرس؟.

تُوصِل (ما) الموصولة، وهي التي بمعنى (الذي) بكلّ ممّا يأتي: (من) و(عن) و(سي) نحو: كلّ ممّا يليك، ولا تسأل عمّا لا يعنيك، ولا تتدخل فيما لا تعرف، ولا سيما⁽²⁾.

تُوصِل (ما) التكررة الموصوفة، وهي التي بمعنى (شيئ)، ومثالها كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿بَشْمَا أَشْتَرُوا بِوَدِّهِمْ أَنْفُسَهُمْ﴾⁽⁴⁾.

المبحث الثالث

ما يفصل في الكتابة العربية

كثير من الكلمات العربية تدلّ على معنى مُستقلّ بالفهم عن معنى غيرها. وهذا الوضع يستدعي أن تكتب كلّ كلمة مفصولة عمّا بعدها أو قبلها في الجملة، وقد بيّنا في المبحث الثاني موضوع الوصل. وهنا في المبحث الثالث نتناول موضوع الفصل.

فصل (ما) الاسمية:

وتأتي مفصولة من (ما) الاسمية: الاستفهامية والشرطية بنوعها: ظرفية وغير ظرفية، والتعجيبية والموصولية⁽¹⁾. وهي هنا مع الأمثلة على النحو الآتي: نحو قولك: (ما اسمك؟) فهي

(1) سورة القصص: 82

(2) انظر: مهارات التحرير العربي، د. محبوب محمد آدم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة الخرطوم، ط 1، ص 133.

(3) سورة البقرة: 271.

(4) سورة البقرة: 90

وهمزة الوصل كالشئ الواحد في النطق، لكن في الكتابة كما رأيت، وكما في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾⁽²⁾.

التعجبية نحو: ما أجمل هذا البناء!، وحاول الفراء أن يفرق بين الاستفهام والتعجب، وأجرى قوله الآتي: وقوله عز وجل: ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾⁽³⁾ يكون تعجباً، ويكون ما الذي أكفره وهذا الوجه الآخر جاء التفسير، ثم عجبته فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾⁽⁴⁾ بينما نجد ابن خالويه⁽⁵⁾ يربط بين الاستفهام والتعجب، فيقول في قوله تعالى: ﴿وَمَا آذَنَكَ مَا الطَّارِقُ﴾⁽⁶⁾. ((ما لفظ الاستفهام ومعناه التعجب))⁽⁷⁾ وقال في قوله تعالى: (مَا الطَّارِقُ): (ما تعجب في معنى الاستفهام)⁽⁸⁾.

الشَّرْطِيَّةُ: ولها صدر الكلام⁽¹⁾، وهي تأتي ظرفية، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾، وغير ظرفية كقوله

(1) معاني القرآن للفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، الهيئة العامة للكتاب، 1980م، 446/1.

(2) سورة طه: 17

(3) سورة عبس: 17

(4) سورة عبس 18.

(5) هو الحسين بن أحمد بن خالويه الهمداني. قال عنه الداني في طبقات عالم العربيّة، حافظ اللغة، بصير بالقراءة، ثقة ومشهور. أدرك ابن خالويه في بغداد جلة من العلماء كابن بكر ابن الأنباري، وابن مجاهد المقرئ، وابن دريد، وقرأ على أبي سعيد السّيرافي، ثم ترك بغداد وانتقل إلى الشّام، واستوطن بحلب واتصل ببني حمدان، وله مصنّفات كثيرة. انظر: ترجمته في شذرات الذهب 247/3، وبغية الوعاة 530/1، وتاريخ آداب اللغة العربيّة 611/2، وأنباه الرواة 352/1، وبتيمة الدّهر، وأبو منصور الثعالبي تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، طبع القاهرة 1375هـ 123/10، وفيات الأعيان 178/2.

(6) سورة الطّارق: 2

(7) إعراب ثلاثون سورة من القرآن الكريم تصميم السيد عبد الرحيم محمود، دار الكتب المصرية 1941م، ص 40

(8) المصدر نفسه: 41، وانظر الأدوات النّحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، د. محمد أحمد خضير، مكتبة الأنجلو المصرية مطبعة محمّد عبد الكريم، القاهرة، ص 52.

تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾⁽³⁾، وأمثلة (ما) الشرطية في القرآن الكريم كثيرة منها: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾⁽⁴⁾، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾⁽⁵⁾، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾⁽⁶⁾ و﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾⁽⁷⁾.

الموصولة:

جعل الفراء (ما) الموصولة بمعنى (الذي) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾⁽⁸⁾، فقال: (ما) في مذهب (الذي) ولا يكون جزء، لأنَّ (تجد) قد وقعت على (ما).. ولو استأنفتها فلم توقع عليها (تجد) جاز (الجزء))⁽⁹⁾. وإلى مثل ذلك ذهب الأخفش⁽¹⁰⁾؛ إذ جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْذِّينِ﴾⁽¹¹⁾، بمعنى (الذي) إذا جعلت للإنسان أي مكان (من)، فقال: فجعل (ما) للإنسان، وفي القول يجوز: ما جاءني زيد، وفي معنى: (الذي) جاءني زيد⁽¹²⁾.

(1) معجم الأدوات في القرآن الكريم، راجب الأسمر، ط2، دار الجيل لنشر والطباعة والتوزيع بيروت، 1425هـ/2005م، ص264.

(2) سورة التوبة: 7.

(3) سورة التوبة: 197.

(4) سورة البقرة: 106.

(5) سورة البقرة: 215.

(6) سورة البقرة: 110.

(7) سورة فاطر: 2.

(8) سورة آل عمران: 30.

(9) الأدوات التحويلة ودلالاتها في القرآن الكريم، مرجع سابق، 51.

(10) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي، مولى بني مجاشع بن درام من أصل بلخ، سكن البصرة قرأ النحو على سيبويه. له مصنفات عديدة منها، كتابه الشهير معاني القرآن وإليه يرجع الفضل في نشر كتاب سيبويه.

انظر: إشارة التعيين 131، وأنباه الرواة 36/2، والأعلام 154/3.

(11) سورة التين: 7.

(12) معاني القرآن للأخفش: 520/2.

ذهب أبو عبيدة كذلك إلى أنّ (ما) بمعنى: (الذي) في مواضع من ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾⁽¹⁾،

• فصل (ما) النَّافِيَّة:

وهي .كسابقاتها: الاستفهامية والشرطية .لها تصدر الكلام، وتكون منفصلة، وتدخل على الأسماء والأفعال. ففي الأسماء كـ (ليس) ترفع وتنصب في لغة أهل الحجاز⁽²⁾. وجاءت (ما) النَّافِيَّة في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم وهي:

- قال تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا﴾⁽³⁾.

- وفي المجادلة قوله تعالى: ﴿مَا هَؤُلَاءِ أُمَمُهُمْ﴾⁽⁴⁾ على قراءة من قرأ بكسر

التاء تَحَاوَرُكَمَا

- وقوله تعالى في الحاقة: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزٌ﴾⁽⁵⁾.

وأما دخولها على الأفعال، فلا تعمل، وتكتفي بنفي الدلالة، حيث تدلّ على الفعل الماضي بمعنى (لم) نحو: (ما خرج)، أي: لم يخرج، وفي المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحٌ تَحَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾⁽⁶⁾ وتدخل على الفعل المضارع لنفي الحال، وتكون بمعنى (لا) نحو: ما يخرج زيد، أي لا يخرج. ودلالة المعنى؛ أنّك نفيت أن يكون منه خروج في الحال.

وقال ابن الحاجب⁽⁷⁾: هي لنفي الحال في اللّغتين الحجازيّة والتّميميّة، نحو: ((ما زيد منطلقاً ومنطلقاً))⁽¹⁾، ولهذا جعل سيبويه في النّفي جواباً لـ (قد) في الإثبات ولا يريد أنّ (قد) للتّقريب في الحال، فلذلك جعل جواباً لها في النّفي.

(1) سورة آل عمران: 178.

(2) انظر: شرح ابن عقيل: 302/1.

(3) سورة يوسف: 31

(4) سورة المجادلة: 2

(5) سورة الحاقة: 47

(6) سورة البقرة: 16

(7) هو أبو عمر عثمان جمال الدين بن عمر الكرديّ الأصل، المشهور بابن الحاجب؛ لأنّ أباه كان حاجباً للأمير عزّ الدين الصّلاحيّ بالقاهرة. تلقى علومه عن الشّاطبيّ وغيره، انتقل إلى دمشق فأكبّ النّاس عليه. ومن

قال: ((يجوز أن تستعمل للتفي في المضارع والمستقبل عند قيام القرائن، قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾⁽²⁾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾⁽³⁾).

ووقف القراء عند قول الله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾⁽⁴⁾ فجعل (بشراً) منصوبة على لغة الحجازيين لأنهم لا يكادون ينطقون مثل هذا إلا بالياء فلما حذفت تركت أثراً لها هو النصب، أي أنها منصوبة على نزح الخافض. ثم تحدث عن شبهه (لا) بليس وقال إنها أشبه بليس من (ما)⁽⁵⁾. واستدل على ذلك بقراءة عبد الله ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾⁽⁶⁾ وجعل الأخفش (ما) بمعنى (ليس) في الموضع الذي تحسن فيه بالياء⁽⁷⁾

وأما الزجاج⁽⁸⁾؛ فقد وردت (ما) النافية منفصلة عنده، ويذهب مُعلّقاً على آية سورة يوسف التي وردت بها (ما) فيقول: ((إنَّ سيبويه والخليل وجميع التّحويين القدماء يزعمون أنَّ (بشراً) منصوب خبر (ما)، ويجعلونه بمنزلة ليس و(ما) معناها: معنى (ليس) في التّفي، وهذه لغة أهل الحجاز، وهي اللّغة القُدَمَى الجيّدة وزعم بعضهم أنَّ الرّفع في قولك: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾⁽⁹⁾ أقوى الوجهين. يقصد بذلك الفراء. وهذا غلط، لأنّ كتاب الله ولغة رسول الله أقوى

مصنّفاته: الإيضاح؛ الأمالي والكافية. توفي سنة 646هـ. انظر ترجمته في العبر في خبر من غير 254/3، ونشأة النّحو 129.

(1) معجم الأدوات في القرآن الكريم مرجع سابق، ص 268.

(2) سورة الدخان: 35

(3) سورة الأنعام: 29

(4) سورة يوسف: 31

(5) معاني القرآن للفراء: 42/2.

(6) المصدر نفسه: 139/3.

(7) معاني القرآن للأخفش: 129/1.

(8) الزّجاجي: هو أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق، نشأ بـهاوند جنوبي همدان، وانتقل إلى بغداد ينهل من حلقات العلماء لزم الزّجاج البصري، وقرأ عليه النّحو، ومنه لزمه لقب الزّجاجي. له تصانيف كثيرة منها: الأمالي الوسطى وكتابه (الجمال) وكتاب (اللّامات).

(9) سورة يوسف: 31

الأشياء وأقوى اللغات. ولغة بني تميم: ما هذا بشرّ، ولا تجوز القراءةُ بها إلا برواية صحيحة⁽¹⁾)).

مما سبق نخلص إلى أنّ الزّجاج يتابع الخليل وسيبويه⁽²⁾، ويجعل (ما) مشبهةً بليس وقد صرّح النّحاس⁽³⁾ بذلك أيضاً⁽⁴⁾، وعرض أقوال النّحاة في (ما) هذه من بصريين وكوفيين، فالكوفيون. كما بيّن صاحبُ الإنصاف⁽⁵⁾. على أن التّصّب على نزح الخافض والبصريون على أنّ (ما) مشبهةٌ بليس⁽⁶⁾.

• فصل (م) الحرفيّة الزّائدة:
وهي تزداد للعوض، أو لغير العوض. فزيادتها للعوض تكون عن (كان واسمها) لقولك: (افعل هذا إمّا لا)، أي إنّ كنت لا تفعل غيره. وفي البيت التّالي زيدت (ما) عوضاً عن (كُنْتُ)؛ وهو قول الشّاعر⁽⁷⁾:

(1) إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتب الإسلامية دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني ط 2، 1982، 107/3.

(2) ترجمة سيبويه:

(3) هو أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المراديّ المصريّ النّحويّ، ولد عام 338هـ/949م إمام في النّحو من شيوخه: النّسويّ أبو بد الرحمن، وأبو عبد الرحمن، وأبو جعفر الطّحاوي، وله مصنّفات تزيد على خمسة منها إعراب القرآن ومعاني القرآن، والنّاسخ والمنسوخ، والكافي في النّحو. توفي عام 471هـ وانظر: ترجمته في إشارة التّعيين ص 45، الأعلام 1/199، إنباه الرّواة 1/101، وبغية الوعاة 1/362، ونزهة الألباء 363-364.

(4) هو أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المراديّ المصريّ النّحويّ، ولد عام 338هـ/949م إمام النّحو، من شيوخه: النّسويّ أبو عبد الرحمن، وأبو جعفر الطّحاويّ، وله مصنّفات تزيد على خمسين منها إعراب القرآن، والنّاسخ والمنسوخ، والكافي في النّحو، توفي عام 471هـ. انظر ترجمته في إشارة التعبير، ص 45، الأعلام 1/199، إنباه الرّواة 1/101، وبغية الوعاة 1/362، ونزهة الألباء 363-364.

(5) ترجمة الأنصاري:

(6) إعراب القرآن للنّحاس 2/327، انظر الإنصاف، المسألة (19)، 1/151.

(7) الشّاعر هو العباس بن مرداس يخاطب خفاق بن ثدبة أبا خراشة وخفاق. بزنة غراب. شاعر مشهور. من فرسان قيس، وهو ابن عم صخر ومعاوية وأختهما الخنساء الشّاعرة المشهورة، انظر: شرح ابن عقيل 1/297.

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَا أَنْتَ ذَا نَفَرٍ ** فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضَّبْعُ⁽¹⁾

أي: إن كنت ذا نفر.

وعلق سيبويه على البيت بقوله: ((فإنَّما هي (أنْ) ضُمَّتْ إليها (ما) وهي (ما) التوكيد، لتكون عوضاً عن ذهاب الفعل))⁽²⁾. وتزاد (ما) لغير العوض إذا وقعت بعد (إذا)؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾⁽³⁾.

هذا في جانب أنها تزداد وتكون منفصلة، أما كونها تزداد فتزداد موصولةً فذاك كثير تناولناه في المبحث الثاني عند الحديث عن كتابة (ما) موصولة بغيرها، فهي إن وردت هكذا؛ كانت زيادتها إنَّما تجئ كاقفة أو غير كاقفة، نحو قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾⁽⁴⁾.

ومنه قول الشاعر⁽⁵⁾:

رُبَمَا الْجَامِلُ الْمُؤْتِلُ فِيهِمْ ** وَعَنَاجِيحُ بَيْنَهُنَّ الْمِهَارُ⁽⁶⁾

وقول الآخر:

فَإِنَّ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا ** كَمَا الْحَبَطَاتُ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ⁽⁷⁾

• فصل (كي) عن (لا):

وهي (كي) الناصبة للفعل المضارع، تُفصلُ عن (لا) النافية التي ترد بعدها نحو: قولك: اسكت كي لا أسبب لك حرجاً، ومنه قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَعْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾⁽¹⁾. يعنى ذلك إن

(1) البيت من البسيط. انظر: الأشباه والتناظر 113/2، خزانة الأدب 13/4، الخصائص 381/2، وشرح المفصل 99/2، ولسان العرب 294/6 (خرش)، والإنصاف 71/1، وأوضح المسالك 265/1، وشرح الأشموني 119/1، وهمع الهوامع 23/1، ومغني اللبيب 35/1.

(2) الكتاب 223/1، وانظر: الأدوات النحوية ومعانيها في القرآن الكريم، ص 173.

(3) سورة فصلت: 20

(4) سورة الحجر: 2

(5) أبو داود الإيادي، انظر: شرح ابن عقيل 33/2.

(6) الجامل: القطيع من الإبل مع رعائه وأربابه. وعناجيج: جمع عنجوج، وهو الخيل الطويل العنق، المهار:

جمع مهر وهو ولد الفرس. انظر شرح ابن عقيل 33/2 وانظر: 188/4.

(7) البيت زياد الأعجم من شعراء الدولة الأموية وقد أورده البغوي في مقطوعة للشاعر، انظر: زانة الأدب 278/4 وما بعدها.

لم تُسبق (كي) بـ(لام) التعليل فإن سبقتها وصلت بها كقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾⁽²⁾ وقد جاءت في الرسم القرآني منفصلة عنها في موضع من سورة الأحزاب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾⁽³⁾

المبحث الرابع

معنى (ما) مفصولة بأكثر من معنى

بسطنا الأداة (ما) من خلال مبحثين هما: الثاني والثالث، من حيث مجيئها موصولة ومفصولة، ومثلنا لبعض أنواعها؛ ولا حاجة لإعادة ما ذكر، لكن بدا لنا ضرورة استكمال العرض، عن (ما) المفصولة التي عادةً ما تأتي في السياق القرآني بأكثر من معنى؛ علماً أن الأدوات النحوية لا يتضح معناها إلا بوظيفتها السياقية، وذلك على النحو الذي نبينه من خلال عرضٍ لكلٍّ من (ما) الموصولة و(ما) المصدرية، و(ما) الاستفهامية و(ما) الشرطية، فالمجيئ لهذه الأدوات بأكثر من معنى، يقرر اختلاف معاني (ما) في الآية الواحدة عند المُعَرِّب الواحد، كما اختلف العلماء فيما بينهم في تحديد معناها في الآية الواحدة. وفيما يلي تفصيل ذلك.

* (ما) الموصولة:

(أ) تأتي موصولة مصدرية:

أجاز الزجاج في كتابه (معاني القرآن وإعرابه) أن تكون (ما) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا فِي بُيُوتِكُمْ﴾⁽⁴⁾ موصولة بمعنى (الذي). أو مصدرية تؤول مع ما بعدها بالمصدر، والمعنى على الأول: أنبئكم بالذي تأكلونه وتدخرونه، وهو الأجود عنده، والمعنى على الثاني: أنبئكم بأكلكم

(1) سورة الحشر: 7

(2) سورة الحديد: ٢٣

(3) سورة الأحزاب: 37

(4) سورة آل عمران: 49

وَأَذْخَارِكُمْ⁽¹⁾. وأجاز النَّحَّاسُ أَلَّا أَنْ تَكُونَ (ما) بمعنى الَّذِي أو مصدرية في مواضع كثيرة⁽²⁾، وجعل العائد محذوفاً إذا كانت بمعنى (الَّذِي)⁽³⁾، أما إذا كانت مصدرية فلا تقديرٍ لمحذوف. (ب) تأتي موصولة - نافية.

احتملت (ما) في قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَكُمْ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا آبَاؤَهُمْ﴾⁽⁴⁾، أن تكون نافية أو موصولة - في موضع نصب - عند الفراء - والمعنى، في رأينا يختلف على التوجيهين، فيكون التقدير مع (ما) النافية: لتنذر قوماً لم يُنذر آبائهم، أي لم يأتهم رسول قبلك، ويكون مع (ما) الموصولة: لتنذرهم بما أنذر آبائهم وإذا ألغينا (الباء-) في نظر الفراء - تكون (ما) في موضع نصب⁽⁵⁾. وقال الأخفش: الشئ نفسه في آية (يس)⁽⁶⁾ وورد ذلك عند النَّحَّاسِ في أكثر من موضع في (إعرابه)⁽⁷⁾. (ج) تأتي موصولة كافة:

ذهب الفراء في (معاني القرآن) إلى أنَّ (ما) موصولة أو كافة تمثل مع إنَّ كلمة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾⁽⁸⁾، حيث قال: ((جُعِلَتْ (ما) في مذهب (الَّذِي)، إنَّ الَّذِي صنعوا كيد ساحر)) وقد قرأه بعضهم (كيد ساحر) وكلُّ صواب، ولو نصبت (كيد سحر) كان صواباً، ولو جعلت ((إنما حرفاً واحداً))⁽⁹⁾ قوة حديث وسار الأخفش على أثر الفراء في ذلك⁽¹⁰⁾. أما أبو عبيدة في (مجازه) فيقول: ((ومن مجاز ما جاء من الكنايات في مواضع الأسماء بدلاً منهن قال: (إنما صنعوا كيد ساحر) فمعنى (ما) معنى الاسم مجاز إنَّ صنيعهم كيد ساحر⁽¹¹⁾... وهي عند أبو عبيدة مصدرية وليست بمعنى (الَّذِي). (د) تأتي موصولة - استفهامية.

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه: 418/1.

(2) انظر: إعراب القرآن للنحَّاس: 295/3.

(3) المصدر نفسه: 182/1.

(4) سورة يس: 6.

(5) انظر: معاني القرآن للفراء: 372/2.

(6) انظر: معاني القرآن للأخفش: 449/2.

(7) انظر: معاني القرآن للنحَّاس: 7/3، 50، 293.

(8) سورة طه: 69.

(9) معاني القرآن للفراء: 168/2.

(10) معاني القرآن للأخفش: 200/2.

(11) مجاز القرآن: 15/1.

أجاز النَّحَّاس في (إعراب القرآن) أن يكون ورود (ما) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾⁽¹⁾ بمعنى (الذي) أو بمعنى (أي) التي للاستفهام⁽²⁾، والتقدير: في رأينا. فلا تعلم نفس الذي أخفي لهم، فتكون (ما) موصولة أو فلا تعلم نفس أي شيء أخفي لهم، فتكون استفهامية (هـ) تأتي موصولة. نكرة:

ذهب النَّحَّاس في (إعراب القرآن) إلى إجازة (ما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾⁽³⁾، أن تكون نكرة وبعبوضة نعتاً لها، أو أن تكون موصولة وبعبوضة خبراً لمبتدأ محذوف⁽⁴⁾. (و) تأتي موصولة - شرطية:

أجاز الفراء مجيئها هكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾⁽⁵⁾ مع وجود الفاء في الجواب، لأنه أجاز دخولها على خبر (مَنْ) و(ما) و(الذي)⁽⁶⁾. ومثل ذلك قوله سبحانه:

﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾⁽⁷⁾، حيث تكون (ما) الأولى شرطية إذا قرئت الآية بالفاء، أما إذا قرئت بغير فاء فهي تحتل أن تكون شرطية على حذف الفاء أو موصولة⁽⁸⁾.

• (ما) المصدرية:

(أ) مصدرية - نافية:

(1) سورة السجدة: 17.

(2) إعراب القرآن للنحاس: 49/3.

(3) سورة البقرة: 26.

(4) إعراب القرآن للنحاس: 203/1، على قراءة برفع (بعبوضة).

(5) سورة النحل: 52.

(6) معاني القرآن للفرار: 104/2.

(7) سورة الشورى: 30.

(8) إعراب القرآن للنحاس: 391/1.

أجاز الفراء أن تكون (ما) مصدرية أو نافعية، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾⁽¹⁾، يأتي ذلك تبعاً لاختلاف القراءات، اختلف على ذلك تقدير المعنى. حيث يقول الفراء: "تضيف" (كل) إلى (ما) وهي قراءة العامة وقد قرأ بعضهم: (وأتاكم من كل ما سألتموه) وكأنهم ذهبوا إلى أننا لم نسأل الله عز وجل شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه، فقال وأتاكم من كل ما سألتموه لو سألتموه كأنك قلت: (وأتاكم كل سؤلکم)⁽²⁾.

(ب) تأتي مصدرية - زائدة:

ذهب الفراء إلى أن (ما) مصدرية أو زائدة في قول الله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾⁽³⁾ فقال: ((إن شئت جعلت (ما) في موضع رفع، وكان المعنى: كانوا قليلاً هجوعهم، والهجوع، أردت كانوا يهجعون قليلاً من الليل))⁽⁴⁾ وعلى نسق ما ذكر يجي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾⁽⁵⁾.

وأجاز الفراء أن تكون (ما) في آية يوسف مصدرية أو زائدة، واختار أن تكون زائدة، واختلف معنى الآية تبعاً لذلك وللموقع الإعرابي للمصدر المؤول، حيث يقول: ((أجود الأجوبة أن يكون (ما) لغواً فيكون المعنى ومن قبل فرطتم في يوسف)⁽⁶⁾.

(ج) تأتي مصدرية - أو بمعنى (شيء):

ومقتضى ذلك يفهم من قول الأخفش حول قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽⁷⁾ حيث يقول: ((أدخل مع (رُب) (ما) ليتكلم بالفعل بعدها، وإن شئت جعلت (ما) بمنزلة شيء، فكأنك قلت: رب شيء يود، أي: رب ود يودّه الذين كفروا))⁽⁸⁾.

(1) سورة إبراهيم: 34

(2) معاني القرآن للفراء: 77/3.

(3) سورة الذاريات: 17.

(4) معاني القرآن للفراء: 84/2.

(5) سورة يوسف: 80

(6) معاني القرآن وإعرابه: 124/3.

(7) سورة الحجر: 2.

(8) معاني القرآن للأخفش: 378/2.

وقدّر الزّجاج (ما) في قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾⁽¹⁾. إنّ المعنى ساء حكماً يحكمون، أو ساء الحكم يحكمون⁽²⁾، ف (ما) عنده بمعنى (شيء).

• (ما) الاستفهامية:

(أ) تأتي استفهامية. نافية..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا تَعْنِ الْتَذُرُ﴾⁽³⁾، وللفرّاء في ذلك نظر، حيث يقول ((إن شئت جعلت (ما) جحداً، تريد ليست تغني عنهم التذّر، وإن شئت جعلتها في موضع (أي). كأنك قلت: فأَيُّ شَيْءٍ تَغْنِي التَّذْرُ))⁽⁴⁾. وذات الشّيء قال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾⁽⁵⁾. وأجاز النّحاس ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾⁽⁶⁾، كما أجازَه الفهم نفسه في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾⁽⁷⁾.

(ب) تأتي استفهامية. زائدة: حيث أجاز النّحاس مجئ (ما) استفهامية. زائدة في قوله

تعالى: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾⁽⁸⁾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾

(ج) تأتي استفهامية. بمعنى (شيء):

قال الفرّاء إنّ (ما) تأتي استفهامية أو بمعنى (شيء) (9) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾⁽¹⁰⁾.

(1) سورة العنكبوت: 4.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 160/4.

(3) سورة القمر: 5.

(4) معاني القرآن للفرّاء: 104/3.

(5) سورة سؤيف: 65.

(6) سورة الشعراء: 207.

(7) سورة المسد: 2.

(8) سورة البقرة: 69.

(9) معاني القرآن للفرّاء: 332/2.

(10) سورة السجدة: 17.

• (ما) الشرطية:

ذهب الفراء ببسط رأيه حول قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا تَدْعُوا﴾⁽¹⁾، بقوله (ما) قد تكون صلة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ﴾⁽²⁾ وتكون في معنى (أي) معادة لما اختلف لفظها⁽³⁾ وكلام الفراء هذا، يفهم منه أنه يجيز أن تكون (ما) زائدة صلة، أو تكون شرطية. بمعنى: (أي).

ونخلص من كلام الفراء هذا أنه أجاز في (ما) ثلاثة معانٍ، في الآية الواحدة؛ في قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرْتُ لِي رَبِّي﴾⁽⁴⁾، (بما) تكون في موضع (الذي) وتكون (ما) و(غفر) في موضع مصدر. ولو جعلت (ما) في معنى (أي) كان صواباً. يكون المعنى: ليتهم يعلمون بأي شيء غفر لي ربِّي))⁽⁵⁾، وهو يجيز في الآية أن تكون (ما) موصولة بمعنى: (الذي)، أو مصدرية أو استفهامية بمعنى: (أي). وإذا كانت الاستفهامية المجرورة بالباء يحذف منها الألف للفرق بينهما وبين غيرها... ويستشهد بذلك فيقول: "ولو كان كذلك. أي استفهاماً. لجاز له فيه: (بم غفر لي ربِّي) بنقصان الألف، كما تقول: سل عمّ شئت"⁽⁶⁾، وصدي ذلك في قوله تعالى: ﴿فَنَظَرْتُ بِمِ بَرِّجِ الْمُرْسَلُونَ﴾⁽⁷⁾.

من كل ما تقدّم يتبين لنا أن (ما) قد تعددت معانيها الوظيفية، حيث اختلف معناها من آية إلى أخرى، كما يجوز تعدد معناها في الآية الواحدة عند أحد النحاة، أو اختلافهم حولها، أو تعدد معناها إلى ثلاثة معانٍ كما بينّا ذلك عند الفراء، وتبعاً لهذا الاختلاف يختلف المعنى والإعراب.

الخاتمة:

(1) سورة الإسراء: 110.

(2) سورة المؤمنون: 40.

(3) معاني القرآن للفراء: 133/2.

(4) سورة يس: 27.

(5) معاني القرآن للفراء: 322/2.

(6) المصدر نفسه: 374/2.

(7) سورة التمل: 35.

مضى الحديث في هذا البحث حول ما يوصل وما يفصل في الكتابة العربية، واتخذنا من القرآن الكريم مصدراً للشواهد المؤيدة للمادة التي عرضت، وكذا الشعر العربي، آخذين في الاعتبار آراء النحاة في الأثر الناتج عن وصل وفصل الكلمات في جانبي المعنى والإعراب، وسار البحث إلى تحقيق أهدافه، وهذه النتائج التي خرجنا بها.

1. كتابة كل كلمة مفصولة عما بعدها أو قبلها إذا دلّت على معنى مستقلّ بالفهم عن معنى غيرها من الكلمات.

2. وصل كل كلمة وأختها إذا كانتا كالتثني الواحد ؛ كالضمائر البارزة في نحو: (كتبتُ) و(قرأتُ) ونون التوكيد نحو: لتكتبنَ، وعلامات المثني والجمع السالم نحو: (سافر العالمان) و(اجتهد المعلمون) وغير ذلك.

3. التزام قواعد النحو والصرف وسيلة لضمان سلامة الكتابة من الناحية الإعرابية والاشتقاقية.

4. القرآن الكريم زاخراً بالأمثلة والنماذج التي تيسر تدريس الوصل والفصل للناشئة لضمان سلامة القراءة والكتابة معاً.

5. الكتابة الصحيحة تتطلب إعادة النظر في إعداد البرامج الدراسية، وإعداد المعلم، على أن تكون نقطة الانطلاق من مرحلة التعليم العام، ابتداءً بالحلقة الأولى من التعليم الأساس

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق - سعيد المندوب، ط1 دار الفكر بيروت - لبنان- 1416هـ/ 1996م.
2. أخبار أبي القاسم الزجاجي، - الزجاجي - الأمالي، المتوفي 337هـ، مكتبة ريتش الكتاب استنبول طباعة بغداد 1980م - تحقيق - د/ عبد الحسين المبارك.
3. الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم د/ محمد أحمد خضير، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة محمد عبد الكريم، القاهرة.
4. الأدوات النحوية ومعانيها في القرآن الكريم، عرض وتحليل، د/ محمد علي سلطان، ط1 دار العصماء سوريا دمشق، 1416هـ/ 2005م.
5. الأشباه والنظائر.
6. إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد محمد بن إسماعيل النحاس توفي 338هـ - تحقيق - زهير غازي زاهر، الناشر عالم الكتب، مكتبة النهضة، ط1/ 1405هـ/ 1985م.

7. إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1982م.
8. إعراب القرآن للنحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس - تحقيق - خالد العلي، دار المعرفة بيروت - لبنان- بدون طبع وتاريخ.
9. إعراب ثلاثون سورة من القرآن الكريم، تصحيح السيد عبد الرحيم محمود، دار الكتب المصرية، 1941م.
10. أمالي الزجاجة، تأليف أبي القاسم عبد الرحمن إسحاق الزجاجة توفي: 337هـ - تحقيق- عبد السلام هارون، ط1 من جزء 1 - الناشر دار الجيل.
11. الإنصاف في مسائل الخلاف.
12. أوضح المسالك.
13. البرهان في علوم القرآن، تأليف الإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة.
14. خزانة الأدب ولب لباب العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي - تحقيق- محمد نبيل طريفي وأميل بديع البقعوب- ط1- دار الكتب العلمية بيروت 1998م.
15. الخصائص.
16. سنن أبو داؤود، سليمان بن الأشعث أبو داؤود السجستاني الأزدي - تحقيق- محمد مكي الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت.
17. سنن الترمذي.
18. سير أعلام النبلاء، الحافظ شمس الدين محمد أحمد بن عثمان الذهبي المتوفي 748هـ / 1374م مطبعة مؤسسة الرسالة - تحقيق- شعيب الأرنؤوط وآخرون سنة النشر 1402هـ / 1982م
19. شرح ابن عقيل.
20. شرح الأشموني.
21. شرح المفصل.
22. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري - أبو عبد الله - تحقيق محمد زهير بن ناصر، ط1- دار طوق النجاة 1422هـ.
23. صحيح مسلم./ مسلم بن الحجاج أو الحسين القشيري التيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون طبعة وتاريخ.

الوصل والفصل في الكتابة العربية

24. لسان العرب، الإمام أبي الفضل جمال محمد بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ط1، دار صابر بيروت.
25. المستدرک علی الصّحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري – [أوعبد الله- تحقيق مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين للنشر، ط1 1417هـ/1997م.
26. معاني القرآن، أبو جعفر النّخّاس أحمد بن محمد المتوفى 338هـ- تحقيق- محمد علي الصابوني، النّاشر جامعة أمّ القرى – مكة المكرمة- ط1/1409هـ.
27. معاني القرآن للأخفش.
28. معاني القرآن للأخفش، تأليف الأخفش – تحقيق- عيد الأمير أحمد أمين الرود – النّاشر عالم الكتب للطباعة والنّشر والتّوزيع ط1/1985م.
29. معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف تجاني ومحمد علي النّجار، الهيئة العامّة للكتاب، 1980م.
30. المعاني والأحكام في شرح الأربعين النّووية، الشيخ/ الإمام أحمد علي الإمام، ط1 شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، 1435هـ/2014م.
31. معجم الأدوات في القرآن الكريم، راجي الأسمر، ط1 دار الجيل للنّشر والطّباعة والنّشر بيروت، 1425هـ/2005م.
32. معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم.
33. مغني اللّبيب.
34. مهارات التّحرير العربي، د. محبوب محمد آدم، شركة مطابع السّودان للعملة المحدودة، الخرطوم.
35. مهارات لغوية، د/حسين عبّاس الرّفايعه، ود.عبدالحليم حسين الرّهوط، ط1، دار جرير للنّشر والتّوزيع ، 1426هـ/2006م.
36. همع الهوامع.

أثر الدلالة على النحو عند الأصفهاني من خلال كتابه المفردات "التعدية نموذجاً"

د. إحسان حسن صالح عبدالرحمن(*)

المستخلص

هدفت الدراسة إلى تناول شخصية الأصفهاني ولفت نظر الباحثين إلى طريقته الفريدة في عرضه للمسائل النحوية. واتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وجمعت البيانات من المصادر الثانوية المتمثلة في آراء علماء النحو من أمهات الكتب، وخلصت الدراسة إلى الآتي:

اهتمَّ الأصفهاني بعلم الدلالة في مسائله النحوية بغرض تحديد المعنى الدقيق للفعل من الأفعال أو الحرف من الحروف، أو الاسم من الأسماء، وتحديد المعنى وعلاقته بالنحو هو اهتمام عظيم الشأن؛ إذ من خلاله تتبين لنا القاعدة من القواعد أو الموقع الإعرابي للكلمة من الكلمات.

وتحديد المعنى وعلاقته بالتعدية؛ هو أن الفعل تُعرف تعديته إلى واحد أو اثنين على ضوء معناه وقد اهتمَّ الأصفهاني بالدلالة بجميع فروعها من اهتمام بالسياق والتضام والتضاد إلى الاهتمام بالمشتراك اللفظي وقد ألقى ذلك الاهتمام بظلاله على درسه النحوي ومن ذلك:

يسلك "الأصفهاني" في تناوله للمسائل النحوية طريقاً متدفقاً بالمعاني الجميلة الأخاذة مستدلاً في ذلك بالقرآن وبمعاني مفرداته التي يقدمها برهاناً قوياً تهدم عنده كل الحجج. وهو فوق ذلك يمتلك قوة فذة في الربط بين المعاني، التي تتبين من خلالها عظمة القرآن الكريم في نظمه، وبديع فوائده.

وقد تميز من بين سائر العلماء بتناوله للمسألة وشرح مفرداتها وإبداء رأيه فيها وفقاً لذلك ومن غير أي إشارة لآراء من سبقوه. وفي اختصاره للمسائل النحوية نجده يورد القضية وفي طيها البرهان العقلي من القرآن. ويتعمق في معاني الأفعال حتى يتبين لمستخدمها المعنى الذي يسعى لبيانه.

(*) أستاذ مساعد - جامعة القصيم.

ويركز على مسألة التحقق من معنى الفعل الذي يراد تعديته وعلى عدم تحميل فعل معنى فعل آخر من غير تدبر لمعناه. ويركز كذلك على تحري الدليل الذي يجعل فعلاً ما حاملاً لمعنى فعل آخر..... وينطلق بنا إلى آفاق رحبة لمعنى الفعل الواحد.....

ABSTRACT

Al-Asfahani deals with Semantics from the angel of polysemy, antonymy, prefixes and suffixes and context. And this has affected grammar, as an example...

This research is titled "Some of Asfahani's Views in the Matter of Transitive Verbs." The research deals with Asfahani's personality and draws the attention of researchers to his unique way in presenting the grammatical issues.

Here are some examples:

In his handling of the grammatical issues, Asfahani follows a path flowing with beautiful and spectacular meanings. He takes Quran and its vocabulary as a strong evidence which throws away all arguments.

Above that Asfahani possesses a brilliant strength in linking meanings which illustrate the greatness of Quran, how it is organized and amazingly beneficial.

Asfahani was distinguished among other scholars by managing this issue and showing his opinion in explaining the vocabulary without indicating the views of his predecessors.

In summarizing the endless grammatical issues, he cites the case with a mental proof from the Quran.

He goes deep in explaining the meanings of verbs which make it easy for those who use the verbs to find their aims.

Asfahani focuses on the issue of verifying the meaning of the transitive verb and concentrates on the matter of putting the meaning of a verb in the place of another.

Asfahani also focuses on investigating the evidence that makes a verb takes the meaning of another verb and leads us to broad prospects for the meaning of a one verb

المقدمة:

نزل القرآن بلغة العرب؛ ليفقهوه؛ ولأنّ لسانهم عربيّ، وقد كانوا يؤدّبون صبيّانهم بلغته حتى ينشئوا على معرفة بتعاليمه وأحكامه
قال تعالى في محكم تنزيله ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾⁽¹⁾، أي أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآنًا عربيًّا على العرب، لأنّ لسانهم وكلامهم عربيّ، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوه منه.⁽²⁾

ولقد كان القرآن مفهوماً للصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم، حتى تفسّى اللحن في عصرنا الحاضر نتيجة تأثر الأجيال بوسائل الاتصال الحديثة وتأثرت تبعاً لذلك المصطلحات اللغوية من قواعد النحو، والإعراب، والتصريف، والاشتقاق والمعاني، والبيان.
وكأنّ "الراغب الأصفهاني" قد فطن لهذا الأمر واستعد له؛ بتأليفه لكتابه "المفردات في غريب القرآن"؛ ليُفهَم القرآن من السياق اللُّغويّ مع الاهتمام بدلالة الكلمة وما تحتمله من معاني حتى الوصول بها إلى معنى دقيق وواضح يُفهَم من خلاله النص القرآني. لذا يجب علينا الاهتمام بتلك الذخيرة اللُّغويّة التي احتوى عليها المؤلّف والاهتمام بالسياق اللُّغوي، ومعرفة الموقع الإعرابي الصحيح للكلمة حتى يتبين لنا معنى النص القرآني وتفسيره الصحيح. قال العلامة بن القيم رحمه الله⁽³⁾ (وينبغي أن يتفطن ههنا لأمر لا بد منه وهو أنّه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويعتبر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله ترتيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما فإنّ هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن. فتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنّها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله)⁽⁴⁾

(1)- الآية 2 من سورة يوسف

(2)- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان. تأليف أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن

أبي بكر القرطبي ت 671هـ تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي (1-34)

(3)- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية المتوفى (1292. 1349) من علماء المسلمين في القرن

الثامن الهجري وصاحب المؤلفات العديدة، عاش في دمشق ودرس على يد ابن تيمية الدمشقي ولازمه قرابة 16 عاماً وتأثر به، الدرر الكامنة (2221.4).

(4)- بدائع الفوائد محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى (691. 751)

تحقيق علي بن محمد العمران. طبعة مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي النحوية دار علم الفوائد 3 (28.26).

ولهذا يسلك "الأصفهاني" في تناوله للمسائل النحوية طريقاً متدفقاً بالمعاني الجميلة الأخاذة مستنداً في ذلك بالقرآن وبمعاني مفرداته التي يقدمها برهاناً قوياً تهدم عنده كل الحجج. إنَّ علاقة التفسير باللغة علاقة وثيقة؛ لأنَّ فهمه يتم من خلال فهم اللغة وتأصيل اللغة يتم بالاستشهاد بالقرآن، والاهتمام به، وفهم معانيه، "والاهتمام بالقرآن ومعانيه هو اهتمام بالحياة كلّها، لأن المجتمع الإسلامي الأول نهض وارتقى به، لقد أتى القرآن بتصور جديد للحياة والمجتمع... وبذلك التصور، وبالشرعية المستمدة منه كان ذلك مولداً جديداً للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً، كان يعز على خيالها تصويره مجرد تصور، قبل أن ينشئه القرآن إنشاء... ويحققه في حياتها..."⁽¹⁾

إن تلاميذ اليوم والأمس لن تتفتح بصيرتهم إلا بالغوص في معاني القرآن ولن تتفتح مغاليق عسير النحو لهم إلا به

إنَّ أهميّة هذا البحث نابعة من أنَّ "الأصفهاني" أحد علماء التفسير المهتمين بالمنهج اللغوي الذي يعتمد في الأساس على علم الدلالة بفروعه وسأين ذلك في موضعه.

ومن أسباب اختياري لذلك الموضوع هو اهتمام "الأصفهاني" بالمعاني وتنقله فيها بصورة بارعة ومتسلسلة، ومن خلال ذلك الاهتمام يخرج لنا آراء لم يتطرق إليها علماء النحو، وقد هدف البحث إلى:

1. بيان منهج الأصفهاني في استشاده بالقرآن لتأصيل القواعد النحوية
 2. بيان مذهبه النحوي في الاعتماد على علم الدلالة؛ للخروج بمعنى واضح للكلمة؛ ليتم بذلك تحديد الموقع النحوي لها.
 3. توضيح انفراده بذلك المنهج في تقصي معنى الكلمة الدلالي، وبيان الفروق بين كلمة وأخرى. واستعماله لنظرية التضاد، والتضام وغيرها مما يشتمل عليه علم الدلالة.
- وسيجيب البحث على الأسئلة التي على شاكلة، ما المسائل النحوية المتعلقة بالتعديّة والتي استخدم فيها علم الدلالة؟ وهل وفق في ذلك؟ هل آراؤه متوافقة مع آراء العلماء من قبله؟ من الدراسات السابقة المتعلقة بالأصفهاني، "الفروق اللغويّة عند الأصفهاني في كتابه المفردات وأثرها في دلالات الألفاظ القرآنية)
- إعداد محمد محمود موسى الزواهرة. إشراف مصطفى إبراهيم المثنى 2007.

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين 1385، ص5، ط 17، دار الشروق القاهرة، بتصرف

وقد تناولت الفروق اللغوية بين المفردات مثل الفرق بين الضلال التي بمعنى ضلَّ عن الطريق في قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾⁽¹⁾

والضلال الذي بمعنى النسيان في قوله تعالى ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾⁽²⁾ ورسالة أخرى بعنوان (البحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني من خلال كتابه المفردات في غريب القرآن)

إعداد عمر حداورة، إشراف الأخضر حداد 2006.1427

واشتملت على مدخل وفيه التعريف بمعنى التفسير والتأويل، وثلاثة فصول:

الفصل الأول واشتمل على أهم المشكلات في الدرس الدلالي

الفصل الثاني: واشتمل على الراغب وينابيع ثقافته.

الفصل الثالث: واشتمل على النماذج التطبيقية لبعض الكلمات والفروق بينها كالفرق بين اللبث والمكث، والفرق بين الجدار والحائط، وبين القلب والفؤاد..... واشتملت كذلك على الخاتمة والمراجع المستخدمة في البحث ركزت الدراستان كلتاهما على الفروق والتفسير ولم تنطرقا إلى النحو ولم أقف على دراسة تناولت أثر الدلالة على نحو الأصفهاني، ولا دراسة تناولت الأصفهاني النحوي في أي كتاب من كتبه

خطة البحث: اشتمل البحث على مبحثين لكلٍ منهما تمهيد وقسم كالآتي:

المبحث الأول: علم الدلالة

تمهيد: التعريف بالأصفهاني

المطلب الأول: الترادف

المطلب الثاني: المشترك اللفظي

المطلب الثالث: السياق

التعريف بالأصفهاني

هو الحسن بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب اختلف في مذهبه فقيل من الكثير أنه شيعي. وهو أديب وعالم. أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. أُلّف عدة

(1) الآية 7 من سورة الضحى.

(2) الآية 20 من سورة الشعراء

كتب في التفسير والأدب والبلاغة. أُخْتُلِفَ في تاريخ وفاته والذي عليه أكثر المترجمين أنَّه توفي عام (502) أي أنه عاش حتى أدرك من القرن السادس الهجري بضع سنين⁽¹⁾.
مؤلفاته

1. كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة

2. كتاب الاعتقادات

3. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين

والمادة العامة للكتاب هي تفصيل النشأتين وهي النشأة الدنيوية والنشأة الأخروية⁽²⁾

5. كتاب مقدمة في التفسير

6. كتاب مفردات ألفاظ القرآن الكريم

يقوم منهج مؤلفه فيه على ترتيب المواد اللغوية على أساس الحروف الهجائية في أول المادة اللغوية لا في أواخرها ترتيباً ألفبائياً، وقسمه إلى أقسام سعى كل قسم منه كتاباً وهي موزعة على حسب ترتيب الحروف الهجائية. وأهم المصادر التي اعتمد عليها الراغب في كتابه، "كتاب الشامل في اللغة" و"كتاب المسائل الحلبات لأبي علي الفارسي" و"كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت"⁽³⁾. وأكّد الراغب في مقدمة غريبه هذا أن أول ما يحتاج إليه المفسر من علوم القرآن، العلوم اللفظية⁽⁴⁾، ومن تلك العلوم تتحقق الألفاظ المفردة ونبه أيضاً على أن تحصيل معاني ألفاظ القرآن الكريم هو الطريق الأول لمن يريد أن يدرك معانيه.

المطلب الأول: الترادف

علم الدلالة "هو مركب من علم، ودلالة، ودلّ ما يستدل به والدليل الدال، وقد دلّه على الطريق يدلّه بالضم دلالة، بفتح الدال وكسرهما، ودلوله بالضم والفتح أعلى، ويقال أدلّ فأملّ والاسم الدالّة بتشديد اللام، وفلان يدلّ بفلان أي يثق به"⁽⁵⁾

(1). الاعتقادات الراغب الأصفهاني. تحقيق شمران العجلي. مؤسسة الأشرف. بيروت لبنان ط1985. ص6

(2). تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين الراغب الأصفهاني، منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت لبنان ص5

(3). المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع د.ت، د. ط

(4). المرجع نفسه والصفحة نفسها

(5). مختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي تحقيق د. مصطفى ديب دار الهدى ط1990. 2

مادة د، ل، ل 88/1

وهو العلم الذي يتناول المعنى" وهو الفرع من علم اللغة الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الدليل اللغوي حتى يكون قادراً على حمل المعنى⁽¹⁾

الترادف في اللغة" ردف: الردف: ما تبع الشيء وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف

وترادف الشيء أي تبع بعضه بعضاً. والترادف التتابع⁽²⁾

اصطلاحاً" هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد....

والفرق بينه وبين التوكيد أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر وفي التوكيد يفيد الثاني تقوية الأول، والفرق بينه وبين التابع أن التابع لا يفيد شيئاً كقولنا عطشان⁽³⁾

نخلص من التعريف إلى أن الألفاظ قد تتعدد للمعنى الواحد، أو تتعدد المعاني للفظ الواحد، قال سيبويه⁽⁴⁾ "علم من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين⁽⁵⁾

ونخلص من كلامه أن الترادف ثلاثة أنواع:

1. المتباين (اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين) وهو أن يدل اللفظ الواحد على معنى واحد.
2. المشترك اللفظي (اتفاق اللفظين والمعنى مختلف) وهو أن يدل اللفظ الواحد على أكثر من معنى، وقد يستعمل اللفظ الواحد لمعنيين متضادين وهذا ما يسمى بالتضاد
3. المترادف (اختلاف اللفظين والمعنى واحد) وهو أن يدل أكثر من لفظ على معنى واحد

المطلب الثاني المشترك اللفظي:

الاشتراك اللفظي هو " أن يكون للكلمة الواحدة عدة معاني تطلق على كل واحد منها على طريق الحقيقة لا المجاز، وذلك كلفظ " الخال" الذي يطلق على أخ الأم، وعلى الشامة في الوجه، وعلى السحاب، وعلى البعير الضخم، وعلى الأكمة الصغيرة⁽⁶⁾

(1). علم الدلالة. أحمد مختار عمر، أستاذ علم اللغة. كلية دار العلوم. جامعة القاهرة. ص 12. 11

(2). لسان العرب. ابن منظور. د. ط، د. ت، مادة ردف

(3). المزهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين السيوطي. تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم

علي محمد البجاوي المكتبة العصرية بيروت، ج 1 ص 402

(4). هو عمرو بن عثمان بن قنبر، كان أديباً نحويًا، ت 188 هـ طبقات النحويين ص 66

(5). الكتاب. سيبويه. تحقيق عبد السلام محمد هارون. المكتبة المصرية، القاهرة 1977، 24/1

(6). فقه اللغة علي عبد الواحد. دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط 1، ص 387

قال السيوطي⁽¹⁾ "وقد عدّه أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"⁽²⁾

من أهم ما يميز المشترك اللفظي اتّصافه بصفة التوالد أو ما يسمى بتطور المعنى وهذا التطور كما ومعلوم مرتبط بعلاقتين تحكمانه وهما علاقة المجاورة والمشابهة أمّا علاقة المجاورة فقد تكون مكانية كتحوّل معنى (ظعينة) وهي في الأصل (المرأة) في اليهودج إلى معنى اليهودج نفسه، وإلى معنى البعير وقد تكون علاقة المجاورة، زمانية كتحوّل معنى (العقيقة) وهي في الأصل: الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمّه إلى معنى الذبيحة التي تنحر عند حلق الشعر.

وأما علاقة المشابهة: كتحوّل معنى (الأفن) وهو في الأصل قلة لبن الناقة إلى معنى قلة العقل والسفه ومن التطور الدلالي وله علاقة بالمشترك اللفظي، أن تكون اللفظة تدل على معنى معنيين. عام فبتقادم الزمن يتناسى المعنى العام، لتستعمل الكلمة في معنى خاص، فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول، ثم شاع استعمالها في الإسلام فهي معاني خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر والنظم الدينية، كالصلاة والحج والصوم، والمؤمن والكافر، والركوع والسجود، فالصلاة مثلاً معناها في الأصل الدعاء، ثم شاع استعمالها في الإسلام في العبادة المعروفة لاشتغالها على مظهر من مظاهر الدعاء حيث أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى والبأس: في الأصل الحرب، ثم كثر استخدامه في كل شدة فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه

والرائد في الأصل طالب الكلاً، ثم صار طالب كل حاجة رائداً⁽³⁾

المطلب الثالث: السياق

السياق هو علاقة الكلمة مع ما قبلها وما بعدها من كلمات الجملة، وهو الذي يعين قيمة الكلمة ويخلصها من الدلالات الماضية التي تدعمها الذاكرة وتتراكم عليها فيخلق لها قيمة حضورية.⁽⁴⁾ وقد نبه عبد القاهر الجرجاني⁽¹⁾ إلى دور السياق في الكشف عن الاختلافات

(1). هو عبد الرحمن بن أبي بكر الخصري الأصل الطولوني المصري، عالم مشارك في أنواع من الفنون،

إشارة التعيين 304/4

(2). المزهر للسيوطي 387.1

(3). المشترك اللفظي في الحقل القرآني. عبد العال سالم مكرم. مؤسسة الرسالة. ط1 1996 ص9

(4). الوجيز في فقه اللغة. محمد الأنطاكي، مكتبة الشهداء، عبد السميع عفش للطباعة والنشر والتوزيع، د.

ت ص375

الواردة بين الجمل المتشابهة في المعنى العام قائلاً: "لا سبيل إلى أن تعي إلى معنى بيت الشعر، أو فصل من نثر فتؤديه بعينه. ... (2)، ولا يغرّك قول الناس: قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأدّاه على وجهه، فإنّه تسامح منهم، والمراد أنّه أدى الغرض، فإنّما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأوّل حتى لا تعقل ههنا إلّا ما عقلته هناك.

وعبّر ابن القيم عن أهميّة السياق في دراسة المعنى: "السّاق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (3) كيف تجد سياقه يدل على أنّه الدليل الحقيق. (4)، قال ابن جني (وكذلك تقول سألناه فوجدناه إنساناً وتمكن الصوت وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك" (5)

وقد اهتمّ الأصفهاني بالسياق اللغوي غاية الاهتمام كما نلاحظ ذلك في جميع مسائله النحوية التي بناها في المقام الأوّل على فهم المعنى الدقيق للآية من الآيات. وكيف لا و"كلام العرب يصحح بعضه بعضاً ويرتبط أوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه إلّا باستيفائه واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع للفظه على المعنيين لأنها تتقدمها ويأتي تقديمها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلّا معنى واحد" (6) وهناك كلمات من المشترك اللفظي لا يتضح معناها إلّا من خلال وضعها في سياق معين وذلك مثل كلمة الضلال التي تأتي بمعنى، النسيان وبمعنى الحياد عن الطريق.

المبحث الثاني

نماذج تطبيقية للتعددية

تمهيد: التعددية

(1). أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني 471.400هـ، نحوي ومتكلم، ولد في جرجان لأسرة

رقيقة الحال، نشأ ولوعاً بالعلم محباً للثقافة، فأقبل على الكتب وبخاصة كتب النحو والأدب

(2). دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، ت محمد رضا بيروت، ط 1998. ص 177

(3). الآية 49 من سورة الدخان

(4). بدائع الفوائد ص 10.9

(5). الخصائص، ابن جني، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2006 ج 2 ص 271

(6). الأضداد محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، صيدا. بيروت. 1991.

المبحث الأول: الفعل علم

المبحث الثاني: "جعل"

المبحث الثالث: "رأى"

المبحث الرابع: "حسب"

المبحث الخامس: "الفعل ظن"

المبحث السادس: الفعل وجد

تمهيد:

التعدية:

عند تناول قضية التعدية في دراسة من الدراسات لا بد من الحديث عن المسائل الآتية:

المسألة الأولى: قد يتعدى الفعل اللازم، ويلزم المتعدي ومثل ذلك، "دَرَسَ الأثر"، و"درستُ" الأثر، و"سَرَّخْتُ الماشية" و"سَرَّخْتُ الماشية" و"غَاضَ الماء" و"غَاضَ الماء" ومن القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾⁽¹⁾. ونفس الفعل متعدياً قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾.

المسألة الثانية: قد يلزم الفعل لدلالته على معنى معين فإذا انتقل إلى معنى آخر تعدى، ومن ذلك الفعل "أَحْسَنَ" جاء لازماً في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾⁽³⁾ وهو هنا بمعنى "أنعم" فعندما جاء بمعنى "أحسن" أي أعمل عملاً حسناً، تعدى، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾⁽⁴⁾. ومن ذلك أيضاً الفعل أَسْلِمَ جاء لازماً في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽⁵⁾.

وعندما جاء بمعنى "أخلص" تعدى وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَحْيِي لِلَّهِ﴾⁽⁶⁾

المسألة الثالثة: قد يتعدى الفعل إلى مفعول واحد بنفسه أو يتعدى إليه بالحرف، وقد يتعدى نفس الفعل إلى مفعولين بنفسه مرة، أو يتعدى إلى واحد بنفسه، وإلى الثاني بالحرف.

(1) الآية 71 من سورة الزمر.

(2) الآية 70 من سورة يس.

(3) الآية 77 من سورة القصص.

(4) الآية 23 من سورة يوسف.

(5) الآية 131 من سورة البقرة.

(6) الآية 20 من سورة آل عمران.

ومن ذلك بالترتيب السابق الفعل، أَثْمَنَ، نقول أَثْمَنْتُ الرَّجُلَ وَأَثْمَنْتُ لَهُ، وَأَثْمَنْتُ الرَّجُلَ مَتَاعَهُ، وَأَثْمَنْتُ الرَّجُلَ بَمَتَاعِهِ.

قال الزبيدي⁽¹⁾ في الفعل أَثْمَنَ "أَثْمَنَ اسْمٌ لما يأخذه البائع في مقابلة المبيع عيناً كان أم سلعة وكل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمنه... وفي سورة يوسف ﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾... والجمع أثمان فمن رواه بفتح الميم يريد أكثرها ثمناً ومن رواه بالضم فهو جمع ثمن وأثمنه سلعته وأثمن له أعطاه ثمنها..."⁽²⁾.

المسألة الرابعة: قد يلزم الفعل ثم يتعدى بهمة التعدية أو بغيرها وذلك مثل الفعل أخرج في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾⁽³⁾.

المسألة الخامسة: قد يكون الفعل من الأفعال التي تتعدى بحرف الجر أصلاً، وتتعدى بأنفسها عرضاً—وهذا ما يسميه النحاة النصب على نزع الخافض - وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِمِّيقَاتِنَا﴾⁽⁴⁾.

المسألة السادسة: قد يكون الفعل متعدياً بنفسه—أي من أصل وضعه- ثم يتعدى بحرف الجر وذلك مثل "جاء" تعدى بنفسه في قوله تعالى: ﴿وَجَاؤُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾⁽⁵⁾ وتعدى بالحرف في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾⁽⁶⁾.

وملخص ذلك أن تعدي الفعل أو لزومه يعتمد في الغالب الأعم على معناه، وقد توسع العلماء في ذلك المعنى، وجعلوا بعض الأفعال تحمل معنى البعض الآخر، ومن ذلك الفعل "عَلِمَ" الذي يكون بمعنى الفعل "عَرَفَ". وقد خرج عليهم الأصفهاني فيما بعد بقوله إنَّ "عَلِمَ" لا يكون بمعنى "عَرَفَ"، وإنَّ لـ "عَرَفَ" معناه الخاص به، ولقد اعتمد في ذلك الحكم على تفسيره لمفردات القرآن وسأطرق لهذه المسألة وخلافها في ثنايا البحث.

(1) الزبيدي: السيد محمد بن محمد بن عبد الرزاق أبو الفيض الزبيدي اليميني ثم المصري الحنفي الفقيه الشهير بالمرتضى، ولد سنة 1145، ت 1205، من تصانيفه: إتحاف المتقين في شرح إحياء علوم الدين، تاج العروس 348/2.

(2) تاج العروس من جواهر القاموس، الإمام اللغوي، محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي 157/9 – 158، دار صادر، بيروت.

(3) الآية 32 من سورة الأعراف.

(4) الآية 155 من سورة الأعراف.

(5) الآية 16 من سورة يوسف.

(6) الآية 160 من سورة الأنعام.

كما تبحر لنا في معاني شائقة من معاني الأفعال وتنقل بينها، موضحاً الفروق في الاستعمال ومتى يكون فعل (ما) حاملاً معنى الظن ومتى يكون حاملاً معنى اليقين وهكذا.

الفعل (عَلِمَ)

عَلِمْتُ الشيءَ أَعْلَمُهُ عَلِماً عَرَفْتُهُ، وجاء في اللسان بمعنى "شَعَرَ". يقول ابن منظور "عَلِمَ بالشيء: شَعَرَ. يقال: ما عَلِمْتُ بخبر قدومه أي ما شعرت. وَعَلِمَ الأمر وتَعَلَّمَهُ: أتقنه، وقال يعقوب: إذا قيل لك أَعْلَمُ كذا قُلْتُ قد عَلِمْتُ، وإذا قيل لك تَعْلَمُ لم تقل قد تَعَلَّمْتُ. وَعَلِمْتُ يتعدى إلى مفعولين، ولذلك أجازوا عَلِمْتُ كما قالوا ظننتي ورأيْتُني وَحَسِبْتُني..."⁽¹⁾.

وتأتي (عَلِمَ) بمعنى (عَرَفَ) هكذا قال النحاة وفي هذه الحالة أي الأولى بمعنى العلم تتعدى لاثنتين نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾⁽²⁾ وإن كانت بمعنى "عَرَفَ" تعدت لواحد نحو ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾⁽³⁾ وإن كانت بمعنى عَلِمَ عَلِمَهُ فهو أَعْلَمُ أي مشقوق الشفة العليا فتتعدى لواحد أيضاً.

وأما علم التي بمعنى عَرَفَ بقول سيبويه "وقد يكون علمت بمنزلة عرفت... فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾⁽⁵⁾ فهي ههنا بمنزلة عرفت"⁽⁶⁾. وفي الألفية⁽⁷⁾ "إذا كان علم بمعنى "عرف" تعدت إلى مفعول واحد

قال ابن مالك". . علم لعرفان لا نصب. "⁸ وقال الفاكهي¹ "وعلم بمعنى تَيَقَّنَ لا بمعنى "عرف" ولكن الأصفهاني له رأيٌ مختلف فهو يهتم بالسياق الذي ترد فيه الكلمة من الكلمات

(1) لسان العرب، ابن منظور، مادة علم 264/10.

(2) الآية 10 من سورة الممتحنة.

(3) الآية 78 من سورة النحل.

(4) الآية 65 من سورة البقرة.

(5) الآية 60 من سورة الأنفال.

(6) الكتاب 18/1.

(7) شرح ابن عقيل بهاء الدين عبد الله بن عقيل / محمد معي الدين عبد الحميد جزء 1. المكتبة العصرية. بيروت. تبنان ص 400

(8) شرح الكافية الشافعية محمد بن عبد الله بن مالك تحقيق عبد المنعم هريدي. جامعة أم القرى. ط 1. جزء 2.

حسب الموقع الذي وقعت فيه ثم يعقد مقارنة دقيقة في ما بينها بشرح المفردات شرحاً دقيقاً فنراه يقول: إِنَّ العلم ضربان، أحدهما إدراك ذات الشيء. والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه، فالأول هو الذي يتعدى إلى مفعول واحد وليس هو الذي بمعنى "عَرَفَ" وإليك ذلك كما جاء في المفردات.

يقول الأصفهاني: "المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره وهو أخف من العلم ويضاده الإنكار، ويُقال فلان يعرف الله ولا يُقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد لما كان معرفته البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ويُقال الله يعلم كذا ولا يقال يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل له بتفكير، وأصله من عَرَفْتُ أي أَصَبْتُ عَرَفَهُ أي رَاحَتْهُ، أو من والأول هو الذي يتعدى إلى مفعول واحد وليس هو الذي بمعنى أَصَبْتُ عَرَفَهُ أي خَدَّه، يُقال عَرَفْتُ كذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا... ﴾⁽²⁾.

ذلك فيما يتعلق "بعرف" أما "علم" يقول الأصفهاني: "العلم إدراك الشيء بحقيقته؛ وذلك ضربان: أحدهما إدراك ذات الشيء. والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه. فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد نحو ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ والثاني المتعدي إلى مفعولين نحو قوله: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾⁽³⁾.

ومن هنا يتبين لنا أن لعرف معناها الخاص بها وإن أحد جزئ "علم" هو الذي ينصب مفعولاً به واحداً وليس له علاقة "بعرف" التي تنصب بدورها مفعولاً واحداً ومع ذلك نجد "أبو حيان" مثلاً يقول "وجاءت عِلْمَ بمعنى عَرَفَ وهو أكثر مواضعها في القرآن وفي لسان العرب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾⁽⁴⁾. ومن هنا يتبين لنا أيضاً أن لفظ العلم أعم وأشمل من لفظ المعرفة وقد وعى الأصفهاني ذلك وتفهمه وأثبتته بالدليل القرآني، وبين الفرق بين الكلمتين، وأوفاهما حقهما، ولعله أتبع نهج من سبقوه في الاهتمام بالفروق اللغوية.

(1) مجيب النداء إلى شرح قطر الندى. جمال الدين بن عبد الله بن أحمد الفاكهي. تحقيق إبراهيم جميل ط1 مكتبة المتنبي ص441

(2) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت، ص331.

(3) المرجع نفسه، ص343.

(4) الآية 78 من سورة النحل.

الفعل "جَعَلَ"

تأتي (جعل) بمعنى صيّر جاء في المختار "جَعَلَ" كذا من باب قطع... و"جَعَلَهُ" ليّاً صيره وجعلوا الملائكة إناثاً سموهم⁽¹⁾. وتأتي بمعنى اعتقد وبمعنى صيّر وبمعنى أوجد وألقى وأوجب وفي هذه الحالة تتعدى إلى واحد. قال السيوطي: "جعل بمعنى اعتقد نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِاثًا﴾⁽²⁾ أي اعتقدوهم، وبمعنى أوجد نحو: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾⁽³⁾ وأوجب نحو جعلت للعامل كذا أو ألقى نحو: "جعلت بعض متاعك على بعض تعدت إلى واحد"⁽⁴⁾.

وفصل المبرد في "جعل" أكثر من هذا فقال "ولها وجهان، أحدهما أن تكون بمعنى صيّر فلا بد أن تتعدى إلى مفعولين. والآخر: أن تكون بمعنى عملت وخلقت فلا تتعدى إلا إلى واحد. وننتقل إلى الأصفهاني الذي يتنقل بنا أولاً لمعاني متعددة للفعل يقول: "جعل لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه

الأول يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو جعل زيدٌ يقول كذا

الثاني يجري مجرى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد

الثالث في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه 0 وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً..

والرابع في تصيير الشيء على حالة دون حالة نحو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾⁽⁵⁾ الخامس الحكم على الشيء بالشيء حقاً كان أو باطلاً فإمّا الحق نحو ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾⁽⁶⁾ وأمّا الباطل فنحو قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾⁽⁷⁾

من العرض السابق نتيّن الآتي، الفعل "جعل" عند المبرد يحتمل وجهين عندما يكون بمعنى "التصيير" أحدهما يتعدى لواحد والآخر له وجهان أيضاً، أولهما "كأعطى" في المعنى والآخر جعل له وجهان أيضاً.. اختصر "الأصفهاني". بعد أن تبحر في المعاني الجميلة السابقة. ذلك بقوله،

(1) مختار الصحاح، ص 105.

(2) الآية 19 من سورة الزخرف.

(3) الآية 1 من سورة الأنعام.

(4) الهمع، ص 151.

(5) سورة الأنعام الآية 136.

(6) المفردات الأصفهاني ص 94.

إنَّ جعل يأتي بمعنى الحق مرة وبمعنى الباطل أخرى، كما يجري مجرى صار وطفق وهو في هذه الحالة لا يتعدى، وقد يجري مجرى أوجد ويتعدى إلى مفعول واحد، ويأتي معناه في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه، أو الحكم على الشيء بالشيء، وقد تعددت المعاني للفظ الواحد، مما أوجد حالات مختلفة، وهو من المشترك اللفظي الذي تكون للكلمة الواحدة فيه عدة معاني تطلق على كل واحد منها على طريق الحقيقة لا المجاز، وقد عدّه أهل الأصول بأنّه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة.⁽¹⁾

الفعل (رَأَى)

رأى الشيء أبصره بحاسة البصر وتحذف الهمزة من مضارعه فنقول ترى، ونرى، ويرى، والأصل رأى يرى، قال ابن منظور "رأى الرؤية بالعين تتعدى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين؛ يقال: رأى زيداً عالماً ورأى رأياً ورؤية وراءه مثل راعه... ومنه أرايتك وأنت تقول أخبرني، فتهمزها وتنصب التاء منها وتترك إن شئت. (وأرى، قال شمر: العرب تقول أرى الله بفلان أي أرى الله الناس بفلان العذاب والهلاك. وقد تكون من رؤية العين أو رؤية القلب أو من الاعتقاد السائد"⁽²⁾.

إذن هي تتعدى إلى واحد إن كانت بمعنى أبصر وأما التي بمعنى اعتقد فهي تتعدى لواحد أو اثنين قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾⁽³⁾ أي يظنونونه ونراه قريباً أي نعلمه" قال الزجاجي فإن كانت بمعنى أبصر تعدت لواحد قال الفارسي وابن مالك وكذا التي بمعنى اعتقد قال أبو حيان وذهب غيرهما إلى أن التي بمعنى اعتقد تتعدى إلى اثنين...."⁽⁴⁾

وأما الأصفهاني فهو لا يرد على ما سبق وإنما يتناول الفعل ويحلله بأسلوبه الخاص به وحده، وذلك من السياق العام الذي ترد فيه الآية من الآيات يقول "رأى عيُّنه همزةً، ولامه ياء لقولهم (رؤية) وتحذف الهمزة من مستقبله فيقال نرى، وترى، ويرى، قال تعالى "فإِذَا تَرِيتَ من البشر أحداً، وقال أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا من الجن والإنس...." وقال: "الرؤية إدراك المرئي وذلك أضرب:

(1). المزهر للسيوطي مرجع سابق .

(2) اللسان، مادة رأى 66/6-69.

(3) الآية 6 من سورة المعارج.

(4) الهمع ص 744 ن ج 2

الأول: بالحاسة وما يجري مجراها نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾⁽¹⁾ فإنه مما أجرى مجرى الرؤية الحاسة، فإن الحاسة لا تصح على الله تعالى عن ذلك والثاني بالوهم والتخيل نحو أرى أن زيدا منطلقاً، ونحو قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

والثالث: بالتفكر نحو ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾

والرابع: بالعقل وعلى ذلك قوله ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾⁽²⁾ ورأى إذا عُدِّي اقتضى معنى العلم نحو ﴿إِن تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ﴾⁽³⁾ والرأي اعتقاد النفس أحد النقيضين عند غلبة الظن وعلى ذلك قوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ﴾⁽⁴⁾ أي يظنونهم بحسب مقتضى مشاهدة العين مثلهم. وإذا عُدِّي رأيت بإلى اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار نحو: ﴿أَلَمْ تَر إِلَىٰ رَبِّكَ﴾⁽⁵⁾ وقوله ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾⁽⁶⁾ أي بما علمك. إذن الرؤية أنواع، بالحاسة وما يجري مجراها، وبالوهم والتخيل، وبالتفكر، وبالعقل، وتتضح المعاني في ذلك أكثر بالتضام؛ وذلك أن أي لفظة يتحدد معناها من خلال السوابق واللاحق مثلما هو الحال بخصوص حروف الجر والإضافة وذلك في استشهاده ب ﴿أَلَمْ تَر إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ و ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ على الترتيب والشاهد هنا هو أن تعدية رأى بحرف الجر أدى إلى تغير المعنى، وتغير المعنى سببه التعدية بحرف الجر. وكذلك الحال في إضافة رأى إلى الكاف في قوله (بما أراك الله) أدى إلى تعديته وتغير المعنى من الظن إلى العلم.

الفعل (حسب)

حسبه عده قال الرازي "ح س ب- (حَسَبَ) عَدَهُ وَبَابُهُ نَصَرَ وَكَتَبَ وَ (حَسَاباً) أَيْضاً بِالْكَسْرِ وَ (حُسْبَاناً) بِالضَّمِّ..."⁽⁷⁾ وتأتي بمعنى الظن واليقين قال السيوطي "فمن الظن قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾"⁽⁸⁾ قال الأصفهاني (... وقيل احتسب ابناً له أي اعتد به عند الله

(1) الآية 6 من سورة التكاثر

(2) الآية 12 من سورة النجم

(3) الآية 5 من سورة سبا

(4) الآية 13 من سورة ال عمران

(5) الآية 46 من سورة الفرقان

(6) الآية 105 من سورة النساء

(7) مختار الصحاح، ص 134.

(8) الآية 18 من سورة المجادلة.

والحسبة فعل ما يحتسب عند الله تعالى ﴿ أَحْسِبِ النَّاسُ ﴾ . ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾⁽¹⁾ . ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ . ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ . ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ ﴾ فكل ذلك مصدره الحسبان....

(....) والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصعب ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن، لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما الآخر⁽²⁾ ومن هذا يتبين لنا إن " الأصفهاني " ينفي أن يتضمن الفعل " حسب " معنى الظن ، وهذا واضح من خلال الآيات التي تمثل بها ، معرفاً الحسبان بأنه : أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصعب ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، ويقرب ذلك الظن .

ثم أوضح معنى الظن قائلاً : الظن أن يخطر النقيضان بباله فيغلب أحدهما الآخر ، والفرق بينه وبين الحسبان ، أن الشخص في الحسبان يحكم لأحد الشيئين دون أن يخطر الآخر بباله . وإنني أوافق الأصفهاني الرأي في ما ذهب إليه ؛ لأنه قد استوفى المعنى الدقيق لمعنى الحسبان ولم يتقيد بما ذكره غيره؛ ولأن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً ، ويرتبط أوله بآخره ولا يُعرف معنى الخطاب منه ألا باستيفائه واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة على المعنيين لأنها تتقدمها ويأتي تقديمها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحداً⁽³⁾ وهو بهذا يؤكد الاهتمام بمعنى الكلمة في سياقها الذي وردت فيه .

الفعل (ظَنَ)

الظن مصدر خلاف اليقين جاء في المصباح المنير " الظنّ مصدر من باب قتل وهو خلاف اليقين قاله الأزهرى وغيره وقد يستعمل بمعنى اليقين كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ ومنه " المظنة " بكسر الظاء للمعلم وهو حيث يعلم الشيء.

(1) الآية 2 من سورة العنكبوت

(2) المفردات ص 117. 118

(3) الآية 42 سورة ابراهيم

والجمع "المظان" قال ابن فارس (مَظَنَنَةُ) الشيء موضعه ومألفه و (الظَنَنَةُ) بالكسر التهمة وهو اسم من ظننته من باب قتل أيضاً إذا اتهمته فهو (ظنين) فعيلٌ بمعنى مفعول وفي السبعة "ما هو على الغيب بظنين" أي بمتهم و"ظننتُ" به الناس عرضته للتهمة⁽¹⁾. إذن الظنُّ هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، أو خلاف اليقين وقد يستعمل بمعنى اليقين أو العلم ولكنه ليس كثيراً قال السيوطي⁽²⁾ "فمن استعملها بمعنى الظن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَظُنُّوا إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾"⁽³⁾ وبمعنى اليقين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾"⁽⁴⁾.

قال الرضي في شرح الكافية: "حذف المفعولين معاً في باب أعطيت يجوز بلا قرينة دالة على تعيينهما... بخلاف مفعولي علمتُ وظننتُ لعدم الفائدة"⁽⁵⁾. أمّا الأصفهاني فهو يمضي في تناول الفعل "ظن" على طريقتيه مفسراً وفق السياق العام يقول "الظن اسمٌ لما يحصل من إمارة ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت حداً لم يتجاوز حد التوهم. ومتى قوي أو تصوّر القوي استعمل منه أن المشددة وأن المخففة منها، ومتى ضعف استعمل منه أن وأن...." أي جعل لنا إمارة تبين لنا متى يحمل الفعل "ظن" معنىً من المعاني قال "... فقولهُ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾. وكذا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ ﴿فَمِنَ الْيَقِينِ﴾ وظنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ. وقوله وظنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴿تَنْبِيْهًا أَنَّهُمْ صَارُوا فِي حُكْمِ الْعَالَمِينَ بِفِرْطِ طَمَعِهِمْ وَأَمَلِهِمْ وَقوله ﴿وَضَلَّ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَاهُ﴾ أي علم⁽⁶⁾ وهي في كل هذا بمعنى اليقين لاقتراحها بأنَّ تنبيهاً بأنهم صاروا في حكم العالمين لفرط طمعهم وأملهم.

وهذه الإمارة تقوى نحو اليقين وتضعف نحو الشك حسب المعنى الذي تحمله الآية من الآيات، وقوله (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) فإنه استعمل فيه أن المستعملة مع الظن الذي هو للعلم تنبيهاً أنهم اعتقدوا ذلك اعتقادهم للشيء المتيقن وإن لم يكن ذلك متيقناً.

(1) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ص 387.

(2) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر الخصري الأصل الطولوني المصري، عالم مشارك في أنواع من الفنون، معجم المؤلفين 82/2.

(3) الآية 32 من سورة الجاثية.

(4) الآية 46 من سورة البقرة.

(5) شرح الكافية للرضي 259/2.

(6) المفردات 317.318.

وهو هنا يضيف لنا قاعدة التمييز حسب السوابق واللاحق ومتى تحمل الكلمة معنى الاعتقاد، ومتى تحمل معنى الجزم، فيقول: (فمتى قوى أو تصور القوي استعمل معه أن المشددة و(أن) المخففة منها. ومتى ضعف استعمل أن المختصة بالمعدومين من القول والعمل. كما يضع لنا حسماً للجدال في ظاهرة الأضداد في هذه الظاهرة. ظاهرة الشك واليقين.؛ بقوله: وهذه الإمارة تقوى نحو اليقين وتضعف نحو الشك حسب المعنى الذي تحمله الآية من الآيات. والكلام في جملة يؤدي للتأكيد على الاهتمام بالسياق الذي ترد فيه الكلمة من الكلمات وتحديد المعنى الدقيق.

وهذا ما يدعوني دائماً للإعجاب بما يقوله وخصوصاً عندما أمعن النظر في قول ابن القيم السابق: وينبغي أن يتفطن ههنا لأمر لا بد منه وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويعتبر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله ترتيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن.⁽¹⁾

الفعل وجد

وجد الشيء يجده وجُوداً: ووجداناً عثر عليه أو أدركه جاء في المختار "و ج د و جد" مطلوبه يجده بالكسر... و (وَجَدَ) ضالته وجُداناً و (وَجَدَ) عليه الغضب... وهي تتعدى إلى فعل واحد، كما تتعدى إلى اثنين بمعنى علم في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾⁽²⁾. تناول الأصفهاني الفعل "وجد" تناولاً دقيقاً، موضحاً شارحاً مدققاً قال: "... الوجود أضرب: وجودٌ بإحدى الحواس الخمس نحو وجدتُ زيداً، ووجدتُ طعمه، ووجدتُ صوته، ... ووجود بقوة الشهوة وجدتُ الشبع، ووجود بقوة الغضب، كوجود السخط والحزن، ووجود بالعقل كمعرفة الله تعالى ومعرفة النبوة وما ينسب إلى الله تعالى من الوجود، فبمعنى العلم المجرد إذ كان الله منزهاً عن الوصف بالجوارح فوجود بالبصر والبصيرة فقد كان منه مشاهدةً بالبصر واعتباراً لحاله بالبصيرة ولولا ذلك لم يكن له أن يحكم بقوله ﴿وجدتها وقومها﴾⁽³⁾.

ينطلق بنا الأصفهاني إلى آفاق رحبة لمعنى وجد، وفي واقع الأمر فإن الحواس تضعف وتقوى بحسب كل حالة، ويضعف ويقوى تبعاً لذلك الوجود، فوجود البصر مثلاً ملاحظاً في

(1). بدائع الفوائد ، مرجع سابق ، ص 26

(2) الآية 7 من سورة الضحى.

(3) المفردات ص 512

قوله تعالى ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا﴾⁽¹⁾..... إلى آخره من المعاني، التي يتعدى الفعل بموجها إلى اثنين أو إلى واحد.

وأنا أرى أنه بذلك وضع مثلاً رائعاً للمشترك اللفظي؛ بقوله الوجود أنواع: وجود بإحدى الحواس الخمس، ووجود بقوة الشهوة، ووجود بقوة الغضب، ووجود بالعقل، ووجود بمعنى العلم، وضرب لكل معنى من المعاني مثلاً، فوجود الحواس مثاله وجدت طعمه، ووجود الشهوة مثاله، وجدت الشبع، ووجود الغضب مثاله وجدت السخط، ووجود العقل مثاله وجدت الله..

وأنا أؤيد ما ذهب إليه الأصفهاني خصوصاً أنه وضع السياق الذي يرشد إلى - تبين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، والذي يوضح أن هذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم⁽²⁾. وضعه نصب عينيه؛ ومن خلاله عرفنا المعنى الدقيق الذي بموجبه يتعدى الفعل لاثنتين أو إلى واحد.

الخاتمة:

بحمد الله وتوفيقه انتهى البحث ولم ينته الحديث عن أثر الدلالة على النحو عند الأصفهاني وقد خلصت إلى النتائج الآتية:

اهتم الأصفهاني بعلم الدلالة في مسائله النحوية، وهو الفرع من علم اللغة الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الدليل اللغوي حتى يكون قادراً على حمل المعنى، وتحديد المعنى وعلاقته بالتعدية؛ هو أن الفعل تُعرف تعديته إلى واحد أو اثنين أو عدم تعديته على ضوء معناه

ومن ذلك الاهتمام بالدلالة، اهتمامه بالسياق الذي ترد فيه الكلمة من الكلمات حسب الموقع الذي وقعت فيه، ثم يعقد مقارنة دقيقة في ما بينها بشرح المفردات شرحاً دقيقاً؛ من ذلك شرحه لمفردتي العلم والمعرفة والتفريق بين المعنيين، يقول: إن العلم ضربان، أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه والأول هو الذي يتعدى إلى مفعول واحد وليس هو الذي بمعنى عرف كما قال بذلك العلماء الذين افترضوا تعدية الفعل "علم" الذي بمعنى الفعل "عرف" في جميع أحواله.

(1) الآية النمل الآية 24

(2). بدائع الفوائد، مرجع سابق، ص 9

وهو من خلال استيفائه لمعنى الفعل "علم" قد أوضح لنا أن لفظ العلم أعمّ وأشمل من لفظ المعرفة وفي ذلك غاية الاهتمام بالفروق اللغوية التي أولاهها العلماء اهتمامهم. ومن اهتمامه بالسياق أيضاً تفسيره الدقيق للفعل "حسب" الذي يتعدى لمفعولين والفرق بينه وبين الفعل "ظن" بقوله: الظن أن يخطر النقيضين ببالة فيغلب أحدهما الآخر، والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر ببالة⁽¹⁾. وهو بهذا قد استوفى المعنى الدقيق لمعنى "الحسبان" ولم يتقيد بما ذكره غيره وقد وافقته في كلّ ما سبق، لأن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره ولا يُعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه.

وكذلك اهتمّ بالمشارك اللفظي الذي تكون للكلمة الواحدة فيه عدة معاني تطلق على كلّ واحد منها على طريق الحقيقة لا المجاز؛ وذلك بتفسيره لمعنى الفعل "جعل" الذي يتعدى لمفعولين بقوله "أن جعل يأتي بمعنى الحق مرة، وبمعنى الباطل أخرى كما يجري مجرى أوجد ويتعدى إلى مفعول واحد، ويأتي معناه في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه، أو الحكم على الشيء بالشيء، ولكل معنى من المعاني السابقة حالة مختلفة يتعدى الفعل بموجبها إلى واحد أو اثنين⁽²⁾ ومن اهتمامه بالدلالة اهتمامه بظاهرة التضام؛ وهو أن أي لفظة يتحدد معناها من خلال السوابق واللاحق وتبعاً لذلك فقد اهتم باللاحق التي لحقت الفعل "رأى" الذي يتعدى إلى مفعولين وذلك في استشهاده بـ "ألم تر إلى ربّك"⁽³⁾ و "بما أراك الله"⁽⁴⁾؛ فتعدية الفعل "رأى" بحرف الجر أدى إلى تغيّر المعنى وتغيّر المعنى سببه التعدية بحرف الجر. وكذلك الحال في إضافة الفعل "رأى" إلى الكاف الذي أدّى إلى تعديته وتغيّر المعنى من الظن إلى العلم⁽⁵⁾

ومن اهتمامه بالدلالة اهتمامه بظاهرة التضاد؛ ومنه أنّه جعل لنا إمارة تفرق بين المتضادين (الشك واليقين)؛ وذلك عند تفسيره لمعنى الفعل "ظن" وهذه الإمارة تقوى نحو اليقين وتضعف نحو الشك حسب المعنى الذي تحمله الآية من الآيات يقول: "فمتى قوي أو تصور

(1) المفردات ، ص 117

(2). الاضداد ، مرجع سابق ص 2

(3) الآية 45 من سورة الفرقان

(4) الآية 105 من سورة النساء

(5) المفردات ، ص 115

القوي استعمل معه أن المشددة وأن المخففة منها ومتى ضعف استعمل أن المختصة بالمعدومين من القول والفعل⁽¹⁾

يسلك "الأصفهاني" في تناوله للمسائل النحوية طريقاً متدفقاً بالمعاني الجميلة الأخاذة مستدلاً في ذلك بالقرآن وبمعاني مفرداته التي يقدمها برهاناً قوياً تهدم عنده كل الحجج، وهو فوق ذلك يمتلك قوة فذة في الربط بين المعاني، التي تتبين من خلالها عظمة القرآن الكريم في نظمه، وبديع فوائده.

إنَّ اهتمام الأصفهاني بعلم الدلالة قد ألقى بالظلال الآتية على درسه النحوي:

1. اختصار التطويلات النحوية، ومن ذلك اختصاره لقول المبرد السابق: "... و"جعل" لها

وجهان أحدهما أن تكون بمعنى صيرت فلا بد أن تتعدى إلى مفعولين.⁽²⁾

2. يورد القضية وفي طيها البرهان العقلي من القرآن وذلك مثلاً في كلامه عن الفعل جعل بمعنى

اعتقد.⁽³⁾

3. يتعمق في معاني الأفعال حتى يتبين لمستخدمها المعنى الذي يسعى لبيانها.⁽⁴⁾

4. يركز الأصفهاني على مسألة التحقق من معنى الفعل الذي يراد تعديته وعلى عدم تحميل فعل معنى فعل آخر من غير تدبر لمعناه؛ فيجب ألا نقول إنَّ "عَلِمَ" عندما تكون بمعنى "عَرَفَ" "تتعدى إلى واحد؛ لأنها لا تكون بمعنى عرف إطلاقاً؛ وذلك لأن العلم ضربان أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه، والأول هو الذي يتعدى إلى مفعول واحد وليس هو الذي بمعنى "عرف" والتي تنصب بدورها مفعولاً به واحداً.

5. يركز "الأصفهاني على تحري الدليل الذي يجعل فعل ما حاملاً لمعنى فعل آخر وذلك عند

حديثه عن الفعل "ظَنَّ". ..والظن اسمٌ لما يحصل من إمارة ومتى قويت أدت إلى العلم.⁽⁵⁾

(1). المفردات ص 209

(2). المغتضب مرجع سابق 4/ 70

(3). المفردات ، ص 220

(4). المرجع نفسه ص 331

(5). المرجع نفسه ، ص 317

6. وينطلق بنا" إلى آفاق رحبة لمعنى الفعل الواحد ومن ذلك حديثه عن الفعل "وجد"، قال "... ..
الوجود أضرب وجوداً بإحدى الحواس الخمس. ... ووجودٌ بقوة الغضب. ووجودٌ بالعقل.
..... فوجودٌ بالبصر والبصيرة." (1)

هذا غيض من فيض بحر الغزير، ومن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى المصدر

فهرس المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

- 1- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تأليف عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، تحقيق د. عبد المجيد دياب، الطبعة الأولى، شركة الطباعة السعودية، 1406هـ- 1986م.
- 2- الأضداد، محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1991.
- 3- الاعتقادات، الراغب الأصفهاني، تحقيق شمران العجلي، مؤسسة الأشرف، بيروت لبنان، ط1 1985.
- 4- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى (751. 691) تحقيق علي بن محمد العمران، طبعة مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي النحوية، دار علم الفوائد.
- 5- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصفهاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- 6- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت 671 هـ تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي.
- 7- حاشية الصبان على شرح الأشموني، محمد بن علي الصبان، دت، د، ط.
- 8- الخصائص، ابن جني، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.
- 9- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، بيروت ط1998.
- 10- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق أبي اليزيد العجمي، دار الوفاء ط1، 1983.
- 11- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، جزء 1، المكتبة العصرية، بيروت.
- 12- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت.
- 13- شرح ألفية ابن مالك، لابن الناظم، تحقيق عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، د. ط، د. ت.
- 14- الصحاح في اللغة والعلوم، للجوهري، تقديم عبد الله العلايلي، إعداد نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي، الطبعة الأولى، دار الحضارة العربية، بيروت، 1975م.
- 15- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، أستاذ علم اللغة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

- 16- فقه اللغة، علي عبد الواحد، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط1.
- 17- في ظلال القرآن. سيد قطب إبراهيم 1385. دار الشروق القاهرة. ط17. 1412.
- 18- الكافية الشافية، ابن مالك، تحقيق د. أحمد هريدي، د. ط، د. ت.
- 19- الكتاب، سيويو، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المكتبة المصرية، القاهرة، 1977م.
- 20- لسان العرب، ابن منظور، د. ط، د. ت.
- 21- مجيب النداء إلى شرح قطر الندى. جمال الدين بن عبد الله بن أحمد الفاكهي. تحقيق إبراهيم جميل محمد إبراهيم ط1. مكتبة المتنبى
- 22- مختار الصحاح، الرازي، رتبة محمود خاطر، مراجعة لجنة من مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، د. ت.
- 23- المظهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين السيوطي، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية بيروت، ج1.
- 24- المشترك اللفظي في الحقل القرآني، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة ط1 1417 هـ 1996م.
- 25- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي، تأليف أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، د. ط، د. ت.
- 26- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، 1414هـ-1993م.
- 27- المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت.
- 28- المقتضب، للمبرد، تحقيق حسن حمد، مراجعة الدكتور إميل يعقوب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، 1420هـ-1999م.
- 29- همع الهوامع، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، د. ت، د. ط.

القلب المكاني بين القدماء والمحدثين دراسة وتحليل

د. تمام حمد المنيزل*

المُقَدِّمة

القلب المكاني ظاهرة رصدتها اللغويون في موروثهم اللغوي وأوردوا لها نماذج وأمثلة. ويقوم على مبدأ التَّغْيِير في ترتيب حروف الكلمة، بتقديم بعض الحروف على بعضها الآخر. واختلف في وجودها علماء العربيَّة مع أنَّها شائعة ومعروفة وواضحة، وتكثر في لهجتنا المحكيَّة، فنقول: (امْضَحَلْ) والأصل (اضْمَحَلْ)، و(مَرْسَح) والأصل (مَرْسَح)، و(ما أَيْطِبَه) والأصل (أَيْطِبَه). ويؤثِّر القلب المكاني في الميزان الصَّرفي، فوزن (أشياء) هو (لفعاء)، وليس (أفعال)؛ لأنَّ أصل أشياء هو (شيئاء). تنوَّعت آراء علماء العربيَّة في ظاهرة القلب المكاني، فمنهم مَنْ حصرها في بعض الأبنية اللُّغوية: كالبصريين، ومنهم مَنْ وسَّع دائرتها ونطاقها: كالكوفيين، ومنهم مَنْ أنكر وجودها: كابن درستويه (ت347هـ). حاول القدماء تفسير ظاهرة القلب المكاني، فتشعَّبت آراؤهم، ثم تبعهم المحدثون في تفسيرها، فتفرَّقت آراؤهم في التَّعليل، والتفسير. تتناول الدِّراسة ظاهرة القلب المكاني: بين القدماء والمحدثين، بتتبع آراء العلماء، والتَّعرف على الظاهرة، وسبب اختلاف علماء العربيَّة حولها وتفسيراتهم لحدوثها، مع الموازنة بين الآراء المتنوعة وصولاً إلى تفسير مُقنع لها. تمهيد:

القلب المكاني لغة:

تقديم بعض الحروف على بعض⁽¹⁾.

القلب المكاني اصطلاحاً:

*أستاذ مُساعد / جامعة الجوف - كَلِيَّة العلوم والآداب بالقريات/ قسم اللُّغة العربيَّة

(1) الاستراباذي، الرضي: شرح الشافية: 21/1.

يتكون مُصطلح (القلب المكاني): من كلمتين: الأولى: كلمة (القلب) وتعني التحوّل والتّغيير والتّبديل. والثانية: كلمة (المكاني) أي بتبادل مواقع الحروف. القلب المكاني: هو "التّغيير أو التحوّل اللّغوي الذي يقع في كلمة من كلمات اللّغة في صورة تبادل أو تناوب في المكان أو الموضع أو الموقع بين أصوات (فونيمات) حروف كلمة من الكلمات بالتّقديم والتّأخير، فينشأ عن ذلك التّغير في تتابع ترتيب الفونيمات (حروف الكلمة) كلمة أخرى فرعية جديدة متّفقة في الدّلالة والمعنى، ومختلفة في ترتيب المبنى مع الكلمة الأولى الأصلية"⁽¹⁾.

استقرّ مفهوم القلب المكاني واستخدامه عند أهل التّصريف بأنّه: عملية يتم فيها تبادل صوتين لمواقعهما ضمن الكلمة الواحدة. القلب المكاني: عملية تقوم على معناها بعد ذلك التّبّادل؛ إذ إن كلمة (معلّقة) حدث بها في لغتنا المعاصرة قلب مكاني فأصبحت (معلّقة) محتفظة بنفس المعنى، ومن الواضح أن معلّقة هي الأصل ، فالفعل الذي اشتقت منه ليس (علق) بل (لعلق)⁽²⁾. رأي علماء اللّغة في ظاهرة القلب المكاني: آراء القدماء

اختلف القدماء في ظاهرة القلب المكاني ، فنجد مَنْ: أنكر وجودها كابن درستويه، الذي تفرّد بإنكار وجودها، وألّف كتاباً سمّاه (إبطال القلب المكاني)⁽³⁾، ومنهم مَنْ جعلها سنّة مُطرّدة وظاهرة شائعة في العربيّة كابن فارس (ت395هـ)، يقول: "من سُنن العرب القلب"⁽⁴⁾. والباحث في كتب الثّراث يجد أمثلة كثيرة على ظاهرة القلب المكاني ، فقد تنبّه القدماء لهذه الظاهرة ، وقد أقرّ البصريون والكوفيون بوجودها في بعض الكلمات العربيّة ، إلا أنّهم اختلفوا في الصّيغ التي وقعت فيها هذه الظاهرة ، فقد حصر البصريون وجود القلب المكاني في (اسم الفاعل) من الفعل المعتل الأجوف، وجاء في المزهري: "القلب الصّحيح عند

(1) هريدي، أحمد المجيد: القلب المكاني (دراسة تاريخية في المفهوم والمصطلح)، ص11.

(2) انظر: عبده، داود: دراسات في علم الأصوات، ص91.

(3) السيوطي، جلال الدين: المّزهر في علوم اللّغة، 371/1.

(4) ابن فارس، أحمد: الصّاحبي في فقه اللغة، ص51.

البصريين مثل: (شاكبي) السّلاح ، و(شائك) ، و(جُرْف هار) و(هائر) ، وأما ما يسمّيه الكوفيون (القلب) ، نحو: جبد وجذب ، فليس هذا بقلب عند البصريين وإنّما هما لغتان⁽¹⁾.

أما الكوفيون فقد توسّعوا في مدلوله وعدّوا مثل هذا الذي أنكره البصريون قلباً مثل ما حصل في: (جذب) و (جبد) وقد جمع بعض العلماء ألفاظاً عديدة من الكلمات التي حصل فيها قلب مكاني ، وأودعوها مؤلفاتهم ، فقد جمع ابن قتيبة (ت286هـ) منها قدراً في كتابه (أدب الكاتب)⁽²⁾.

وخصّص السيوطي (ت911هـ) في المّزهر حيزاً لهذا النّوع من الألفاظ⁽³⁾ ، وذكر السيوطي في المّزهر أنّ من النّحويين مَنْ عدّ ظاهرة القلب المكاني: "لغات" ، ومنهم مَنْ تقبّل هذه الظّاهرة بوصفها عمليّة تبادل للحروف في الكلمة الواحدة ، بحيث تُؤدّي الكلمة التي حصل فيها القلب نفس المعنى لها قبل القلب.

ويُمثّل على ذلك السيوطي بوفرة من الأمثلة التي ساقها من الجمهرة لابن دريد (ت321هـ) ، يقول: "وزعم قومٌ من النّحويين أنّها لغات ، وهذا القول خلاف على أهل اللّغة ، يُقال: جبد وجذب ، وما أطيبه وأطيبه ، وربّض وربّض ، وأنبض وربّض وأنبض ، وصاعقة وصاعقة ، ولعمرى ورعمرى ، واضمحلّ وامضحلّ ، وعميق ومعيّق.." ⁽⁴⁾.

إن القلب المكاني يعمل على إغناء لغتنا العربيّة بألفاظ جديدة؛ إذ إنّه يقوم على تبادل بين حرفين ، مما يؤدي إلى وجود صيغتين بنفس المعنى ، ويقوم على التبادل بين حرفين ، ولكن لا بد أن تكون إحدى الكلمتين أصلاً والأخرى فرعاً عليها ، ويجب أن يُقصر الفرع عن الأصل في التّصريف⁽⁵⁾؛ إذ ينقل لنا السيوطي قول السّخاوي (ت436هـ) في شرح المُفصّل ، فيقول: "إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدراً ، لئلا يلتبس بالأصل ، بل يقتصر على مصدر الأصل ، ليكون شاهداً للأصالة نحو: يئس يأسا ، وآيس مقلوب منه ولا مصدر له ، فإذا وُجد المصدر، حكم النّحاة بأنّ كل واحد من الفعلين أصل ، وليس بمقلوب من الآخر، نحو: جبد وجذب ، وأهل اللّغة يقولون: إن ذلك كله مقلوب"⁽⁶⁾.

(1) انظر: السيوطي، جلال الدين: المّزهر في علوم اللّغة، 371/1.

(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: أدب الكاتب، ص381.

(3) السيوطي، جلال الدين: المّزهر في علوم اللّغة، 367/1-370.

(4) السابق نفسه، 367/1.

(5) بكوش، الطيب: التّصريف العربي، ص73.

(6) السيوطي، جلال الدين: المّزهر في علوم اللّغة، 367/1.

القلب المكاني في الجملة

مواقف القدماء من القلب المكاني في الجملة:

تحدث ابن هشام عن هذه المسألة في القاعدة العاشرة في "معني البيب يقول: " من فنون كلامهم القلب . وأكثر وقوعه في الشعر"¹ ولقد أفرد لها ابن عصفور مكاناً في كتابه " فرائد الشعر" أسماه (إبدال الحكم من الحكم)² قلب الإعراب ، تأنيث المذكر ، تذكير المؤنث ، العطف على التوهم ، معاملة غير المبتدأ معاملة المبتدأ ... 15

القلب المكاني في الجملة في الشعر العربي

عدّ النحويون الشواهد الشعرية المحمولة على هذه المسألة من باب الضرورة لا يعد قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

كأن سبيئة من بيت رأس ** يكون مزاجها عسل وماء³

فيمن نصب المزاج ، فجعل المعرفة الخبر والنكرة الاسم ، وتأوله الفارسي على أن انتصاب المزاج على الظرفية المجازية ، والأولى رفع المزاج ونصب العسل 17 ومما يمكن عده من باب القلب في الجملة حملاً مثل قول رؤية:⁴ ومهمه مغبرة أرجاؤه ** كأن لون أرضه سماؤه⁵

أي كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه، فقلب التشبيه مبالغة ، وحذف المضاف 16 وقف ابن هشام عند ما سمّاه من فنون كلامهم القلب وذكر أن أكثر ما يكون ذلك في الشعر. وكثرته في الشعر مورداً من موارد الضرورة. ولما وصف ذلك بأنه من فنون كلامهم ، كان في هذا دلالة تداولية واضحة على أنّ للضرورة مدخلاً من مداخل فنون الكلام وبلاغته ، وأنهم في بعض ما يضطرون إليه في الشعر لا يقعون في مواقع الضعف ولا يهبط كلامهم مع هذه الضرورة. وهذا مدخل حسن من مداخل فهم الضرورة.

(1) مغني البيب عن كتب الأعراب، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ابن هشام، تح: محمد محي

الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 1987، 695/2

(2) انظر: حموز عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص 163

(3) الشاهد في ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفات، بيروت، دار صادر، 2006، مج 1، ص 17

(4) مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 695\2

(5) البيب لرؤية في ديوانه في مجموع أشعار العرب، اعني بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد، الكويت، دار ابن

قتيبة ص 3، ورواية الديوان: وبلد عامية أعمأؤه كأن لون أرضه سماؤه

ويؤكد ذلك قول ابن جني (ت392هـ): "اعلم أنَّ كلَّ لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير فأمكن أن يكونا جميعاً أصليين ليس أحدهما مقلوب عن صاحبه ، وذلك أنهما جميعاً يتصَّرفان تصرُّفاً واحداً نحو: جَذَبَ يَجْذِبُ جَذْباً فهو (جاذب) والمفعول (مَجْذُوب) ، وجبذ يجذب جبذا فهو (جاذب) والمفعول (مجبوذ) ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلاً لصاحبه فسَدَ ذلك ... فإن قَصُرَ أحدهما عن صاحبه ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرُّفاً أصلاً لصاحبه"⁽¹⁾.

آراء المُحدثين:

أخذ المُحدثون ظاهرة القلب المكاني عن القدماء وأدرجوها في دراساتهم ، فقد تناول (بروكلمان) ظاهرة القلب المكاني ودرسها ضمن أنواع المُخالفة؛ لأنَّ ظاهرة القلب المكاني تَمَّت بصلة قرابة شديدة للمُخالفة؛ إذ إن القلب المكاني يحدث فيه تغيير أصله التَّخالف، وهو: التَّقديم والتَّأخير ، أي أنَّ حرفاً من حروف الكلمة يُقَدَّم وآخر يُؤَخَّر مكانه ، ويرى بروكلمان أن ذلك القلب حدث لصُعوبة التَّتابع الأصلي لتلك الحروف على الذَّوق اللُّغوي ، أي أن القلب المكاني يقوم على مبدأ الاقتصاد في الجهد ، إذ تُقَدَّم بعض أصوات الكلمة عن بعض من باب السُّهولة في النُّطق تحت قانون الاقتصاد في الجُهد⁽²⁾.

وقد أولى بعض المُحدثين هذه الظَّاهرة عناية فائقة، مثل: عبد الفتاح حموز، الذي ألف كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع⁽³⁾ ، ونجد من المُحدثين -ك الطيب البكوش - مَنْ درس ظاهرة القلب المكاني مُطلقاً عليها تسمية جديدة بعنوان (التبادل)⁽⁴⁾؛ إذ تتمثل هذه الظاهرة في تبادل صوتين مكانهما في الكلمة، فيحدث بذلك تأخير الأول وتقديم الثاني ، مما يؤدي إلى وجود صيغتين بنفس المعنى.

ذهب بعض المُحدثين إلى أن ظاهرة القلب المكاني ترجع إلى الخطأ والتَّوهم السَّمعي، يقول " : برجشتراسر "ونجد تغييراً آخر أصله قريب من أصل التَّخالف ، وهو: التقديم والتَّأخير ، أي أن حرفاً من حروف الكلمة يُقَدَّم وآخر يُؤَخَّر مكانه ، وعلَّته أنَّ ترتيب الحركات في التَّصورات أسهل من تغييرها المُوجب للتَّخالف ، ونحن نشاهد ذلك بالآلة الكاتبة فإذا لم

(1) ابن جني، أبو الفتح: الخصائص، 69/2.

(2) انظر: بروكلمان: فقه اللغات السامية، ص80.

وانظر: برجشتراسر: التطور النحوي، ص35.

(3) حموز، عبد الفتاح: القلب المكاني، ص33.

(4) بكوش، الطيب: التصريف العربي، ص73.

نتيقظ كتبنا كلّ الحروف اللّازمة لكن على ترتيب غير ترتيبها"⁽¹⁾ ، أي يحصل عن طريق الخطأ في الطّباعة أو أنّه قد سمع كلمة فتوهم إنّ فيها حرفاً قد تقدم على حرف سابق له ، فأخطأ فكتبها أو نطقها بقلب جديد - وذلك نظراً لتصورات قبلية كانت محفورة في ذهن ذلك الإنسان الذي أحدث القلب في تلك الكلمة ، أو قد يكون لتقارب الحرفين في الصّفات أو المخرج؛ إذ يحدث تبادل موقعي الحرفين باب الاقتصاد في الجُهد.

وتحدّث رمضان عبد التّواب في كتابه التّطور اللّغوي عن تعليل ظاهرة القلب المكاني بنظرية السّهولة والتيسير، يقول مُعلّلاً: "والقلب المكاني - وهو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة لصُعوبة تتابعها الأصلي على الذّوق اللّغوي - وهو ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السّهولة والتيسير كذلك"⁽²⁾.

ولغتنا العربيّة تميل إلى الخِفّة والسّهولة في النّطق، وتبتعد عن الصّعوبة والثّقْل ، فما كان خفيفاً على اللّسان نطقت العربيّة به وما كان ثقيلاً تركته العربيّة وابتعدت عنه ، أو أوجدت مسرباً للتّخلص من ذلك الثّقْل ليتحقق الانسجام والانتلاف بين أحرف اللفظ الواحد ، وتمشياً مع ذلك فسّرت ظاهرة القلب المكاني على أساس السّهولة والتيسير.

وأيد عبد الفتاح الحموز فكرة القلب المكاني القائمة على نظريّة السّهولة والتيسير في النّطق ، إذ يقول: (ولعل ما يمكن حمله على توحّي السّهولة في نطق بعض الأصوات ما نلاحظه من قلب مكاني في بعض الألفاظ العربيّة في لغة الأطفال كقولهم: (فَعَلَ) في (عَقَلَ) و(واجعاز) في (إعجاز)، فقدّموا القاف (الحرف اللّهي) على العين (الحرف الحلقي) في الكلمة الأولى؛ لأنه أيسر في النطق في صدر الكلمة العين ، والقول نفسه في الكلمة الأخرى ، فالجيم حرف شجري ، والعين حرف حلقي فتتابع الهمزة العين مستثقل عندهم ، ولذلك فصلوا بينهما بالحرف الشجري"⁽³⁾.

وأيد هذا الرأي برجشتراسر الذي يرى مبدأ السّهولة والتيسير من أسباب القلب المكاني، يقول: "نتجنّب صُعوبة اللّفظ الناشئة من تجاوز بعض الأصوات" ، فقد ذهب براجشتراسر إلى أن (اتفعل) يقول مفسّراً: "الافتعال تاؤه في العربيّة دائماً تالية لفاء الفعل ، وكانت في الأصل سابقة لها ، كما هي في الآرامية ، نحو: (etkri) أي اقتراً ، يعني قُرئ ، لكنّها

(1) برجشتراسر: التطور النحوي، ص35.

(2) عبد التّواب، رمضان: التطور اللّغوي، ص57.

(3) الحموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص40.

كانت تُؤخر بعد فاء الفعل إذا كانت هي واحدا من حروف الصغير نحو ('estma'): أي استمع ، يعني سمع ، وعلى هذا القياس أَخَرَت العرب التاء في سائر الأفعال أيضا⁽¹⁾.

القلب المكاني في الميزان الصَّرفي:

قام القلب المكاني على تبادل موضعي بين حروف الكلمة ، وذلك بتقديم بعض الحروف على بعض ، مما يستدعي التَّغْيِير في أحرف الميزان تبعاً لتغيّر الموزون ، فإذا كان المقرّر أن الميزان الصَّرفي هو (الفعل) ، فإنَّه عند تقديم اللام على العين يصير (فعل) أو (عقل) بتقديم العين على الفاء ، أو (علف) بتأخير الفاء على العين واللام ، أو تقديم اللام على العين والفاء ، فيصبح الوزن (لفع) ، أو تأخير الفاء على العين واللام (لعف) ، وهذه الصورة الخامسة المُحتملة أوردها الرُّضِي (ت684هـ) في شرح الشَّافِيَّة⁽²⁾.

أدلة القلب المكاني:

يكون القلب المكاني في الكلمة بالتَّبَادُل الموقعي لحروف الكلمة؛ وذلك بجعل حرف مكان حرف بالتَّقديم والتَّأخير ، وقد تنبّه القدماء لظاهرة القلب المكاني كالخليل (ت174هـ)⁽³⁾ وسيبويه (ت180هـ)⁽⁴⁾ ، وقد أفرد ابن جني لهباباً بعنوان (باب الأصلين يتقاربان في التَّركيب والتَّقديم والتَّأخير)⁽⁵⁾.

استنبط ابن جني (ت392هـ) أدلةً للحُكم بالقلب أو عدمه ومعرفة الأصل من الفرع

، ومن هذه الأدلة:

أولاً: السَّعة في التَّصريف

ذكر ابن جني أن القياس في كل لفظين فيهما تقديم وتأخير: أن يكون كل منهما أصلاً إن أمكن ، يقول في الخصائص: "اعلم أن كل لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير فأمكن أن يكونا أصلين ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه، فهو القياس الذي لا يجوز غيره"⁽⁶⁾.

(1) برجشتراسر: التطور النحوي، ص92.

(2) الاسترأبادي، الرضي: شرح الشافية، 22-21/1.

(3) سيبويه، أبو بشر: الكتاب، 377/4.

(4) سيبويه، أبو بشر: الكتاب، 467/3.

(5) ابن جني، أبو الفتح: الخصائص، 69/2.

(6) السابق نفسه، 69/2.

أي إذا كان اللَّفْظَانِ متساويين في التَّصْرِفِ ، حُكِمَ عليهما بعدم القلب ، وَعُدَّ كُلُّ واحد منهما أصلاً ، وبهذا الدَّلِيلُ حُكِمَ ابن جني بعدم القلب بين جذب وجذب ، يقول: " فمما تركيباه أصلاً لا قلب فيهما ، قولهم: جذب وجذب ، ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه ، وذلك أنهما جميعاً يتصَرَّفَانِ تصرُّفاً واحداً ، نحو: جذب يجذب جذباً ، فهو (جاذب) والمفعول (مجنذب) ، وجذب يجذب جذباً ، فهو (جاذب) والمفعول (مجنذب)"⁽¹⁾.

وعندما يكون أحد اللَّفْظَيْنِ أوسع تصرُّفاً من الآخر ، فإنه – بقلب أحدهما عن الآخر – يكون الأكثر تصرُّفاً أصلاً لصاحبه ، والآخر فرعاً ، يقول ابن جني: "فإن قُصِرَ أحدهما عن الآخر تَصَرَّفَ صاحبه ، ولم يساوه فيه ، كان أوسعهما تصرُّفاً أصلاً لصاحبه ، وذلك كقولهم: أنى الشيء يأنى وأن يئى ، فأن مقلوب عن أنى ، والدليل على ذلك وجود مصدر: أنى يأنى وهو الإنى ، ولا نجد الآن مصدرًا"⁽²⁾ ، وكذلك فإن (اضْمَحَلَّ) ، هي الأصل، و(امْضَحَلَّ) هي المقلوب؛ لأن المصدر هي: (الاضْمِحَال) ولا نقول: (امْضِحَال)⁽³⁾ ، وكذلك قولهم: (اَكْفَهَرَّ) و(اَكْرَهَفَّ) ، الثاني مقلوب من الأول؛ لأن التَّصْرِيفَ على (اَكْفَهَرَّ) وقع ومصدره (الاكْفَهَرار) ولم يمر بنا (الكرهفاف)⁽⁴⁾ ، وكذلك نحو: " (شوائع) فإنه أكثر تصرُّفاً من (شواعي)؛ لأنه يُقال: شاع يشيع فهو شائع ، ولا يقال: شعى يشعى فهو شاع ، فلذلك كان (شوائع) الأصل"⁽⁵⁾.

ثانياً : التصحيح مع موجب الإعلال

لقد عد التصرفيون القلب المكاني من إحدى وسائل التصحيح ، لأن اللفظة المقلوبة محمولة في هذه المسألة على ما قلبت منه من حيث التصحيح عدمه ، على الرغم من موجب الإعلال في المقلوب ، ومما عدوه من هذا الباب قولهم: " آيس " في " يئس " ، فلولا القلب لوجب الإعلال ، ولقيل: إِسْتُ آَسُ ، كَهَيْتُ أَهَاتُ ، فظهوره صحيحاً يدل على أنه إنما صحَّ ، لأنه مقلوب

(1) السابق نفسه ، 70-69/2.

(2) السابق نفسه ، 70/2.

(3) السابق نفسه ، 73/2.

(4) ابن جني ، أبو الفتح: الخصائص ، 73/1.

(5) الإشبيلي ، ابن عصفور: الممتع في التصريف ، 617/2.

عما تصحَّ عيْنُه، وهو يُسْتُ لتكون دليلاً على ذلك المعنى، كما صحت عين "عور" دليلاً على أنه في معنى ملا بد من صحته وهو "اعْوَرَّ"¹

ثالثاً: الرجوع إلى المصدر

عندما نعثر على المصدر لأحد اللَّفْظَيْن ، ولا نجد للآخر مصدراً ، حكمنا بالقلب بينهما ، وجعلنا الأول أصلاً والآخر فرعاً ، يقول ابن جني: "ومن المقلوب قولهم: امْضَحَلَّ وهو مقلوب عن اضْمَحَلَّ ، ألا ترى أنَّ المصدر إنّما هو على اضْمَحَلَّ هو الاضْمَحَلال ، ولا يقولون: امْضَحَلال"⁽²⁾ ، وكذلك كما مر سابقاً فإن (اَكْرَهَفَ) مقلوب عن (اَكْفَهَرَ) ، وذلك بدليل المصدر (اكفهرا) ولا نقول: (اكرهفاه).

رابعاً: التَّجَرُّدُ وَالزِّيَادَةُ

عندما يكون أحد اللَّفْظَيْن مجرداً من الزِّيَادَةِ ، والآخر مزيداً ، حكمنا على المزيد بأنّه مقلوب عن المُجَرَّد ، ومن ذلك رأى سيبويه في (طَمَأَنَ)؛ إذ يراها مقلوبة عن (طَأْمَنَ)⁽³⁾ ، وقد علق عليه ابن جني، فقال: "وَحُجَّةٌ سيبويه فيه أن(طَمَأَنَ)غير ذي زيادة ، واطمأن ذو زيادة، والزيادة إذا لحقت الكلمة لحقها ضرب من الوهن بذلك ، وذلك لأن مخالطتها شيء ليس من أصلها مزاحمة لها وتسوية في التزامه بينها وبينه ، وهو وإن لم تبلغ الزيادة على الأصول فحش الحذف منها ، فإنه - على كل حال - على صدد من التوهين لها"⁽⁴⁾ ، ويُفسَّر ابن عصفور(ت663هـ) ذلك ، فيقول: "أن يكون أحد النّظْمَيْن لا يوجد إلا مع حروف زوائد تكون في الكلمة والآخر مُجَرَّد من الزّوائد، وذلك لأن دخول الكلمة الزوائد تغيير لها كما أن القلب تغيير والتّغيير يأنس بالتغيير"⁽⁵⁾.

خامساً: منع الصَّرْفِ لغيرِ عِلَّة

يختص بكلمة (أشياء)؛ إذ وردت ممنوعة من الصَّرْفِ في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ}⁽⁶⁾ ، لاحظ النُّحَاة أنها مُنعت من الصَّرْفِ - أي التنوين - وجعلت الفتحة علامة على الجرّ عوضاً عن الكسرة ، وقد أُشكل ذلك عليهم ،

(1)الحموز عبد الفتاح: القلب المكاني، ص59

(2)السابق فسه، 73/1.

(3)انظر: سيبويه، أبو بسر: الكتاب، 467/3.

(4)ابن جني، أبو الفتح: الخصائص، 75-74/2.

(5) الإشبيلي، ابن عصفور: الممتع في التصريف، 617/2.

(6)المائدة: ١٠١

وذلك لأن الكلمة مُنعت من الصَّرف على غير قياس ، فهي ليست مما تنطبق عليه شروط المنع من الصَّرف⁽¹⁾ ، فلو كان ترتيب حروفها طبيعياً لكان وزنها (أفعال) وهذا الوزن لا يمنع الكلمة من الصَّرف ، ولهذا عُدَّت مقلوبة؛ فقد جاء في المنصف: "قال أبو عثمان: وقال - يعني الخليل - (أشياء) فعلاء، وكان أصلها: (شيئاء) مثل: حمراء ، فُقلبت ، فجعل الهمزة التي هي لام أو لاً ، فقال: (أشياء) كأنها (لفعاء)"⁽²⁾.

أضاف ابن عصفور في (الممتع) دليلاً آخر على القلب المكاني ، وهو:

سادساً: كثرة الاستعمال

يعدّ ابن عصفور ندرة الاستعمال وكثرته: دليلاً على المقلوب والمقلوب منه ، فكثير الاستعمال يعدّ أصلاً ، أما قليله فمقلوب ، وفي ذلك يقول ابن عصفور: "أن يكون أحد النّظمين أكثر استعمالاً من الآخر ، فيكون الأكثر استعمالاً هو الأصل ، والآخر مقلوباً منه ، نحو: (لعمرى) و: (رعلى) فإن (لعمرى) أكثر استعمالاً ، فلذلك ادّعينا أنّه الأصل"⁽³⁾.

إلا أن الدّراسة ترى أن المقلوب قد يكون أكثر استعمالاً وانتشاراً على الألسن من الأصل ، ولا سيما أن من أسباب القلب الهروب من الثقل إلى الخفة واقتصاد الجهد ، وهذا ما أشار إليه الرضي في شرح الشّافية، يقول: "وكذا قلّة استعمال إحدى الكلمتين ، وكثرة استعمال الأخرى المناسبة لها لفظاً ومعنى، لا تدل على كون القليلة الاستعمال مقلوبة"⁽⁴⁾.

إضافة إلى تلك الأدلة على وجود قلب بعض الكلمات العربيّة ، فقد أضاف (براجستراسر) من الدّارسين المحدثين دليلاً آخر على وجود القلب ، وهو:

سابعاً: المقارنة باللّغات السّامية

اعتمد بعض الباحثين المعاصرين على المقارنة باللّغات السّامية للكشف عن القلب في عدد من الكلمات العربيّة؛ إذ يقع القلب المكاني في الكلمة العربيّة في حين تُحافظ اللّغات السّامية الأخرى على أصل الكلمة ، ومن ذلك كلمة (رُكبة) في العربيّة فأصلها (بُرْكة) بدليل أنها في العبرية (berek) وفي الآرامية وفي الأكادية (burku) وفي الحبشية (berk)⁽⁵⁾، فأصل هذه

(1) للمزيد، ينظر بحث: الشمسسان، أبو أوس: أقوال العلماء في صرف أشياء.

(2) ابن جني، أبو الفتح: المنصف، 94/2.

(3) الإشبيلي، ابن عصفور: الممتع في التصريف، 617/2.

(4) الاستراباذي، رضي الدين: شرح شافية ابن الحاجب، 24/1.

(5) انظر: برجستراسر: التطور النحوي، ص36.

وانظر: عبد التواب، رمضان: التطور اللغوي، ص58.

الكلمة (بُرْكة) ثم قلبت بدليل بقاء الأصل في الفعل (بَرَكْتُ) ، فهذه المقارنة تنبهنا إلى أمر مهم ، وهو شيوع بعض الكلمات وانتشارها بحيث لا يعرف الناطقون إلا إياها ، بينما يندثر الأصل ويُنسَى ، بمقارنة العربيّة بالسّاميات تستطيع تحديد الأصل والفرع بين الكلمات التي جرى فيها القلب المكاني ، وفي ذلك يقول : "براجشتراسر" وأحياناً نحتاج إلى استعراض الكلمات المُقابلة في المعنى ، في سائر اللُّغات ، مثال ذلك: (شَمأل) وهو الأصل ، (شأمل) مقلوب منه⁽¹⁾.

وكذلك "كلمة (مع) فأصلها (عم) ، إلا أنَّ العربيّة فقدت الأصل ، وعُرف هذا بالمُقارنة باللُّغات السّامية"⁽²⁾.

تفسير ظاهرة القلب المكاني:

اهتم علماء اللُّغة القدماء والمُحدثون بظاهرة القلب المكاني ، وحاولوا تفسيرها وتعليلها ، فجاء في تفسير وتعليل هذه الظاهرة ما يلي:

أولاً: اختلاف اللهجات:

نسب البصريون ظاهرة القلب المكاني إلى اختلاف اللهجات؛ إذ إنهم يعدُّون اللَّفْظَيْن إذا تساويا تصرفاً من باب اللُّغات من مثل: جذب وجبذ وغيرها⁽³⁾.

ذهب ابن درستويه إلى أن ما يعده اللُّغويون قلباً ما هو إلا لُغات تداخلت، يقول: "في البطيخ لغة أخرى طَبِيخ بتقديم الطاء ، وليست عندنا على القلب كما يزعم اللُّغويون ، وقد بينا الحُجَّة في ذلك في كتاب (إبطال القلب)⁽⁴⁾.

ولعل الذي جعل البصريين يذهبون إلى عدم وجود قلب بين (جذب وجبذ) ، وإنما هما لُغتان⁽⁵⁾، هو أن هاتين الكلمتين – وأمثالهما من الكلمات المقلوبة – شاعت في الاستعمال وكثر ترادها فلم يتمكنوا من معرفة الأخرى ، خاصة وأنها أخذت مجراها الطَّبِيعِي في اللُّغة ، وتصرّفت واشتقَّت منها صيغ كثيرة ، فصار كلا الكلمتين أصلاً من جذرين مُختلفين ويغلب استخدام أحدهما على الأخرى حسب الشُّيوع والاستعمال ، ولكل لهجة مُفرداتها الخاصّة.

(1) برجشتراسر: التطور النحوي، ص36.

(2) عبد التواب، رمضان: التطور اللغوي، ص58.

(3) انظر: السيوطي، جلال الدين: المزهرة في علوم اللغة، 481/1.

(4) السابق نفسه، 481/1.

(5) السابق نفسه، 481/1.

أيّد بعضُ المُحدثين ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي ، إذ يرى (صبيحي الصالح) أن القلب المكاني يمكن أن يرد إلى اختلاف اللهجات ، فيقول: "وفي هذا الجو الغامض من تأثر بعض الأصوات ببعض - وهو نتيجة حتمية لنطق قبيلة بدوية لم يتم صقل لغتها - لم تستنكف تميم عن تقديم الحُرُوف وتأخيرها في ألفاظ معيّنة - فهي تقول في القسم: (رَعَمَلِي) عوضاً عن (لَعَمْرِي)، كما تقول: (جبد) بدلاً من (جذب)"⁽¹⁾.

يوافق هذا الرأي: (عبد الفتاح حموز) إلا أنه يقرّ القلب المكاني في الألفاظ المقلوبة في القبيلة الواحدة من باب تطوّر المفردات ، فيقول: "ولسنا نُنكر أن يكون بعضها من باب اللّغات ، ولكننا لا نستطيع عد تلك الألفاظ المقلوبة في القبيلة الواحدة كذلك ، ولعلنا نستطيع أن نجاري مضان أصحاب اللّغة وغيرها في الإشارة إلى أن تلك اللّفظَة لغة في الأخرى أو مُتطوّرة ، أو أن اللّفظين لغتان"⁽²⁾.

ثانياً: طلب الخفة وكراهية اجتماع الأمثال:

إن اجتماع همزتين في آخر الكلمة مُستثقل في اللّفظ ، ولتجنّب ذلك الثّقل ، واستخدمت العربيّة القلب المكاني للتّخلص من اجتماع الهمزتين ، فالفعل (جاء) يُصاغ اسم الفاعل منه على النحو الآتي:

جاء ← (جياً) جاي ← جائي

نلاحظ اجتماع الهمزتين في الصيغة الّهائيّة ، نجم عنه ثقل في النّطق ، لذا استبعدت العرب هذه اللّفظَة واستبدلت بها (جائي) ، وقد فسّر سيبويه هذه الظّاهرة على أساس القلب المكاني ، فالكلمة (جاي) لم تُقلب فيها الياء همزة وإنما جرى فيها قلب مكاني فتقدّمت الهمزة فصارت (الجائي)⁽³⁾، وبذلك نتخلّص من اجتماع الهمزتين طلباً للخفة والتّيسير ، وصار هذا مبدأ البصريين في القلب المكاني ، فقد حصروا القلب المكاني في دائرة (اسم الفاعل) من الفعل الأجوف.

وما نلاحظه من قلب مكاني في بعض الألفاظ العربيّة في لغة بعض الأطفال كقولهم: (قعل) في (عقل) ، و(إججاز) في (إعجاز) ، إذ قدّموا: القاف ، الحرف اللّهوي، على العين

(1) الصالح، صبيحي: دراسات في فقه اللغة، ص103.

(2) انظر: حموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص73.

(3) انظر: سيبويه، أبو بشر: الكتاب، 377/4.

وانظر: الاسترأبادي، رضي الدين: شرح شافية ابن الحاجب، 25/1.

الحرف الحلقي في الكلمة الأولى ، لأنَّه أيسر في النُّطق في صدر الكلمة من العين ، والقول نفسه في الكلمة الأخرى، فالجيم حرف شجري ، والعين ، حرفي الحلق مُستثقل عندهم ، ولذلك فَصَّلُوا بينهما بالحرف الشجري⁽¹⁾.

ثالثاً: أن تكون بعض الألفاظ المقلوبة من باب الخطأ والتوهم:

وهي مسألة يخلو منها كتاب الله تعالى وقراءاته تمامًا؛ لأنهما منزَّهان عن مثل هذا التوهم والخطأ، وتكاد اللغة الفصحى تخلو منها أيضًا، ولعل مصدر هذا الخطأ أو التوهم بعض العامة والأطفال الذين تتعرَّض ألسنتهم في بعض الألفاظ، فيميلون إلى التقديم والتأخير في بعض حروفها²، ومما يمكن حمله على ما مر قول العامة: "تجوز" في تزوج، و"جواز" في زواج، و"مرسح" في مسرح و"أنارب" في أرانب³. ومن لحن العامة كذلك "خطب زجل" في "زجل" و"لطس الكتاب" أي محاه في "طلسه"⁴ أشار "برجشراسر" من المُحدثين إلى هذا القلب ، يقول: "ونجد تغييرًا آخر أصله قريب من أصل التَّخالف ، وهو التَّقديم والتَّأخير، أي أن حرفًا من حروف الكلمة يُقَدَّم ويُؤَخَّر مكانه ، وعلَّته أن ترتيب الحركات في التَّطورات أسهل من تغييرها المُوجب للتَّخالف ، ونحن نشاهد ذلك بالآلة الكاتبة، فإننا إذا لم نتيقظ، كتبنا كل الحروف اللازمة ، لكن على ترتيب غير ترتيبها"⁽⁵⁾.

رابعاً: نظرية السَّلاسل الصَّوتِيَّة:

تُعد نظرية السَّلاسل الصَّوتِيَّة من أحدث التَّفسيَّرات لظاهرة القلب المكاني ، واعتمد (إبراهيم أنيس) فيها على الإحصائيات اللُّغوية التي أُجريت بواسطة الحاسوب. وتقوم هذه النظرية على أن الإنسان يختزن في مخه محصولاً لغوياً ضخمًا ، مرتَّباً وفق سلاسل صوتِيَّة ، وفي ذلك يقول إبراهيم أنيس: إن المرء يكتسب في سني حياته محصولاً لغوياً ضخمًا يختزنه مُرتَّباً ترتيباً خاصاً ، يعين على تدكُّره وتداعي بعضه مع بعض ، فكان الله سبحانه قد أمدَّ المُخَّ في كل منا بجهاز كمبيوتر عجيب لا يكاد العلم الحديث يعرف عنه شيئاً.

(1) حموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص43.

2 حموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص74

3 حموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص74

4 حموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني، ص74

(5) برجشراسر: التطور النحوي، ص35.

ويكفل لنا الاستعداد الفطري اختزان المحصول اللغوي مرتباً في نظام صوتي خاص ييسر علينا تذكر ما نحتاج منه في كلامنا، ولا شك أن ذلك المحصول اللغوي لدى كلِّ منا يتألف من سلاسل صوتية أغلبها ثلاثي الأصول أو الجذور ، وأن هذه السلاسل تختلف في نسبة شيوعها في الكلام ، فمنها الكثير الشُّيوع، ومنها المتوسط، ومنها النادر ، وأن السلاسل الصوتية الأكثر شيوعاً من الناحية الإحصائية: هي أكثر السلاسل حضوراً في الأذهان ، وأسرع في الاستجابة حين الحاجة⁽¹⁾.

وفي تفسير حدوث ظاهرة القلب المكاني بناء على هذه النظرية، يقول إبراهيم أنيس: "فإذا سمع السامع أو نطق الناطق بسلسلة من تلك السلاسل الصوتية القليلة الشُّيوع تداعت لها مُسرعة سلسلة أخرى أشبه بها ، أو أقرب إليها ، وهي في نفس الوقت أكثر منها شيوعاً وتردداً في كلام الناس ، فكأنما كانت تطفو على سطح الشُّعور ، ولذلك تُبادر قبل غيرها في الاستجابة إلى المتكلم أو السامع ، فحلول سلسلة صوتية محل أخرى – وهذا هو القلب المكاني – سرُّه يُفسر لنا ظاهرة القلب المكاني في مُعظم أمثلة العربية بوجه عام"⁽²⁾.

تري الدراسة أن رؤية إبراهيم أنيس مُقنعة في تفسير ظاهرة القلب المكاني ، إذ إن الظواهر اللغوية – في أي لغة – ليست وليدة التفكير الواعي ، فهي لا تحدث عن تفكير مسبق وواعٍ ، فالقلب المكاني – كظاهرة لغوية – لم ينتج عن إرادة واعية وعمل مقصود ، وإنما كان نتيجة البيئة اللغوية التي تحتفظ بسلاسلها اللغوية – الخاصة بها – التي تعتمد عليها في بناء ألفاظها ومفرداتها ، وبعدها يقوم الأبناء بدورهم باكتساب تلك السلاسل اللغوية وتخزينها في أدمغتهم للعودة لها عند الحاجة.

الخاتمة:

تناولت الدراسة ظاهرة القلب المكاني: بين القدماء والمُحدثين، مبيّنة آراء اللغويين في هذه الظاهرة، من حيث: أسسها ومُسبباتها وأهميتها، وتوصلت الدراسة إلى أن القلب المكاني ظاهرة بارزة في لغتنا العربية الفصيحة والدارجة ، وقد أشار السلف لها ومثّلوا عليها وجاؤوا بالأدلة التي تثبت وجودها ، وحاولوا تفسيرها ، فأرجعوها إلى الخفة وكراهية اجتماع الهمزتين في الطرف ، وإلى الضرورة كي يستقيم الوزن ، وإلى اختلاف اللهجات.

(1) انظر: أنيس، إبراهيم: مسطرة اللغوي، ص 10-11.

(2) السابق نفسه، ص 11.

حظيت ظاهرة القلب المكاني باهتمام المُحدثين من العرب والمُسْتَشْرِقِينَ ، فجعلوا لها حيزاً في مُؤلَّفَاتِهِمْ ، وحاولوا البحث عن أسبابها من أجل تفسيرها وتعليلها ، فأرجعها بعضهم إلى نظريّة السُّهولة وتجنُّب الصُّعوبة في النُّطق ، وردّها فريق آخر إلى اختلاف اللُّهجات نظراً لاختلاف البيئات اللُّغويّة ، ومنهم من عزاها إلى الوهم والخطأ ، وردّها آخرون في الشُّعر إلى الضُّرورة.

ولعل كل هذه الأسباب مُجتمعة أسهمت في نُشوء هذه الظَّاهرة، وكان آخر تفسيرات القلب المكاني نظريّة السُّلاسل الصُّوتيّة ، التي اعتمدت على الإحصاءات اللُّغوية عن طريق الحاسوب ، وقد اطمأنت الدراسة لهذه النُّظرية من حيث تفسيرها لظاهرة القلب المكاني على اعتبارها ظاهرة لُغوية لا تُحدث عن وعي وتفكير مُسبق ، وإنما هي وليدة بيئية لُغوية ذات سلاسل صوتيّة خاصّة بها ، تَرَسَّخت في أدمغة أبناء تلك البيئة ، فيكون حُضورها في أذهانهم أسرع من غيرها؛ لأنها تكون عندهم أكثر شيوعاً من غيرها ، وهذا يجعل الإنسان يُحدث القلب المكاني في بعض الكلمات ، نظراً للموروث الصُّوتي الذي اكتسبه واختزنه في دماغه ليعود له حين الحاجة.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

- الاسترأبادي، رضي الدين: شرح شافية ابن الحاجب. تحقيق: محمد نور الحسن محمد الزفزاف، محمد يحيى عبد الحميد. دار الكتب العلمية: بيروت، 1975 م.
- الإشبيلي، ابن عصفور: الممتع في التصريف. تحقيق: فخر الدين قباوة. بيروت: دار المعرفة، 1987 م.
- برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، أخرج: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط3، 1997 م.
- بروكلمان، كارل: فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، جامعة الرياض: الرياض، 1977 م.
- البكوش، الطيب: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، القديم: صالح القرمادي، مؤسسه عبد الكريم: تونس، ط3، 1992 م.
- ابن أحمد، أبو محمد عبد الله بن يوسف: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. عالم الكتب: بيروت، ط2، 1913 .

- ابن جني، أبو الفتح عثمان: المنصف (شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني النحوي البصري). تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين. إدارة إحياء التراث القديم: وزارة المعارف العمومية: القاهرة، ط1، 1954.
 - ابن فارس، أبو الحسنين أحمد: الصحاح في فقه اللغة وسنن العربية. مطبعة المؤيد: القاهرة، ط1، 1910م.
 - ابن هشام، أبو محمد عبد الله، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، 1987.
 - حموز، عبد الفتاح: ظاهرة القلب المكاني (عللها وأدلتها وتفسيراتها وأنواعها)، مؤسسة الرسالة: بيروت، ودار عمان؛ عمان بدعم من جامعة مؤتة، 1986م.
 - الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أدب الكاتب. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة السعادة: مصر، ط4، 1963.
 - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان: كتاب سيبويه. تحقيق: عبد السلام هارون. عالم الكتب: بيروت، ط1، 1900م.
 - السيوطي، جلال الدين: المزهرة في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية: بيروت: ط1، 1998م.
 - الصالح، صبيح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين: بيروت، ط6، 1976م.
 - عبد التواب، رمضان: التطور اللغوي (مظاهره وعلله وقوانينه) مكتبة الخانجي- دارالرفاعي: القاهرة- الرياض، ط1، 1981م.
 - عبده، داود: دراسات في علم أصوات العربية، دار جرير: عمان، ط1، 2010م.
- ثانياً: الأبحاث المنشورة:
- أنيس، إبراهيم: مسطرة اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة 1972م، الجزء 29
 - الشمسان، أبو أوس: أقوال العلماء في صرف أشياء مجلة جامعة الملك سعود - الآداب، الرياض، 2001م، المجلد 13.
 - العطية، أحمد مطر: القلب المكاني في الموروث اللغوي. مجلة علوم اللغة، القاهرة، 1999، المجلد 2، عدد 2.
 - هريدي، أحمد المجيد: القلب المكاني (دراسة تاريخية في المفهوم والمصطلح)، مجلة علوم اللغة، المجلد 3، العدد 3، 2000م.

ظاهرة الإبدال الصوتي في اللهجات العربية القديمة وأثرها على أصوات العامية السودانية دراسة وصفية تاريخية

د. انتصار عثمان إبراهيم*

Abstract

The importance of this study comes from tow side

The first side:

It explain the arabic phonetic in adjectively and historically and explain the development of these phonetic for historical.

The second side:

The author study aimed to linked between the phonetic local Sudanese and the phonetic Arabic language due to satisfy the author to importance the satirical studies in educate and learn the languages.

In this study can found the local Sudanese actually which collects all the tongue of the Sudanese tribes and there tradition and different cultural must be stopped on it in order to studies and analytical.

The result of this study notice that in local Sudanese have a lot of properties which some humans express that was far away from Arabic language.

While the study fixed that was not far away from the low phonetics and the work whom Arabic exchanges.

الحمد لله حمداً لا يحصىه إلا هو، على ما أنعم علي، ووفقني له من خير، ابتغي فيه العلم وخدمة اللغة العربية. والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغر الميامين.

وبعد...

تأتي أهمية هذه الدراسة من جانبين:

الجانب الأول: أنها تتناول أصوات العربية تناولاً وصفياً وتاريخياً، بوصف مخارجها وبيان صفاتها كما وردت في كتب القدماء، ثم بيان التطور الذي حدث لهذه الأصوات عبر التاريخ. إلى أن وصلت إلى الوصف الحديث الذي وصفه لنا علماء اللغة المحدثين لأصوات الفصحى الحديثة بحسب نطق مجيدي التلاوة لها اليوم.

* أستاذ مساعد – جامعة أم درمان الإسلامية – كلية اللغة العربية، قسم اللسانيات.

الجانب الثاني: محاولة الباحثة ربط أصوات العامية السودانية بأصوات العربية في اللهجات العربية القديمة والتأصيل لها من خلال تناولها عبر ظاهرة الإبدال الصوتي للأصوات الصامتة في العامية السودانية؛ وذلك لما لدراسة اللهجات من أهمية كبيرة في الدرس اللغوي الحديث فهي تعيننا في توضيح بعض الحالات اللغوية القديمة التي لا نجد عنها ما يكفي من الوثائق. كما أنه لا يمكننا أن نعلم شخصاً ما لغة من اللغات دون أن نراعي المتاع اللغوي الذي يملكه ، ويشبه أحد علماء اللغة المحدثين المعلم الذي يعلم تلميذه لغة دون اعتبار اللهجة التي يحملها كممثل المهندس يبني جسراً على نهر بدون دراسة طبيعة الأرض التي يبني عليها.¹ وكم من أخطاء يرتكبها متعلمو اللغات الأجنبية يكون سببها الأساسي هو تأثرهم بنظام لهجاتهم التي يتكلمون بها في حياتهم اليومية. لذلك فإنني أنفق مع علم اللغة الحديث في أن الاستعانة باللهجات ودراستها يعيننا كثيراً في فهم العربية الفصحى وتعليمها لأبنائها وللناطقين بغيرها من اللغات، وكما يقول أستاذ الدراسات السودانية البروفيسور عون الشريف قاسم "رحمه الله" الذي يرى في مثل هذه الدراسات إضافة حقيقية للجهود المبذولة في هذا المجال الذي كان لأسلافنا القدماء قصب السبق فيه أمثال الكسائي في (لحن العوام) والزبيدي في (لحن العامة) وما إليها. خلافاً لما يذهب إليه بعضهم من أن الاعتناء باللهجات خطر على الفصحى. وتذهب الباحثة إلى أبعد من ذلك وترى أنه بدراسة اللهجات تتكشف الكثير من ملامح الشخصية السودانية، فهناك الكثير من الكلمات التي تعبر عن الشخصية السودانية يمكننا من خلالها معرفة التغيرات والتحويلات التي شهدتها الشخصية السودانية.

والذي لا شك فيه أنّ العامية السودانية تستحق أن نقف عندها وندرسها؛ إذ إنها تعبير لنا عن الإنسان السوداني بعاداته وتقاليده وآدابه وتاريخه وثقافته المختلفة، فنجد الكثير من أدبائنا وشعرائنا القوميين يكتبون أدبهم بالفصحى والعامي، وأقرب مثال لذلك الشاعر السوداني الكبير إسماعيل حسن² فلنستمع إليه يكتب بالفصحى فنحسه انحدر لتوه من شعاب مكة وبطونها:

1 التصريف العربي من خلال علم الأصوات. د. الطيب البكوشي. ط3 1992 ص: 12. 14

2 شاعر سوداني ولد بالولاية الشمالية عام 1927 م أكمل تعليمه بالقاهرة، عمل خبيراً بوزارة الزراعة بالسودان له عدة دواوين شعرية منها "ليالي الريف" و"خاطر إنسان" و"ريحة التراب" برع في النظم بالعامي =والفصحى. توفي بالخرطوم عام 1982 م موسوعة التوثيق الشامل قسم الشعر السوداني، منتدى شعراء الأغنية القومية. وانظر أيضاً صحيفة آخر لحظة 29 أكتوبر 2016م.

أبكي ربيعك ياسمراء أبكيه ** عهد تصرم وانفضت ليااليه
إني تلفت في روض الشباب فل ** حسن يزيد بهاء الروض في التيه
أتذكرين زمانا كان يجمعنا ** حلم الشباب جميلا في مغانيه
لا اليوم كالأمس يا سمراء واحزني ** حتى أخاف من الأنسام تدميه
جاء الخريف وفيه الريح عاتية ** تكلّي تولول بين الصخر والتيه
ثم لنستمع إليه يكتب بالعامية السودانية فنجد أنفسنا نحتاج إلى مترجم لمعرفة
بعض الألفاظ الموغلة في العامية:

بلادي أنا بلاد ناسا مواريثم

في أول شيء كتاب الله

وخيل مسروج وسيف مسنون حداه درع

والعامية السودانية التي أعنيها في هذه الدراسة ليست لهجة أو لغة قبيلة معينة من قبائل السودان؛ لأنه كما هو معروف لكل قبيلة لسانها الخاص الذي تميزت به، منها ماهو عربي الأصول، ومنها ما هو حامي، ومنها ما هو بربري، ومنها ماهو إفريقي. فعاميتنا السودانية هي حصيلة تمازج العربية مع لغات أفريقية أخرى، ولكن عندما اجتمعت هذه القبائل السودانية مع بعضها في المدن الكبيرة بصورة عامة وفي مدينة الخرطوم بصورة خاصة كونت لنا عامية خاصة تطلق على اللسان العام المشترك الذي يجمع كل السودانيين بلهجاتهم ولغاتهم المختلفة. والحقيقة التي لا بدّ من قولها: إن في عربية السودان جزالة وشدة أسر وجهامة في القالب تذكرنا بما هو موجود داخل المعجمات، بل تعدّ عامية السودان من أفصح العاميات في العالم العربي بل هي تقرب. كما أكّد الأستاذ: عبد الله الطيّب من لهجة بني أسد في الجاهلية، فنجد ألفاظا عربية خشنة تدور في اللسان السوداني مثل:

البرمة للجرة، والتلتلة للحركة بعنف، والجنى: للثمر والصبي، والحدرد للغضب، والحوار للتلميذ، والطخا: للغيم. وقد علق الأستاذ عبد الله الطيب " رحمه الله " على أن مثل هذه الكلمات تعبر عن قوة الإنسان السوداني.¹ مما دفع بالأستاذ حسن نجيلة² إلى القول: " إذا أتيح لك الاستماع إلى بعض هذه الألفاظ، أو رأيتهم يبدلون الحروف على غير ما تعهد، فلا تعجل عليهم باللوم، وإنما اتهم نفسك بالعجمة أولا، وعد إلى كتب اللغة واستفتها تنبئك

1 الشعر الحديث في السودان. عبده بدوي. من منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. ص: 40. 42

2 أحد النقاد والكتاب السودانيين المعاصرين، له من المؤلفات المطبوعة " ذكرياتي في البادية "

باليقين¹. فما نسميه عامي هو في الحقيقة فصيح، وتحضرني في هذا الموضع طرفة حكاها البروفيسور صلاح الدين المليك وجدتها في مقال للعقيد إبراهيم عقيل مادبو على صفحته ب (الفيس بوك) ختم بها، بعنوان:

"العامية السودانية وارتباطها باللغة العربية.. مستودع السمات السودانية الأصيلة" أن مديعا مشهورا في إذاعة لندن قدم أغنية سودانية وقرأ من ورقة التقديم: "يغنيكم عثمان حسين ما رأيت في الكون يا حبيبي أجمل منك في دالك وتمك وجهالة سنك" ونطق عنوان الأغنية بالعربية الفصحى معربا أو آخرها، لظنه أن الأغنية بالعربية الفصحى ولم يشك من كلمات العنوان أن الأغنية من العامية السودانية، ولكنه صُدم عندما بدأ الفنان يغني، وقال بدهشة بعد نهاية الأغنية: "هذه أغنية عامية في الأداء لكنها فصيحة الألفاظ"². وعندما نتحدث عن العامية السودانية فإنه من الأهمية الإشارة إلى جهل البعض بالعامية السودانية، وعدم معرفتهم بالاشتقاق والتغيير الدلالي في اللغة والإبدال الذي يؤدي لاختلاف الكلمات وتغيير الحروف عند نطقها مما يدفع البعض إلى الاعتقاد أن قائلها لا يتقن اللغة العربية أو أنها لا تنتهي إلى اللغة العربية.

والعلاقة بين العامية السودانية واللهجات العربية القديمة علاقة قديمة ترتبط بتاريخ دخول العرب السودان الذي يؤرخ له بعض المؤرخين بتاريخ يرجع إلى ما قبل المسيحية³، والذي لاشك فيه أن هؤلاء العرب الذين دخلوا السودان قبل الإسلام لم تكن لغتهم هي الفصحى، بل تحدثوا بلهجات عربية مختلفة مثل: الحضرمية والحميرية والنبطية، المهم أنه قد تحدث الإنسان السوداني بلسان عربي ممزوج باللغات الحامية والبربرية الأخرى التي لا تزال آثارها واضحة على لسان بعض القبائل السودانية: كالنوبية في شمال السودان والبجاوية في شرقه، وبعض اللغات الأفريقية في جنوبه الشرقي، ومجموعة من اللغات الحامية في غربه. وبالتأكيد فإن مثل هذا البحث يعود على دراسة اللغة الفصحى بفوائد كثيرة. ونشوء اللهجات من اللغة الفصحى أو اللغة الأم تطور درجت عليه الإنسانية في قديمها وحديثها. واللغات كسائر الظواهر الإنسانية في تطور مستمر سواء ما كان منها فصيحاً أو عامياً؛ فاللغات الفصحى التي عرفها

1الشعر الحديث في السودان. عبده بدوي. ص: 221

2 من موقع <https://m.facebook.com> صفحة العقيد إبراهيم عقيل مادبو

3الشعر في السودان. عبده بدوي ص: 94

الإنسان تتطور في اتجاهين مادامت حياة: أحدهما: اتجاه خاص بها بصفتها لغة مقننة ذات أصول وحدود.

وثانيهما: اتجاه متفرع منها وذلك بنشوء صيغة ميسرة تتحدث بها الشعوب في حياتها اليومية. والمتأمل في اللغات جميعاً يلاحظ أن تطور الصيغة الشعبية أو العامية يكون في العادة أسرع خطأً من تطور اللغة الفصحى.

أما التطور الصوتي لأصوات العربية: فالعربية كغيرها من اللغات كما عرفها علماء اللغة القدماء والمحدثون واتفقوا على طبيعتها: فهي "مجموعة من الأصوات تتصل مع بعضها بعضاً في نسق معين لتعبر عن الأفكار الإنسانية، وتربط أفراد المجتمع مع بعضهم بعضاً" يقول فندريس: إن ما يسمى صوتاً هو الأثر الواقع على الأذن من بعض حركات ذبذبية للهواء. والذبذبات في اللغة يحدثها الجهاز الصوتي للمتكلم.

وفي كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، فهي تكون نظاماً متجانساً مغلقاً تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها، هذه هي أول قاعدة من قواعد الصوتيات، وهي ذات أهمية قصوى، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة، بل من نظام من الأصوات.²

لذلك فإن عملية إصدار الصوت الإنساني تتطلب أمرين:

الأول: بذل مجهود معين من جهاز النطق الإنساني.

الثاني: موافقة الصوت للسياق الذي يرد فيه؛ لأنه ليست كل الأصوات صالحة لمجاورة بعضها بعضاً؛ فلابد من مراعاة الانسجام الصوتي بين الأصوات المتجاورة وليتم ذلك لابد من حدوث نوع من التغيير والتبديل لبعض الأصوات عند مجاورتها لأصوات أخرى وهو ما يعرف بالإبدال الصوتي.

والإبدال في اللغة:

مصدر أبدلت كذا من كذا إذا أقمته مقامه. والأصل فيه: جعل شيء مكان شيء آخر وتبديل الشيء: تغييره وإن لم تأت ببدل. واستبدل الشيء بغيره وتبدل به إذا أخذه مكانه. والمبادلة:

1 من علماء اللغة القدماء عرفها ابن جني في الخصائص بقوله: "أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" الخصائص لأبي الفتح عثمان ابن جني. تحقيق محمد علي النجار. عالم الكتب بيروت 33/1

2 من كتاب اللغة. لفندريس. ص: 62

التبادل. والأصل في التَّبدِيلِ تَغْيِيرُ الشَّيْءِ عَنْ حَالِهِ، والأصل في الإِبْدَالِ جَعْلُ شَيْءٍ مَكَانَ شَيْءٍ آخَرَ كإبدالكَ مِنَ الْوَاوِ تَاءً فِي تَالَهُ¹.
والإبدال اصطلاحاً:

جعل صوت مكان صوت آخر مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة.² ولكن هذا الإبدال لا يقع عبثاً، وإنما تحكمه قوانين معينة، حصرها علماء الأصوات في قانونين هما: قانون الأقوى: "low of the stronger" وبموجبه يتغلب الصوت الأقوى على الأصوات المجاورة له.

قانون الجهد الأقل: Effort or economy of effort principle of least ويهدف هذا القانون إلى تحقيق حد أعلى من الوضوح بحدٍ أدنى من الجهد والطاقة.³

وعلى ضوء هذين القانونين يمكننا تفسير الكثير من مظاهر التغيرات الصوتية التي تحدث للأصوات لتكون لنا نظاماً متجانساً ومنسجماً. وهذا ما أتناوله في هذه الدراسة من خلال أصوات العامية السودانية، فقد لاحظت من خلال قراءتي في اللهجات العربية القديمة أنَّ في العامية السودانية الكثير من الخصائص التي قد يظن بعض الناس أنها خارجة عن نطاق ما عرفته العرب في لغتها، وهذه الخصائص منها ما هو صوتي ومنها ما هو صرفي ومنها ما هو نحوي ومنها ما هو دلالي، إلا أنني اخترت لهذه الدراسة نماذج من الجانب الصوتي لتعيد من خلاله قراءة العامية السودانية وربطها باللهجات العربية القديمة، من خلال ظاهرة الإبدال الصوتي؛ إذ إننا نجدهم يبدلون ولكنهم لا يخرجون في إبدالهم عن القوانين الصوتية العامة. وقد أفدت في جمع كلمات هذه الدراسة من معجم اللهجة العامية الدارفورية لأستاذي وشيخي الدكتور: إبراهيم آدم إسحق "متعه الله بالصحة والعافية" العامية الدارفورية التي وجدتُها لا تختلف كثيراً عن العامية التي أتحدث عنها.

ومن الأصوات التي أبدلت في العامية السودانية:

1/ صوت الهمزة: الهمزة عند القدماء صوت شديد مجهور مخرجها أقصى الحلق¹.

1 لسان العرب . لمحمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين بن منظور . دار صادر بيروت . ط: 3 . 1414 هـ . مادة (بدل)

2 وقد ورد في كتب التصريف في تعريف الإبدال أنه جعل حرف مكان حرف آخر إلا أنني وجدت أنَّ هذا التعريف عام لا يشمل الحركات . ولا بن جني في الخصائص رأي في البديل والعوض . الخصائص 265/1

3 أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية . د: فوزي الشايب . د ط 2004 م . عالم الكتب الحديث . ص: 61

والصوت الشديد: (هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه) والأصوات الشديدة عندى سيبويه هي (الهمزة والقاف والكاف والجيم..)² والهمزة عند المحدثين: صوت صامت حنجري وقفة انفجارية، لا مجهور ولا مهموس³. فمخرج الهمزة عند المحدثين. كما ينطق بها مجيدو القراء في العالم. ليس الحلق، وإنما هو الحنجرة⁴ والهمزة من أكثر الأصوات صعوبة على جهاز النطق الإنساني؛ يحدث بأن تسد الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين بانطباقهما انطباقاً تاماً فلا يسمح للهواء بالمرور، ثم ينفرج الوتران فينفذ الهواء من بينهما فجأة محدثاً صوتاً انفجارياً⁵، لذلك فقد مالت معظم اللهجات العربية إلى تخفيفها؛ تحقيقاً لقانون الاقتصاد في الجهد وطلباً للخفة والسهولة، أما في العامية السودانية فلا نكاد نجد الهمزة محققة، فهي إما أن تحذف أو تبدل، سواء وقعت في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها.

وفي بداية الكلمة قد تبدل الهمزة لأمّا إذا دخلت عليها لام التعريف وتدغم فيها، فنقول في العامية السودانية: اللصبع بدلا من الأصبع، واللرض بدلا من الأرض، واللحد بدلا من الأحد، واللبعاء بدلا من الأربعاء، واللبيض بدلا من الأبيض واللخضر بدلا من الأخضر، واللبل بدلا من الأبل والليد بدلا من الأيد. وهذا الإبدال لهجة عربية قديمة حكاها الكسائي والفراء، فذكروا أن العرب تقول: اللحم واللرض في الأحمر والأرض⁶ وفي وسط الكلام قد تحذف الهمزة أو تبدل (ياء نحو: بايع، وقايل، وفاس وبيز. وقد ورد ذلك في القراءات ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ

1 سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان ابن جني. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. ط 1 1421 هـ. 2000 م. 1/

لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ¹ فقرأ الأشهب والحسن: باريكم بالياء دون همز²

وتحذف إذا وقعت في نهاية الكلمة نحو: السما والهوا والصحرا. ومن مظاهر تخفيف الهمزة في وسط الكلمة: إبدالها عيناً نحو سعل وجعر، في سأل وجأر، وهو ما يعرف في اللهجات العربية القديمة بـ (العنونة) وقد أشار ابن جني إلى أنها لغة (تميم)³ وورد في الخصائص في باب اختلاف اللغات وكلها حجة: "أما عنعنة تميم فإن تميماً تقول في موضع أن: عن، تقول: عنَّ عبد الله قائم. قال الأصمعي: سمعت ابن هزّمة يُنشد هارون الرشيد:

أَعَنَّ تَغَنَّتْ عَلَى سَاقٍ مَطْوُوقَةٌ**وَرَقَاءُ تَدْعُو هَدِيلاً فَوْقَ أَعْوَادٍ⁴

وقد يكون إبدال الهمزة عيناً في أول الكلمة أو آخرها مثل قولهم: فقع وانفقع، وهو من فقاء وانفقاء، وقولهم في الاستفهام: وين بدلاً من أين، وقولهم في الدعاء: يامين بدلاً من آمين. وكما أبدلوا الهمزة إلى حرف آخر نجدهم يحذفونها في بعض المواضع فقالوا: مرة، بدلاً من امرأة، وسماعين بدلاً من إسماعيل. فإبدال الهمزة هنا تحقيقاً لقانون السهولة واليسر والتخفيف.

2/ صوت العين

العين صوت حلقي مخرجه الحلق مع الحاء⁵، وهي حرف مجهور يكون أصلاً وبدلاً، الأصل مثل عرف وعين، وشعر، وصنع. أما البديل فقد أبدلت من الهمزة كما رأينا في إبدال الهمزة، وقد تقلب العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء وهو ما يعرف بـ (الاستنطاء)⁶ كقولهم: أنطي: بدلاً

1 سورة البقرة 54

2 اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص 120

3 سر صناعة الأعراب لأبي الفتح عثمان ابن جني. تحقيق حسن هندواي. دار القلم دمشق. ط 2 1413 هـ

1993 م. 229/1

4 المزهر للسيوطي 122/1

5 الأصوات اللغوية. كمال بشر ص 603

6 المزهر للسيوطي 222/1

من: أعطى. ومن شواهدا عن أم سلمة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾¹ قرأ (وأنطاهم تقواهم) وقرأ

الحسن وغيره: «إنّا أنطيناك الكوثر»² في قوله تعالى (إنّا أعطيناك الكوثر)³

وكلمة أنطيت وأنطيتك متداولة الآن على نطاق واسع في أنحاء من دارفور وكردفان وورد في

أمثالهم: "منعم أنطاني غلة" و"جلابي كان لقيته وحيدة ينطيك وليده" وسمعت أبنائي يرددون

كلمات أغنية شعبية من مناطق دارفور يتغنى بها أحد المغنيين الشباب تقول:

بقيت بعيد عنك

شايلى براى همك

ناس أبوك وأمك

أنطوك لود عمك

فهذه الظاهرة وتسمى الاستنطاء وهو لغة من الإعطاء⁴ يرى الدكتور عبد الغفار حامد هلال أن

الصوتين بينهما تقارب في بعض الصفات يسوغ التبادل بينهما كالجهر والاستفال والانفتاح وهما

أيضا صوتان متوسطان بين الشدة والرخاوة⁵

2/ صوت الحاء:

صوت الحاء من الأصوات التي أبدلت في العامية السودانية تطبيقاً لقانون السهولة واليسر.

فهي عند القدماء حرف حلقي مهموس،⁶ وهي من الأصوات التي اتفق فيها المحدثون مع القدماء

في مخرجها وصفاتها، وقد قلبت في العامية السودانية هاء؛ لقرب المخارج والصفات؛ فالحاء

حلقيه مهموسة احتكاكية، والهاء حنجريّة مهموسة احتكاكية⁷، ووصفها القدماء بأنها حلقيه،

1 سورة محمد 117

2 سورة الكوثر 4

3 منار الهدى في بيان الوقف والابتداء لأحمد بن عبد الكريم بن عبد الكريم الأشموني تحقيق: عبد الرحيم

الطرهون. دار الحديث. القاهرة. مصر 2008م 433/2

4 اللسان مادة (عطى)

5 اللهجات العربية نشأة وتطورا. عبد الغفار حامد هلال. ص 186

6 سر صناعة الإعراب 1/179

7 الأصوات. كمال بشر. ص: 213

فيقولون: همزة وهبارى بدلاً من: حمزة: علم مذكر، وحبارى: لنوع من الطيور، وقد ورد في اللهجات العربية القديمة إبدال الحاء هاء فقالوا: كدحه وكدهه وفحل جلدّه وقهل: إذا يبس والجّلج والجلّه: انحسارُ الشعر عن مقدّم الرأس وحبش وهبش أي جمع وحقق في السير وهقق: إذا سار سيراً متعباً وبختر وبهتر: القصير، ويقال: نَحَمَ بَنَحَمَ ونَهَمَ يَنهَمُ ونَامَ يَنَامُ بمعنى زَحَرَ والنَّهَمَ والنَّهَمَ وهو صَوْتُ كَأَنَّهُ زَحِيرٌ وَأَنَحَ يَأْنَحُ وَأَنَّهُ يَأْنَحُ وفي صوته صَحْلٌ وصَهْلٌ أي بحوَحَة وهو يَتَفَهَّقُ في كلامه: إذا توسع وتَنَطَّع¹ وقلبت الحاء في العامية السودانية بنظيرها المهموس الخاء فقالوا: خت بدلاً من حطّ.

3/ صوت الخاء:

الحاء عند القدماء صوت حلقي² وعند المحدثين صوت طبقي مخرجه أقصى الحنك³ وهي صوت مهموس احتكاكي،⁴ وقد أبدلت في العامية السودانية قافاً فنسمعهم يقولون: الدقشة: وتستعمل عندهم في معنى الكثرة، وأكثر استعمالها فيما يحزم أو يجمع من الأشياء على غير نظام فيقولون: دقشة حطب ودقشة قروش وغيرها⁵

والدقشة هي الدخش فأبدلوا الخاء قافاً لقربها من مخرجها وقد ورد عن العرب هذا النوع من الإبدال: قال الزبيدي: قال ابن دريد: الدخش: فعله ممات يقال دخش دخشا كفرح: إذا امتلأ لحماً.. وقال يونس: رَجُلٌ دَخَشَنُ: غَلِيظٌ خَشِنٌ⁶

وقد تبدل الخاء جيماً أو كافاً كما في قولهم: سجم وسكن: للسواد الناتج من الاحتراق، ومن هنا جاءت الكلمة المعروفة عند النساء (سجمي) وتقصد بذلك الدعاء على نفسها أن يغطي جسمها بهذا السواد. ويردها الدكتور إبراهيم آدم إسحق "أطال الله عمره" أنها ربما تكون من باب إبدال الجيم كافاً، فتكون مأخوذة من: الكتن عند العرب إذ هو أيضاً بمعناه⁷ ورد في القاموس

1 المزهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق فؤاد علي منصور. دار

الكتب العلمية. بيروت. ط: 1. 1998 / 361

2 سر صاعة الإعراب 52/1

3 الأصوات كمال بشر 184

4 السابق 199

5 معجم اللهجة الدارفورية العامية د إبراهيم آدم إسحق دار الخرطوم الجديدة أكتوبر 2010 ص: 194.

6 تاج العروس 310/4

7 معجم اللهجة الدارفورية العامية. د إبراهيم آدم إسحق ص. 264

الكتن: محركة: لطح الدخان، والسواد بالشفة ولزوق الوسخ بالشيء¹ وهو في صريح العربية: سخم وسخام فأبدلت الخاء كافاً إذ تقول العرب أغبن وأخبن وأكبن. والسخم السواد والسخام سواد القدر²

4/ صوت القاف:

القاف عند القدماء صوت لهوي شديد مجهور³ وهي عند المحدثين صوت لهوي انفجاري مهموس⁴

يعد صوت القاف من الأصوات التي عانت كثيراً من التغيرات التاريخية في اللغة العربية، فإن مقارنة اللغات السامية، تدل على أنه صوت شديد مهموس، ينطق برفع مؤخرة اللسان، وإصاقها بالهواة، لكي ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق، ثم يزول هذا السد فجأة، مع عدم حدوث اهتزازات في الأوتار الصوتية، ففي العبرية مثلاً: قُول K?، وفي الآرامية: قالا kàlā، وفي الحبشية: قَال k?، بمعنى: "صوت"؛ في الجميع، وهو يقابل في العربية: "قَوْل"، وفي الآشورية: قُول kulu بمعنى "صراخ"⁵.

... وقد عدّ قدماء اللغويين العرب "القاف" من الأصوات المجهورة في العربية الفصحى، فإن صدق وصفهم إياها بالجهر، كان ذلك النطق من التغيرات التاريخية في العربية القديمة. ... وقد بقي هذا النطق المجهور في أغلب البوادي، في اللهجات العربية المعاصرة وإن تقدم مخرجه إلى الأمام قليلاً وأصبح كالكاف الفارسية.

... غير أن هناك تغيرات أخرى كثيرة، طرأت على هذا الصوت في البلاد العربية، فهو ينطق صوتاً مزجياً (affricate) كالجيم الفصيحة، في بعض بلدان الخليج العربي كالبحرين، فقد سمعت بعض أهلها يقولون: "الجِبلة" بدلاً من: "القِبلة".

أمّا القاف في العامية السودانية فلها ثلاث صور من النطق:

1/ أن تنطق (G) وتسمى الجيم القاهرية.

2/ أن تنطق (كافاً) وتسمى القاف المعقودة.

1 القاموس المحيط 264/4

2 السابق 233/1

3 سر الصناعة 277/1

4 الأصوات. كمال بشر. ص: 276

5 الأصول العربية للهجة دارفور العامية (القروية). د إبراهيم آدم إسحق. ط1. 1423 هـ. 2002 م. ص: 103. 104.

3/ أن تنطق غيناً.

أما النطق الأول: وهو أن تنطق: (G) كما في كلمة (GO) الإنجليزية وتسمى الجيم القاهرية، وهي في هذه الحالة صوت شديد مجهور كما وصفها القدماء إلا أنه قد تقدم مخرجها قليلاً إلى الأمام وأصبحت كالكاف الفارسية كما وصفها الأستاذ إبراهيم آدم إسحاق¹ فنقول في العامية السودانية: قلب، ووقية، وقدام بجهر (القاف) وربما كانت هذه القاف المنطوقة (G) هي القاف الفصحى التي روي أنها كانت مستعملة في جهات من اليمن، ويؤكد ذلك ورود عدد من الألفاظ في معاجم الفصحى بالقاف والجيم مثل المقداف والمجداف، والقرح والجرح، فيدلنا هذا الازدواج على أن بعض القبائل كانت تنطق القاف المجهورة (G) فلما سادت الفصحى، حملت معها القاف المهموسة، فالتقى الصوتان فرسمت الثانية في الخط (جيماً)؛ إذ لم يجدوا لها في الكتابة حرفاً يعبر عنها²

أما النطق الثاني للقاف في العامية السودانية فهو أن تنطق كافاً في مثل: كتل، ووقت، وبرتكان، وفكي. بدلاً من: قتل، ووقت، وبرتقال، وفقية. حيث تغير مخرج القاف بالرجوع إلى الورا قليلاً فصارت تنطق من اللهاة من مخرج الكاف. ولاشك أن هذا الصوت هو الذي وصفه ابن سينا بقوله: "فهي تحدث حين تحدث الكاف ولكن أدخل وبحبس أضعف إلا أنها أدخل قليلاً³، وهي صورة من صور القاف المهموسة التي انتشرت في لهجات نجد القديمة، والتي عبر عنها القدماء بلغة تميم، وكانت تشمل قبائل عديدة من قيس وأسد قال الفراء: قريش تقول: كشط، وقيس وتميم تقول: قشطت، بالقاف. وليست القاف في هذا بدلاً من الكاف، لأنهم لغتان لأقوام مختلفين⁴. وهي التي أطلق عليها القاف المعقودة، وقد انتقلت منذ القرن الرابع الهجري إلى إفريقيا والأندلس. أما في العامية السودانية فنقول: مكشاشة بدلاً من: مقشاشة، فأبدلت القاف كافاً، والناظر في العلاقة الصوتية بين القاف والكاف يراها قوية من حيث المخرج والصفات، فلا مانع من التبادل بينهما وفي رأي أن الكاف أسهل نطقاً من القاف.

1 الأصول العربية للهجة دارفور العامية. د إبراهيم آدم إسحق ص: 19

2 / اللهجة العامية السودانية في الحديث والأثر. د. أبشر عوض محمد إدريس. مطبعة دبي الإمارات العربية المتحدة. د ط. 1429 هـ. 2008 م. ص: 39. 40.

3 رسالة أسباب الحروف. للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا. تحقيق محمد حسن الطيان ويحي مير علم. من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ص: 127

4 سر الصناعة لابن جني. باب القاف

أما الصورة الثالثة لنطق القاف في العامية السودانية: فهي نطقها (غينا) أي: من أقصى الحنك، احتكاكية، مجهورة. نحو قولنا: (الاستغلال) في: (الاستقلال)، واللغب في: اللقب، فقد تحول نطق القاف إلى غين، وهذا النوع من النطق من الأخطاء الصوتية الشائعة حتى على مستوى الإذاعيين والمثقفين السودانيين فعند استماعك لهم تجد الكلمات التالية: لغاء، وغناة، ويغدر، والديموقراطية، وعلاغة، واغتصادي، وانتقلت، والاستغلال بدلاً من: لقاء، وقناة، ويقدر، والديموقراطية، وعلاقة، واقتصادي، وانتقلت، والاستقلال... والتعليل الصوتي لكل هذه الانقلابات، سهل ويسير، فتأثير "قانون الأصوات الحنكية" واضح في انقلاب القاف إلى نطق مزجي، في بعض بلدان الخليج (كالجيم الفصيحة)، وفي الرياض وضواحيها. والدليل على ذلك أن الغين اختلف في مخرجها حتى علماء الأصوات أنفسهم فوصفها القدماء بأنها من أدنى الحلق¹ ووصفها المحدثون بأنها من أقصى الحنك والحلقية عندهم صوتان فقط العين والحاء².

... كما أن ضياع الانفجار من القاف، وتزحزح مخرجها إلى الأمام قليلاً، هو المسئول عن انقلابها غيناً في نطق أهالي السودان وجنوبي العراق. وقد ورد مثل هذا الإبدال في اللهجات العربية القديمة ورد في اللسان: غَنَمَ له من المال غُثْمَةً إذا دَفَعَ له دُفْعَةً ومثله قَتَمَ وغَدَمَ وغَنَمَ له من العَطِيَّة أعطاه من المال قطعة جَيِّدَةً³

5/ أصوات الإطباق:

من الأصوات التي اطردها الإبدال لصعوبة نطقها وتحقيقا لقانون السهولة واليسر: (أصوات الإطباق) وهي في اللغة العربية (ص. ض. ط. ظ) ومعها يرتفع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك، ويتأخر قليلاً نحو الجدار الخلفي للحلق، ويكون اللسان مقعراً من وسطه وهذا هو المقصود بالإطباق عند علماء العربية⁴، وقد عرّف القدماء الإطباق بقولهم: والإطباق: أن تَرْفَعَ ظَهْرَ لِسَانِكَ إِلَى الْحَنَكِ الْأَعْلَى مُطْبِقاً لَهُ. وقد أشار سيبويه إلى أن صفة الإطباق تميز بين الأصوات بقوله: "فلولا الإطباقُ لصارت الطاءُ دالاً، والصَّادُ سيناً، والطاءُ ذالاً، ولَخَرَجَتِ

¹ سر الصناعة لابن جني 52/1

² الأصوات كمال بشر 206

³ لسان العرب لابن منظور مادة (غثم)

⁴ 3/ علم الأصوات كمال بشر. ص: 250

الضَّادُّ من الكلام ، لأنَّه ليسَ من موضِعِها شَيْءٌ غَيْرُها ، تَزُولُ الضَّادُّ إذا عَدِمَ الإِطْباقُ البَتَّةُ¹ ومن ثمَّ فإنَّ أصواتَ الإِطْباقِ أصواتٌ مَفْخِمةٌ لها رنةٌ قويَّةٌ في الأَذانِ لا تتوافِرُ في غيرِ المطبقة² هذا بالإضافة إلى استعلائها، والاستعلاء هو: " خروج صوت الحرف من أعلى الفم لعلو اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى والمستعلية سبعة أحرف: أربعة منها هي التي ذكرنا أنها مطبقة والثلاثة الأخر هي: القاف والغين والخاء."³ لذلك فقد مالت معظم اللهجات العربية القديمة والحديثة إلى إبدالها بنظائرها المرققة المنفتحة: (د.ت.س.ث).

فالتاء:

صوت أسناني لثوي انفجاري مهموس مفخم أو مطبق⁴، وهي عند القدماء صوت مجهور قال ابن جني "اعلم أن الطاء حرف مجهور مستعل يكون أصلاً ويكون بدلاً"⁵ ولصعوبة نطق الطاء للإطباق مالت العامية السودانية إلى إبدالها تاء، والتاء هي النظير المرقق للطاء، والتاء صوت أسناني لثوي مهموس، فقالوا: ختف، وختت، وتبخ، بدلاً من: خطف وحط، وبطبخ. فأبدلت الطاء بنظيرها المرقق: (التاء) وقد عرف هذا الإبدال عند العرب القدماء ورد في اللسان: وَأَفْلَطَنِي الرَّجُلُ إِفْلَاطًا: مِثْلُ أَفْلَتَنِي، وَقِيلَ لُغَةً فِي أَفْلَتَنِي، تَمِيمِيَّةٌ⁶ وقال ابن سيده في المخصص: وقد أبدلت التاء من الطاء في (فعلت) وهي لغة تميم. قالوا: فحصط برجلك يريدون: فحصت⁷ وأحياناً تنطق الطاء في العامية السودانية مجهورة مشربة بالهميز (glottalization) حيث نشعر عند نطقها بوجود عنصر الهمزة فيها، ويتم نطقها بقفل الوترين الصوتيين حال النطق بها فيخرج الهواء بقوة فنسمع طاء مهمزة، مثل قولنا (طابت، وبط) بنوع من القلقله، وربما كانت هذه الطاء المشربة بالهميز هي التي وصفها القدماء ووردت في كتبهم على أنها مجهورة⁸

1 تاج العروس مادة (طبق)

2 اللهجات العربية في القراءات القرآنية. عبده الراجحي ص 170

3 لسان العرب. ابن منظور. مادة (علو)

4 الأصوات. كمال بشر. ص 250

5 سر الصناعة 1/ 229

6 لسان العرب لابن منظور مادة (فلط)

7 /المخصص. لابن سيده. ط: دار الأفاق الجديدة بيروت. د.ت. 270/3

8 / الأصوات كمال بشر. ص: 252. 253

أما الضاد:

فهي تمثل قضية لا أباحسن لها؛ إذ حار الناس في تعريفها وإدراك خواصها، واختلفوا في مخرجها وصفاتها وأدائها.

فهي عند المحدثين: صوت أسناني لثوي، وقفة انفجارية، مجهور مفخم (مطبق)¹. وهي عند القدماء: جانبية: يخرج هواؤها من إحدى جانبي الفم أو منهما معاً وهي رخوة احتكاكية² وحتى القدماء أنفسهم اختلفوا في ضبط حدوده ضبطاً دقيقاً، وفي كيفية أدائه فهو عند بعضهم من أصوات التفثي ولكنه منفرد بالاستطالة والمستطيل حرف واحد وهو الضاد، سمي بذلك لأنه استطال بما فيه من القوة بسبب الجهر والإطباق والاستعلاء فأدرك مخرج اللام³. دون أن يشرحوا لنا الاستطالة شرحاً واضحاً. وقد لخص لنا ابن الجزري هذا الاضطراب في وصف الضاد بقوله: (المخرج الثامن للضاد المعجمة من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكثر ومن الأيمن عند الأقل.. وقال الخليل: إنها شجرية، ثم يقول: وحرف التفثي هو الشين اتفاقاً أضاف بعضهم إليها الفاء والضاد)⁴ والضاد القديمة كانت عصرية النطق على المستعربين الذين كانوا يتعلمون العربية تعلماً، بل كانت عصرية النطق على بعض القبائل العربية نفسها يؤيد ذلك ما حكى من أن أعرابياً سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً: أضحى بضبي؟ قال له عمر: وما عليك لو قلت: أضحى بضبي؟ فقال الرجل: إنها لغة. فقال عمر: انقطع العتاب، ولا يضحى بشيء من الوحش⁵ نتيجة لهذا الإشكال في نطقها وصعوبة مخرجها إضافة للإطباق الذي فيها فقد مالت معظم اللهجات إلى التخلص منها، وقد فرّرت العامية السودانية إلى نظيرها المرقق (الدال) فقالوا: خدر، وخدار، وأخدر بدلاً من: خضر، وخضار، وأخضر. قالوا غميد العيون من غمضها. ومثل هذا الإبدال معروف في اللهجات المغربية الناطقة بالعربية⁶

1/ الأصوات. كمال بشر ص: 253

2/ سر الصناعة 52/1

3/ الكنز في القراءات العشر لأبي محمد، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن علي ابن المبارك التاجر الواسطي المقرئ المحقق: د. خالد المشهداني الناشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة الطبعة: الأولى،

1425 هـ - 2004 م. 1/ 245

4/ النشر في القراءات العشر. لابن الجزري 214/1

5/ المزهر. للسيوطي 563/1

6/ فصول في علم أصوات العربية. د. إبراهيم آدم إسحق. ص: 60

أما الظاء:

فقد وصف ابن جني مخرجها بقوله: "من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا¹ ووصفها ابن يعيش بأنها: صوت لثوي مجهور مفخم، وقال إنها لثوية² فهي صوت أسناني، احتكاكي، مجهور، مفخم (مطبق)³ يتم نطقه بوضع طرف اللسان بحيث يلتصق بأطراف الثنايا العليا مع رفع مؤخرة اللسان تجاه مؤخرة سقف الحنك الأعلى اللين وتقريبها من الجدار الخلفي للحلق مع سد المجرى الأنفي وتضييق مجرى الهواء، معذببة الوترين الصوتيين محدثا الجهر⁴ ولولا الإطباق لصارت الظاء ذالا وهذا ما جعل ابن جني يذهب إلى أن هذه الظاء خاصة بالعرب⁵ وذلك قوله: "اعلم أن الظاء لا توجد في كلام النب، وإذا وقعت فيه قلبوها طاء... فقالوا ناطور، وإنما هو ناطور"⁶ وقد مالت العامية السودانية إلى إبدالها ذالا في النطق وهو النظير المرقق للظاء وخاصة عند النساء وقد وقع في التراث اللغوي القديم تبادل بين الذال والظاء في بعض الكلمات يقول الزبيدي: تبدل الظاء من الذال المعجمة فيقال: وقيدا ووقيظاً وأرض جلداء وجلظاء.

وحدث إبدال بينها وبين الضاد في العامية السودانية فقالوا: ظابط في ضابط، والظهر لصلاة الظهر، وضل: في الظل وظهر الشيء: لظهره بخلاف بطنه. وهذا الإبدال للضاد كان معروفاً في اللهجات العربية القديمة وقد امتد هذا الخلط أحيانا إلى الكتابة وقد صنعت بحوث وألفت كتب مستقلة لبيان الفروق بينهما⁷ فقد قالت تميم: فاضت روحه بالضاد، وقالت قيس: فاضت روحه بالظاء فاض الرجل وفاظ إذا مات، وَكَذَلِكَ فَاضَتْ نَفْسُهُ. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ: فَاضَتْ نَفْسُهُ الْفِعْلُ لِلنَّفْسِ، وَفَاضَ الرَّجُلُ يَفِيضُ

1 / سر الصناعة لابن جني 70/1

2 / شرح المفصل لعلي بن يعيش. ط. إدارة المطبعة المنيرية بالقاهرة. د. ت. 125/10

3 الأصوات. كمال بشر. ص 299

4 فصول في علم أصوات العربية. د. إبراهيم آدم إسحق. ص: 63

5 السابق والصفحة

6 السابق ص: 64

7 الأصوات. كمال بشر. ص 300

وفاظَ يَفِيظُ فَيُظًا وفُيُوظًا.¹ وروى المازني عن أبي زيد: أن العرب تقول: فاظت نفسه بالظاء، إلا بني ضبة فإنهم يقولون بالصاد²

صوت الصاد:

وهي صوت لثوي، مهموس، احتكاكي، مطبق³، وقد جعلها ابن جني سنية تحدث عن طريق وضع طرف اللسان خلف الأسنان أو بينها⁴ ولولا الإطباق لصارت الصاد سينا محضة وحين تزول صفة الإطباق عن الصاد فإنها تتحول إلى إحدى نظيرتها: الصاد والزاي.⁵ ولصعوبة نطقه؛ للإطباق أبدلت في العامية السودانية وفي كثير من اللهجات العربية القديمة والحديثة: سيناً، فقالوا: السقر، والسدر والسبر، والمغس، بدلاً من: الصقر، والصدر، والصبر، والمغص. وإبدال الصاد سيناً كان معروفاً في اللهجات العربية القديمة؛ فقد ذكر ابن جني أنهم قالوا: سالغ وصالغ، واطر واطر، والسوق في الصوق⁶ كما قالوا: سفت الباب وصفقته، وهو يرى أن الصاد أعلى وقد ورد في اللسان: الصماخ والسماخ للأذن الداخلية⁷ وقرأ الجمهور (اهدنا الصراط المستقيم)⁸ الصراط: بالصاد. وقرأ ابن كثير (السرط): بالسين.⁹

ومن ذلك قولهم في العامية السودانية: فلس: بفتح الفاء وتشديد اللام للإفلاس وهو فقدان ما يملكه المرء من متاع أو مال وتستعمل أيضاً للإفلات فيقال فلس الطلبة "للقفل" أي

1السان العرب مادة (فوض)

2 لسان العرب. مادة (فوض)

3علم الأصوات كمال بشر ص: 302

4سر الصناعة لابن جني. 221/1

5 فصول في علم أصوات العربية. د. إبراهيم آدم إسحق. ص: 56

6المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. لأبي الفتح عثمان ابن جني. تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرون. من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث. 1420 هـ. 1999 م. 168/2

7اللسان مادة (صمخ)

8 سورة الفاتحة 4

9الحجة في علل القراءات السبع. لأبي علي الفارسي. تحقيق علي النجدي ناصف وآخرون. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1403/ 1983 ط 2. 36/1

أفلت قفلها، وهي في العربية: فلص فأبدلت الصاد سينا. قال الزبيدي: فلصه من يده تفليصاً: خلصه والإنفلاص التقلت من الكف.¹

وقد يحدث العكس في العامية السودانية فيبدل أحد الأصوات غير المطبقة إلى صوت من أصوات الإطباق نحو قولهم في العامية السودانية: ماص الشئ: أي ذوبه في الماء، والمواصة للعجين المذاب في الماء، فأبدلت الثاء صاداً، وهي في صريح العربية: قال الجوهري: "ماث الشئ في الماء يموثه موثاً: خلطه، وماث الملح في الماء أذابه.²

ومن ذلك قولهم: إضيئة: للشخص الهين المنقاد لغيره فهو لا رأي له، ولا يستشار. وأضيئة: إنما أصلها أذينة تصغير أذن، فأبدلت الذال ضادا. وقد ورد ذلك عن العرب: ورد في تاج العروس (ومن المجاز الأذن: الرجل المستمع لغيره القابل لما يقال له، قال أبو زيد: رجل أذن: إذا كان يسمع مقالة كل أحد)³

وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ فالرجل أذن والمرأة أذن ولا يثنى ولا يجمع، فالرجل أذن والرجال أذن.

6/ من الأصوات التي أبدلت في العامية السودانية صوت الجيم:

وهي عند المحدثين: صوت مركب (وقفة احتكاكية Affricates) وعند النطق به يرتفع مقدم اللسان تجاه مؤخر اللثة ومقدم الحنك حتى يتصل بهما، فينحجز الهواء ثم يتم الانفصال ببطء فيخرج الهواء محدثاً احتكاكاً، ويهتز معه الوتران الصوتيان فالجيم إذن صوت: حنكي، مركب، مجهور.⁴ وصفها القدماء بأنها انفجارية؛ باعتبار الوضع الأول لنطقها؛ إذ إنّ الجزء الأول لنطقها انفجاري كالبدال، والثاني احتكاكي كالجيم الشامية. وهذا يقودنا إلى الوقوف عند مصطلح (الشدة) عند القدماء: فهو إذن لا يعني الانفجار، وإنما يعني وقوف الهواء وانحباسه⁵

1 تاج العروس 417/4

2 تاج العروس 246/4

3 تاج العروس 120/9

4 الأصوات كمال بشر ص 311

5 الأصوات كمال بشر ص: 204

ويذهب علماء الأصوات إلى أنَّ الأصوات الانفجارية وهي الأصوات المجموعة في قولهم: (أجدت طبقك) قابلة للتطور إلى أصوات مركبة إذا أتبعته بحركات معينة (الكسرة أو ما في حيزها)¹ وخصوصاً من هذه الأصوات الحنكية: (ج. د. ط. ت) واستثنوا: الهمزة والباء والقاف.²

ومن صور تطور الجيم في العامية السودانية: أن تنطق دالاً، فنقول: شجرة وديش بدلاً من: شجرة وجيش. وهذا الإبدال له مسوغ فسيولوجي؛ لأنَّ الجيم كما ذكرت صوت مركب من عنصريين هما: الدال والشين فربما اكتفى السودانيون بنطق العنصر الأول منها وهذا النوع من الإبدال بين الجيم والدال هو إبدال شائع في العاميات العربية القديمة والمعاصرة فقد قالت عامة أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري تدشيت في: تجشأت، ودريشة في جريشة.³

من أهم الظواهر الفونولوجية لكثير من لهجات شبه الجزيرة العربية نطق الجيم ياء. وهذا التغير الصوتي ليس محصوراً في مجموعة واحدة وإن كان الجواليقي في زمن مبكر قد عاب (مَسِيد) بأنها نطق سوقي لكلمة (مَسْجِد)، فإن الأمر في الحقيقة لا يبدو كذلك، ففي أمثلة أخرى يبدو أن الجيم فيها صارت ياء في العربية الفصحى أو في اللهجات القديمة، يناقش كوفلر تغير (شجر) إلى (شَيْر) أما أعظم هذه الأمثلة طرافة من حيث الدلالة على التغير الصوتي، فهي الكلمة (شَيْر) التي يصاحب تغير السواكن فيها تغييراً في الحركات. وبسبب هذا التغير ذهب ابن جني إلى أن (شَيْر) هي الأصل و(شَجَر) هي الصيغة المتطورة عنها، و(جشجات) إلى (جشيات)، و(صهريج) إلى (صهري)، و(جصص) إلى (يصوص).⁴

ويقول لسان العرب مفسراً هذه الظاهرة بالنسبة لهذه الأمثلة كلها: "يصوص" في ترجمة بصوص أبو زيد يَصَّصَ الْجِرْؤُ تَيَّصِيصاً إذا فتح عينيه لغة في جَصَّصَ وَبَصَّصَ أي فَحَّحَ لأنَّ العرب تجعل الجيم ياء فتقول للشجرة شَيْرَة وَلِلجُثَّجَاتِ جَثِيَّاتٍ وقال الفراء يَصَّصَ الْجِرْؤُ تَيَّصِيصاً بالياء والصاد قال الأزهري وهما لغتان وفيه لغات مذكورة في مواضعها وقال أبو عمرو بَصَّصَ وَيَصَّصَ بالياء بمعناه لأنَّ العرب تجعل الجيم ياء " ⁵.

1 الحركات التي في حيز الكسرة بحسب الحركات المعيارية التي وضعها دانيال جونز هي: (الحركات الأمامية التي يرتفع معها الجزء الأمامي من اللسان ويقابلها في العربية الكسرة وياء المد والألف الممالة)

2 الأصوات اللغوية كمال بشر ص: 329

3 الأصول العربية للهجة دارفور العامية ص 277

4 بحوث ودراسات في اللهجات العربية. من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة 320. 344

5 لسان العرب مادة (يصوص)

7/ الأصوات الأسنانية اللثوية:

وهي صوت (الثاء، والذال، والطاء) وهي من الأصوات التي كثر إبدالها بغيرها في العامية السودانية.

الثاء:

صوت احتكاكي مهموس يوضع طرف اللسان حال النطق به بين أطراف الثنايا العليا والسفلى بحيث يمر الهواء محدثا احتكاكا¹.

وقد تحول صوت الثاء في العامية السودانية إلى: تاء، وصوت التاء قريب في مخرجه من الثاء؛ إذ إنه صوت أسناني، إلا أن الفرق بينهما أن التاء صوت انفجاري (شديد) والثاء صوت احتكاكي (رخو) والأصوات الانفجارية تحتاج إلى جهد عضلي أقل من الأصوات الاحتكاكية، فنجدهم في العامية السودانية يقولون: ثلاثه، واتنين، وتوب، وتوم، وتور، بدلا من ثلاثة، واثنين، وثوب، وثوم، وثور. ويقولون للمرأة الحامل في شهورها الأخيرة إنها ثقيلة وإنما هي ثقيلة وهي (أثقلت) قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَبْلًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ²﴾

وقد ورد عن القدماء إبدال الثاء تاء، فقد ورد في اللسان قول الشاعر:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْقِ ** وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ

وسأل الخليل الأصمعي عن الخبيث، في هذا البيت، فقال له: أراد الخبيث وهي لغة خبيث، فقال له الخليل: لو كان ذلك لغتهم، لقال الكثير، وإنما كان ينبغي لك أن تقول: إنهم يقلبون الثاء تاء في بعض الحروف³ ومن إبدال الثاء تاء في العامية السودانية قولهم: التفة للشعر الكثيف فيقال لصاحبه (أب تفة)، ويحسبها الدكتور إبراهيم آدم إسحق مأخوذة من التفث وهو ما يصيب الحاج من عدم الحلق فيكثف شعر رأسه⁴ فالتاء مبدلة من الثاء، وقد فعلت العرب

1 الأصوات اللغوية. كمال بشر ص: 298

2 سورة الأعراف 189

3 لسان العرب. مادة (خبت)

4 معجم اللهجة العامية الدارفورية ص: 94

ذلك حين قالت: اغتثت الخيل واغتفت وهي الغثة¹ أما إبدال الثاء سينا عند السودانيين فهو خطأ صوتي قد يؤدي إلى خطأ دلالي نحو قولهم: (سلاسة) بدلاً من (ثلاثة)، و(سمر) بدلاً من: (ثمر) فالفرق واسع بين المعنيين.

أما الدال:

هي صوت بين أسناني، احتكاكي، مجهور²، لذلك فقد تعددت صور نطقها في العامية السودانية لصعوبة مخرجها وللاحتكاك الذي فيها؛ فأبدل دالاً، فقالوا: ذهب، بدلاً من ذهب، ودرة بدلاً من: ذرة، وداب بدلاً من ذاب، وأخذ بدلاً من أخذ، وقالوا في الإشارة: دا بدلاً من ذا، ودي بدلاً من ذي، وداك هو: بدلاً من ذاك.

وقد تبدل الدال ضاداً في العامية السودانية فيقولون: كضاب بدلاً من كذاب، وضح بدلاً من ذبح، والضنب بدلاً من الذنب، والضراع بدلاً من الذراع.

وهذا الإبدال لصوت الدال كان معروفاً في بعض اللهجات العربية القديمة فقد ورد في اللسان: وَمَا ذَاقَ عَدُفًا وَلَا عَدُوفًا وَلَا عَدَاً أَي شَيْئًا، وَالدَّالُّ الْمُعْجَمَةُ فِي كُلِّ ذَلِكَ لُغَةً. قَالَ أَبُو حَسَّانَ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ يَقُولُ مَا دُفْتُ عَدُوفًا وَلَا عَدُوفَةً؛ قَالَ: وَكُنْتُ عِنْدَ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدٍ الشَّيْبَانِيَّ فَأَنْشَدَنِي بَيْتَ قَيْسِ بْنِ رُهَيْلٍ:

وَمُجَنَّبَاتٍ مَا يَدْفُنُ عَدُوفَةً ** يَقْنِزُنُ بِالْمَهْرَاتِ وَالْأَمْهَارِ

بِالدَّالِ، فَقَالَ لِي يَزِيدُ: صَحَّفْتُ أَبَا عَمْرٍو، إِنَّهَا هِيَ عَدُوفَةٌ بِالدَّالِ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ لَمْ أَصْخَفْ أَنَا وَلَا أَنْتَ، تَقُولُ رُبْعَةً هَذَا الْحَرْفُ بِالدَّالِ، وَسَائِرُ الْعَرَبِ بِالدَّالِ.³

8/ومن الأصوات التي أبدلت في العامية السودانية الأصوات الشفوية مع الأصوات الأسنان:

نحو إبدال النون ميما في مثل: بمبر (للمقعد الصغير) بدلاً من بنبر، وهذا النوع من الإبدال له مايسوغه من الناحية الصوتية، فالباء صوت شفوي مجهور شديد، والنون صوت أسناني أنفي مجهور متوسط، يتم نطقه برفع طرف اللسان نحو سقف الحنك الأعلى عند اللثة فيمر بينهما الهواء الخارج من الرئة محدثاً ذبذبات في الوترين الصوتيين، وقد وصفت بأنها صوت

1 المزهر للسيوطي 465/1

2 علم الأصوات. كمال بشر. ص 299

3 اللسان مادة (عدف)

خيشومي¹، والباء صوت انفجاري والنون صوت أغن. إذن لبعده الصفات والمخرج فقد مالت العاميات السودانية إلى إبدال الصوت الأنفي (النون) إلى صوت قريب من الباء الشفوية، فقلبت النون ميمًا لاشتراكها مع النون في صفة الغنة ومع الباء في المخرج. وهذا النوع من الإبدال معروف في اللهجات العربية القديمة وفي القراءات القرآنية وهو ما يعرف عند علماء التجويد بظاهرة: (الإقلاب)² وهو ما يسمى بظاهرة (المماثلة الصوتية): (Assimilation):

وهي أن يتجاوز صوتان متقاربان في المخرج أو الصفة فيؤثر أحدهما في الآخر ومن ثم يقلبه إلى صوت مثله أو إلى صوت آخر مقارب له في الصفة أو المخرج³ لإحداث نوع من المماثلة أو المشابهة بينهما لزيادة قربا في الصفات أو المخارج، وهو من القوانين التي تحكم عملية الإبدال في اللغات وهو ظاهرة شائعة في كل اللغات تقريبا. ومثل ذلك قولنا في العامية السودانية: (فرم) بدلا من (فرن). فممن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، مخرج الفاء وهو صوت رخو مهموس، والنون صوت أسناني لثوي يتذبذب معه الوتران الصوتيان فهو أغن يخرج هواؤه من الخيشوم. فأبدل الصوت الخيشومي إلى صوت يناسب الفاء الأسنانية الشفوية إلى صوت شفوي وهو الميم.

ومن ذلك إبدال الميم وهي صوت شفوي أغن باء، وهي صوت شفوي انفجاري كقولهم: بكان بدلا من: مكان، للموضع، وجاء في أمثالهم (زاد الحبان لهو بكان) أي إذا دعي أحدهم إلى طعام وقد سبق له أن أكل قبل هذا فلا بد له من إجابة الدعوة ولو أن يأكل يسيرا. وبكان للمكان بإبدال الميم باء لا ياباه قياس العربية فقد ورد أن من أسماء مكة (بكة) وهو ماجاء به التنزيل في قوله تعالى {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}⁴

وهذا النوع من الإبدال بين الحروف الشفوية والأسنانية كما ذكرت وارد في العربية وهي الحروف التي سماها العلماء بحروف (الذلاقة) وهي ستة أحرف لأن اللسان يمدل بهن فيفصح.

1 /فصول في علم أصوات العربية. د إبراهيم آدم إسحق. ص 49. 50

2 فقد ورد في متن الشاطبية:

وَقَلْبُهُمَا مِثْلًا لَدَى الْبَاءِ وَأَخْفِيًا... عَلَى غُنَّةٍ عِنْدَ الْبَوَاقِ لِيَكْمُلَا

متن الشاطبية: (حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع) للقاظم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني، أبو محمد الشاطبي (المتوفى: 590هـ) المحقق: محمد تميم الزعبي، الناشر: مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات

القرآنية الطبعة: الرابعة، 1426 هـ - 2005 م باب أحكام النون الساكنة والتنوين 49/1

3 /فصول في علم أصوات العربية / د. إبراهيم آدم إسحق. ص: 185

والذلاقة هي الفصاحة والطلاقة¹ والأصوات الذلقية هي: (ب، ر، ف، ل، م، ن) ولانجد في العربية كلمة رباعية أو خماسية خالصة منها فإذا وجدت فإنها دخيلة²
الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر لله الذي أعانني على إكمال هذه الدراسة التي توصلت من خلالها إلى الآتي:

أولاً: التنبيه إلى أهمية دراسة اللهجات، وذلك من خلال ربط أصوات العامية السودانية بأصوات اللغة العربية الواردة في اللهجات العربية القديمة وذلك لما لدراسة اللهجات من أهمية كبيرة؛ إذ إنها تعيننا في توضيح الكثير من الظواهر اللغوية التي لانجد لها تفسيراً، كما أن الاستعانة بدراسة اللهجات تعيننا كثيراً في فهم العربية الفصحى وتعليمها لأبنائها وللناطقين بغيرها من اللغات خلافاً لما يذهب إليه بعضهم من أن الاعتناء باللهجات خطر على الفصحى. ثانياً: أن العامية السودانية دون غيرها من العاميات العربية الأخرى تستحق أن نقف عندها بالدراسة والبحث؛ إذ إنها تعد من أفصح العاميات في العالم العربي، بل هي تقرب من لهجة بني أسد في الجاهلية؛ إذ إننا نجد ألفاظاً عربية خشنة تدور في اللسان السوداني تعبر عن قوة الإنسان السوداني وطبيعته الخشنة.

ثالثاً: أن التطور الصوتي لأصوات العامية السودانية من خلال أصوات اللهجات العربية القديمة مثلها مثل كل اللغات في العالم (مجموعة من الأصوات ترتبط مع بعضها البعض في نسق معين لتعبر عن المعاني والأفكار) لذلك فلا بد عند النطق من مراعاة الانسجام الصوتي بين الأصوات المتجاورة، وليتم ذلك يحدث نوع من التغيير والتبديل بين الأصوات المتجاورة، وهو ما يعرف بظاهرة (الإبدال الصوتي)

وقد لاحظت من خلال هذه الدراسة أن في العامية السودانية الكثير من الخصائص التي قد يظن بعض الناس أنها خارجة عن نطاق ما عرفته العرب في لغتها، فأثبت من خلال هذه الدراسة أن الكثير من ظواهر الإبدال الواردة في العامية السودانية لا تخرج عن القوانين الصوتية ولا تخرج عن نطاق ما قامت العرب بإبداله. فما حدث في العامية السودانية من إبدال لبعض الأصوات لا يختلف عما حدث في فصيح العربية وهو ناتج عن تغييرات لبعض الأصوات لإحداث نوع من المجانسة وطلباً للسهولة واليسر.

2 المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بمصر. ط. 1985م/326

3 فصول في علم أصوات العربية ص52

المصادر والمراجع:

- 1/ أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية - فوزي الشايب - د ط - 2004 م - عالم الكتب الحديث.
- 2/ بحوث ودراسات في اللهجات العربية - من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة (320 - 344)
- 3/ تاج العروس من جواهر القاموس - لمحمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الزبيدي - تحقيق: مجموعة من المحققين - دار الهداية.
- 4/ التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث - الطيب البكوش - ط 3 1992 م.
- 5/ الحجة في علل القراءات السبع - لأبي علي الفارسي - تحقيق علي النجدي ناصف وآخرون - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1403 / 1983 ط 2
- 6/ حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المعروف ب (متن الشاطبية) - للفاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني أبو محمد الشاطبي - تحقيق محمد تميم الزعي - مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية - ط 4 - 1426 هـ 2005 م.
- 6/ الخصائص - لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق محمد علي النجار - عالم الكتب بيروت.
- 7/ رسالة أسباب حدوث الحروف - للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا - تحقيق: محمد حسان الطيبان ويعي مير علم - من مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق.
- 8/ سر صناعة الأعراب - لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق حسن هنداي - دار القلم دمشق ط 1 1421 هـ - 2000 م.
- 9/ شرح المفصل لعلي بن يعيش - ط. إدارة المطبعة المنيرية بالقاهرة. د. ت
- 10/ الشعر الحديث في السودان عبده بدوي - من منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.
- 11/ الكثر في القراءات العشر، لأبي محمد، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن علي ابن المبارك التاجر الواسطي المقرئ تاج الدين ويقال نجم الدين (المتوفى: 741 هـ) **المحقق**: د. خالد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة
- 12/ علم الأصوات - كمال بشر - د ط 2000 م دار غريب للطباعة والنشر.
- 13/ علم اللغة - محمود السعران ط. دار المعارف 1970 م
- 14/ لسان العرب - لمحمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين ابن منظور - دارصادر بيروت ط 3 1414 هـ.
- 15/ اللهجة العامية السودانية في الحديث والأثر - د أبشر عوض محمد إدريس - مطبعة دبي الإمارات العربية المتحدة - د ط 1429 هـ 2008 م.
- 16/ اللهجات العربية في القراءات القرآنية - عبده الراجحي مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - ط 1 1420 هـ 1999 م

- 17/ متن الشاطبية. للقاسم بن فيرة بن خلف الرعيني أبو محمد الشاطبي. تحقيق: محمد تميم الزغي. مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني. ط 4. 1426. 2005م
- 18/ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها - لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق علي النجدي ناصف وآخرون - من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث - 1420هـ - 1999م
- 19/ المخصص. لابن سيده. ط: دار الآفاق الجديدة بيروت. د.ت
- 20/ المزهر في علوم اللغة وأنواعها جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. تحقيق فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية بيروت.
- 21 المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بمصر. ط. 31985م
- 21/ منار الهدى في بيان الوقف والابتداء. أحمد عبد الكريم بن محمد الأشموني. تحقيق: عبد الرحيم الطرهون. دار الحديث القاهرة مصر. 2008.

تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان

(الواقع والمأمول)

د. عبد العزيز الهندي عثمان (*)

تقدمة:

الحمد لله العلي الخالق الباعث الرسل الغني الرازق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن اللغة العربية قد عظمها الله باختيارها لغة دينه وعبادته، ولذلك كان انتشارها محتملاً في كل بقاع العالم، فأقبلت عليها النفوس من كل حذب وصوب، وفتحت المراكز والمعاهد والمؤسسات لتعليمها وتعلمها، فكان السودان من ضمن الدول التي اهتمت بنشر العربية والاعتناء بتدريسها للناطقين بغيرها، فأقبلت إليها الأرواح، وشيدت لها المؤسسات. ولذلك جاءت الدراسة بعنوان: (تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان "الواقع والمأمول").

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة مقرونة بأهمية العينة المدروسة، وهي المؤسسات التعليمية للناطقين بغيرها في السودان، والوقوف على نشأتها وبيئتها ومناهجها.

أهداف الدراسة:

- التعرف على مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان.
- سرد النشأة التاريخية لأقدم المؤسسات في السودان الخاصة بتعليم العربية للناطقين بغيرها.
- وصف البرامج التي تقدمها هذه المؤسسات وتطورها.
- الوقوف على البيئة التعليمية في مؤسسات تعليم العربية في السودان.
- عرض المناهج التعليمية التي تُدرّس للناطقين بغير العربية.
- الاطلاع على الجهود التي تقوم بها مؤسسات تعليم العربية في السودان.

(*) أستاذ مساعد - كلية اللغة العربية - جامعة أم درمان الإسلامية..

منهج الدراسة:

اتبع الباحث لهذه الدراسة المنهج الوصفي.

فرضيات البحث:

- إن تعليم العربية للناطقين بغيرها أصبح من الأهمية بمكان، وقد اتخذ السودان نصيبه من القيام بهذه المهمة، فما دور السودان في ذلك؟
- اتخذ تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان، أشكالاً مختلفة وقد لعب أدواراً متعددة، فكيف بدأ السودان تعليم العربية للناطقين بغيرها، بداية فعلية، وما الدور الفاعل الذي أداه في هذا الجانب؟
- هناك دول مختلفة، تسعى إلى تعلم اللغة العربية، في جميع أقطار العالم، فما الجندسيات التي تفد إلى السودان لتعلم العربية، وما أثر ذلك على نشر اللغة العربية والثقافة العربية السودانية في العالم؟
- تعد البيئة التعليمية هي الأساس بكل ما فيها من مجتمع دراسي وبرامج وقاعات ومختبرات، فما دور مؤسسات تعليم العربية في ذلك؟
- لتعليم العربية للناطقين بغيرها، مناهج مختلفة ومتعددة تحمل ثقافات عديدة تتنوع بين الثقافة الإسلامية والعربية والمحلية، فما المناهج التي تدرس للناطقين بغيرها في السودان، وما دور المؤسسات في تنقيحها وتطويرها؟

حدود الدراسة:

الحدود المكانية: (معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، و قسم تعليم العربية للناطقين بجامعة أم درمان الإسلامية، و معهد اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية)، مع الإشارة لبعض المؤسسات الأخرى المعنية بتعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان.

الحدود الزمانية: 2016-2017م

تمهيد:

النظرة التاريخية لتعليم العربية في السودان:

الحديث حول تعليم العربية، يكاد ينحصر في نقطة مركزية تمثلت في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية وهذا يقودنا إلى التحدث عن مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان، حيث مرّ تعليم العربية للناطقين بغيرها بمرحلتين مرحلة ما قبل إنشاء معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، التي دفعت وزارة المعارف السودانية آنذاك إلى أهمية تعليم

العربية للناطقين بغيرها في جنوب السودان بصورة حديثة تراعي فيها تباين اللغات⁽¹⁾، وإن كان بعض القبائل الجنوبية القاطنة في حدود السودان الشمالية اتصلت مبكراً بالقبائل العربية، فإن الدخول الفعلي إلى الجنوب وبصورة عفوية يرجع إلى العهد التركي⁽²⁾ خاصة وأن السودان يزخر بلغات يبلغ عددها ما يقارب مائة وعشرين لغة⁽³⁾ فقد ظلت السياسات في السودان مؤثرة وذات دور واضح في التخطيط اللغوي⁽⁴⁾ فاستجلبت الوزارة لذلك عدداً من الخبراء من مصر وأمريكا بمشاركة مجموعة من الخبراء السودانيين. والمرحلة الثانية ما بعد إنشاء معهد الخرطوم الدولي للغة العربية وهي التي نحن بصدد دراستها في هذه الورقة ولذلك لا بد من التعريف بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية وأهم المؤسسات التي عيّنت بأمر تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان من بعده. علماً بأن كثيراً من الجامعات السودانية لها اهتمام بتعليم العربية للناطقين بغيرها مثل: (جامعة الخرطوم وجامعة القرآن الكريم وجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، وجامعة السودان المفتوحة) وغيرها كثير... فمنها من أنشأ معهداً، أو قسمًا لتعليم العربية يعنى بالأجانب الذين يفدون لهذه المؤسسات

المحور الأول: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية:

تأكد لوزارة المعارف السودانية بعد دراسة طويلة، أهمية إنشاء معهد متخصص لإعداد جيل من المتخصصين في تعليم العربية للناطقين بغيرها، ولقد انتهت الدراسة لهذا الموضوع بمذكرة تقدمت بها حكومة السودان إلى مؤتمر وزراء التربية العرب (الذي انعقد في صنعاء في ديسمبر 1972م) تدعو فيها إلى أهمية تضافر الجهد العربي لإنشاء المعهد. وفي العام 1973م، بدأ تنفيذ المشروع، وفي العام 1974م بدأت الدراسة (بمركز الخرطوم لإعداد متخصصين في تعليم العربية لغير الناطقين بها)، والجدير بالذكر أنه في عام 1977م، عُدّل اسم هذه المؤسسة من (مركز الخرطوم ...) إلى

(1) التجربة السودانية في تعليم العربية للناطقين بغيرها وتطوير مناهج تعليم العربية للناطقين بغيرها، عز الدين وظيف علي بشير، مجلة العربية للناطقين بغيرها، معهد اللغة العربية، جامعة إفريقيا العالمية، العدد السادس عشر، يونيو 2013م، ص: 48.

(2) لهجة جوبا العربية، بول دينق شول، الدار السودانية للكتاب، ط 1، 2005م، ص: 22..

(3) تجربة معهد الخرطوم الدولي للغة العربية في إعداد معلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها، محمد زايد بركة، www.voiceofarabic.net.

(4) أوضاع اللغات السودانية والتخطيط اللغوي 1898م - 2009م، بهاء الدين الهادي خير السيد، الخرطوم، 2013م، ص: 5..

(معهد الخرطوم الدولي للغة العربية)، ليتناسب مع رسالته العالمية في نشر اللغة العربية⁽¹⁾ مهمة المعهد: يقول الدكتور علي عبد الله النعيم " إن مهمة المعهد الأساس هي إعداد المتخصصين في تدريس العربية للناطقين بغيرها ويستقبل الطلاب من كل دول العالم"⁽²⁾. كما أنه يقوم بـ:

- إعداد البحوث والدراسات اللازمة التي من شأنها إثراء المنهج اللغوي وتيسير مهمة معلم العربية لغير الناطقين بها.
 - تدريب الدارسين على الاستفادة من المختبرات اللغوية والوسائل السمعية والبصرية.
 - التدريب على إعداد وتجريب نماذج على تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في مستويات مختلفة ولأغراض متعددة. وأن يكون خريج المعهد قادراً على⁽³⁾:
 - تصميم النصوص المتدرجة المستويات، وتأليف الكتب ووضع المناهج.
 - استخدام طرق التدريس المختلفة في تعليم العربية للناطقين بغيرها.
 - اختيار الوسائل التعليمية وإنتاجها واستخدامها.
 - تدريب المعلمين وتأهيلهم وإعدادهم للإشراف والتوجيه في مجال تعليم العربية للناطقين لغير الناطقين بها.
- فإن ما تسعى إليه مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها، من خلال الذي تقدم، التوسع في نشر العربية وتعزيز الثقة باللغة العربية والاعتزاز بها⁽⁴⁾، وغير ذلك كثير.
- الدرجات العلمية الممنوحة: تتعدد أنواع الدرجات الممنوحة للطلاب الملتحقين بمثل هذه المعاهد والمؤسسات، ففي معهد الخرطوم الدولي الدرجات الممنوحة كما يلي:

- درجة الدكتوراه في تعليم العربية للناطقين بغيرها بالدراسة والبحث⁽⁵⁾
- درجة الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها.

(1) تجربة معهد الخرطوم الدولي للغة العربية في إعداد معلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها، مرجع سابق

(2) مدير معهد الخرطوم الدولي من كلمة له في وكالة السودان للأنباء. www.sudaress.com

(3) معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، دليل المعهد، م ملحق رقم (1)، ص 53-56، الخرطوم 1993م.

(4) تعليم العربية لغير الناطقين بها في المجتمع المعاصر (اتجاهات جديدة وتطبيقات لازمة)، رشدي أحمد طعيمة، مجلة العربية للناطقين بغيرها، العدد الأول، ص 14..

(5) دليل معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، دليل الدارس، درجة الدكتوراه (بالدراسة والبحث)، ط 2016م.

- درجة الدبلوم العالي في تعليم العربية للناطقين بغيرها.
- البكالوريوس في تعليم العربية للناطقين بغيرها.
- الدبلوم العالي في تحقيق المخطوطات العربية.

البيئة التعليمية: أصبحت من أهم اهتمامات أهل التربية، وقد يُظنُّ أنَّ البيئة التعليمية هي بيئة الطالب فقط، ولكن البيئة على العموم في أي مؤسسة كانت لابد أن تهياً لكل، ففي المؤسسات التعليمية لابد أن تهياً للطالب وللمعلم وللموظف وللعامل، حتى يؤدي كل دوره المنوط به. ويدخل فيها البرنامج الدراسي، فالمدرس لا يقوم بوضع حاجات الدارسين، أو اقتراحها من نفسه، وإنما يقوم بمساعدة طلابه على تحديد حاجاتهم والتعرف عليها⁽¹⁾، فإن لم يستطع الطالب تحديد حاجاته قام بذلك من هم شركاء له في هذه العملية التربوية. ولذلك عناصر البيئة التعليمية، تتمثل حتى في المنهج الدراسي، والكتاب المقرر والأنشطة الصفية وغير الصفية المصاحبة، بالإضافة إلى المعلم المدرب المؤهل تأهيلاً شاملاً في الجوانب العلمية التخصصية والجوانب التربوية الفنية⁽²⁾

فقد أشارت كثير من الدراسات الحديثة إلى أن البيئة التعليمية، تضمن الاستمرارية والفاعلية وتصل إلى طالب متميز في التحصيل الأكاديمي وغير الأكاديمي. ويقصد بالبيئة كذلك المدرسة أو الكلية من ناحية الأسرة والمجتمع الذي يخاطبه الدارس⁽³⁾، فقد ساعد وجود جنسيات متعددة في المعهد من جميع دول العالم على أن يتحدث الطالب داخل المعهد اللغة العربية الفصحى مما أسهم في تغذية مهارتي الاستماع والتحدث. حسب المعطيات والإمكانيات التي توفرت لمعهد الخرطوم الدولي استطاع المعهد أن يوفر عددًا من القاعات والمعامل والمختبرات المجهزة بأعلى التقنيات والوسائل الحديثة، بالإضافة إلى سكن الطلاب والطالبات.

(1) تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في ضوء المناهج الحديثة، مختار الطاهر حسين، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ط2011م، ص: 415.

(2) البيئة التعليمية وأثرها في تنمية القدرات اللغوية للطلاب، عبد الحليم محمد حامد، ملخصات الأوراق العلمية لمؤتمر الضعف اللغوي في الجامعات السودانية – المشكلات والحلول كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، ص101.

(3) صفحات من اللغة والنحو، محمد غالب عبد الرحمن وزّاق، ط2015، م1، ص: 61م.

والمعهد يسعى إلى تحسين البنية التحتية بإضافة مجمع كامل للقاعات وآخر للمعامل اللغوية والحاسوب ومزيد من التحسين في البيئة وتحسين داخلات الطلاب والطالبات.

المناهج:

المنهج هو مجموعة الخبرات المتنوعة التي يقدمها البرنامج التعليمي للدارسين، وتمكنهم من الوصول إلى الأهداف العامة والخاصة.⁽¹⁾ وللمنهج أربعة مكونات أساسية وهي: الأهداف والمحتوى والطريقة والتقييم⁽²⁾ ويطلق عليه مقررًا، وهو الوثيقة التي يستخدمها المعلم والدارسون في التعليم والتعلم؛ لتحصيل الأهداف المطلوبة وعليه فتختلف المناهج في معهد الخرطوم الدولي بحسب الدرجة الممنوحة للطلاب، فلطلاب الماجستير مناهج خاصة، ولطلاب الدكتوراه مناهج خاصة كذلك، وعليه يراجع دليل معهد الخرطوم الدولي فالمنهج في تعليم العربية للناطقين بغيرها يقوم على المهارات اللغوية، استماعاً وقراءةً وتحدثاً وكتابةً. وهذه المهارات ليست منفصلة عن بعضها بعضاً، وإنما هناك علاقات وثيقة تربطها على نحو متكامل، فالصوت الحي يجمع بين مهارتي الاستماع والكلام، بينما يجمع الرمز الكتابي بين مهارتي القراءة والكتابة والكلام والكتابة مهارتا إنتاج، والقراءة والاستماع مهارتا استقبال واستيعاب⁽³⁾

وهناك دعوى أن كل مؤسسة تقوم على تعليم العربية للناطقين بغيرها، بوضع سلسلة في تعليم العربية للناطقين بغيرها يقول الدكتور عمر الصديق "أن تعمل كل جامعة على وضع كتابها الأساسي لتعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى وفق أسس علمية فنية تربوية"⁽⁴⁾ أما بالنسبة للوافدين الذين يلتحقون بالمعهد لتزويدهم بجرعة في مهارات اللغة العربية، فإنهم يدرسون الكتاب الأساسي على ثلاثة مستويات، المستوى المبتدئ والمتوسط والمتقدم. والكتاب على ذلك ينقسم إلى ثلاثة أجزاء.

(1) تعليم العربية لغير الناطقين بغيرها، مناهجه وأساليبه، عمر الصديق عبد الله، الرياض المنظمة العربية للتربية والثقافة، 1989م، ص 60.

(2) علم اللغة التطبيقي، مجالاته وتطبيقاته في حقل تعليم اللغات، أشواق عوض حامد، الدار العالمية، ط 2013م، ص: 109.

(3) تعليم العربية للناطقين بغيرها، الطرق - الأساليب - الوسائل، عمر الصديق عبد الله، الدار العالمية، 2008م، ص:.

(4) تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها دراسات وتطبيقات، عمر الصديق عبد الله، الدار العالمية، ط 2010م، ص 123.

الطلاب المنتحون بالمعهد: يلتحق بالمعهد طلاب من جميع بلدان العالم، وإن حظي السودان – دولة المقر-بنصيب الأسد من فرص الالتحاق بالمعهد، وقد بلغ عدد السودانين الذين تخرجوا فيه خلال اثنتي عشر سنة أكثر من 35% من جملة خريجي المعهد بعامه، وحوالي 66% بالنسبة للخريجين الأفارقة، وهذا من أعظم إنجازات المعهد، إذ إنه يخرج طلاباً ينشرون في بقاع العالم يحملون رسالة اللغة العربية ونشرها.⁽¹⁾

إعداد برامج لمعلمي العربية للناطقين بغيرها، بأسس علمية مدروسة، في:

- مجالات الإعداد اللغوي والمهني والثقافي. قدم بعض العلوم التطبيقية مثل: علم اللغة التقابلي وتحليل الأخطاء وعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي.
- أضاف المعهد في هذا العام برنامج الدكتوراه بالدراسة والبحث.
- أقام المعهد عدة دورات داخلية وورش عمل لمعلمي العربية للناطقين بغيرها.
- أنشأ المعهد عدة مراكز في خارج السودان في جيبوتي والصومال وكينيا وغيرها لتدريس المعلمين أثناء الخدمة وبمصرفات قليلة.
- يصدر المعهد مجلة فصلية محكمة.
- عقد اتفاقيات مع مجموعة دول لتبادل الطلاب وخبرات تعليم العربية للناطقين بغيرها.

البرامج الدراسية:

أولاً: الدبلوم العالي –الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها: النظام فيه هو النظام الفصلي ونظام الساعات المعتمدة. مدة الدراسة: عامان دراسيان (أربعة فصول دراسية). في الفصل الدراسي الرابع البحث التكميلي لنيل درجة الماجستير.

ثانياً: برنامج البكالوريوس في تعليم العربية للناطقين بغيرها.

نظام الدراسة النظام الفصلي والساعات المعتمدة.

مدة الدراسة: أربعة أعوام (ثمانية فصول دراسية).

ثالثاً: برنامج الدبلوم العالي – الماجستير في التربية:

نظام الدراسة: النظام الفصلي والساعات المعتمدة.

(1) نظرات في التربية واللغة، دور مناهج اللغة العربية في الجامعات السودانية في بناء الشخصية ومواجهة التحديات، بكرى محمد الحاج، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، ط2010م، ص: 13.

مدة الدراسة: عامان دراسيان (أربعة فصول دراسية).
فهذا يدل على خطة محكمة للمعهد يحقق وفقها غايته المنشودة، وحق له أن يسعى لأهدافه في خدمة اللغة العربية ونشرها.

المراكز الخارجية المنتسبة للمعهد:

اتبع المعهد نظام التأهيل أثناء الخدمة، بغرض رفع قدرات معلمي اللغة العربية في البلدان ذات الأوضاع الخاصة، أو التي ترغب في تدريس اللغة العربية في بلادها. يقوم البرنامج على أن تعمل الدولة أو أية مؤسسة تعليمية على تنظيم وتمويل برنامج دراسي حسب الخطة التي ينتهجها المعهد في الإشراف الأكاديمي والعلمي على البرامج.

نظام القبول: يقبل للبرنامج تحت إشراف المعهد حملة الشهادة الثانوية في البلد المعني أو ما يعادلها، من المعلمين الذين يعملون في تدريس اللغة العربية.
نظام الدراسة: تستمر الدراسة في البرنامج لمدة ثلاثة أعوام بنظام التأهيل أثناء الخدمة. يمنح الدارس في نهايتها شهادة الدبلوم الوسيط من المعهد.

البلاد التي افتتح فيها المعهد هذا البرنامج:

م	البلد	الجهة التي يتعاون معها المعهد	عدد المراكز المنتسبة	تاريخ البداية
1	أثيوبيا	أكاديمية سندباد لتعليم اللغات	13	2005م
2	جيبوتي	وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني	1	2008م
3	الصومال	منظمة بانكبر	3	2007م
4	كينيا	منظمة العون الإنساني	14	2007م
5	موريشيوس	أكاديمية الدوحة التعليمية	1	2005م

المحور الثاني: قسم تعليم العربية للناطقين بغيرها بجامعة أم درمان الإسلامية:
تم إنشاء هذا القسم من زمن طويل بلغ أكثر من ثلاثة عقود، وكان تابعا لكلية الآداب، وكان القسم يضم عددا كبيرا من الوافدين، وكذلك الطالبات من مختلف بلاد الدنيا من: أمريكا، وعدد من البلاد الإفريقية، مثل: جزر القمر والفلبين وباكستان وماليزيا وإندونيسيا.
ثم من بعد ذلك صدر قرار مجلس الجامعة في 1988/2/22م، بإنشاء كلية مستقلة للغة العربية، وتم تنفيذ القرار فعليا عام 1992م، حيث التحقت أول دفعة من الطلاب والطالبات

في العام 1994/93م. وكانت بهذا أول كلية للغة العربية في السودان⁽¹⁾ وقد وجه مدير الجامعة بإحياء قسم تعليم العربية للناطقين بغيرها، وتحديثه لمواكبة التطور الذي انتظم الجامعة. وقد عملت إدارة الكلية ممثلة في عميدها آنذاك البروف بكري محمد الحاج⁽²⁾ ونائبه البروف محمد غالب وراق، على إنجاح الخطوات لتطوير القسم وتحديثه بالتعاون مع رئيس القسم، وأسفر هذا عن استحداث برنامج دراسي بالكلية لمنح درجة البكالوريوس، في تعليم العربية للناطقين بغيرها، وذلك بموجب موافقة وزارة التعليم العالي على قيامه فكان ذلك في سبتمبر 2008م، وهو أول برنامج يتم في جامعة حكومية. إذ ينفذ الطلاب إلى كلية اللغة العربية ويوجهون إلى اختيار أحد القسمين ومن ثم أصبح القبول للقسم من مكتب القبول التابع لوزارة التربية والتعليم في السودان

أهداف القسم:

- إعداد معلمين مختصين في تعليم العربية للناطقين بغيرها، يتخرجون بإجازة البكالوريوس، لتصميم المناهج وتأليف النصوص التعليمية في طرق وأساليب التدريس، وتصميم وابتداع واستخدام الوسائل التعليمية والاضطلاع بعمليات التوجيه والإشراف التربوي.
- الإسهام في حل مشكلات عدم توافر المعلم المؤهل لتعليم العربية لأبناء الشعوب الإسلامية في الدول الناطقة بغير العربية، والإسهام في تعليمها ونشرها وفق أسس واتجاهات حديثة. ويدخل هذا ضمن الاتجاه الخاص بنشر العربية والثقافة الإسلامية في الخارج.
- إنشاء علاقات علمية مع المؤسسات التعليمية ومراكز البحوث والأقسام المماثلة في التوجيه والرسالة.
- الإسهام في دراسة اللغات السودانية وأوضاعها وأوضاع اللغة العربية في بلدان الدارسين.
- المشاركة في تحقيق اتجاه وزارة التربية والتعليم في السودان في أن يكون معلمو الأساس - لمناطق التداخل اللغوي - من الخريجين الجامعيين، وفي ذلك تحقيق للخطط القومية للتعليم.

(1) دليل قسم تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية، 2009م، ص: 5.

(2) حصل على الماجستير في جامعة دار العلوم بالقاهرة 1979م والدكتوراه في جامعة عين شمس 1983م، عميد كلية اللغة العربية 2006-2010م، له عدة مؤلفات في اللغة.

- نشر اللغة العربية للناطقين بغيرها وتعليمها، بإنشاء فصول لتعليمها لذوي المستويات المختلفة من مبتدئين ومتوسطين ومتقدمين.
 - مواكبة الاتجاهات الحديثة في تعليم اللغات ورصدها والإفادة منها في إعداد وتأهيل وتدريب معلمي العربية للناطقين بغيرها.
 - توظيف التقنية الحديثة ووسائلها وإنتاجها لتعليم العربية للناطقين بغيرها.
 - استيعاب من يرغب في تعلم العربية من الأجانب الموجودين في السودان.
 - استيعاب الطلاب الأجانب المقبولين بالجامعة في كليات مختلفة وتعليمهم قسماً مناسباً من اللغة العربية.
- برامج القسم:**
- منح درجة الدكتوراه في تعليم العربية للناطقين بغيرها أو في علم اللغة التطبيقي، بالبحث.
 - منح درجة الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها بالبحث أو الكورسات.
- نظام الكورسات:**
- النظام المتبع: النظام الفصلي. (أربعة فصول)، الفصل الرابع: بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير.
- مدة الدراسة: عامان.
- منح درجة البكالوريوس في تعليم العربية للناطقين بغيرها.
- النظام الدراسي: النظام الفصلي (ثمانية فصول دراسية).**
- مدة الدراسة: أربعة أعوام دراسية.
- تأهيل الطلاب المقبولين في كليات الجامعة المختلفة.
- البيئة التعليمية:**
- توالى على إدارة الكلية والقسم أساتذة أفاضل عملوا على العناية بقسم تعليم العربية وتهيئة البيئة المناسبة للطلاب، فالبيئة في قسم تعليم العربية للناطقين بغيرها هي بيئة كلية اللغة العربية نفسها فما توفر للكلية يتوفر للقسم إلا أن قسم تعليم العربية للناطقين بغيرها قد خصّ بالمختبرات اللغوية والمعامل والوسائل والتقنيات الحديثة . فقد تم إعداد مختبرين لغويين مجهزين بأحدث الوسائل، تم توفيرهما وإعدادها والعمل على رعايتهما من قبل الأستاذ

الدكتور محمد غالب عبد الرحمن وراق⁽¹⁾، والدكتور الطاهر محمد أحمد⁽²⁾، ويشترك في تدريس الطلاب بالقسم مجموعة من كبار العلماء المختصين في اللغة العربية في كلية اللغة العربية؛ مما جعل خريجي القسم ينهلون من فيضهم في فروع اللغة المختلفة. ومن ناحية الأسرة والمجتمع فعظم الطلاب يتحدثون اللغة العربية الفصحى، مما ساعد على إجادة مهارتي السماع والتحدث

المحور الثالث: معهد اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية:

يعدّ معهد اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية من أكثر المعاهد المعنية بتعليم العربية للناطقين بغيرها، إذ يفد إليه الأجانب من جميع دول العالم، سواء عن طريق الالتحاق بإحدى كليات الجامعة المختلفة، أو ليزود بجرعة في اللغة العربية ويدرس في إحدى الجامعات السودانية المختلفة. ومهما يكن من شيء فالمعهد يعد رافدا من روافد نشر العربية في كل بقاع العالم.

أنشئ المعهد عام 1994م، بوصفه امتدادا لقسم اللغة العربية بالمركز الإسلامي الإفريقي الذي أنشئ عام 1976م، ليؤدي دورا جديدا في تعليم العربية للراغبين في تعلمها من أبناء القارة الإفريقية وغيرهم.

أهداف المعهد:

- إعداد الدارسين بميدان تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وما يتصل بذلك من أهداف مثل:

- 1- إعداد الدارسين لغويا للالتحاق بكليات الجامعة المختلفة.
- 2- المساهمة في تعليم ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية داخل السودان وخارجه.
- 3- إعداد الكتب التعليمية والوسائل المعينة على التعلم.
- 4- إجراء البحوث والتجارب الميدانية لتطوير مناهج تعليم وتعلم العربية للناطقين بغيرها.

(1) العميد السابق لكلية اللغة العربية، من مواليد قرية البركل بالولاية الشمالية، السودان عام 1953م، تخرج في قسم اللغة العربية في كلية الآداب جامعة أم درمان الإسلامية، حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من كلية دار العلوم في جامعة القاهرة بجمهورية مصر، له عدة مؤلفات في النحو واللغة.

(2) رئيس قسم تعليم العربية للناطقين بغيرها السابق، جامعة أم درمان الإسلامية، ولد عام 1959م، تخرج في كلية اللغة العربية بجامعة المدينة المنورة، نال درجة الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، نال درجة الدكتوراه في علم اللغة التطبيقي في جامعة أم درمان الإسلامية، شارك على الإشراف والمناقشة على مجموعة من الرسائل العلمية داخل الجامعة وخارجها.

5- المساهمة في برامج خدمة المجتمع لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها ولغير منسوبي الجامعة.

6- عقد الندوات والدورات اللغوية، وتشجيع البحث والتأليف في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

7- إعداد وتنفيذ البرامج التعليمية للأغراض العامة والخاصة.

أقسام المعهد:

للمعهد عدة أقسام وبرامج ومنها:

- قسم إنتاج المواد التعليمية، ومهمته:
- وضع موجبات وخطط لإعداد المناهج الخاصة بتعليم العربية لغير الناطقين بها حسب البرامج الموضوعة لذلك.
- تأليف كتب اللغة العربية، والمواد الإسلامية لغير الناطقين بالعربية.
- قسم البحوث ومهامه:
- الإشراف على البحوث المختصة بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وخاصة البحوث التي تعدها هيئة التدريس بالمعهد لارتباطها المباشر برسالة المعهد.
- إصدار نشرة شهرية تتضمن المستجدات في محيط المعهد والجامعة.
- تنظيم ندوات يقدمها بعض المختصين في تعليم اللغات الأجنبية للوقوف على الأساليب والنظريات الحديثة في مجال تعليم اللغات.

وغيرها من المهام.

قسم الوسائل التعليمية :

ويشمل وسائل الإيضاح والمعينات التربوية وتكنولوجيا التعليم والوسائل السمعية والبصرية.

وحدات القسم:

- وحدة الرسم والتصميم والخط العربي.
- وحدة المختبرات والأجهزة الإلكترونية والوسائل التقنية.
- وحدة الحاسوب.
- قسم تنسيق البرامج التعليمية:
- البرنامج العام:

هو البرنامج الأساس في المعهد حيث يعمل على تأهيل الطلاب المقبولين بالجامعة ؛ تأهيلا يمكنهم من التحصيل العلمي، ومتابعة دراساتهم الجامعية باللغة العربية في مختلف الكليات⁽¹⁾

• برنامج اللغة العربية للأغراض الخاصة:

وهذا البرنامج يعمل على تمكين دارسي اللغة العربية للأغراض الخاصة، مثل الأطباء والمهندسين والدبلوماسيين، من تحقيق رغباتهم المختلفة في تنمية مهاراتهم وتكوين قدراتهم اللغوية.

• برنامج الأطفال :

هذا البرنامج لمتابعة تعليم الأطفال اللغة العربية للناطقين بغيرها بأحدث الطرق والتقنيات المتطورة.

• برنامج خدمة المجتمع:

يختص هذا البرنامج بالإشراف والمتابعة لتعليم اللغة العربية لغير منسوبي الجامعة من الدبلوماسيين والخبراء وموظفي الشركات الأجنبية الذين ينتشرون في السودان ؛ لتمكينهم من لغة الاتصال والتواصل مع مختلف فئات المجتمع السوداني.

• برنامج النشاط المصاحب:

يتمثل هذا البرنامج في أنواع مختلفة من أساليب النشاط الذي يتم خارج قاعات الدرس، دعما للبرامج التعليمية وتوسيعا لقدرات الطلاب المعرفية في شتى جوانب الحياة .

• برنامج الماجستير والدكتوراه:

يمنح المعهد درجة الماجستير والدكتوراه في علم اللغة التطبيقي (تعليم العربية للناطقين بغيرها).

• إصدارات المعهد:

- سلسلة جامعة إفريقيا العالمية، لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وهي عشرة كتب خمسة للطلاب وخمسة للمعلم، نشرت في 2009م. تعد من أهم الكتب المعتمد عليها، وقد قدمت حولها مجموعة دراسات في تحليلها وتقويمها، وقد استفيد من نتائج تلك الدراسات في طبعات الكتب المتعددة.

- سلسلة جامعة إفريقيا العالمية للثقافة الإسلامية، وهي أربعة كتب، تتناول تعليم الحديث والسيرة والعقيدة، والفقه، وهي خاصة بالطلاب الناطقين بغير العربية.

(1) دليل معهد اللغة العربية، جامعة إفريقيا العالمية، ط2011م، ص: 7.

- العربية للناطقين بغيرها، مجلة علمية محكمة نصف سنوية، متخصصة في تعليم العربية للناطقين بغيرها، يصدرها معهد اللغة العربية بجامعة إفريقيا العالمية - السودان.
نظرة جامعة إفريقيا الحالية للمعهد⁽¹⁾

تري جامعة إفريقيا العالمية أن تنشئ كلية اللغة العربية، وتضم إليها قسم اللغة العربية بكلية الآداب ومعهد اللغة العربية، وذلك في العام 2016م، وقد تم ذلك تحويل المعهد لمبنى كلية اللغة العربية، ويجري اعتماد البرامج المقدمة من قبل الجامعة لوزارة التعليم العالي السودانية، فيصبح من بعد ذلك المعهد مقسماً إلى قسمين كما يلي:
أقسام الكلية: تضم الكلية الأقسام التالية:

قسمت الكلية إلى ثلاثة أقسام يعينها منها قسمان، وهما اللذان تفرعا عن معهد اللغة العربية، إضافة إلى قسم اللغة العربية وآدابها:
1- قسم الإعداد اللغوي:

وهو قسم يختص بالناطقين بغير العربية، ويمنح الدارسين:

- شهادة البرنامج العام للطالب المتخرج المستوى الثالث.
- شهادة البرنامج الخاص.
- شهادة حضور لكل من أكمل المستوى الأول والأول والثاني من البرنامج.

2- قسم اللغة التطبيقي للغة العربية للناطقين بغيرها:

ويمنح الإجازة الجامعية البكالوريوس في اللغة العربية وتعليمها للناطقين بغيرها، كما يمنح الماجستير والدكتوراه في تخصص علم اللغة التطبيقي.

فهذا التقسيم الحديث، سيحول -كما ذكرنا في المستقبل القريب - مسمى معهد اللغة العربية - وهو أكثر تخصيصاً من الكلية كما نعلم - إلى قسم داخل كلية اللغة العربية، وكنا نأمل أن يظل على حاله.

التعريف بسلسلة جامعة إفريقيا العالمية للناطقين بغيرها:

لابد من الإشارة هنا لأحد مناهج تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان، بوصفها صممت خصيصاً للأجانب الذين يفدون للسودان، وقد راعت الثقافات المتعددة، بدءاً بالثقافة الإسلامية والعربية والمحلية السودانية.

(1) دليل جامعة إفريقيا العالمية، الطبعة العاشرة، 2017م، ص 268.

مفهوم السلسلة:

هي منهج متكامل في تعليم العربية للناطقين بغيرها، موجهة للطلاب في مستوياتهم الثلاثة، (المبتدئ والمتوسط والمتقدم)، لذلك ألفت لهم ثلاثة مؤلفات، كتاب الطالب الأول والثاني والثالث، وتهدف إلى تزويد الطالب بكفايات اللغة الثلاثة، اللغوية والاتصالية والثقافية⁽¹⁾ تجريب السلسلة: أخضعت السلسلة إلى التجريب التربوي والتحكيم من قبل المختصين.

المهارات اللغوية التي تقدمها السلسلة:

الاستماع والفهم، الكلام، القراءة، الكتابة.

أهداف السلسلة: تنوعت الأهداف على حسب المهارات التي تقدمها السلسلة ومن هذه الأهداف:

من أهم أهداف مهارة الاستماع:

- التعرف على الأصوات العربية، والتمييز بينها عند الاستماع إليها.
- التعرف على الحركات الطويلة والقصيرة والتمييز بينها من اختلافات ذات دلالة.
- التعرف على النبر والتنغيم للكلمات والجمل العربية.

من أهم أهداف مهارة الكلام:

- النطق الصحيح للأصوات العربية.
- التمييز بين الأصوات المتشابهة والمتجاورة عند النطق.
- التمييز بين الحركات الطويلة والقصيرة عند النطق.

من أهم أهداف مهارة القراءة:

- القراءة من اليمين إلى الشمال بسهولة.
- التمكن من الربط بين الرموز الصوتية بسهولة ويسر.
- التمكن من الربط بين الصوت ورمزه الكتابي.
- مراعاة آثار علامات الترقيم في النطق أثناء القراءة.

من أهم أهداف مهارة الكتابة:

- التمكن من الكتابة من اليمين إلى اليسار.

(1) التراكيب اللغوية وتدريباتها في سلسلة جامعة إفريقيا العالمية، دراسة وصفية تحليلية، عبد العزيز الهندي عثمان، رسالة ماجستير، بحث غير منشور، ص 7.

- التمكن من معرفة الحروف التي بها أجزاء فوق السطر، والتي لها أجزاء تحت السطر.
 - كتابة الكلمات التي تملأ عليه كتابة صحيحة، في حدود ما درس.
 - التمكن من الكتابة بخط النسخ.
 - التمييز بين الحركات الطويلة والقصيرة.
- الوسائل والأنشطة التربوية: اشتملت السلسلة على كثير من الوسائل والصور والرسومات والخرائط، بألوان زاهية وأشكال جميلة. ويسعى القائمون على أمر المواد التعليمية، إلى أن تحول مادة السلسلة إلى مادة مسجلة على الأقراص المدمجة.
- دليل المعلم: لكل كتاب من كتب السلسلة الخمسة كتاب للمعلم، والغرض منه مساعدة المعلم على توصيل المادة العلمية للطلاب بأسهل الطرق المستعملة في تعليم اللغات الأجنبية، مركزاً على الخطوات التي ينبغي أن يتبعها المعلم في كل درس، وذلك باهتمامه على دروس نموذجية مشروحة بالخطوات، ومزود بالإجابات للتدريبات، وملحق بأسئلة تقويمية يجيب عنها الطالب.

الخاتمة:

ركزت الورقة البحثية على أهم مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان، مؤكدة أنها تلعب دوراً رائداً ومهما في نشر اللغة العربية وتعليمها، كما وقفت عند البيئة التعليمية التي ضمت كثيراً من الجنسيات العالمية التي لا تنطق بالعربية، ساعية لتهيئتها بأفضل الوسائل والتقنيات. وبالنسبة للمناهج التعليمية فقد صممت بعض هذه المؤسسات مناهج دراسية مبنية على أسس علمية رفيعة، تلبى حاجة الدارسين، ومع ذلك فإنها تحتاج إلى كثير من البذل حتى تصل إلى أبعد الغايات المنشودة وتحقق كثيراً من الآمال والطموحات.

لذا اشتملت الخاتمة على أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث كما يلي:

النتائج:

- يعد السودان من أهم الدول العربية والإفريقية الرائدة في تعليم العربية للناطقين بغيرها.
- توافد كثير من الأجانب من جميع أقطار العالم لتعلم اللغة العربية في السودان مما ساعد على نشر الثقافة الإسلامية والعربية في دول العالم المختلفة.
- تستخدم جميع الجنسيات اللغة العربية وسيلة للتواصل في السودان، وهذا يرجع إلى أنهم متعدّدو اللغات ولا سبيل للتفاهم بينهم غير العربية، مما ساهم في إجادة مهارتي الاستماع والتحدث.

تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان

- تتعدد البرامج في مؤسسات تعليم العربية بدءا ببرنامج الإعداد اللغوي، مروراً بالدبلوم الوسيط، والبيكالوريوس، وصولاً للماجستير والدكتوراه، وهذا يشمل جميع مؤسسات العينة.
- كثير من الجامعات السودانية تعنى بتعليم الوافدين من الأجانب بصورة خاصة، وإن لم تنشئ قسماً خاصاً بتعليم العربية للناطقين بغيرها.
- اعتنت مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان بتأليف مناهج تعليم العربية للناطقين بغيرها مثل: (الكتاب الأساسي معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، وسلسلة جامعة إفريقيا العالمية)، وهي تسعى دائماً للتطوير هذه المناهج وتنقيحها.
- وضعت مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها برنامجاً يعنى بتعليم العربية لأغراض خاصة، وقد سعت جامعة إفريقيا العالمية في تصميم كتاب (لكلية التربية).
- تعد سلسلة جامعة إفريقيا العالمية سلسلة رائدة في تعليم العربية للناطقين بغيرها، وتعتمد عليها كثير من المؤسسات التعليمية في السودان.
- ركزت سلسلة جامعة إفريقيا العالمية، على الثقافة الإسلامية والعربية، كما تطرقت للثقافة المحلية والعالمية.

التوصيات:

- يوصي الباحث المؤسسات التي تقوم بتدريس العربية للناطقين بغيرها، إلى العناية بتطوير المناهج الدراسية، والتدريب المستمر لأعضاء هيئة التدريس، واستخدام الوسائل والتقنيات التربوية المتطورة.
- أن تضع وزارتات التربية والتعليم والتعليم العالي في السودان، إستراتيجية موحدة لجميع مؤسسات تعليم العربية في السودان، مع العناية بمناهج تعليم العربية للناطقين بغيرها وتوحيد رؤيتها.
- اهتمام الدولة بمناطق التداخل اللغوي في السودان، ووضع خطة تستوعب كل متطلبات العملية التعليمية في هذه المناطق.
- السعي الجاد من قبل مؤسسات تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان، لتبادل الخبرات العلمية و التربوية في هذا المجال بإرسال البعثات واستقبالها.

المصادر والمراجع:

- (1) أوضاع اللغات السودانية والتخطيط اللغوي 1898م - 2009م، بهاء الدين الهادي خير السيد، الخرطوم، ط2013م.
- (2) البيئة التعليمية وأثرها في تنمية القدرات اللغوية للطلاب، عبد الحليم محمد حامد، ملخصات الأوراق العلمية لمؤتمر الضعف اللغوي في الجامعات السودانية-المشكلات والحلول، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، ط2015م.
- (3) التجربة السودانية في تعليم العربية للناطقين بغيرها وتطوير مناهج تعليم العربية للناطقين بغيرها، عز الدين وظيف علي بشير، مجلة العربية للناطقين بغيرها، معهد اللغة العربية، جامعة إفريقيا العالمية، العدد السادس عشر، يونيو 2013م.
- (4) التراكيب اللغوية وتدريباتها في سلسلة جامعة إفريقيا العالمية، دراسة وصفية تحليلية، عبد العزيز الهندي عثمان، رسالة ماجستير، بحث غير منشور، 2014م.
- (5) تعليم العربية للناطقين بغيرها، الطرق - الأساليب - الوسائل، عمر الصديق عبد الله، الدار العالمية، 2008م.
- (6) تعليم العربية لغير الناطقين بها في المجتمع المعاصر (اتجاهات جديدة وتطبيقات لازمة)، رشدي أحمد طعيمة، مجلة العربية للناطقين بغيرها، العدد الأول، 2004م.
- (7) تعليم العربية لغير الناطقين بغيرها، مناهجه وأساليبه، عمر الصديق عبد الله، الرياض المنظمة العربية للتربية والثقافة، 1989م.
- (8) تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في ضوء المناهج الحديثة، مختار الطاهر حسين، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ط2011م.
- (9) تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها دراسات وتطبيقات، عمر الصديق عبد الله، الدار العالمية، ط2010م.
- (10) دليل الجامعة جامعة إفريقيا العالمية، الطبعة العاشرة، 2017م.
- (11) دليل الدارس، درجة الدكتوراه (بالدراسة والبحث)، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ط2016م.
- (12) دليل قسم تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية، 2009م.
- (13) دليل كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، ط2009م.
- (14) دليل معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ملحق رقم (1)، الخرطوم 1993م.
- (15) دليل معهد اللغة العربية، جامعة إفريقيا العالمية، ط2011م.

تعليم العربية للناطقين بغيرها في السودان

- (16) صفحات من اللغة والنحو، محمد غالب عبد الرحمن وزّاق، ط1، 2015م.
- (17) علم اللغة التطبيقي، مجالاته وتطبيقاته في حقل تعليم اللغات، أشواق عوض حامد، الدار العالمية، ط2013م.
- (18) لهجة جوبا العربية، بول دينق شول، الدار السودانية للكتب، ط1 2005م.
- (19) نظرات في التربية واللغة، دور مناهج اللغة العربية في الجامعات السودانية في بناء الشخصية ومواجهة التحديات، بكري محمد الحاج، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، ط2010م.
- مواقع الإنترنت:

1. www.voiceofarabic.net

2. www.sudaress

أسس النهضة الوطنية واتجاهاتها عند شعراء

مدرسة الإحياء السودانية (قراءة في الأشعار والأفكار)

أ.د. محمد الحسن على الأمين(*)

ملخص البحث

النهضة الشعرية في السودان مرت بمراحل مختلفة من التطور : مرحلة الشعر العامي في عصر الفنج (1054-1821م)، وهو يمثل بدايات الشعر العربي في السودان، ومرحلة التطور وبدايات القصيدة العربية الفصيحة في العهد التركي (1821-1885م)، وذلك نتيجة لظهور التعليم وانتشاره ، والهجرة إلى مصر، والدراسة في الأزهر، حيث عاد العلماء ودرسوا علوم العربية والعلوم الإسلامية فأدى ذلك إلى تطور الشعر في السودان.

ثم مرحلة القصيدة الملحمية الفصيحة، كما في فترة المهديّة (1885-1898م). ثم النهضة الحديثة التي بدأت بجيل الرواد (جيل الإحياء) إلى جانب المدارس الشعرية المختلفة كالرومانسية ، والواقعية وغيرها بعد أن انتشر التعليم الحديث، واتصل الشعراء بالأدب الغربي وتأثروا به.

فقد اختلفت هذه المدارس الشعرية في أفكارها الشعرية واتجاهاتها الوطنية، التي عبرت عنها أشعارهم، أما جيل الرواد، (جيل الإحياء) أمثال عبدالله عبدالرحمن، عبدالله محمد عمر البنا، ومحمد سعيد العباسي، وأحمد محمد صالح، ومحمد عثمان عبدالرحيم، وغيرهم، فهم جيل لم يتأثر بالثقافة الغربية كثيراً، وإنما اتجهوا إلى الثقافة العربية الإسلامية شأنهم في ذلك شأن جيل الإحياء في الوطن العربي.

لهذا فقد كان تصورهم للنهضة الوطنية في أشعارهم ينطلق من أساسين: (اللغوي- فني) و (الاجتماعي - وطني) فالأساس اللغوي "الفني" أساس إحيائي يتجه نحو القصيدة العربية القديمة وإحيائها ، في بنائها ووزنها، وأغراضها ولغتها فالتزموا في أشعارهم نهج القصيدة القديمة والأساس الثاني : اجتماعي يتجه نحو المجتمع وقضاياها، والنهوض به، فوظفوا أشعارهم للنهوض بالمجتمع كالدعوة إلى التعليم، ومحاربة الجهل، والفقر والفساد وغيرها.

(*) أستاذ البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية - جامعة أم درمان الإسلامية.

لهذا فقد جاء هذا البحث استخلاصاً لرؤية أصحاب الاتجاه الإحيائي، في الأسس التي تقوم عليها النهضة الحديثة للمجتمع.

والخطة التي اتبعتها في دراسة أشعارهم قائمة على : تمهيد ، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع، فالتمهيد تحدث فيه عن مراحل تطور النهضة الشعرية في العالم العربي، وربطتها بمراحل تطور النهضة الشعرية في السودان، والمبحث الثاني : تحدث فيه عن بدايات النهضة الحديثة في مصر والسودان. والمبحث الثالث : خصصته لدراسة النهضة الحديثة في السودان، والمبحث الرابع : تناولت فيه الأساس الاجتماعي واتجاهاته ثم ختمت البحث بما وصلت إليه من بعض النتائج..

تمهيد:

الشعر العربي في العالم العربي مر بمراحل من التطور يقسمها مؤرخو الأدب إلى عصور: العصر الجاهلي، وصدر الإسلام والأموي، والعباسي، وعصور الانحطاط. فقد ظل الشعر العربي يتطور من عصر إلى عصر مع تطور الحياة الثقافية الفكرية من عصر إلى عصر إلى أن بلغ قمة نضجه الثقافي الفكري في العصر العباسي. ثم كانت فترة الانحطاط التي سبقت النهضة الحديثة.

ويتفق المؤرخون للأدب العربي بأنها بدأت بسقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية في أيدي المغول "التتار" سنة (656هـ-1258م).

ومنذ سقوط بغداد ظل الأدب العربي في انحدار من عصر إلى عصر حتى بلغ قمة الانحدار في العصر التركي أو الدولة العثمانية (923-1213هـ) (1517-1798م).

يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي: "فلما جاء العصر العثماني لم يكن للأدب من يشجعه ولا اللغة العربية من العطف عليها، وأغلق ديوان الإنشاء، وسادت التركية والعامية، وذهب مجد العربية وعظمتها⁽¹⁾.

وأثر ذلك في الكتاب الفنية فأورثها ضعفاً وهناً..." ويقول: "فلقد بادر الأتراك فأقصوا اللغة العربية عن مكانها، وأخروها عن منزلتها، وجعلوا اللغة التركية هي اللغة الرسمية لدولتهم في كل أنحاء البلاد العربية بعد أن كانت اللغة الرسمية في عصر الممالك هي اللغة العربية"⁽²⁾.

(1) الحياة الأدبية في مصر، العصر المملوكي والثاني، د. محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية ، ص

(2) نفسه، ص 216.

لهذا فإنّ المؤرخين للأدب قد اتفقوا على أنها فترة مظلمة وأنها تبدأ بسقوط بغداد ولكنهم يختلفون حول تاريخ نهايتها فمنهم من يرى أن نهايتها دخول نابليون مصر سنة (1798م) ومنهم من يرى أنها تنتهي في أواخر القرن التاسع عشر ومنهم من يرى أنها تنتهي بإعلان الدستور العثماني (1908م) ومنهم من يرى أنها تنتهي بانتهاء الحرب العالمية الأولى (1919م). وعلى هذا فإنها قد استمرت حوالي خمسة قرون ونصف على أقل تقدير أو حوالي ستة قرون ونصف على أكثر تقدير فأورث ذلك ضعفاً ثقافياً عاماً، وضعفاً شعرياً خاصاً⁽¹⁾.
ضعف ثقافي عام:

والضعف الثقافي العام في هذه الفترة تمثل في مظاهر شتى منها:

- 1- انتشر التقليد وأقفل باب الاجتهاد وكثرت الأساطير والشعوذات، وقد غلب على مؤلفات هذا العصر كما أجملها بعض المؤرخين في الآتي.
 - 2- قلة الابتكار والتجديد والاكتفاء بالشرح أو التلخيص.
 - 3- قلة التحري وانعدام الدقة وكثرة المبالغات.
 - 4- ضعف أسلوب التأليف وهبوطه إلى مستوى العامية.
 - 5- أكثر مؤلفات هذا العصر إما "متون" أو "شرح" وقد سمي بعض الباحثين هذا العصر "عصر الشروح والحواشي" كما سمي عصر المماليك "عصر المجاميع والموسوعات"⁽²⁾.
- والضعف الذي أصاب الشعر عند النقاد يتمثل في الآتي:
- عدم تشجيع الولاة من الأتراك للكتاب.
 - والأدباء لجهلهم بالأدب والعربية.
 - انصراف الكتاب عن الكتابة.
 - جعل التركية لغة رسمية.
 - كان الحكام أتراكاً يجهلون اللغة العربية فأبعدوا الشعر عن مجالسهم.
 - كانوا متعصبين لنشر لغتهم.
 - اهتمام الشعراء والكتاب بالمحسنات البديعية اللفظية.
 - أسرف الشعراء في المجون والعبث، ونظم بعض الشعراء في الموشحات.

(1) انظر: الثابت والمتحول: علي أحمد سعيد (أدونيسي)، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة (1406هـ - 1986م)، ج3، صدقة الحداد ص 53.

(2) الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والثاني، ص 219.

- وقف الشعراء عند أغراض المتقدمين واقتصروا على تقليد السابقين. وهكذا ضعف الشعر في هذا العصر، وأصبح ركيز الأسلوب، سخييف المعاني، كثير الأغلاط، ضعيف الأغراض إذ كان أغلبه في الغزل والإخوانيات⁽¹⁾.

تزامن فترة الانحطاط مع عصر الفنج في السودان:

ونستطيع أن نقول إن فترة الانحطاط في مصر والشام والعراق (1517-1798م) كانت متزامنة مع عصر الفنج في السودان (1504-1821م) وهي فترة كان الشعر فيها ضعيفاً، وكان اللون الغالب عليه هو المدائح النبوية، ومدح الشيوخ والقيم التي كانت تحملها المدائح الإسلامية عربية، واللغة كانت دارجة، أو هي هجين بين الدارجة والفصحى.

المبحث الأول

بدايات النهضة الحديثة في مصر والسودان

يؤرخ الأدباء لبداية هذه النهضة بدخول (نابليون) مصر عام (1798-1801) فكان عهده إلى جانب الاستعمار يمثل نهضة علمية حيث أنشأ مرحلاً، ومدارس ومصانع للورق، وأنشأ مكتبة عامة وغير ذلك من مؤسسات العلم والمعرفة والبحث العلمي. ثم جاء محمد علي باشا جندياً في الحملة التي اشتركت ف إخراج الفرنسيين من عام (1801م) ولم تمض عليه أربع سنوات حتى استولى على مصر سنة (1805م) ويمثل عهده بداية النهضة الحديثة فأرسل البعث إلى فرنسا، وأنشأ المدارس والمطابع فكان لذلك أثره في إحياء اللغة حيث حققت الكتب القديمة العربية والإسلامية والدواوين الشعرية، وتيسير الإطلاع عليها، فأطلع المهتمون بالأدب على آثار السلف ودواوين كبار الشعراء فاحتدوا الأدب العربي في موضوعاته وأساليبه، ومعانيه وبحوره فظهر البارودي، وإسماعيل صبري، وشوقي، وحافظ، وغيرهم⁽²⁾ حيث عمد هؤلاء الشعراء إلى فحول الشعراء من عصور الشعر العربي المختلفة ينسجون على منوالهم ويقلدونهم ويعارضونهم في قصائدهم المشهورة الخالدة فأضفوا على

(1) نفسه، ص 222-250.

(2) انظر: في الأدب الحديث: عمر الدسوقي: دار الفكر، الطبعة الثامنة، 1973م، الجزء الأول.

الشعر العربي لوناً جديداً لم يسمع منذ أمد بعيد، فأحيوا بذلك الشعر العربي بعد موات استمر أكثر من خمسة قرون⁽¹⁾.

النهضة في السودان:

مثلاً كان عهد محمد علي باشا (1805م) بداية للنهضة الحديثة في مصر، فقد كانت النهضة الحديثة في السودان متزامنة مع النهضة المصرية فهي تبدأ مع العهد التركي في السودان (1821-1885م) فقد قوى الأتراك صلة السودان بالخارج وخاصة بمصر إذ جعلوا الطريق إليها ميسراً، وشجعوا الرحلة إلى الأزهر وأنشأوا مدارس في الخرطوم وفي مديريات مختلفة، فالتحق في السودان يمثل بداية مرحلة جديدة لشعر عربي فصيح، وشعراء هذه الفترة غالبيتهم من الذين تلقوا تعليمهم في الأزهر، وعادوا إلى السودان للعمل بالتدريس والقضاء الشرعي ودرسوا علوم القرآن والفقه، والحديث والميراث والتوحيد والتفسير إلى جانب علوم النحو والصرف واللغة والمنطق والمعاني والبديع والعروض فارتقى شعر هؤلاء العلماء في هذه الفترة عن الشعر في سلطنة سنار إذ تحقق فيه إلى حد كبير سلامة اللغة وصحة التراكيب، وارتقى عن شعر سنار من حيث العبارة، والفكر، والوزن⁽²⁾.

مثال ذلك قصيدتان:

إحداهما للشيخ الأمين محمد الضيرير ت (1302هـ) يمدح بها الخديوي توفيق والثانية للأستاذ محمد أحمد هاشم ت (1910م) وهي أيضاً في مدح الخديوي توفيق، بمناسبة عيد جلوسه عام (1880م).

الأولى مطلعها:

والصادقون لدى الآداب إخوان⁽³⁾

الودُّ مآدبة والصدق إخوان

والثانية مطلعها:

والكون نارَ وقد زادت بشــــــــــــــــائره⁽¹⁾

اليُمن أقبل بالإحسان طائره

(1) قسم الأستاذ العقاد هؤلاء الشعراء إلى طبقات حسب الجودة ولتقليد والإبداع . انظر: شعراء مصر وبيئاتهم - في الجيل الماضي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى 1970م، ص 225-324.

(2) يؤرخ الدكتور محمد إبراهيم الشوش لبداية الشعر الفصيح في عنده تقع ما بين (186) إلى بداية الحرب العالمية الأولى أي بعد أربعين سنة من بداية الحكم التركي. الشعر الحديث في السودان: جامعة الخرطوم، الطبعة الثانية، 1971- ص 28.

(3) انظر: نفثات اليراع : لمحمد عبدالرحيم ص 79، وشعراء السودان، سعد ميخائيل ، ص 20، والشعر السوداني في المعارك السياسية، ص 89.

وتجئ الأولى في حوالي أربعين بيتاً، والثانية في أكثر من عشرين بيتاً، والأولى نشرتها صحيفة الوقائع⁽²⁾ ويعلق عليها الأستاذ محمد عبد الرحيم فيقول والقصيدة كما ترى بليغة في أسلوبها قوية في تعابيرها، تفضل، بعضاً من الشعر المصري في ذلك الوقت⁽³⁾.

النهضة الشعرية في المهديّة:

إن كانت القصيدة العربية، قد ارتقت في لغتها نتيجة للتطور الذي حدث للغة في عهد الفتح، ونتيجة للحركة العلمية في العصر التركي، فإنها في المهديّة قد حدث لها تطور كبير في اللغة، وفي المعاني، والوزن، وسبب ذلك انتشار العلم أكثر، ومجئ العلماء من مصر، وإلى ما أحدثته المهديّة من روح جهادية في الذات السودانية.

وشعراء المهديّة كثر منهم عبد الغني السلاوي، ومحمد أحمد هاشم وأحمد بقادي، والحسين الزهراء، ومحمد طاهر المجذوب، ومحمد عمر البنا.

وشعر المهديّة شعر معارك وملاحم يدور حول شخصية المهدي ومعاركه ووصف المعارك والجنود كما في قصيدة الشيخ محمد عمر البنا⁽⁴⁾:

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الإله حياة

والجبن عار والشجاعة هيبة للمرء ما اقترنت بها العزمات

فهي قصيدة لها مدخل قوي، وبراعة في الاستهلال تدل على ما سيعقب المدخل من وصف للجيش والخيّل.

فجاء في وصف الجيش:

قوم إذا حمى الوطس رأيتهم	شم الجبال وللضعيف حمات
ولباسهم سُردُ الحديد وبأسهم	شهدت به يوم اللقاء الغارات
وخلوفهم صداً الحديد لحزمهم	قتل الأعادي عندهم عادات
في السلم تلقاه ركوعاً سُجّداً	أثر السُجود عليهم وسمات
وتخالهم يوم اللقاء ضراغما	أسداً وأسل رماحهم غابات ⁽¹⁾

(1) انظر: نفثات اليراع ص 109، والشعر السوداني في المعارك السياسية ص 89.

(2) نشرت في صحيفة الوقائع في يوم الخميس 18 جمادي الأولى (1286هـ) وهي صحيفة تصدر في استنبول ، نفثات اليراع ص 81.

(3) نفسه، ص 81.

(4) الشعر السوداني المعارك السياسية ، محمد محمد علي، المكتبة الأزهرية.

ويصف الخيل:

والخيلُ ترقصُ بالكماة كأنها تخستال في ميدانها فتياتٌ
فأثرن نقع الموت في عرصاتها وأغرُن صبحاً إذ علت أصواتُ
وذُبابُ أسيافِ المنية فوقها رعت دماً وجلأؤها الهاماتُ

فنحن هنا أمام شعر ملحي جديد في لغته وفي تصويره للمعارك بمشاهدها المختلفة ، القائد، والجيش، والسلاح، والخيل، ومشاهد المعركة من الرماد، والأشلاء من الموتى، والطيور تقتات من لحوم الأعداء.

وقصيدة البنا هنا في مدح المهديّ تعود بنا إلى أبي تمام، والبحري، والمتنبي، في العصر العباسي حينما مدحوا المعتصم والمتوكل وسيف الدولة.

فقد ربطت الشعر العربي السوداني بالشعر العربي الإسلامي في دمشق، وفي بغداد وفي حلب. وقصيدة البنا هنا تنهض بالشعر العربي الإسلامي في السودان وتترام مع شعراء الإحياء، البارودي وشوقي، وحافظ، وغيرهم.

كما أنها كانت تمدح قائداً مسلماً، هو المهدي وتصف بطولاته وجهاده من أجل الدين، وتوحيد الأمة الإسلامية كما كانت قصيدة البارودي وشوقي تمدح الخلفاء العثمانيين وبطولاتهم وجهادهم من أجل الإسلام ووحدة المسلمين فارتقت بالشعر العربي السوداني، لغة ووصفاً، وقيماً إلى المثل الإسلامية العليا، في الشعر العربي التي شادها أبو تمام والبحري، والمتنبي سابقاً ثم البارودي وشوقي وحافظ وغيرهم لاحقاً في عصر النهضة.

فالمهديّ هو القائد العربي المسلم والجيش جيش سوداني مسلم ينطلق من قيم البطولة الإسلامية لإقامة الدين والقضية إقامة دولة الدين والعدل والحق.

المبحث الثاني

النهضة الحديثة في السودان

ثم جاءت النهضة الحديثة، واختلف روادها من الأدباء والنقاد والشعراء.

(1) نفثات اليراع ص 100-103.

وقد سماها الدكتور جمال الدين الرمادي (معلقة سودانية) . انظر كتاب: دراسات في الأدب السوداني، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة.

فمنهم من دعا لأدب قومي يعبر عن نفسية الأمة، وينطق بلسانها، ويعبر عن وجدانها، ومشاعرها، ويعالج مشاكلها، وأمراضها، ومن هؤلاء محمد عزمي الصديق الذي يكتب عن مفهوم الأدب القومي فيقول: "فالاصطلاح الذي نقصده هو طريقة التعبير الخاصة بأمة أو شعب كتلك العبارات، والجمل والألفاظ التي تلوح فيها فطرة الأمة وحياتها، وإذا درسنا آداب الأمم وجدنا أن كل أمة يكاد يكون لها قاموس جامع للكلام المصطلح عليه، والذي يميز أدبها عن أدب غيرها⁽¹⁾. ومنهم أمين بابكر الذي يرى أن الأمة السودانية في أمس الحاجة لخلق أدب سوداني يعبر عن جوانب هذا المجتمع.

وقد كتب عرفات محمد عبد الله مشيراً إلى نماذج من العيوب التي يجب أن يقصد إليها الأدب القومي لمعالجتها فيقول: "أما حكم عاداتنا في البيت والسوق، في الزواج، والطلاق⁽²⁾، في كل شيء" فهم يرون أن أصحاب الاتجاه التقليدي قد انسلخوا عن بيئتهم وأصبحوا يعبرون عن

بيئات أخرى غير محيطهم وبيئتهم.

آراء أصحاب الاتجاه الإحيائي:

أما آراء أصحاب الاتجاه الإحيائي وهم الذين يدعون لإحياء القديم والالتزام به فهم يرفضون هذه الآراء، فقد كانت آراؤهم آراء جيل الإحياء في العالم العربي، وشروطهم شروط جيل النهضة عند العرب، فهم يرون أن دراسة اللغة العربية وإحياءها، هي الخطوة الأولى لإحياء الأدب العربي والعودة إلى ماضي الأمة العربية الإسلامية لغة وقيماً تستمد منها من تاريخها وتقاليدها الموروثة وعاداتها المعروفة التي تمثل العادات والتقاليد العربية الصحيحة فيقول أحمد محمد صالح: لا أول ما يعوزنا ذا الشعور القومي فلنوجه العناية إليه، ولنبدل الجهد في خلقه، ولنشعر أننا أمة لها كيائها الخاص، وتقاليدها الموروثة ولها تاريخ إن لم تكن صفحاته أروع الصفحات وأبعدها في المجد صيتاً، فهو على كل حال يطبعها بطابع الشجاعة، والنخوة، ووسمها بميسم الكرم والسماحة ويصلح أن يكون نواة طيبة لما قد تضيف إليه من اللبنة⁽³⁾.

(1) مجلة الفجر السودانية، عدد 2- مجلد 1 سنة 1931م.

(2) انظر: الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر، محمد فوزي مصطفى عبدالرحمن، الدار السودانية، الخرطوم، دار الفكر بيروت، وفيه عرض لهذه الآراء ومناقشتها، الطبعة الأولى (1392هـ- 1972م).

(3) نفسه: ص 213، ص 212.

ويضيف أحمد محمد صالح: "أمامنا الدين الحنيف لم لا نهتديه ونسير على ضوئه"⁽¹⁾.
ومن أصحاب الاتجاه الإحياء الشاعر العباسي الذي سخر من الدعوة إلى القومية التي يرى أنها
لا تخلو من الأغراض والأهواء فقال:

وما تريدون من قومـية هي في رأي السراب على القيعان رقرقاً⁽²⁾
لا تخذعوا إن في طيات ما ابتكروا معنىً بغيضاً وتشتيتاً وإرهاقاً
ومنهم عبد الله عبد الرحمن الذي يقول:

وبالأدب القومي قالوا سفاهة وما لمحووا حقاً ولكن توهموا⁽³⁾
ألا نحن عرب قبل أن لعبت بنا صروف الليالي والجهول الغشمشم
وقد خيل لأصحاب الإحياء المحافظين أن في دعوة القومية قتلاً للغة الفصحى وتفكيكاً لعرى
الرابطة الإسلامية كما عند عبد الله عبد الرحمن:

وليس سوى الإسلام من وطن لنا ولا غير أهلية أعد صحابا⁽⁴⁾
كفي بقبيل الله جنساً ومذهباً وبالله رباً والكتاب كتاباً

المبحث الثالث

الأساس اللغوي واتجاهاته

النهضة الوطنية عند شعراء مدرسة الإحياء لها أساس ومنطلقات لغوية وفكرية واجتماعية
تنطلق منها نجدتها تتمثل في أشعارهم:

- 1- أساس لغوي: فني يقوم على إحياء القصيدة العربية القديم وينطلق منها وله اتجاهات.
- 2- وأساس اجتماعي ينطلق من المجتمع وله اتجاهات.
- وسأتناول هذين الأساسين واتجاهاتهما عند شعراء مدرسة الإحياء بشيء من الشرح والتحليل.

1- الأساس اللغوي:

يتمثل هذا الأساس في أشعارهم في اتجاهين:

أ- إحياء القصيدة القديمة.

ب- وظيفة الشعر في إنهاض الأمم.

(1) نفسه ، ص 212-213.

(2) ديوان العباسي : ص 70.

(3) الفجر الصادق: ص 8.

(4) نفسه : ص 89.

أ- إحياء القصيدة القديمة:

فكر مدرسة الإحياء قائم على إحياء القصيدة القديمة بلغتها، وأغراضها وعروضها والدعوة إلى الاهتمام بها.

فاللغة عندهم دعامة من الدعامات الأساسية التي يقوم عليها الكيان القومي فلا بد من الاهتمام بها ودراستها وتمجيدها وإحيائها كما عند عبد الله عبد الرحمن⁽¹⁾:

علوم اللسان لو علمتم كثيرة وفي جهلها ترك لما هو أوكد
وأولها أن تروى الشعر ناصعاً عن العرب لا يسمو إليه المولد
وأن تقتل الألفاظ فهماً وتنتقي أحاسنها يوم الكتابة تقضدُ

فلا بد من إحياء العربية فلا ننعاها كما عند الشيخ عبد الله محمد عمر البنا:

أم اللغات عويلي فيك متصلٌ ومقلتي بسخين الدمع عبراك⁽²⁾

فهذا الشعر الذي يدعو شعراء الإحياء للعودة إليه يصف الدكتور إحسان عباس خصائصه اللغوية فيقول:

"ويمتاز شعر هذه المدرسة بالقوة في التعبير وإجادة السبك، وبالإطلاع اللغوي الواسع، وكثيراً ما يبدؤن شعرهم بالغزل ويسخرون القصيدة لموضوعات كثيرة"⁽³⁾.

ويقول أيضاً: "حينئذ وجد الشاعر السوداني وهو يستوحي حركة الإحياء التي ابتدأها فإن جميع هؤلاء الشعراء هم أبناء مدرسة البارودي التي وجدت نماذجها العليا من الشعر العباسي"⁽⁴⁾.

ويوازن بين شعراء هذه المدرسة في السودان ومصر فيقول: "ويقف العباسي في بعض قصائده على صعيد واحدٍ من القدرة الفنية مع شوقي، بينما يقف أمثال البنا وعبد الله عبد الرحمن في المستوى الذي بلغه حافظ أو الرصافي، وهما دون ريب أقوى أسلوباً من الزهاوي، وعلى الرغم من التفاوت الواضح بين هذين المستويين من الجزالة، فإن جميع هؤلاء الشعراء هم أبناء مدرسة البارودي التي وجدت نماذجها العليا في الشعر العباسي".

(1) الفجر الصادق: ص 92، وانظر نفثات اليراع ص 224.

(2) ديوان البنا: ص 97.

(3) في الأدب السوداني، وإحسان عباس: ص 293.

(4) في الأدب السوداني: ص 300.

فلا مانع عندهم من أن يتوسع الشاعر في التعبير عن مشاعر بني قومه في مجالات مختلفة، ولكن عليه قبل ذلك كله أن يكون هذا التعبير بأسلوب عربيّ جزل، يؤكد الانتماء إلى أصول عربية عريقة.

وقد فعل هذا الجيل ذلك حيث تناول قضايا وطنه المختلفة في شعره في لغة عربية جزلة وقصيدة عربية التزموا فيها خصائص القصيدة العربية في عصورها الزاهرة خاصة العصر العباسي.

حيث وقفوا على الأطلال، ووصفوا المحبوبة والتزموا بحور الخليل، وعددوا الأغراض في القصيدة في لغة فصيحة جزلة، فكان شعرهم إحياء لتقاليد الشعر القديم. فقد وقفوا على الأطلال كما وقف الشعراء في العصور القديمة، وكما وقف جيل الإحياء كالبارودي وغيره ونسبوا وكانت ألفاظهم بدوية مثال ذلك: الوقوف على الأطلال:

حيث وقف العباسي في مطلع قصيدته:

قفوا في رُبا كانت تحلُّ بها سلمى	فإني أرى هجران تلك الرُّبا ظُلما ⁽¹⁾
أسائل رسم الدار أين ترخَّلوا	وهل أفصحت يوماً لسائِلها العُجما
على أنه ما كان يبقي لمدنف	بكاء الحيا الوسـمي رسماً ولا وُسما
منازل كانت للبدور منازلًا	فأضحت بريم الوحيش من بعدها تسمى

ووقف أحمد محمد صالح: وهو يمدح السيد عبد الرحمن⁽²⁾:

لزينب ربع ما يحييك محول	عفا بعد ما كان بالغيد يأهل
وأقفر من بيضي حسان نواعم	أو أنس من أخلاقهن التدلُّ

النسيب:

ووصفوا المحبوبة على طريقة القدماء وكما عند شعراء الإحياء فقد نسب عبد الله البنا في محبوبته ووصفها في مطلع قصيدته في مدح السيد عبد الرحمن المهدي⁽³⁾:

ما بين مرّهوي ومرّ عفاف سكن الضنى والهَمُّ بطن شفاف

(1) ديوان العباسي: الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولى، 2010م، ص 119، وانظر: شعراء السودان: سعد ميخائيل، ص 290.

(2) شعراء السودان، سعيد ميخائيل، مكتبة الشريف 2009م، ص 72.

(3) ديوان البنا: ص 123.

ماذا أكابدُ في الصبابة والعلا والمبيض تنفروالزمان ينافي
هندٌ تدلُّ بجيد خاذلة هيفاءٌ مثقلة من الأرداف

الألفاظ:

والألفاظ عندهم يشترط أن تكون جزلة بدوية تعود إلى ألفاظ القصيدة العربية القديمة تعيد مجدها وتحيي تقليدها كما عند البنا في مطلع قصيدته ذكرى العربية:

ما كان أبهاك لما كُنت بادية وبالجدي والندي ما كان أغراك⁽¹⁾

أيام بالشيخ والقيصوم عطرك ما أحلاك إذ فاح بالعرفان نشارك

ما كان أغراك" ما كان أشغفك و"الشيخ والقيصوم" من نباتات البادية و"نشارك" مثني نشر وهو الرائحة الطيبة فهو يحن إلى أيام كانت القصيدة عربية بدوية وألفاظها عربية بدوية، معطرة بأريج "الشيخ" و"القيصوم".

وعند عبد الله عبد الرحمن:

ونقيمها بدوية حضريّة منها البيان بكل وجه يسكب⁽²⁾

والناس تسمع معجبين كأنما غناهموشاد مجيد مطرب

كما التزموا عروض الخليل وبحوره وعدّوا في الأغراض شأن جيل الإحياء والتزموا بسنن العرب⁽³⁾:

لعمرك إن الشعر أصبح ماجناً قوافيه من تحنائها تتأود

وأصبح غثاً في الركابة ضارباً بسهم وعما سنت العرب يبعد

ب- وظيفة الشعر في إنهاض الأمم:

الوظيفة العظمى للشعر عندهم هي أن يساعد في إنهاض البلاد وتحريرها من حاكمها الأجنبي وتحقيق استقلالها السياسي والاجتماعي، بما يحدثه من تحريك للشعوب وما يحمله من قيم وأفكار كما يقول عبد الله عبد الرحمن⁽⁴⁾:

أثار الشعر في الأمم الخوالي نفوساً فأشرأبت للمعالي

وسرّ النهضة الكبرى قوافٍ إذا دُعيت تساقط كالنبال

(1) نفسه : ص 96.

(2) الفجر الصادق: ص 11.

(3) نفسه : ص 90.

(4) نفسه : ص 41.

فلا بد من إحياء قيم الإسلام، والعروبة من خلال قصيدة أصيلة في لغتها، وبنائها وصورها وعروضها فهي التي تحمل القيم وهي التي تنهض الأمة.

لهذا فقد انطلقت قصيدة الإحياء تستلهم الماضي وتقذف بها في منابر المجتمع⁽¹⁾:

وأقذف بشعرك في النادي تهزبه شعور قومك إن الشعر يذكىه

وهاته عربياً غير ذي عوج واستوح شيطانه يرقى مرأيه

وهي قصيدة ذات تأثير قوي في المجتمع لجمالها وقوة بيانها وتجدد من المجتمع التجاوب والاهتاف⁽²⁾:

ونقيمها بدوية حضارية منها البيان بكل وجه يسكب

والناس تسمع معجبين كأنما غناهموا شاد مجيد مطرب

والعربية هي الموحد والرابط، وتركها أو ضعفها يعنى إضعاف الوحدة⁽³⁾:

بني وطني إن قُمتُ للضاد داعياً فإني أدعو التي هي أقوم

لقد وثق الله الروابط بيننا فلا تنقضوا بالله ما الله مبرم

فهي الموحدة للأمة بما تحمله من ماض عريق وقيم، وهي لغة العلم، والثقافة، والفكر، وهي سلاحكم فإن خلعتموه هزمتكم⁽⁴⁾:

فعضوا عليها بالنواجذ إنها سلاحكمو إن تخلعوه هزمتمو

سلام عليكم إن فقدتم بيانها سلام على الفصحى سلام عليهمو

فلماذا لا نهتم بلغتنا والغرب يهتم بلغته، ويشجع من يتعلمها، وينشرون بها العلم⁽⁵⁾:

أرى الغرب يعنى باللغات رجاله وتمشى إلى أعلامها تتعلم

وهم يكبرون من رجال توفروا عليها إلى أن أكبر الناس منهمو

وفي كل يوم يخرجون مؤلفاً نفيساً وبحثاً ينشر الفضل عنهمو

ولا بد للشعر أن ينهض بهذه القيم ويروج لها، ويحييها ليبنى عليها المجتمع نهضته، فهي وظيفة الشعر عندهم⁽¹⁾:

(1) نفسه : ص 4.

(2) الفجر الصادق : ص 110.

(3) نفسه : ص 7.

(4) نفسه : ص 8.

(5) نفسه : ص 6.

الناس جند والحياة الوغي والشعراء الحاملون للواء
والشعر موسيقى إذا صدحت تماثل المرضى بها للشفاء
مهما تكن نهضة تبتي فكل بيت حجر في البناء

فالحياة معترك والناس فيها جنود، والشعراء هم الحاملون للواء، فكل بيت ينشدونه فيه شفاء للمريض، وكل بيت ينشدونه حجر في البناء. والشعراء مصلحون يصلحون المجتمع بهذا الشعر الذي يحرك النفوس ويهز الوجدان وينهض بالهمم ويعلو من القيم⁽²⁾:

فارم إلى الإصلاح في كل ما تقوله وارو النفوس الظماء
فالشعر عندهم للحياة، وللمجتمع، فمن الناحية الفكرية لابد له من المشاركة في إصلاح المجتمع ومن الناحية الفنية لابد أن يكون سليماً، قوياً، جميلاً، ممتعاً يهز النفس ويحركها ويشفي المريض⁽³⁾:

إذا قرضت الشعر لا تأته غثاً رقيق اللفظ فيه التواء

المبحث الرابع

الأساس الاجتماعي واتجاهاته

منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت الثقافة الجديدة تنتشر في البلدان العربية، وتحثك بالعالم الغربي، فنهضت شعوبها بعد سبات عميق وكانت نهضتها تركز على أربع قوى رئيسية هي المدارس، المطابع والصحف والجمعيات فالمدارس تقدم وسائل التهذيب العلمي، والمطابع والصحف تنشر بين طياتها ثمار الأفكار، والجمعيات، تعمل على نشر هذا الفكر بين طبقاتها، والجمهور هو الذي يرتاد هذه المؤسسات ولأجله ينشد الشعراء ويكتب الكتاب. لهذا فإن الأساس في النهضة الصحيحة هو الإحساس بالكرامة، والمجد والفخر وهذا الإحساس يستيقظ من نومه وينشط بالانتساب إلى ماضي عريض نفخر به، ونباهي، وأمجد نتغنى بها.

فالبشر لا يستطيعون أن يخلفوا شيئاً من لا شيء والأمم في بداية نهضتها وتكوينها لابد أن تلتمس في ماضيها أساساً تبني عليه نهضتها، وهذا الماضي يلتمس في أمجاد العروبة والإسلام،

(1) نفسه : ص 95.

(2) الفجر الصادق : ص 95.

(3) نفسه : ص 95.

فالإسلام آمن به السودانيون إيماناً صادقاً شديداً الحرارة، وكان من أهم مكوناتهم القومية وقد ترسخت قيم العروبة والإسلام في عصور الفنج، والتركية، والمهدية، كما ذكرنا. والإسلام منذ نشأته الأولى هو دين العزة والاستعلاء يبعث في النفس البشرية مواطن الغلبة والنصر وقد اقترن الإسلام بالعروبة حيث هب العرب هبتهم الكبرى فاندفعوا بهذا الإسلام يفتحون الدول المجاورة ويصرعون الإمبراطوريات العريقة، وأقاموا نهضة كبرى دينها الإسلام ولغتها العربية.

فالعروبة والإسلام متأصلان في السودان كما يعتز بذلك شاعر المؤتمر⁽¹⁾:

أمة أصلها للعرب دينها خير دين يحب

فالمدرسة الإحيائية نزعها أخلاقية تربوية، توظف الشعر لتصحيح مسار المجتمع، فالشاعر عندهم يجب عليه أن يشارك في العصر الحاضر، عصر النهضة الوطنية بالفكر والشعور، والنفس في قضايا قومه الوطنية والإنسانية، وفيما يعانونه من آلام وما يبنون من آمال، فالشعر عندهم لا ينفصل عن المجتمع وعن الحياة فهو نقد للحياة وللمجتمع كما عند عبد الله عبد الرحمن في قوله⁽²⁾:

فإن بني الضاد الكريم بحاجةٍ لشعرهمز النفس هز حسام
يحرك من أذهانهم وعقولهم وينهض بالأعشى وبالمتعامي

وقوله⁽³⁾:

وللقوم ألعان وللقوم عزة وللشعر رأي في السياسة تسامي

فالوظيفة العظمى للشعر هي أن يساعد في إنهاء البلاد لما يحدثه من تأثير في النفوس وإمتاع للوحدات وإقناع للعقول.

والشعب اليوم أصبح قوة لا يستهان بها ونشأت في المدن الحديثة منظمات المجتمع المدني الاجتماعية، كالجمعيات والسياسية الأحزاب والتعليمية كالمدارس والمعاهد والجامعات. وهذه المؤسسات باختلافها تهتم بالمناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية والعلمية.

(1) خضر محمد (1908-1970م)، والقصيد من قصائد المؤتمر التي كانت تنشد في ليالي مؤتمر الخريجين، انظر: رواد الفكر السوداني: محبوب عمر باشري، الطبعة الأولى، 1991م، ص 156.

(2) الفجر الصادق: ص 106.

(3) نفسه: ص 6-7.

ويدعى الشعراء للمشاركة في هذه المناسبات وكانت مشاركتهم واسعة وشعرهم كان قوياً وذا تأثير قوي على المجتمع يجد التجاوب والبهتاف كما عند عبد الله عبد الرحمن:
وأقذف بشعرك في النادي تهزبه شعور قومك إن الشعر يذكىه⁽¹⁾
وقوله:

والناس تسمع معجبين كأنما غناهم وشاد مجيد مطرب⁽²⁾
لهذا فإن المجتمع كان حريصاً على دعوتهم للمشاركة في مناسباته المختلفة لشدة تأثير شعرهم ولا تساع ثقافتهم العربية والإسلامية المضمنة في أشعارهم، فإن قصيدتهم بما تحويه من جمال فني، والتزام بالنمط القديم تشد المجتمع إلى شعر أجداده، وبما تحمله من قيم تشد المجتمع إلى قيم أجداده.
لهذا فإنه يمكننا أن نجمل أفكارهم الشعرية التي يرونها تمثل أساساً لنهضة المجتمع في الاتجاهات الآتية:

أ- اتجاه نحو التاريخ وأمجاده.

ب- اتجاه نحو المجتمع وقضاياها.

ج- الأهداف الكبرى للنهضة الوطنية.

وسأتناول دراسة هذه الاتجاهات وموضوعاتها في أشعارهم بالترتيب:

أ- التاريخ وأمجاده:

يأتي حديثهم عن التاريخ وأمجاده في موضوعين اثنين هما:

1- ذكر النوابع.

2- ذكر الأمصار الإسلامية وحضارتها.

ذكر النوابع:

يرمي هذا الاتجاه عند شعراء الإحياء إلى الالتفات إلى الماضي القديم، إلى عهد الفتوح والملك وتخليد عظماء الأمة يعرض تاريخهم ووقائعهم فلا بد من نهضة تعتز بالانتساب إلى آباء وأجداد يفخر بهم، وماض يتباهي به وأمجاد نتغنى بها فلنرجع إلى ماضينا ليكون قاعدة لنهضتنا. وهذا الالتفات إلى الماضي وتخليد عظمائه لا ينحصر في قطر واحد بل هو عام في الشعر العربي.

(1) ديوان البنّا: ص 6-7.

(2) نفسه: ص

ومن أمثلته في الشعر العربي الحديث عند جيل الإحياء "عمرية حافظ إبراهيم" عن أمجاد عمر بن الخطاب، و "بكرية" عبد الحليم المصري في أمجاد أبي بكر و "علوية" محمد عبد المطلب في أمجاد علي و "خالدية" في عمر أبي ريشة في أمجاد خالد بن الوليد فهي قصائد طويلة عرض بها هؤلاء الشعراء مناقب هؤلاء العظماء ومآثرهم. وفي السودان اتجه جيل الإحياء هذا الاتجاه في شعرهم مثل قصيدة "سيدنا عثمان بن عفان" لعبد الله البنا فهي قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت مقسمة إلى اثني عشر مقطعاً، وفي كل مقطع يتحدث فيه عن أمجاد عثمان وعن عراقته وشرفه قبل الإسلام وعظمته ومآثره بعد الإسلام مثل "عثمان في آله وعشيرته" "إسلامه وآثاره في الإسلام" "منزلته عند النبي" "أياديه البيضاء في الإسلام" "خلافته" "أسباب تفضيله على غيره في الخلافة" "الفتنة وأسبابها" وغير ذلك من المقاطع ومطلعها⁽¹⁾:

ما رمت صفراً من الدنيا وسلوانا إلا وأهدت بك الأيام أشجانا
ولا رأيت هذا الدهر مذكراً إلا رأيت به للظلم برهانا

فالمطلع مصرع وفيه براعة استهلال يتضح منها أنه يريد الحديث عن مظالم عثمان وعما نشأ في قتله من الأحزان والفتن⁽²⁾:

الدهر ذو راحة خرقاء تعبث في هذي الخلائق إسراراً وإعلانا
فلا يعز شريفاً في عشيرته وقد يحل دني الأصل مصانا
كم هد ركنا من التقوى فروعنا وشب ناراً من البلوى فأصلانا
وقوله⁽³⁾:

وكل ظلم وإن حلت رزيتُه فلن يوازن ظلماً نال عثماناً⁽⁴⁾
وعن عشيرته وشرفه يقول:

شرفت نفساً وآباء وسرت على حُكم الهداية ترتيلاً وإيماناً
واختارك الله من عدنا حين درى بان خير الورى أبناء عدنانا

وعن أوليائه في الإسلام وهجرته إلى الحبشة فراراً بدينه يقول⁽¹⁾:

(1) ديوان البنا : ص 109.

(2) نفسه : ص 109.

(3) ديوان البنا : ص 110.

(4) نفسه : ص 111.

وأنت أول من فروا بدينهم
وعن أياديه البيضاء في الإسلام يقول⁽²⁾:
وصارموا الكفر أوثانا وصلبانا

بلغت في الجود عند الله منزلة
وفي تبوك بذلت المال مُزدلفاً
ما نالها أحد إلا بها ازدانا
لله زهداً وتعظيماً وإذعانا
خرجت عن ألف دينار نفحت بها ذا
عُسرة رمض الأحشاء حرانا
فالقصيدة طويلة تتجاوز المائة بيت تحدث فيها الشاعر عن عثمان قبل الإسلام وبعده، وعمّا
قدمه للإسلام من أياد بيضاء، وتضحيات وعمّا لحق به من أذى وما نتج عن قتله من فتن⁽³⁾:
ماذا جنوا بعد أن أردوا خليفتهم
تفرقوا شيعاً في شأنه وجرى
وعفروا خده ظلماً وعصيانا
من ذلك الدم أنهاراً وغدراننا
والعباسي في قصيدته "المؤتمر" يحن إلى عهد الراشدين وإلى عمرو بن العاص وخالد بن
الوليد⁽⁴⁾:

رعي الله عهد الراشدين وتربته
أئمة خير ما استباحوا كرامةً
سمت بالعصاميين عمرو وخالد
لجارولا خانوا حقوق معاهد
ويأمر الشباب بإتباع هدى الكتاب، وإتباع السلف الذين لم يحفظ التاريخ ندأ لهم⁽⁵⁾:
واتبعوا هدى الكتاب
وسلفاً شادوا وسادوا
إن نهى وأمر
بالعجائب الكبر
قد جبر الله بهم
صدع الزمان فانجبر
لم يحفظ التاريخ ندأ
لهمو فيما سطر

فالرجوع إلى الماضي كان منهجاً عند جيل الإحياء يشدون به المجتمع إلى ماضي أجدادهم وما
يحمله من قيم وتضحيات وما قدموه للبشرية من حضارة حوت العلم، والحكمة، والعدل وما
قاموا به من إعمار للأرض كما هو عند محمد عثمان عبد الرحيم في قصيدته المشهورة⁽¹⁾:

(1) نفسه: ص 111.

(2) نفسه: ص 114.

(3) نفسه: ص 114.

(4) ديوان العباس: ص 44.

(5) ديوان العباسي: ص 48.

أيها الناس نحن من نفر
يذكر المجد كلما ذكروا
عمروا الأرض حيثما قطنوا
وهو يعتز حين يفترونوا
حكموا العدل في الورى زمناً
أترى هل يعود ذا الزمن
ردد الدهر حُسن سيرتهم
ما بها حطوة ولا درن

وكأنهم يقولون للمجتمع إن أردتم حضارة ونهضة ورفعة فالتزموا نهج أجدادكم.

ذكر الأمصار الإسلامية وحضارتها:

لا يقف شعراء الإحياء عند ذكر النوايا والأبطال فقط، ولكنهم يعودون إلى الأمصار الإسلامية إلى دمشق، وبغداد وأندلس وإلى حضارتها كما عند عبد الله عبد الرحمن⁽²⁾:

يوم كانت في الدنيا بغدادنا كعبة الآمال في دنيا ودين

وجنان العلم في أندلس مؤتيات أكلها في كل حين

وعند عبد الله البنا⁽³⁾:

وارمق بطرفك من بغداد وأثرها واندب بها كل ماضي العزم ميمون

سلمها تخبرك كم ضمت مقابرها من ذي حافظ وبذل غير ممنون

فالأمصار الإسلامية كدمشق، وبغداد وأشبيلية وغرناطة وطيبة تمثل عند شعراء الإحياء عهداً لا تنسى في تاريخ الإسلام وفي طليعتها بغداد فلا بد من إحياء مجدها ليكون هادياً للنهضة الحديثة وموجهاً لها.

ب- المجتمع وقضاياها:

الشعر عند مدرسة الإحياء ذو نزعة أخلاقية تربوية والقصيدة عندهم متعددة الأغراض شأن القصيدة القديمة التي كانت تدعو إلى القيم الفاضلة وتتغني بها كالكرم والشجاعة والمروءة ومعالي الأمور والجمال الفني.

وفي ذلك يقول الشاعر العربي الحكيم أبو تمام⁽⁴⁾:

(1) محمد عثمان عبد الرحيم، شاعر من جيل الرواد، وهو إحيائي في كثير من شعره، يلتزم النمط القديم وقصيدته مشهورة، يتغنى بها الفنان الكبير حسن خليفة العطرأوي، يعتز فيها بالمالي وأمجاده.

(2) الفجر الصادق: ص 3.

(3) ديوان البنا: ص 64.

(4) ديوان أبي تمام: شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده غزام، الطبعة الرابعة، دار المعارف، 1982م، 3، ص 183.

وَلَوْلَا خِلَالٌ سَمَّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةُ النَّدى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى المَكَارِمُ

فليس الشعر عندهم مقصوداً على اللذة الجمالية فقط وهي مطلوبة ولكن عليه أن يخدم قضايا الإنسان كما يقول عبد الله عبد الرحمن⁽¹⁾:

أثار الشعر في الأمم الخوالي نفوساً فأشربت للمعالم

وسر النهضة الكبرى قواف إذا دعيت تتساقط كالنبال

فالشعر يجب عليه أن يشارك في قضايا قومه الوطنية والإنسانية وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال لهذا فقد تناولوا في أشعارهم قضايا المجتمع المختلفة، كالتعليم والجهل، والفقر والمرأة والشباب وقضايا السياسة والفساد وغير ذلك من الموضوعات. وقد كانت أفكارهم مرتبطة بمناسبة القصيدة فهم يدعون للمشاركة في المناسبات الدينية والوطنية لما يحدثه شعرهم من تأثير قوى في المجتمع كصدع الزجاج كما عند عبد الله عبد الرحمن⁽²⁾:

واقذف بشعرك في النادي تهزبه شعور قومك إن الشعر يذكى

لهذا فقد كانت أفكارهم مرتبطة بهذه المناسبات فهم ينهزونها ليقذفوا بها في أشعارهم. وقضايا المجتمع التي وردت في أشعارهم كثيرة يمكن أن نجملها في الآتي:

1- الدعوة إلى العلم ومحاربة الجهل.

2- محاربة الفقر.

3- مناصرة المرأة.

4- الحملة على المفاصل الاجتماعية.

5- الدعوة إلى الوحدة.

6- الغايات الكبرى للنهضة.

وغير ذلك من قضايا المجتمع.

1- الدعوة إلى العلم ومحاربة الجهل:

من المعلوم أنه قبل النهضة الحديثة كان المجتمع في حالة من التأخر الاجتماعي والمعرفي وكان الجهل يسيطر عليه فلا بد من الاهتمام بالعلم والاقتداء بماضي الأمة الإسلامية التي نهضت بالعلم والأدب والدين كما عند عبد الله البنا في قوله⁽¹⁾:

(1) الفجر الصادق: ص 41.

(2) الفجر الصادق: ص 4.

وارمق بطرفك من بغداد فأثرها وأندب بها كل ماضي العزم ميمون
سلها تخبرك كم ضمت مقابرها من ذي حافظ وبذل غير ممنون
سلها عن المسجد المعمور جانبه بالعلم والخير والآداب والدين
فالعلم عند البنا ركن من أركان المجد وسبب من أسبابه فلا نهضة دون علم وعمل وجد⁽²⁾:
ألا فتي يُشهد الجمهور أن له عزماً بناصية الجوزاء يتصل
وأن للمجد أسباباً تشدُّ بها أركانهُ خيرهُن العلم والعمل
ويدعو إليه الشباب بفعل الأمر المباشر⁽³⁾:
وحصل العلم إن فات الفتي عوضاً ما خاب قط امرؤ قد أوتي الحكما
ويحذر من الجهل فهو دمار للبلاد⁽⁴⁾:
لا دُرْدُرُ الجهل كم بلد رمي في لجة البلوى فامسى يندُبُ
إن كان هذا الجهل داء قاتلاً وهُمُ الأساة فمن عليه يؤنبُ
ويحذر الشباب من الجهل فهو الذي يؤدي إلى الذل وإلى الصغار، وإلى الضياع⁽⁵⁾:
كذلك ذل الجهل يستعبد الفتي فيرجع وهو الصاغر المتخشع
ومن لم يصن بالعلم والدين عرضه فما الجهل للأعراض إلا مُضِيع
والحياة عند عبد الله عبد الرحمن معارك وظلام والعلم هو النور الهادي في ظلماتها فلا نهضة
دونه⁽⁶⁾:
أخواننا إن الحياة معارك وما إن ينال الفخر فيهن خامل
وما العلم إلا النور في ظلماتها ينير ظلام الشك إن ضل جاهل
فالعلم يطلق العقول من الجهل، ويمنعها من أن تذلل وتستعبد والجهل سبب الركود
والتخلف⁽¹⁾:

(1) ديوان البنا: ص 64.

(2) الفجر الصادق: ص 85.

(3) نفسه: ص 105.

(4) نفسه: ص 92.

(5) نفسه: ص 91.

(6) الفجر الصادق: ص 40.

وإني رأيتُ الجهلَ ألامَ صاحبٍ وأكثرما يولى الشعوب ركودا
وما العلم إلا مطلق لعقولكم ومانعها من أن تكون عبيدا
ويحن إلى بغداد حين كان جانب العلم منيعاً، وجانب الجهل صريعاً حين كانت بغداد تعج
بالعلماء⁽²⁾:

واذ بغداد من أدب وعلم تموجُ بكلِّ وضاح سريٍّ
زمان العلم جانبُه منيع وأنصارُ الجهالة في هوي.
والعباسي يدعو المجتمع لتعليم النشء فالعلم ينبوع السعادة وفك لأغلال الجهل والفقر⁽³⁾:
العلم يا قوم ينبوع السعادة كم هدى وكم فكٌ أغلالاً وأطواقاً
فعلّموا النشء علماً يستبين به سُبُل الحياة وقيل العلم أخلاقاً
فالعلم عند شعراء الإحياء سبب المجد وتحرير للنفس من الجهل والاستعباد والعلم نور الحياة
من ظلماتها فلا نهضة دون علم، لهذا فقد كانت الدعوة إلى العلم تترد في أشعارهم كثيراً،
وكانت الدعوة لتعليم النشء وإنشاء المؤسسات التعليمية كالمدارس، والجامعات، والمراكز.
ونهض هؤلاء الشعراء يحضون المجتمع إلى الإقبال على موارد المعرفة لأن ماضي هذه الأمة قام
على العلم ولأن الغرب أقام نهضته الحديثة على العلم والبحث العلمي⁽⁴⁾:

أري الغرب يعنى باللغات رجاله وتمشى إلى أعلامها تتعلم
وفي كل يوم يخرجون مؤلفاً نفيساً وبحثاً ينشر الفضل عنهم

2- الدعوة إلى محاربة الفقر:

إن مسألة الغني والفقر مسألة قديمة، قلما نجد أمة خلت آدابها الاجتماعية من ذكرها
والاهتمام بها والشعراء العرب في جاهليتهم وإسلامهم تمدحوا بالعطاء والعطف على الفقراء
ومدحوا المنفقين وخلدوا الكرماء بأشعارهم كما عند زهير في مدح هرم بن سنان⁽⁵⁾:
أخي ثقة لا تتلفُ الخمرُ ماله ولكِنَّهُ قد يهلكُ المالُ نائِلُهُ
تراه إذا ما جئته مَهْلَلاً كأنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أنت سائِلُهُ

(1) نفسه : ص 18.

(2) الفجر الصادق : ص 2.

(3) ديوان العباسي: ص 69.

(4) الفجر الصادق: ص 6.

(5) مختار الشعر الجاهلي : شرحه وحققه: الأستاذ مصطفى السقا، المكتبة الشعبية، 1969م، ج 1، ص 244.

وعند حاتم الطائي⁽¹⁾:

أَمَاوِيُّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٍ وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
أَمَاوِيُّ إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلٍ إِذَا جَاءَ يَوْمًا حَلٌّ فِي مَالِنَا نَزْرُ

فالشعراء العرب القدماء أفردوا للإنفاق في شعرهم باباً واسعاً وأبدعوا في مدح المثقفين. والقرآن الكريم دعي في كثير من آياته للإنفاق ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة 3) وجعله الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الشهادة والصلاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة 43). ومدح الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة 34). وغير ذلك كثير من الآيات التي تحض على الإنفاق وتحذر من الاكتناز.

وانطلاقاً من هذه القيم التي تحض على الإنفاق في الأدب العربي وفي القرآن الكريم اتجه شعراء الإحياء لمحاربة الفقر فيها هو عبد الله عبد الرحمن في قصيدته ملجأ القرشي "يدعو لمحاربة الفقر والعطف على اليتامى والمساكين"⁽²⁾:

ولم أر مثل الفقريدهم أمة فيترك عقد المكرمات تثارا
بدار لهم أن ينقض الفقر ظهريهم لقد فاز من يأتي الحياة بدارا
وعطفاً على المسكين قبل هلاكه وكونوا حيي يأوي له وجدارا
رعي الله شعباً أرقته ضعافه فقام إلى إسعافهم يتباري

ويقول في قصيدة أخرى يحض على الزكاة⁽³⁾:

وإن الزكاة تنمي الثراء وفي البخل أفعى لها جارية
وهذي اليتامى لهم في غدٍ يدُ في مرافقنا بانية
فمن بات يبخسهم حقهم فقد جاء في الأرض بالخاطية

وها هو البنا يحذر من الجهل والفقر فهما مكنن الشر، وهما سبب الذل للمرء، وسبب فساد المرء والسبب المبغض⁽⁴⁾:

(1) ديوان حاتم : ص 23.

(2) الفجر الصادق: ص 30.

(3) الفجر الصادق : ص 33.

(4) ديوان البنا : ص 87.

ولن يسود امرؤ أحشاؤه بردت فالحبزيقنعه والمساء يرويه
وهـل تعزُّ بلاد بين فتيها بغض غدا مضض الأيام يذكيه
قطرأحاطت بأهله العواصف من جهلٍ وفقـريكاد الشـرُيفيه
فالمرء لا يسود إن كان فقيراً، ولا تعز بلاد إن كان بين فتيانها بغض وإن كان الجهل والفقر
يحيطان بها، ولا خير في المال إن لم يطهر بالإنفاق ولا يسود امرؤ ميسر إلا إذا خفض جناحه
ورفد الراجي، والعافي:

ماذا عسى تبتغي بالمال تجمععه إن أنت في الحمد لم تبذل غواليه⁽¹⁾
لا خير في المـال لم تطهر موارده لا خير في المال لم تُحمد مجاريه
ولن يسود امرؤ إلا إذا خفض الجناح يرفد راجيه وعافيه
والعباس يرى أن الفقر، والجهل سبب الحزن وسبب البلاء⁽²⁾:
فلودرى القوم بالسودان أين هم من الشعوب قضوا حزناً وإشفاقاً
جهل وفقر وأحزابٌ تعبت به هدت قوى الصبر إرعاداً وإبراقاً
فالجهل والفقر والتحزب، سبب تخلف السودان عن الشعوب.

3- مناصرة المرأة:

من المعلوم أن المرأة في الأدب العربي القديم كان حظها من الشعر باب الغزل كما هو موجود في
مقدمات القصائد، فقلما نجد نرى لها أثراً يذكر أكثر من التغزل بها وبجمالها، فلما جاء
الإسلام أنصفها وجعلها مكلفة في الشرع قبل الرجل، وخاطبها القرآن الكريم كما خاطب الرجل
في كثير من الآيات ووجدنا في القرآن الكريم أنماطاً مختلفة من النساء وجدنا المرأة الحاكمة:
﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: 23) والمرأة المؤمنة مع الحاكم الكافر كامرأة فرعون التي
تخاطب ربها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحريم 11) والمرأة التي تخالف زوجها في
الدعوة ﴿امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾
(التحريم 10) وامرأة المدينة: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (يوسف 30) والمرأة المؤمنة المهاجرة
بدينها: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ (الممتحنة 10) فهي مكلفة وهي مثابة كالرجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (آل عمران 195) وغير ذلك
من أنماط المرأة الجديدة في القرآن الكريم.

(1) نفسه: ص 86.

(2) ديوان العباسي: ص 69

ومع هذا فإنها لم تجد حظاً كبيراً في الأدب العربي بعد الإسلام، فظل حالها في الأدب في العصور الإسلامية كحالها في العصر الجاهلي، يتغنى بها الشعراء بجمالها ودلالها في باب الغزل. فلما جاء العصر الحديث شغلت قضيتها الرأي العام ورجال الفكر والأدب وألفت في ذلك الكتب ودبجت مقالات في الصحف، وأقيمت ندوات وأنشدت قصائد بين مؤيد لها ومناصر يدعو لتعليمها وخروجها للمجتمع والمشاركة فيه وبين معارض يرى مكانها البيت وعدم الخروج للحياة. لهذا فقد تأثر الشعراء في العالم العربي، بما يدور من جدال في المجتمع فكان موقفهم بين مناصر ومعارض ومعتدل.

ومن شعراء جيل الإحياء في مصر الذين ناصروا المرأة في قضاياها حافظ إبراهيم، فقد كان يرى أن تأخر الشرق العربي الإسلامي ناجم عن تأخر المرأة كما في قصيدته⁽¹⁾:

كَمْ ذَا يُكَابِدُ عَاشِقٌ وَيُلَاقِي فِي حُبِّ مِصْرَ كَثِيرَةَ الْعُشَاقِ
مَنْ لِي بِتَرْيِيَةِ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا فِي الشَّرْقِ عِلَّةٌ ذَلِكَ الْإِخْفَاقِ

وفيهما يقول:

الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعَدَّتْهَا أَعَدَّتْ شَعْباً طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

أما شعراء جيل الإحياء في السودان فقد كانوا من المناصرين لقضية المرأة، ولتعليمها، فالشيخ عبد الله البنا يرى في جهلها امتحان للبلاد وخراب لها⁽²⁾:

فَعَلَيْكَ بِالْأُمِّ الرَّفِيقَةِ إِنَّهَا هِيَ مَرْشِدٌ وَمَعْلَمٌ وَمِهْدَبٌ
وَأَهْجَرُ سَبِيلِ الْجَاهِلَاتِ فَإِنَّهَا بِالْجَهْلِ تَمْتَهِنُ الْبِلَادُ وَتَخْرُبُ

فالمرأة المتعلمة مرشد ومهدب وجهلها يتعدي خراب بيتها إلى خراب المجتمع⁽³⁾:

هَنْ اللُّوَائِي جَارُهُنَّ مَرْوَعٌ مِمَّا يَقْلُنُ وَقَوْلُهُنَّ مَكْدَبٌ
هَنْ اللُّوَائِي زَوْجُهُنَّ مِهْدَبٌ بِالْفَقْرِ يُنْفِقُ مَالَهُ أَوْ يَنْهَبُ
هَنْ اللُّوَائِي دِينُهُنَّ مَضْبَعٌ هَنْ اللُّوَائِي طِفْلُهُنَّ مَتْرَبٌ

فالمرأة المتعلمة إصلاح للمجتمع وللجار وللزوج وللطفل:

وَيَرَى بَيْنَ الطِّفْلِ فِي أَطْوَارِهِ مَا يَرْتَقِي بِخِلَالِهِ وَمِهْدَبُ

(1) ديوان حافظ: ضبطه وصححه وشرحه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، دار الجيل، بيروت - لبنان، 1408هـ- 1988م، ج 2، ص 279.

(2) ديوان البنا: ص 78.

(3) ديوان البنا: ص 79.

يغذونه بالعلم قبل فطامه والعلم أقرب للعلاء وأجلب

يرفعن من أزواجهن مكانهم والزوج يأسره المقال الطيب

والمرأة في الغرب دفعت أهله إلى مرافق العلاء فملكوا الأرض وعمروها⁽¹⁾:

تلك التي زرعت لأهل الغرب ما دان القصي به وكان المغرب

تلك التي رفعت بني التاميز* في أفق العلاء فأوغلوا واستوعبوا

ملكوا البسيطة شيدوا عمرانها نشروا السلام فقربوا وتقربوا

أما عبد الله عبد الرحمن فإنه يدعو إلى ثورة على مكانة المرأة في القصيدة القديمة، وعلى الوقوف على الأطلال والبكاء على: "عبلة بالجواء" كما في قوله:

فما الوقوف بالطلول وما بكاك فيها عبلة بالجواء⁽²⁾؟

فلا تشبب بالثرثرا ولا تندب زماناً كان جمّ الصفاء

ما أنت والأموات تبكيهمو إن الدموع من سلاح النساء

فإن كان البكاء على المرأة، فإن المرأة في الشرق قد كفكت دمعها، وذهبت إلى العمل في همة ونشاط متسلحة بالعلوم⁽³⁾:

بل النساء كفكت دمعها ورمن للأعمال غير بطاء

وقد أخذن للعلم أهلاً من العلوم والفنون الوضاء

هذي فتاة الشرق أقصاه أدناه جهداً وفتاة سـواء

فأرم إلى الإصلاح في كل ما تقوله واروا النفوس الظماء

4- الحملة على المفاسد الاجتماعية:

كان المجتمع يعاني من المفاسد والعلل الاجتماعية التي جرتها إليه الحضارة الحديثة، بسبب اجتماع الناس في المدن باختلاف أجناسهم وطبائعهم ومهنهم، فمن منشغل بالسياسة ومن منشغل بالتعليم ومن مشغول بوظيفة من الوظائف المختلفة ومن منشغل بالتجارة وغير ذلك من قضايا المجتمع الجديد، فوجد ذلك نوعاً من الصراع والتنافس ونتج عن ذلك كثير من

(1) نفسه : ص 95.

* التاميز شهر في بلاد الإنجليز وعليه عاصمتهم وهو يعني أفنس Evans أول مديرة لمدرسة المعلمات في أم درمان عام 1922 وكانت إنجليزية.

(2) الفجر لصادق: ص 95.

(3) نفسه : ص 95.

العلل والمفاسد كالنفاق والرياء والحسد والبغض مما جعل العباسي يرى في هذه الحضارة الجديدة شقاء للإنسان في قصيدته "من معاقيدي"^{*} التي يقول فيها⁽¹⁾:

جزى الله هاتيك الحضارة شرما جزى من تصارييف الزمان المعاند
فلم تك يوماً والحوادثُ جمعةً حمى الضعيف أو صلاحاً لفساد
شقيناً بها حتى لبتنا أذلةً وأغـلالها منا مكان القلائد

ويرى في هذه الحضارة جنيات على الإنسان ومن أراد أن يتعظ ويعتبر فليتنظر إلى الغرب وما حدث له من موت ودمار بسبب الحرب الحديثة⁽²⁾:

أجل نظراً بالغرب تلقى شعوبه تفتانوا بأسباب الهوى والتحاسد
أداروا رحي حرب زبون سقتهم وقد ظمئوا نقيع سُم الأسود
فمن قاذفات بالهـلاك مرشّة ومن هابطات بالردى كالصواعد
جزى الله هاتيك الحضارة شرما جزى من تصارييف الزمان المعاند

فالهوى والتحاسد والصراع جرّ الغرب إلى الدمار والخراب فلم تك هذه الحضارة الجديدة يوماً:

حمى لضعيف أو صلاحاً لفساد

فلم تحم هذه الحضارة ضعيفاً لما يراه في مجتمعه من تفرق وإتباع هوى وخداع⁽³⁾:

ويحزنني من معشري أن تفرقت بهم سبيلٌ أرضت هوى كل قائد
وقد جهلوا معنى الحياة وأنهم غدوا غرضاً يُرمى وصيداً لصائد
فمن مكثر دعوى الزهادة خادعاً وكم من دليل أنه غير زاهد
ومن واجد حظاً وقد عدم النّهي ومن ذى نهى ولكن غير واجد
ومن والى للمجد من غير بابه ومن قائم يسعى بهم قاعد

فالمجتمع قد تفرق في سبل وطرق مختلفة وهذه الطرق المختلفة أرضت قواده فكل قائد منهم وجد في هذه السبل هواه:

ويحزنني من معشري أن تفرقت بهم سبيلٌ أرضت كل قائد

* معاقيدي من عاقدته وعاهدته فكانه يتساءل عمن يعاهده للوصول إلى العليا.

(1) ديوان العباسي: ص 44.

(2) نفسه: ص 44.

(3) ديوان العباسي: ص 45.

ويرى عبد الله عبد الرحمن أن الغريب أصبح سيداً للبلاد، وأن البلاد قد ضاقت مواردها على الناهيين من أبنائها فأصبح الغريب هو المتمتع بخيراتها⁽¹⁾:

ومن عنت الدهر أن البلاد تضيق مواردها الصافية
على الناهيين من أبنائها ويصلون نيرانها الحامية
وتبذل للغرباء ابتساماً وتوسعهم عيشة راضية

فالبلاد أصبحت تبتسم للغريب وتوسعه العيشة الراضية، أما ابنها فقد ضاقت به وأصلته ناراً حامية، فأصبح الشباب في فقر، وأفسد الفقر أخلاقه وضاقت عليه بلاده⁽²⁾:

لقد أفسد الفقر شبابنا فهانوا وهم بذرة غالية
وضاقت بما رحبت أرضهم عليهم ولاقوا بها الداهية

ولما نشب خلاف بين الخريجين في النادي عام 1933م رأى في هذا الخلاف انتهاكاً للأعراض، وتضييعاً للحق ورأى في هذا الخلاف إهانة وإذلالاً لوجوه لم تكن من قبل مذلة ولا مهانة⁽³⁾:

إن حرباً أثرتموها عواناً تقتل الروح في بني السودان
و أبحتم من الإخاء حراماً ووردتم موارد النقصان
وأذلتهم من الوجوه وجوهاً لم تكن قبل عرضة للهوان
واستهنتهم بكل حق صراح وأمنتهم عوالي المراءن

مما جعل الشاعر يتساءل عن النقاء وعن الطهارة فهذا الصراع وهذا الخلاف أدى إلى فساد في الأخلاق وفي الذمم وأدى إلى إتباع الهوى⁽⁴⁾:

أين منا البعيد نفساً من الأغراض أين النقي من أدران
كل حـزب بما لديه أراه فرحاً من هـواه في أشطان
إن قوماً تقمصوا كل لون ورخوا للرياء فضل العنان
لجديرون أن نرى الفرد منهم حيواناً في صورة الإنسان

فالخلاف أدى إلى النفاق والرياء وتباع الهوى فلم يعد هناك نقاء ولا طهر وكأن الفرد أصبح حيواناً في صور إنسان.

(1) الفجر الصادق: ص 31.

(2) نفسه: ص 31

(3) ديوان العباسي: ص 46.

(4) نفسه: ص 47.

أما عبد الله البنا فإن موقفه من الفساد واختلال القيم تكفي فيه النونية "تحية العام الهجري" التي أنشدها في العام الهجري (1339هـ) ومطلعها⁽¹⁾:

يا ذا الهلال عن الدنيا أو الدين حدّث فإن حديثاً منك يشفيني

في القصيدة كثير من أمراض المجتمع التي أصابته بسبب الحياة الجديدة من نفاق ورياء وفساد في الذمم مما جعلته يرجع إلى الماضي ليجد السلوى والعزاء⁽²⁾:

حدّث عن الأعصر الأولى لتضحكني فإن أخبار هذا العصر تبكي

فإن مصائب هذا الدهر كثيرة، وما يبكي أكثر مما يضحك⁽³⁾:

تفرّق وتوانٍ وإتاع هوى إن الهوى لهوانٌ غير مأمون

التفرق والتواني وإتباع الهوى أسباب هوان المجتمع وضعفه ولهذا انطلق يعدد في المفاصل وما يحزنه ويبكيه⁽⁴⁾:

بليّتم وبلايا الدهر إن نزلت	فالصبر يكشف منها كل مدفون
بأمة جهلت طرق العلاء فلم	تسبق لغاية معقول ومحزون
فللمدارس هجرانٌ وسخريةٌ	وفي المتاجر ضعفٌ غير موزون
والناس في القطر أشياء ملفقة	فإن تكشف فعن ضعفٍ وتوهين
فمن غنيّ فقير من مروءته	ومن قويّ بضعف النفس مرهون
ومن طليق حبيس الرأي منقبض	فاعجب لمنطلق في الأرض مسجون
وأخره وطوع البطن يبرز في	زى الملوك وأخلاق البرازين
وهيكل تبعته الناس عن سرف	كالسامري بلا عقل ولا دين
يحتال بالدين للدنيا فيجمعها	سحتاً وتورده في قاع سجين

فلو أردنا أن نعدد علل المجتمع وما أصابه من فساد كما يرى عبد الله البنا لوجدناها: "التفرق" "إتباع الهوى" "الجهل" "الضعف" "الوهن" "غنى فقير المروءة" "قوى ضعيف النفس" "طليق حبيس الرأي" "مطيع البطن" يبرز في زى الملوك وأخلاق البرازين هيكل كالسامري، الذي تبعه الناس بلا عقل ولا دين احتيال بالدين للدنيا وغير ذلك من علل المجتمع وفساده.

(1) نفسه : ص 64.

(2) نفسه : ص 64.

(3) نديوان البنا : ص 65.

(4) نفسه : ص 64-65.

وللمفاسد إسراع وتلبية:

فقد جعل هذا الجيل من الشعر وسيلة لإصلاح المجتمع، فالشعر للحياة والشاعر مصلح كما عند عبد الله البنا في هذه القصيدة فبعد أن انتقد المجتمع نقداً شديداً جعل بعضهم يشكونه يتمهونه بهجاءهم عاد وتلطف في قوله:

أحيتي هي نفسُ هاج هائجها من الشجون فلم تبخل بمكنون

وحقاً فقد كان عبد الله البنا هائجاً في قصيدته فأخرج كل ما تكنه نفسه فلم تبخل بمكنون".
فالشاعر مصلح عند جيل الإحياء والشعر إصلاح عندهم كما عند عبد الله عبد الرحمن أيضاً⁽¹⁾:

فارم إلى الإصلاح في كل ما تقوله وارو النفوس الظماء

5- الدعوة إلى الوحدة:

قلنا إن النهضة الحديثة للمجتمع تبعها كثير من أمراض المجتمع التي تحدثنا عنها، وأهمها الخلافات، والتفرق، وإتباع الهوى، لهذا فقد ظلت قضية الدعوة إلى الوحدة ونبذ التفرق همّاً من همومهم الإصلاحية في أشعارهم، فكثيراً ما دعوا في أشعارهم الوحدة ونبذ التفرق والاختلاف فلا نهضة والأهواء مختلفة ولا نهضة والآراء مختلفة.
فالعباس يحذر المجتمع من الداعين إلى التفرق⁽²⁾:

يمسى ويصبح كالغربان نعاقا

فحاذروا كل مشاء بتفرقة

أخافه أن يعيد الناس مراقا

ومارقاً شقيت هذى البلاد به

ويخاطب المجتمع ناصحاً بضم الصفوف⁽³⁾:

مداجياً أنعامي الحق مذاقا

بني العشيرة لي نصح ولست به

لكي تنيروا لهذا الشعب أفاقا

ضموا الصفوف وضموا العاملين

والدعوة إلى ضم الصفوف نصيحة يوجهها عبد الله عبد الرحمن إلى المؤتمر⁽⁴⁾:

(1) الفجر الصادق: ص 95.

(2) ديوان العباسي: ص 70.

(3) نفسه :: ص 71.

(4) مؤتمر الخريجين : تأسس في 12 فبراير 1938 م، وتم انعقاد الاجتماع العام الذي دعا إليه نادي الخريجين بأم درمان ، وهو مؤتمر تأسس للمشاركة في قضايا الوطن، وكانت العضوية فيه تشتمل على الخريجين من المعاهد والمدارس التي فوق المدارس الأولية، وقد انتخب إسماعيل الأزهرى أول رئيس له. انظر: تاريخ الحركة

ضموا الصفوف وشيدوا اليوم مؤتمراً وأمشوا إلى البر والتقوى بما انتمروا⁽¹⁾
والوحدة هي أساس التقدم عند عبد الله عبد الرحمن فلا تقدم مع التفرق⁽²⁾؛
من أين يرجى للبلاد تقدم والدين لم ترفع له أعلام
والشعب ليس موجهاً والرأي ليس موحداً والحرفيه يضام
والتفرق عند عبد الله البنا أساس الضعف والوهن⁽³⁾؛
والناس في القطر أشياء ملفقة فإن تكشف فعن ضعف وتوهين
تفرق وتوان وإتباع هوى إن الهوى لهوان غير مأمون
والناس عنده في قطر لكنهم في غفلة عنها بسبب التفرق⁽⁴⁾؛
قوم تشتت بالتفرق شملهم وحياتهم إن التفرق داء
في دارهم لكنهم في غفلة عنها وفرط تخاذل غرباء
كل يرى أن الحياة لأجله خلقت وتسلب لُبّه السراء
فالشعراء الإحيائيون كانوا مهومين بقضية التفرق، والتشتت فهو أساس الضعف والوهن
وكانوا يدعون للوحدة فهي أساس النهضة والرفعة فمن أين يأتي التقدم والرأي ليس موحداً
ومن أين يأتي للبلاد تقدم والناس في القطر أشياء ملفقة.
لهذا جاءت هذه الأوامر المباشرة في شعرهم: "ضموا الصفوف" لكي تنيروا لهذا الشعب أفاقاً
"ضموا الصفوف وشيدوا مؤتمراً، وامشوا إلى البر".

6- الغايات الكبرى:

إن كانت الأسس التي ينطلق منها المجتمع لبناء نهضة حديثة هما اللغة والمجمع، فإن هذه
النهضة لها غايات كبرى تتجه نحوها، هي: "العلا" و "المجد". لهذا فإننا نجد هاتين الكلمتين في

الوطنية في السودان (1900-1969م)، تاليف البروفسيور: محمد عمر بشير، الدار السودانية للكتب، ص
179، وانظر كذلك: كفاح جيلي، الأستاذ أحمد خير المحامي، الدار السودانية للكتب (1422هـ-2002م)،
الفصل الرابع: مؤتمر الخريجين العام ص 55-81.

(1) الفجر الصادق: ص 36.

(2) نفسه: ص 14.

(3) ديوان البنا: ص 65.

(4) نفسه: ص 73.

شعر جيل الأحياء تشيران على الغاية الكبرى التي يجب على المجتمع أن يتجه نحوها لبعث الماضي القديم، والمجد القديم. فإن كلمة "نهض" تعني النهوض من قيام، وكلمة (علا) تعني الرفعة والشرف، وكلمة "مجد" تعني النبل والشرف والمكارم الماثورة عن الآباء، فالرجوع إلى ماضي الأمة المجيد، إلى تاريخها، وإلى شخصياتها، يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويقوي من شخصيتها، ويزيد في اعتدادها بذاتها لهذا فإننا نجد هاتين الكلمتين ترادان كثيراً في شعر جيل الأحياء فنجد عبدالله البنا يقول⁽¹⁾:

ترضون بالدون والعلياء تقسم لا تدين يوماً لراضي النفس بالدون
والمجد ينأى فلا تدنو مراكمه من الجبان ولا ينقاد بالهون
ويقول أيضاً:

إن الخلائق إن طابت منابتها كانت لكسب المعالي كالبراهين
فالمجد و"العلياء" لا تدين لمن يرضى بالدون، ومراكب المجد لا تنقاد لجبان ولا لضعيف.
ويقول عبدالله الرحمن⁽²⁾:

ونبني على الأقلام أساس نهضة من الولاء وتفري بالحديد حديدا
فإن أخوا الآداب في كل أمة إلى المجد دفاع بها لتسودا
فالنهضة أساسها الأخلاق، والغاية الكبرى المجد ومعالي الأمور.
ويقول العباسي⁽³⁾:

إذا قمت أبني في حماهم معاقلاً من المجد راحوا يسرعون لها هدماً
فلله كم لي فيهم من صنائع جسام وكم حملت نفسي بهم هما
أناضل عن أحسابهم في مشاهد يكلفني فيها طلاب العلا غرماً
فهو يريد أن يبني لقومه "معاقلاً من المجد" ويطلب لهم "العلا".
ويقول الأستاذ أحمد المرضي⁽⁴⁾:

وقد علم السودان أن مكانه رفيع ومن فوق العلا كان راسيا

(1) ديوان البنا: ص 65.

(2) الفجر الصادق: ص 18.

(3) ديوان العباسي: ص 120.

(4) نفثات اليراع: ص 152.

ويرى صالح أفندي عبدالقادر أن قومه قد أهملوا ما بني آباؤهم ، فيدعوهم إلى طلب العلا⁽¹⁾.
من لقومي إنهم قد أهملوا ما بني آباؤهم فأنهدما
فأقيموا يغفر الله لكم وأطلبوا العليا وجاروا الأمم
فالشعر عند جيل الإحياء موظف لخدمة المجتمع والقيم الفاضلة، يصلح من اعوجاجه،
ويقوم مساره بما يملكه شعرهم من أدوات التأثير الجمالي، كالإيقاع والوزن، وجرس الكلمات،
والصور الفنية مثل : التشبيه، والاستعارة ، والكناية ، فهو شعر قوي، حافل بكثير من آيات
الفن ومعجزاته، قائم على تقاليد القصيدة القديمة ، لهذا فهو قريب من نفسية المجتمع
العربي، يستطيع أن يتمثله بيسر، قريب من فكره وعاداته، وعقيدته، ومزاجه، وشعوره، لهذا
فقد وظفوا هذا الشعر في إحداث المجد، والعلا، والقيم الفاضلة كالصدق والعمل والبذل،
ومناصرة الضعيف، والبعد عن القيم الهابطة التي تُفقد بالمجتمع، كالنفاق ، والرياء ،
والبغض، والحسد، والتفرق ، والجهل.

فالشاعر عند جيل الأحياء رائد نهضته يدفع بالأمة إلى العلا، والمجد، ومعالي الأمور، ويربط
حاضرها بماضيها ، فيجعل من ماضي الأمة أساساً لنهضتها في لغتها، وفي قيمها وأمجادها
ومعاليها.

الخاتمة:

لا يزال شعر جيل الإحياء يشكل مصدراً خصباً للدراسات الأدبية والنقدية، منذ مطالع النهضة
وحتى الآن، والملاحظ أن كثيراً من الدراسات الحديثة اتجهت نحو هذا الشعر دراسة وتحليلاً
وتأملاً بمناهج مختلفة، ورؤى مختلفة. لهذا فقد جاءت هذه الدراسة، بحثاً في أشعارهم
واستخلاصاً لأفكارهم الوطنية في السودان.

وقد خلصت الدراسة إلى نتائج منها:

- النهضة عندهم لها أساسان لغوي، واجتماعي.
- الأساس اللغوي ويتمثل عندهم في الآتي:
- اللغة والإسلام هما أساس الوحدة وأساس النهضة .

(1) نفسه : ص 156. وانظر: ترجمته في نفثات اليراع ص 153.

- النهضة الشعرية عندهم تتحقق بالعودة إلى القصيدة القديمة والتزام تقاليدها "الفنية" لهذا فقد التزموا تقاليدها ، بناءً وعروضاً وأغراضاً، ولغةً.

- الشعر عندهم ذو نزعة أخلاقية تربوية يدعو إلى الإصلاح الأساسي الاجتماعي، وتمثل في اتجاهين:

- اتجاه نحو الماضي: فلا بد للشعر من التغني بأمجاد الأمة وتاريخها، لهذا فقد جاء شعرهم حافلاً بالعودة إلى ماضي الأمة يحيى أمجادها، ويخلد مآثرها، ويذكر نوابغها الذين خلد التاريخ أمجادهم، وأمصارها التي كانت مكان حضارة ورقى فكري لأزمان عديدة.

- اتجاه نحو المجتمع: فلا بد للشعر من النهوض بالمجتمع يحضه على التعليم ونيل الجهل.

- ويحضه على التوحد، ونبذ الفرقة والشتات.

- ويدعو على العطف على الفقير والضعيف.

- ويدعو إلى مناصرة المرأة في قضاياها المختلفة فلا نهضة للمجتمع والمرأة فيه جاهلة.

- والغاية من ذلك كله الرقعة، والمجد، والعلو.

فهو شعر حياتي يحيى القصيدة القديمة، وهو شعر إحيائي يحيى ماضي الأمة وأمجادها، وهو شعر إصلاحي يدعو إلى إصلاح المجتمع ونهضته.

المصادر والمراجع :

- الأدب العربي الحديث: د محمد صالح الشنطي، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، 1413هـ- 1992م، الدار السودانية للكتاب.
- الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان: محمد فوزي مصطفى عبدالرحمن، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى 1972م.
- الاتجاهات الشعرية في السودان: د. محمد النويهي ، معهد الدراسات العربية، 1957م.
- الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث: أنيس المقدسي، دار العلم ، الطبعة السابعة، 1982م.
- الثابت والمتحول : علي أحمد سعيد : (أوونيس) دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة، 1406هـ - 1986م.
- الحياة الأدبية في مصر: العصر المملوكي والثاني، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية.
- دراسات في الأدب السوداني: د. جمال الدين الرمادي - الدار القومية للطباعة ، القاهرة.
- ديوان أبي تمام : شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام، الطبعة الرابعة، دار المعارف، 1982م.
- ديوان البنا : عبدالله محمد عمر البنا قدم له علي المك.
- ديوان حاتم : شرحه وقدم له : أحمد رشاد: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ، 1986م.

- ديوان حافظ : ضبطه وصححه وشرحه أحمد أمين، أحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، دار الجيل، بيروت، 1408هـ-1998م.
- ديوان العباسي: محمد سعيد العباسي: الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولى، 2010م.
- رواد الفكر السوداني: محبوب عمر باشري، الطبعة الأولى، 1991م.
- الشعر الحديث في السودان : د. محمد إبراهيم الشوش، جامعة الخرطوم، الطبعة الثانية، 1971م.
- شعراء السودان ، سعد ميخائيل، مكتبة الشريف، 2009م.
- الشعر السوداني في المعارك السياسية : محمد محمد علي، المكتبة الأزهرية.
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت- الطبعة الأولى ، 1970م.
- الفجر الصادق: عبدالله عبدالرحمن.
- في الأدب الحديث: عمر الدسوقي ، دار الفكر ، الطبعة الثامنة، 1973م.
- مختار الشعر الجاهلي : شرحه وحققه الأستاذ مصطفى السقا، المكتبة الشعبية، 1969م.
- نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع، محمد عبدالرحيم ، الجزء الأول، شركة الطبع والنشر الخرطوم، بدون تاريخ.

من مداخل الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(دراسة وصفية تحليلية)

د. حمد محمد عثمان*

الحمد لله الذي أنزل القرآن كتاباً عربياً غير ذي عوج هدى ورحمة للمؤمنين ونوراً وضياءً للسالكين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، المصدق بالقرآن الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق بكثرة الرد، كتاب منسجم اللفظ والمعنى، فما استطاع العرب أن يأتوا بمثله ولو بأية واحدة، عجزوا وحارت عقولهم، وهم أهل الفصاحة والبيان، بل أقروا بحلّالوته وطلاوته وبعدم القدرة على معارضته.

مقدمة

لقد استوقفت معرفة الإعجاز كثيراً من العلماء رداً من الزمن وما زالت تشغل أفكارهم لأنها متعلقة بكتاب الله.

ولمعرفة الإعجاز والوقوف عنده لابد من الإمام بمعارف شتى تنير الطريق لمن يريد الوصول إلى الإعجاز. أقدم بحثاً بعنوان (من مداخل الإعجاز في القرآن الكريم – دراسة وصفية تحليلية).

خطة البحث:

1/ أهمية البحث:

تكمن في فهم فروع اللغة العربية المختلفة للوصول إلى إعجاز القرآن الكريم.

2/ منهج البحث:

طبيعة هذه الدراسة يكون منهجها المنهج الوصفي التحليلي مبيناً وموضحاً ما اخترته من معارف اقتضتها دراسة الإعجاز في القرآن الكريم.

3/ مشكلة البحث:

مادة علمية متنوعة من علوم القرآن والشعر والنثر وما قاله بعض العلماء في الإعجاز.

4/ سبب الاختيار:

معرفة ما يوصل إلى الإعجاز من خلال مواد اللغة العربية التي ألفت لخدمة كتاب الله وتقديمها لمن يريد أن يحوم حول حى الإعجاز.

* أستاذ مساعد – قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة أم درمان الإسلامية

الدراسات السابقة كثيرة ومتنوعة خاصة في الكتب التي ألفت من هذه الكتب كتاب الباقلائي والرماني وعبد القاهر والخطاب، وقد قمت بدراسة رسالة للخطاب في الإعجاز، عنوان الدراسة (الإعجاز البلاغي عند الخطابي في رسالته بيان الإعجاز) في مجلة كلية اللغة العربية، العدد السادس، 2012م.

موضوع البحث:

(1) تمهيد.

(2) معرفة الأسلوب - معرفة النحو - معرفة البلاغة - معرفة التلازم - اختيارات من الشعر - الفرق بين الجيد والردىء - معرفة الخيال - التمثيل - الخطب - الأحرف السبعة - مفردات القرآن - من ألف في الإعجاز - الخاتمة - المصادر والمراجع.

تمهيد:

القرآن مشتق من قرأ تأتي بمعنى الجمع والضم. والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، قال تعالى: ﴿عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾⁽¹⁾ ومنه قرأه يقرأه ويقرؤه الأخيرة عن الزجاج وقرأاً وقراءة وقرآنأ، فهو مقروء ومعنى قرأت القرآن لفظت به مجموعاً أي ألقيته⁽²⁾.

القرآن آيات منزلة من حول العرش فالأرض بها سماء وهي منها كواكب أفاض إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة وتذكر الدنيا فمناها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمناها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسن ترعد من حى القلوب⁽³⁾.
أما معاني القرآن منها واضحة البيان وعذوبة ترويك من الماء البيان ورقة تستروح منها نسيم الجنان ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان⁽⁴⁾.

القرآن بهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل منقول، وتظافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعته وحوث كل البيان جوامعه وبدائعه، قد أحكم الحكيم صبغته ومبناه وقسم لفظه ومعناه إلى ما ينشط السامع

(1) سورة القيامة، الآية 17.

(2) لسان العرب لابن منظور، مادة قرأ.

(3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص 23، دار الكتاب، بيروت - لبنان، 2004م.

(4) انظر المرجع السابق، ص 23.

ويقرط المسامع من تجنيس أنيس وتطبيق لبيق وتشبيه نبیه وتقسيم وسيم وتفصيل أصيل تبليغ بليغ تصدير بالحسن جدير وترديد ماله مزيد وله من الصياغة البديعة والصناعة الرفيعة، فالأذان بأقراطه حالية والأذهان من أسماطه غير خالية⁽¹⁾.

الباقلائي في معرض حديثه عنه القرآن نثر الدرر لمن يلتقط منهجاً ولفظاً ورشاقة يقول القرآن تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منهج بهيج ونظم أنيق ومعرض رشيق غير معتاص على الأسماع ولا مغلق على الأفهام ولا منكرة في اللفظ ولا مستوحش في المنظر يسرى في القلب كما يسري السرور ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾⁽²⁾، فهو يشفي الأجساد ويغذي الأرواح وتطمئن به القلوب⁽³⁾.

الإعجاز:

أما الإعجاز لغة إثبات العجز والعجز هو القصور عن فعل الشيء، والإعجاز مصدر أعجز، يقال عجز فلان عن الأمر، إذا حاوله فلم يستطعه، ولم تتسع إليه مقدرته وجهده، فالإعجاز ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز وظهرت قدرة المعجز ووضعت المعجزة، والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة⁽⁴⁾.

المعجزات التي أبد الله بها المرسلين والأنبياء تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وتكون بحسب القوم الذين أرسل إليهم وهي قسمان:

1. حسية وهي ما تدرك بالحواس، وأغلب المعجزات التي ظهرت للرسول قبل النبي صلى الله عليه وسلم أغلبها حسية.
2. العقلية: وهي ما تدرك بالعقل: وهذه المعجزة العقلية لا يدركها كل الناس لأن الناس يتفاوتون في إدراكهم.

والمعجزات التي ظهرت، كانت بحسب قوم الرسول الذي أرسل إليهم. معجزة إبراهيم جاءت تحدي لقوم يعبدون الأصنام.

(1) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ص 20، ج 20/1.

(2) سورة فصلت، الآية 42.

(3) إعجاز القرآن، الباقلائي، ص 313.

(4) الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، ج 2/106، ب. ت.

فحصلت المعجزة لما أرادوا أن يحرقوه انتقاماً لأصنامهم، فأبطل الله خاصية الإحراق في النار، قال تعالى ﴿قُلْنَا يَنْدُرُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (1).

معجزة سيدنا موسى العصا معجزة تفجرت منها المعجزات.

ومعجزة عيسى في يده، قال تعالى ﴿جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (2).

أما معجزة النبي صلى الله عليه وسلم جاءت متحدية قوماً اشتهروا بالبلاغة والفصاحة وهي معجزة القرآن الباقية على مر الأزمنة.

يأمرهم بعبادة الواحد الأحد فوصل إلى أعماقهم فحاروا في وصفه فقالوا مرة شعر ومرة سحر مع ذلك اعترفوا به، ولذلك قال قائلهم إن له لحلاوة وإنه عليه لطلاوة. المدخل إلى الإعجاز والوصول إليه يحتم على السالك لهذا الطريق معرفة أمور من غيرها لا يستطيع أن يصل إلى معرفة الإعجاز في القرآن الكريم، أجملها في الآتي:

• الأسلوب:

عرفه عبد القاهر (الضرب من النظم والطريقة فيه) (3) وعرفه ابن خلدون بأنه المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي تفرغ فيه) (4).

فهو عند نقاد العرب الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره. ويبين بها الكاتب عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات (5)، الأسلوب يشمل عدة فروع من فروع اللغة العربية من ذلك:

– المفردات: وهي تحوي:

الدقة:

(1) سورة الأنبياء، الآية 69.

(2) سورة آل عمران، الآية 49.

(3) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 338، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1984 م.

(4) مقدمة ابن خلدون، 543.

(5) انظر أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، ص 451، د. ت.

والدقة تكون في انتقاء الكلمات التي تعبر عن دواخل الشاعر أو الكاتب وأفضلهم هو الذي تقع عينه على مفردة ظاهرة وواضحة المعالم وهذا الاختيار يحتاج إلى دقة وروية، قيل إن رجلاً أنشد ابن هرمة قوله:

بِاللّٰهِ رَبِّكَ إِن دَخَلْتَ فَقُلْ لَهَا ** هَذَا ابْنُ هَرْمَةَ قَائِماً بِالْبَابِ⁽¹⁾
فَقَالَ لَهُ مَا هَكَذَا قُلْتَ أَكُنْتَ تَصَدِّقُ؟ قَالَ قَاعِداً، قَالَ: أَكُنْتَ أَبُولُ قَالَ: فَمَاذَا قَالَ
وَاقِفاً لَيْتَكَ عَلِمْتَ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ مِنْ قَدَرِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى لَعَلَّ ابْنَ هَرْمَةَ يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْقِيَامَ
يَقْتَضِي الدَّوَامَ وَالثَّبُوتَ بِخِلَافِ الْوُقُوفِ نَقُولُ وَقِفِ الْحَجَّاجَ بِعُرْفَةٍ وَلَا نَقُلْ قَامَ⁽²⁾.
فإن الأسلوب يوصف باللطافة والرقّة والعذوبة كما يوصف بالفخامة والجزالة
والخشونة وكل له مقام⁽³⁾.
الطرافة:

الكلمة الطريفة هي التي لم تمتن بكثرة الاستعمال فتكون محتفظة بحيويتها ورشاقها
وتكون كلاماً نقيماً مهذباً⁽⁴⁾.
التكرير:

والتكرار على قسمين أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه فضلة من القول
ولغوا وليس من القرآن شيء من هذا النوع.
الثاني التكرار المحمود يحتاج إليه ويحسن استعمال في الأمور المهمة التي تعظم
العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستعانة بقدرها⁽⁵⁾.
من التكرار المحمود ما ذكر فيه مقام التعظيم والتهويل قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَاقُّ⁽¹⁾ مَا الْحَاقُّ⁽²⁾﴾⁽⁶⁾.
وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْقَارِعُ⁽¹⁾ مَا الْقَارِعُ⁽²⁾﴾⁽⁷⁾.
وكقول الشاعر:

(1) الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، تحقيق مفيد قميحة، ص 83، ط 1984 م.

(2) خصائص التراكيب، محمد محمد أبو موسى، ص 72، ط مكتبة وهبة، 2000 م.

(3) تقريب مناهج البلغاء، حازم القرطاجني، ص 202، مكتبة وهبة، القاهرة، 2006 م.

(4) أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، 461، د. ت.

(5) انظر بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث وسائل حمد محمد إبراهيم الخطابي، دار المعارف، تحقيق محمد زغلول ومحمد خلف الله، د. ت، ص 52.

(6) سورة الحاقة، الآيتان، 1-2.

(7) سورة القارعة، الآيتان، 1-2.

هلا سألت جموع كندة، يوم ** ولو أين أينا⁽¹⁾

معرفة النحو:

لا غنى لأي باحث عن الإعجاز من معرفة النحو، وهو الذي يوصلك إلى المعنى وإلى نظم الكلام صياغة وشكلاً ورونقاً، وركز عليه عبد القاهر في معرض نظرية النظم وجعله أساساً يبنى عليه، ومن غيره لا يصل الباحث إلى المعرفة المنشودة. يقول عبد القاهر: (إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها. وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحان حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من نكر حسه وإلا من غالط في الحقائق نفسه وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به زهد فيه ولم ير أن يستقيه من مصبه ويأخذ من معدنه ورضي لنفسه بالنقص والكمال، وتحقيق الغبينة وهو يجد إلى الربح سبيلاً⁽²⁾).

معرفة البلاغة:

منها أن تكون العبارة سهلة سلسلة وثيقة بعيدة عن الثقل في النطق استدلوها عن الثقل بقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر ** وليس قرب قبر حربه قبر⁽³⁾
الوضوح:

أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى، وذلك شرط أساس الكلام البليغ المؤثر، لأنه يصل إلى القلب في سرعة وسهولة ويكون الكلام واضحاً إذا رُكِبَ تركيباً حسب قواعد اللغة، ولم يشد اتصال بعضه ببعض اشتداداً وثيقاً ولم يطل الفصل بين أركان جمله وإن فُقد شرط من ذلك خفي المعنى، ولم يتضح المراد بالكلام، واتسمت العبارة بالتعقيد والمعاظلة⁽⁴⁾.

(1) الصناعتين، أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981م.

(2) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص42.

(3) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص60.

(4) انظر أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، ص472.

قديمًا أثنى عمر بن الخطاب على زهير بأنه كان لا يعاقل بين الكلام⁽¹⁾.

القوة:

من القوة استخدام الكلمات الجزلة في مكانها والسهلة في مكانها من ذلك قول

الشاعر:

بكرًا صاحبي قبل الهجير ** إن ذاك النجاح من التبكير⁽²⁾

انظر إلى كلمة الهجير هي كلمة طريفة مثقفة ولو أننا استبدلناها بكلمة الظهر لما كان في البيت قوة كما تعود إلى استخدام (إن) لأن الجملة واقعة جواباً لسؤال فهم من الجملة الأولى ولو أنه قال مكانها بكرًا فالنجاح لم يعد الأسلوب قويًا⁽³⁾.

هذا يقودك إلى معرفة أسرار الجملة وأسرار الجملة يقودك إلى أسرار الإعجاز وهذا ما نريد أن نصل إليه.

معرفة التلاؤم بين اللفظ والمعنى:

المعنى الكريم يلتمس له لفظ كريم⁽⁴⁾.

ولاحظ النقاد أن المدح له ألفاظ خاصة به كذلك الهجاء وللجد ألفاظ وللهزل

ألفاظ⁽⁵⁾.

نجد التلاؤم بين اللفظ والمعنى عند الموهبين من الشعراء وأن قوة اللفظ تدل على قوة المعنى، نبه على ذلك أبو الفتح ابن جني في كتابه الخصائص⁽⁶⁾.

فإذا زيد في الألفاظ وجبت زيادة المعاني وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة، فمن ذلك قولهم (خشن) و(اخشوشن) فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرار العين وزيادة الواو⁽⁷⁾.

(1) جمهرة أشعار العرب، ص 68.

(2) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ص 37.

(3) أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، 475.

(4) العمدة أبو علي الحسن بن رشق القيرواني 142/1.

(5) انظر أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، 477.

(6) راجع الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، دار الهدى، بيروت، تحقيق محمد علي النجار، ج 1، د. ت، ص 217.

(7) انظر أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود الزمخشري، مادة خشن.

كذلك (عشب) (اعشوشب)⁽¹⁾.

ولذلك ورد في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾⁽²⁾ (غفاراً) أبلغ من (غافر) وكذلك قوله تعالى: ﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾⁽³⁾ (كبكبوا) أشد من معنى (كب) أي قلب.

والشعراء يختلفون في اختيار الألفاظ منهم جيد ومنهم من يتوسط ومنهم دون ذلك. والذي جاد لفظه ومعناه كقول النابغة الذبياني:

كلبني لهم يا أميمة ناصب ** وليل أقاسيه بطيء

(4). ٢١١ - ٢١٢.

والذي جاد لفظه وتأخر معناه كقول جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا ** وشالاً لا يزال معيناً
غيضن من عبراتهن وقلن لي ** ماذا لقيت من الهوى ولقيناً⁽⁵⁾

والذي جاد معناه وتأخر لفظه كقول لبيد:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ** والمرء بصلحه الجليس الصالح⁽⁶⁾

وهناك ما تأخر لفظه ومعناه كقول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ** شاوٍ مثل شلول شلشل شول⁽⁷⁾

معرفة الشعر:

من العلماء من يقسم الشعر على أساس فني ومنهم يقسم على أساس خلق ودين فقد روى صاحب العمدة أن بعض النقاد جعل الشعر أصنافاً فشعر هو خير كله ذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل القائل على تمثّل به الخير وما أشبه ذلك، وشعر هو ظرف كله وذلك القول في الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يتفنن من المعاني والأدب وشعر هو

(1) المرجع السابق، مادة عشب.

(2) سورة نوح، الآية 10.

(3) سورة الشعراء، الآية 94.

(4) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 93، دار الكتب العلمية، د. ت.

(5) كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ص 147، ج 7، د. ت.

(6) الشعراء والشعراء، ابن محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985 م، ص 68.

(7) ديوان الأعشى، 132، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1917 م.

شر كله وذلك هو الهجاء، وتسرع به الشاعر إلى أعراض الناس وشعر يتكسب به وذلك ما يحمل إلى كل سوق ما يتعلق فيها⁽¹⁾.

فالذي يريد معرفة الإعجاز ينبغي عليه أن يقف على جميع الفنون الشعرية بأنواعها لأن القصد من ذلك الألفاظ والمعاني التي حوتها هذه الفنون الشعرية كما يفعل ابن عباس ويحضر على معرفة الشعر لأن الشعر ديوان العرب والقرآن نزل بلغة العرب، ولغة العرب في الشعر لأنه وصل إلينا كله إلا عشره، وسأقف بك على بعض النماذج الشعرية لعلها تفيدنا: قال لبيد مادحاً ومفتخراً بنسبه وقومه:

وجزوايسار دعوته لحتفها **	بمغالق متشابها أجسامها
أدعوهن لعاقراً ومطفلاً **	بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الحنيب كأنما **	هبطاً تباله مخضباً أهضامها
تأوي إلى الأطناب كل رذيلة **	مثل البلية قالصاً أهدامها
ويكلمون إذا الرياح تناوحت **	خلجاً تمد شوارعاً أينامها ⁽²⁾

نموذج النابغة الجعدي:

خليلي عوجاً ساعة وتهجراً **	ولو ما علي ما أحدث الدهر أو ذرا
ولا تجزعا إن الحياة قصيرة **	فخفا لروعات الحوادث أو قرا
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه **	فلا تجزعا مما قضى الله وأصبرا
ألم تربا أن الملاممة نفعها **	قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا **	تغير شيئاً غير ما كان قدرا
أتيت رسول الله إذ قام بالهدى **	ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا ⁽³⁾

صياغة محكمة حذف حرف النداء في أول البيت أفضل من إثباته نهي وتوكيد وأدواته الجزم والظرف والجملة الاسمية في مكانها والفعلية وصورة في آخر بيت مستمرة ومعبرة بين الهداية المعنوية والهداية المادية تشبيهه في غاية الروعة والجمال يجمع بين المشبه والمشبّه به الهداية في كل.

قال زهير:

(1) العمدة، ابن رشيق، ص 76.

(2) جمهرة أشعار العرب أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، حققه علي محمد البجاوي، د. ت، ص 266.

(3) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص 618-619.

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ** يضرس بأنياب ويوطأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف من دون عرصه ** بفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ** على قومه يستغنى عنه ويذمم⁽¹⁾

انظر هذه أبيات قيلت في قمة البلاغة والفصاحة قبيل نزول القرآن الكريم، انظر إلى سبكها وصياغتها ورونقها ومعانيها المتدفقة عذوبة وإشراقاً، والتناسب والتلاؤم والجزالة والانسجام التام بينها، لعل عمر بن الخطاب عندما أوصى ابنه عبد الرحمن يقصد هذا الشعر (يا بني صل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فإنه من لم يصل رحمه ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدب حقاً ولم يغترف أدباً⁽²⁾).

قال الأعشى:

عنتريس، تعدوا إذا مسها السو ** ط كعدو المصلصل الجوال
لاحه الصيف والخيال وإشفا ** ق على صعدة كقوس الضال
لملمع لاعه الفؤاد إلى جحـ ** ش، فلا عنها فبئس الغالي
ذو أذاة على الخليط، خبيث الـ ** نفس، يرمي مراغه بالنسـال
غادر الجحش في الغبار، وعدا ** ها حثيثاً لصورة الأدحال

هذه صورة مليئة حياة وحبوبة، شبه الناقة في عدوها السريع القوي الشرس دي الصرامة الحى والاندفاع، والمشبّه هو هذا الحمار لهذه القصة ويلاحظ أن أموراً ثلاثة أضمرت هذا الحمار في الصيف يعني الجذب وسوء الرعي والمطاردة والإشفاق على أتان وهذه الأتان التي همه أمرها حتى أضمره ولأنه هو الذي أشقاها حين عزل ولدها وقطعها عنه ودفعها دفعاً غليظاً قاسياً التي تخلفها وراءها، وقد اهتم الأعشى اهتماماً ظاهراً برجم هذا الحمار والقيم الراعي بجملة صفات مفصلاً ومفزعاً⁽⁴⁾.

نموذج آخر من الرثاء من امرأة اشتهر شعرها به من ذلك قصيدتها التي مطلعها:

(1) ديوان زهير، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، 1968، ص 31.

(2) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص 41.

(3) ديوان الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص 140.

(4) دراسة في البلاغة والشعر، أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1991، ص 141-142.

فبذي بعينك أم بالعين عوار ** أم زرفت إذ خلت من أهلها الدار
كأن عيني لذكراه إذا خطرت ** فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت ** ودونه من جديد الترب أستار
كثرت التوكيدات في هذه الأبيات واختيار الألفاظ والمعاني وما يجمع بينهما من سبك وصياغة وتناسب وانسجام.

يوحي إليك أن هذه الأبيات من أفضل ما قيلت في الرثاء كيف لا وإن قائلتها نذرت حياتها لهذا الفن من الفنون واشتهرت به واختصت به.

نموذج من شاعر قيل فيه لولاه لضع ثلث اللغة العربية ألا وهو الفرزدق:

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف ** وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف
ولج بك الهجران حتى كأنما ** ترى الموت في البيت الذي كنت تألف
لجاجة صرم ليس بالوصل إنما ** أخو الوصل من يدنو ومن يتلطف
ومستنفرات للقلوب كأنها ** مها حول منتوجاته يتصرف
تراهن من فرط الحياة كأنها ** مراض سلال أو هوالك نرّف
وببذلن بعد اليأس من غير رغبة ** أحاديث تشفي المدينين وتشغف
إذا هن ساقطن الحديث حسبته ** جنى النحل أو أبكار كرم يقطف
موانع للأسرار إلا لأهلها ** ويحلفن ما ظن الغيور المشقشف⁽²⁾

انظر لهذه الأبيات التي تمتاز بالجزالة والمتانة وقوة العبارة ورونق اللفظ وصياغة المعنى، لذلك اختاره أهل اللغة مستدلين بما يقول، فمن أراد الإعجاز لابد له أن يستصحب شعر الفرزدق والسابقين له.

معرفة الرديء من الشعر:

عيب على جرير قوله:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة ** لو شئت ساقكم لي فطينا⁽³⁾

(1) ديوان الخنساء، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، ص 42-43-44.

(2) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص 694-695.

(3) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص 309.

قال عبد الملك جعلتني شرطياً أما لو قلت لو شاء ساقكم إلى قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم⁽¹⁾.

وعيب على أبي تمام لفظاً استخدم في الدم:

ما زال يهذي بالمكارم دائماً ** حتى ظننا أنه محموم⁽²⁾

وكلمتا يهذي ومحموم يستعملان في الدم وليس المدح.

وكقول أبي نواس:

جاد بالأموال حتى ** حسبوه الناس حمقا⁽³⁾

كلمة حمقى من ألفاظ الهجاء ليست مستساقفة في المدح.

بمعرفة هذا تدرك أن الله أحاط بالألفاظ والمعاني والبشر لم يحظ بلفظ ولا معنى.

معرفة الخيال:

الخيال له تأثير كبير في النفس أشد من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، يقول العرب في المتحير أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأنت بذلك جلب له صورة تردده وتحيره فهي أبلغ من الظاهر أنت متردد في أمرك.

قال أبو تمام:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها ** تنال إلا على جسر من التعب⁽⁴⁾

انظر لهذه الصورة التي تحمل فكرة أفضل وأجمل من قولك لا تسأل الراحة إلا بعد الكد والتعب.

ومن قولهم في الخيال:

فالأرض يا قوتة والجولؤلؤة ** والنبت فيروز والماء بلور⁽⁵⁾

جمال الخيال في هذا التشبيه الرائع وهو من أعلى أنواع التشبيه وهو التشبيه البليغ. ومن الخيال قول عنتره:

(1) عيار الشعر، ابن طباطبا، د. ت، ص 92.

(2) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، د. ت، ص 154.

(3) انظر العمدة، ابن رشيق، ص 178.

(4) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 75.

(5) ديوان الصنوبري، أبو طالب المأمون، د. ت، ص 595.

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ** ليس الكريم على القنا بمحرم⁽¹⁾

فهذا البيت يتمثل لنا الخيال في المجاز عبّر بالثياب عن الصدر فهذه مجاورة.

معرفة ما يتمثل به:

قال صاحب الصناعتين (والطريق المسلك والمنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين تشبيه الجواد بالبحر والمطر والشجاع بالأسد والحسن بالشمس والقمر، والسهم الماضي بالسيف والعالي الرتب بالنجم والحليم الرزين بالجبل والقاسي بالحديد والصخر والبليد بالجماد واللنيم بالكلب⁽²⁾).

ومن مداخل الإعجاز:

معرفة النثر ومن أفضل ذلك الخطب في الجاهلية والإسلام خاصة خطب النبي صلى الله عليه وسلم.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحمل سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معانٍ وقلة تكلف وأوتي جوامع الكلم وخص ببذائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويبايرها من منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ومن تأمل حديثه ويسره على ذلك⁽³⁾.

انظر إلى حطب الرسول صلى الله عليه وسلم وهي أول خطبة خطبها كما جاء في سيرة ابن هشام أنه قام فبهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال: أما بعد (أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولي فبلغك وأتيتك مالاً وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك، فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته⁽⁴⁾).

(1) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 259.

(2) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 265.

(3) السيرة النبوية من مفهوم القاضي عياض، ص 211، د. أحمد جمال المصري.

(4) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج 2، ص 63، د. محمد فهد السرحان.

انظر إلى جمال هذا الأسلوب مع قلة عدد الحروف وكثرة المعاني وبعداً عن الضعة وترفعاً عن التكلف.

كما قال الجاحظ (هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثرة عدد معانيه وجل عن الضعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تعالى ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾⁽¹⁾.

وكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيب أي التقصير واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصود في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي فلم ينطق إلا عن ميزات حكمه ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق⁽²⁾. من حديثه صلى الله عليه وسلم الذي يشتمل على قلة الحروف وكثرة المعاني قوله: (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم بد على من سواهم)⁽³⁾.

فهذا هو الإيجاز المطلوب والممدوح كيف لا وهو أفضل من نطق بالضاد وهو أفصح العرب صلى الله عليه وسلم.

الأحرف السبعة:

هنالك اختلاف في الأحرف السبع:

1. حدها أنه من المشكل الذي لا يدري معناه لأن العرب تسمى الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمى القصيدة بأسرها كلمة والحرف يقع على المقطوع من الحروف المعجمة والحرف أيضاً المعنى والجهة.

2. وهو أضعفها أن المراد سبع قراءات ﴿هَنْ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾⁽⁴⁾ وأظهر بفتحها.

3. سبعة أنواع كل نوع منها جزء من أجزاء القرآن بخلاف غيره من أنحاء، فبعضها أمر ونهي ووعد ووعد وقصص وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال وغيره.

4. إن المراد سبع لغات لسبع قبائل من العرب⁽⁵⁾.

وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه هذا ما لم يسمع قط أي نزل على سبع لغات متفرقة في القرآن فبعضه نزل بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة تميم

(1) سورة ص، الآية 86.

(2) انظر البيان والتبيين، الجاحظ، ص 27، تحقيق عبدالسلام هارون.

(3) الحديث سنن ابن ماجه، ص 151، ج 2، د. ت.

(4) سورة هود، الآية 78.

(5) الرهان في علوم القرآن، الزركشي، 154/2-155.

وبعضها بلغة أزد وربيعه وبعضه بلغة هوازن وسعد بن بكر ولذلك سائر اللغات ومعانيها في هذه كله لكلمة واحدة وقال بعض العلماء أنه المختار⁽¹⁾.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع)⁽²⁾.

أشار أفصح العرب بظهر كل حرف وبطنه وحده ومطلع كل حد إلى حقيقة هذا هو الإعجاز فإن ظاهر القرآن على أي لغة قرئ بها من لغات العرب إنما هو ظاهر تلك اللغة بعينها، ولكن باطنه صورة السماء من الماء ومسميات إلهية لا تنال، وإن نيلت الأسماء ثم أن لكل لغة امتزاجها بالقرآن حداً يقف عنده أهلها وهو الذي يتدنى من الجنسية اللغوية. ولكل حد من هذه الحدود مطلع يصدر منه إلى مرتقى هذه الجنسية التي كان القرآن أخص مقوماتها وذلك في جملته إنما هو الإعجاز كله، والهدى كله، والكمال كله⁽³⁾.

مفردات القرآن

من المدخل إلى إعجاز القرآن معرفة مفرداته فهماً وتأويلاً، والعلماء يختلفون في فهم ذلك قال الراجعي: في القرآن ألفاظ اصطلاح العلماء تسميتها بالغريب وليس المراد بغريبها أنها منكورة أو سافرة أو شاذة فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه وإنما اللفظة العربية ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس. وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله: سبعمائة لفظ أو تزيد قليلاً.

كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا حرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه⁽⁴⁾.

ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثّة أو يكون سياق الألفاظ قد دل

(1) البرهان، الزركشي، 155/2.

(2) الحديث صحيح، ابن حبان، ص75، د. ت.

(3) إعجاز القرآن، الراجعي، 51-52.

(4) إعجاز القرآن، الراجعي، ص53.

بالقرينة على معنى معين غير الذي يفهم من ذات الألفاظ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴾،⁽¹⁾ أي فإذا بيناه فاعمل به⁽²⁾.

ومن الألفاظ التي ينبغي أن تعرف لدى الباحث عن الإعجاز ما يسميه أهل اللغة بالوجوه والنظائر فهي الألفاظ التي وردت فيها معاني مختلفة كلفظ الهدى فإن فيه على سبعة عشر وجوهاً بمعنى الثبات والدين والدعاء ونحوها ومن هذه الألفاظ الصلاة، الرحمة والسوء والفتنة والروح وغيرها⁽³⁾.

وأما الإفراد فهي ألفاظ تعي بمعنى مفرد وغير المعنى استعمل فيه عادة قال ابن فارس في كتاب الإفراد كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلا ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾⁽⁴⁾ فمعناه أغضبونا وكل ما فيه من ذكر البروج الكواكب إلا ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾⁽⁵⁾ فهي القصور الطوال الحصينة وكل ما فيه من ذكر البر والبحر، فالمراد بالبحر الماء والبر التراب اليابس إلا ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾⁽⁶⁾ فالمراد به البرية والعمران⁽⁷⁾.

معرفة من ألف في الإعجاز يقود إلى الإعجاز وحقيقته ومن ذلك كتاب إعجاز القرآن لأبي عبدالله محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة 306هـ وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه (المعتضد) وشرحاً آخر أصغر ثم وضع أبو عيسى الروماني المتوفى 383هـ كتابه في الإعجاز فرفع بذلك درجة ثالثة، وجاء القاضي أبوبكر الباقلائي المتوفى سنة 403هـ، فوضع كتابه المشهور إعجاز القرآن وكذلك الإمام الخطابي المتوفى سنة 388هـ وفخر الدين الرازي سنة 606هـ.

(1) سورة القيامة، الآية 18.

(2) الإعجاز، الرافي، 18.

(3) الاتقان، السيوطي، 143/1.

(4) سورة الزخرف، الآية 55.

(5) سورة النساء، الآية 78.

(6) سورة الروم، الآية 41.

(7) انظر الاتقان، السيوطي، 143/1.

وابن أبي الأصبع المتوفى سنة 654هـ والزملكاني المتوفى سنة 727هـ وهي كتب بعضها من بعض⁽¹⁾.

الإعجاز البلاغي عن الخطابي:

مفهوم الإعجاز القرآني أحمد جمال العمري.

ونقف بك على أهم كتاب هو إعجاز القرآن للباقلاني وهو الذي وضع خطة واضحة لمن أراد أن يصل معرفة الإعجاز ووضع لذلك أسساً علمية يسير عليها الباحث في الإعجاز ومنها:

1. معرفة اللغة العربية معرفة تامة وإدراك خصائصها وسماتها.
 2. معرفة وجوه البلاغة العربية بكل علومها وأصولها وفروعها.
 3. الاطلاع على النماذج الفذة مما أثر عن العرب شعراء وخطباء حتى يعرف المكانة الحقيقية لبلاغة القرآن وجمال نظمته⁽²⁾.
- وقد أوضحنا ذلك وبيناه فيما مضى من نقاط حددناها إعانة لمن يريد معرفة الإعجاز والوقوف عنده.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قد حاولت من خلال ما قمت به وصفاً وتحليلاً لمداخل الإعجاز وقوفاً على بعض المعارف التي تنير الطريق لمن يريد أن يصل إلى إعجاز القرآن الكريم لأنه هو الغاية المنشودة، فجاءت النتائج والتوصيات كالآتي:

1. تمعن ألفاظ القرآن ومعناه وصيغته ومبناه.
2. معرفة ضروب الأسلوب رقة ولطافة وفخامة وجزالة وخشونة.
3. الوقوف عند التكرار المحمود الذي يشمل مقام التعظيم والتهويل.
4. إدراك معنى النحو نظماً ودقة وطرافة ووضوحاً.
5. يبين أسرار الحروف من خلال البلاغة لأن لكل حرف معنى.
6. ممارسة الشعر الجيد خاصة الشعر الجاهلي الذي قيل قبيل نزول القرآن الكريم.

(1) الإعجاز القرآني، الرافعي، ص108.

(2) انظر إعجاز القرآن، الباقلاني، ص144، محمد بن الطيب بن محمد أبوبكر القاضي الباقلاني.

7. النثر مادة علمية معرفية من خلالها تقترب من الإعجاز خاصة خطب النبي صلى الله عليه وسلم.

التوصيات:

1. دراسة الشعر خاصة المعلقات والملحقات والمذهبات والمشوبات.
2. دراسة كُتب من كُتب في الإعجاز من ذلك الباقلائي والرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني والرافعي.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- 1. الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي.
- 2. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
- 3. أسس النقد، أحمد أحمد بدوي.
- 4. إعجاز القرآن، الباقلائي، محمد بن الطيب بن محمد أبوبكر القاضي الباقلائي.
- 5. الإعجاز، الرافعي، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب، بيروت - لبنان، 2004م.
- 6. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي.
- 7. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعدي، مكتبة الآداب.
- 8. بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث وسائل، حمد محمد إبراهيم الخطابي.
- 9. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون.
- 10. تقريب مناهج البلغاء، حازم القرطاجني، مكتبة وهبة، القاهرة، 2006م.
- 11. جمهرة أشعار العرب، أبي يزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي.
- 12. الحديث الصحيح، ابن حبان، د. ت.
- 13. الحديث، سنن ابن ماجه، د. ت.
- 14. خصائص التراكيب، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، 2000م.
- 15. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت - لبنان.
- 16. دراسة في البلاغة والشعر، أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1991م.
- 17. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني.
- 18. ديوان الأعشى، دار العلمية، بيروت - لبنان، 1987م.
- 19. ديوان الخنساء، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان.
- 20. ديوان الصنوبري.
- 21. ديوان زهير، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، 1968م.
- 22. السيرة النبوية من مفهوم القاضي عياض، د. أحمد جمال المصري.

23. السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق محمد فهد السرحان.
24. شرح المعلقات السبع، للزوزني.
25. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت.
26. الصناعتين، أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
27. العمدة، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني.
28. عيار الشعر، لابن طباطبائي، د. ت.
29. كتاب المنتظر في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي.
30. لسان العرب لابن منظور.
31. مقدمة ابن خلدون، د. ت.

بنية القصيدة في شعر علي بن جبلة العكوك دراسة تحليلية نقدية

أ.د. محمد زروق الحسن علي*

مستخلص باللغة العربية:

بنية القصيدة في شعر علي بن جبلة العكوك

يتناول هذا البحث بالدرس والتحليل مكونات بنية القصيدة في شعر علي بن جبلة الملقَّب ب(العكوك) من مقدمة وتخلُّص وخاتمة ووحدة قصيدة. اشتمل البحث على مستخلص باللغتين العربية والإنجليزية وتوطئة وتمهيد عرَّف علي بن جبلة وشيئاً من أغراض شعره، وأربعة محاور بعدها خاتمة وثبَّت بالمصادر والمراجع. المحور الأول: مقدمة القصيدة وفيها عدة أضرب مقدمة وصف الشَّيب وبكاء الشباب، والمقدمة الغزلية والطللية وغيرها من المقدمات. المحور الثاني: التخلُّص وفيه ضربان: التخلُّص الحَسَن والمفاجئ. أمَّا المحور الثالث فتناولت فيه خاتمة القصيدة، ما بين خاتمة جيِّدة وأخرى مفتوحة. والمحور الرابع خَصَصْتُهُ لدراسة وحدة القصيدة.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها ألقت أضواءً على شاعر عباسي قلَّما درسه الباحثون والدارسون. وقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها:

- استهل ابنُ جبلة بعضاً من قصائده بوصف الشَّيب وبكاء الشباب، مُتنازِعاً بين المشيب وأنس الشباب.
- له مقدمات غزلية مُفَعَّمة بالهَيَام والرقّة والعذوبة بعيدة عن الإسفاف والتدني.
- له تخلُّصات جيِّدة للغاية تخلَّص فيها إلى غرضه الرئيس بطريقة بارعة.
- ختم جُلَّ قصائده بخواتيم جيِّدة أوحى بانتهاء الكلام فكانت قُفْلاً له، وله خواتيم أخرى مفتوحة لا تُوحى بانتهاء الكلام.
- نصيب وحدة القصيدة يسير في شعر ابن جبلة، إذ توجد وحدة شعور في قصيدة واحدة رثى بها حُمَيْدًا الطوسي.

*أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية - رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية - جامعة أم درمان الإسلامية.

Abstract

The Poems' Structure In The Poetry Of Ali Bin Jabala Al Ka'aok

The research investigates and analyses the components of the poems structure the poetry of Ali Bin Jabala, also known as "Alka'aok in terms of the poem commencement, poetic topic-shifting, conclusion, and unity of the poem. The research contains abstracts in both languages; Arabic and English, an introduction and preamble about Ali Bin Jabala, besides, few words about the purposes of his poetry. The study consists of four sections, followed by a conclusion and a list of references. The first section: the commencement of the poem which includes various types of poem's commencement, of grey hair "state of being old" and crying over the past youth, romantic, ruins and other types of commencement. The second section: poetic topic-shifting. The third section tackles the poem conclusion. The fourth section is dedicated for studying the poem's unity.

The significance of the study resides in shedding lights on an Abbasid poet whom few researchers conducted research on him.

The study arrives at numbers of findings and results, here are the most important ones:

-Ibn Jabala started some of his poems with describing the grey hair and crying over the past youth, he was torn between getting old and reminisce of young days.

-He had romantic commencements full of love, delicateness and charming away from triviality and obscenity.

-He had very proper poetic topic-shifting in which he shifted from his main topic very creatively.

-He finished most of his poems with proper conclusions which indicted finishing of the poems, he had other open-end conclusions which indicated that the poem was not finished.

-The share of poem's unity was insignificant in Ibn Jabala's poetry, yet there was unity of feeling in a poem in which he elegized Homeid Altosi with.

توطئة

تُعَدُّ بنية القصيدة من الموضوعات المهمة في النقد العربي القديم فقلماً خلا مصدر من الحديث عنها؛ لأنها تضع الصُّوى في طريق الشاعر لكي يُجَوِّد مطلع قصيدته، ثم يتخلَّص إلى موضوعه الرئيس بطريقة سلسلة لا مفاجأة فيها، ثم يختم قصيدته بأجود بيت فيها؛ لأنه آخر ما يبقى في الأسماع.

ولعلَّ الحديث عن بنية القصيدة كَلَّفَ به النقاد المحدثون ذاكرين مفاهيم الوحدة في القصيدة من وحدة شعورية وموضوعية إلى عضوية.

ترجع صلتي بشعر علي بن جبلة العكوك إلى أعوام خلت لما كنت أراجع شعره ولاسيما رأيته (ذاد ورْدُ الغيِّ عن صَدْرِهِ...) فأكلف بتردادها، فكانت مدخلاً لقراءة شعره وذُرْسَه، فضلاً عن مزاجته بين القديم والجديد في عصره مضموناً وشكلاً.

ومما تقدم ذكره، فإن دراسة بنية القصيدة في شعر ابن جبلة من شأنها أن تُبرز بناء شعره: مقدماته، تخلُّصاته، خواتيمه، ووحدة القصيدة عنده. وقد حاولتُ جاهداً تطبيق ما حَضَّ عليه النقاد في بنية القصيدة، مُستقرئاً شعر ابن جبلة بدءاً من مقدماته وانتهاءً بوحدة القصيدة عنده، واضعاً منهجاً تحليلياً نقدياً مكوناً من: توطئة وتمهيد درستُ فيه حياة ابن جبلة وشعره، بشيء من الاقتضاب. ثم عقدتُ أربعة مباحث، المبحث الأول: مقدمة القصيدة وفيه ستة أضرب من المقدمات: مقدمة وصف الشيب وبكاء الشباب، والمقدمة الغزليَّة، ومقدمة العتاب والاعتذار، والمقدمة الطلليَّة ومقدمة وصف الطبيعة والخمر. أمَّا المبحث الثاني فخصصته بدراسة التخلُّص، والثالث: خاتمة القصيدة، والرابع وحدة القصيدة، ثم ختمتُ الدراسة بمُلخَص لأهم نتائجها، وثَبَّت بالمصادر والمراجع.

تمهيد

علي بن جبلة: حياته وشعره

أولاً: حياته:

هو علي بن جبلة بن مُسلم بن عبد الرحمن، من أبناء الشيعة الخراسانيَّة يُكَنَّى أبا الحسن، كان أسودَّ أبرص، ولقبه العكوك (بعين مهملة وكافين وبينهما واو مشددة) لقبه الأصمعيُّ بين يدي الرشيد، ومعناه القصير السمين⁽¹⁾.

(1) انظر أخبار علي بن جبلة في: الشعر والشعراء بتحقيق أحمد محمَّد شاكر 864/2-868، والأغاني 100/18-114، وطبقات ابن المعتز ص 171-185، وسمط اللآلئ للبكري 33/1، وتاريخ بغداد 359/11، ونكت

علي بن جبلة من شعراء العصر العباسي الأول، ولد بحي الحربية في الجانب الغربي من بغداد سنة ستين ومائة للهجرة، كان أصغر إخوته، مما جعل والده يؤثره من دونهم بمحبته ورعايته⁽¹⁾.

اختلف الرواة في فقده لبصره اختلافاً بيناً، فمن قائل إنه ولد أكمه مكفوفاً لا يُبصر⁽²⁾، ومن قائل: إنه أُصيب بالجُدري في سن السابعة، فذهبت إحدى عينيه، ثم فُقت عينه الثانية بعد ذلك، ومن قائل: إنه كُفَّ بصره وهو صبي⁽³⁾.

بيد أن حسين عطوان مُحقق شعر ابن جبلة رجَّح القول بأن شاعرنا ابن جبلة ولد ضريراً، وحجته في ذلك قوله: "فالراجح عندي أنه ولد ضريراً، إذ لو كان ولد مُبصراً، ثم ابتلي بفقده عينيه واحدةً تلو الأخرى لكان يمكن أن يرثيها ويتحسّر عليهما، غير أن ما بقي من شعره لا ينبئ بذلك"⁽⁴⁾.

فرأى عطوان مقبول ولكنه ليس مُقنعاً، وربما رثى ابن جبلة بصَره ولكن شعره في رثائه ضاع كما ضاع أكثره، وعليه يظل الأمر خلافاً بين القدماء الذين ترجموا له ورووا شعره. حددت هذه العاهة (العمى) التي أُصيب بها شاعرنا ابن جبلة منذ صغره اتجاهه في حياته، إذ ملأت قلب أبيه عطفاً عليه، وبراً به. فألحقه بمدرسة من المدارس تعلم فيها ما يتعلَّمه الصبيان من أطراف العلم. ولم يكد يشبُّ حتى أخذ إخوته يختلفون به بتوجيه من والدهم إلى مجالس العلم والأدب. وقد أفاد من ذكائه مستمعاً إلى دروس الشعر واللغة والنحو، وما يدور بين العلماء من محاورات ومناظرات في المذاهب الكلامية والمسائل العقلية، فإذا هو يفقه أسرار العربية، ويحفظ غير قليل من الشعر لغير شاعر من الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وكان لذلك ثمرتان: الأولى أنه أذكي موهبته الشعرية، وهذَّها وزوَّدها بذخيرة من روائع الشعر. الثانية وسَّع مداركه وخياله ونمَّى طاقاته العقلية، مستنبطاً أدق المعاني، راسماً أطرف الصور⁽⁵⁾.

الهميان للصفدي ص 209-210، ومراة الجنان للياضي 53-54/2، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 55/2، والبداية والنهاية لابن كثير 267/10، ووفيات الأعيان لابن خلكان 306-307.

(1) انظر: الأغاني 100/18.

(2) الأغاني 100/18، ونكت الهميان ص 209، ووفيات الأعيان 306/3.

(3) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 359/11، والبداية والنهاية 268/10، ومراة الجنان 53/2.

(4) شعر علي بن جبلة بتحقيق د. حسين عطوان، ص 9.

(5) شعرا ابن جبلة ص 10 (بتصرف)، وانظر أيضاً: الأغاني 101/18.

لم تذكر المصادر التي ترجمت لشاعرنا ابن جَبَلَة شيئاً كثيراً عن أسرته خلا أنه من أهل بغداد، وأن له ولداً يُدعى الحسن وبه كان يُكنّى⁽¹⁾.

يكاد يجمع القدماء على أن شاعرنا ابن جَبَلَة توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين، بيد أنهم يختلفون في سبب وفاته، فمنهم من يذهب إلى أنه مات حَتْفَ أَنْفِهِ⁽²⁾، ومنهم من يقول إن المأمون هو الذي قتله؛ لأنه رآه يبالغ في مدح أبي دُلْف بن عيسى العَجَلِيّ⁽³⁾، وَحُمَيْد بن عبد الحميد الطُّوسِيّ⁽⁴⁾، ويخلع عليهما صفات الله جلَّ وعلا⁽⁵⁾.

ولعلَّ المأمون تحامى شاعرنا ابن جَبَلَة وجفاه وضَيَّقَ عليه لأسباب سياسية فضلاً عن الأسباب الدينية، فقد كانت أسرة ابن جَبَلَة مواليةً للأمين في حربه مع أخيه المأمون على الخلافة، كما كان عبد الرحمن بن جَبَلَة من كبار قادة الأمين، وما زال على وفائه له حتى قُتِلَ بأسد اباد سنة خمس وتسعين ومائة، وهو يحارب عبد الله بن طاهر⁽⁶⁾ أكبر قادة المأمون. فضلاً

(1) الأغاني 100/18، وانظر: بقية مصادر ترجمته في الصفحة السابقة.

(2) طبقات ابن المعتز ص 173، والأغاني 101/18.

(3) أبو دُلْف العَجَلِيّ: (... - 226هـ، ... - 840م) القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل، من بني عَجَل بن لُجَيْم: أمير الكرج، وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء، قلَّده الرشيد العباسي أعمال (الجبيل) ثم كان من قادة جيش المأمون. وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة، وللشعراء فيه أماديح، وله مؤلفات، منها (سياسة الملوك) و (البزاة والصيد). وهو من العلماء بصناعة الغناء، يقول الشعر ويلجئه، توفي ببغداد. (الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ط 14، 1999م، 5/179)، وانظر في أخبار أبي دُلْف: الأغاني طبعة دار الكتب المصرية 248/8، ووفيات الأعيان طبعة دار الكتب العلمية- بيروت، 501/3، وسمط اللآلئ 331/1، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (الأعصر العباسي) ص 233.

(4) حُمَيْد الطُّوسِيّ: (... - 210هـ - ... - 825م)، من كبار قُوَاد المأمون العباسي، كان جبَّاراً، فيه قوة وبطش، وكان المأمون يندبه للمهمات. (الأعلام للزركلي 283/2).

(5) مرآة الجنان لليافعي 53/2، ونكت الهميان، ص 210.

(6) عبد الله بن طاهر (182 - 230هـ، 798 - 844م): عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مُصعب بن زُرَيْق الخزاعيُّ بالولاء، أبو العباس: أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، أصله من (بادغيس) بخراسان كان جدُّه الأعلى (زُرَيْق) من موالي طلحة الطلحات، ولي إمرة الشام مدة ونُقل إلى مصر سنة 211هـ، فأقام سنة، ونُقل إلى الدينور ثم ولَّاه المأمون خراسان، وظهرت كفاءته، فكانت له طبرستان = وكرمان، وخراسان والري والسواد، وما يتصل بتلك الأطراف. واستمر إلى أن توفي بنيسابور (وقيل: بمرور) وللمؤرخين إعجاب بأعماله وثناءً عليه. (الأعلام للزركلي 93/4 - 94).

عن ذلك فقد كان أبو دُلف العِجْلِيُّ من قادة الأُميين المشهورين، ثم إنه وقف موقفاً مُحايداً لم يُظاھر معه أحدهما على أخيه⁽¹⁾.

ثانياً: شعره:

ذكرت المصادر التي ترجمت لشاعرنا ابن جَبَلَة وروت له شعراً أنه شاعر مطبوع، عذب اللفظ جَزَلُهُ، لطيف المعاني، مَدَّاح حسن التصرُّف⁽²⁾. كان دقيق الفطنة سهل الكلام، مَدَّاحاً مجيداً، وصَافاً مُحَسِّناً، سارت له أمثال، وتدرت من شعره نوادر، وقال الجاحظ عنه: كان أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ إِنْشَاداً، وما رأيتُ مثله بدويّاً ولا حَضَرِيّاً⁽³⁾. وتذكر مصادر أخرى أنه كان أحد فحول الشعراء المُبرزين⁽⁴⁾، كان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً⁽⁵⁾.

أما موضوعات شعره فيتصدرها المدح، وأشهر ممدوحيه حُمَيْدُ الطُّوسِيّ الطائِيّ وأبو دُلف العِجْلِيُّ، وعبدالله بن طاهر، وهم من عُمَّالِ المأمون وقادته المذكورين، والحسن بن سهل وزير المأمون⁽⁶⁾.

مدح ابن جَبَلَة حُمَيْداً الطُّوسِيّ بالكرم والجود الفَيَّاض، وعِراقة الأَصْل، والحزم والشدة والثبات والبطش بالأعداء، مُبدئاً مُعيداً في تلك الصفات في أسلوب صاف ومعنى مبتكر طريف، وصورة نادرة، من ذلك قوله:

دَجَلَهُ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ ** يُطْعِمُ مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ

أَعَدَّ لِلْمَعْرُوفِ أَمْوَالَهُ ** وَسَيفُهُ فِي حَلْبَةِ الْبَاسِ

وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى ** رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ⁽⁷⁾

ومدائحه في أبي دُلف العِجْلِيِّ لا تقل مكانة عن مدائحه في حُمَيْدِ الطُّوسِيّ فقد أشاد بممدوحه أبي دُلف ذاكراً نائله العُمر، وحلمه وبسالته ونباهة نسبه، وقسمته أيامه بين الجهاد

(1) انظر: شعر ابن جَبَلَة، ص12 (بتصرف)، وانظر: تاريخ الطبري 798/11، 804، 826، 831.

(2) الأغاني 100/18.

(3) تاريخ بغداد 359/11، وانظر: نكت الهميان ص209.

(4) مرآة الجنان 53/2.

(5) البداية والنهاية 267/10.

(6) شعر ابن جَبَلَة ص13.

(7) شعر ابن جَبَلَة، ص13، 74.

ومجالس العلم والأدب، ونهوضه لقتال العابثين المفسدين. وأشهر مدائحه في أبي دلف رائيته التي قرّطها ابن المعتز⁽¹⁾، وأبو الفرج الأصفهاني⁽²⁾، ومن بديع قوله فيها⁽³⁾:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُودُؤْلَفٍ ** بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمُحْتَضَرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُودُؤْلَفٍ ** وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ** بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةً ** يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهِ

حاول شاعرنا ابن جبلة مدح الملوك، ففي أخباره أنه امتدح الرشيد بقصيدة والأصمعي بحضرته، فاستحسنها الرشيد وأعجب بها، وأجزل له العطاء عليها⁽⁴⁾.

ونظم مدحة في المأمون، ولكن الأخير سخط عليه وبرم به؛ لأن ابن جبلة مدح ونوّه بأبي دلف العجليّ وحميد الطوسيّ، تنويهاً طارت شهرته في الآفاق، على حين تأخر عن مدحه والإشادة به⁽⁵⁾.

ومهما يكن من أمر فَقَدَ ابْنُ جَبَلَةَ مفاتيح أبواب الخلفاء، وأوصدت أبوابهم من دونه، فقد توفي الرشيد في مطلع حياة ابن جبلة، أمّا المأمون فأعرض عنه وحقد عليه⁽⁶⁾.

ثاني موضوعات شعره الرثاء، فكان بارعاً فيه ولاسيما مرثيته في حميد الطوسيّ التي قرّطها أبو الفرج الأصفهانيّ ذاكراً جودتها وكثرة نادرته⁽⁷⁾، ومنها قوله⁽⁸⁾:

أَصْبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوَائِهِ ** أَصَابَ عَرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضَعُضَعُ
هَوَى جَبَلِ الدُّنْيَا الْمَنِيْعُ وَغَيْثُهَا الـ ** مَرِيْعٌ وَحَامِيهَا الْكَمِي الْمَشِيْعُ
وَسَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُمُحُهُ ** وَمِفْتَاحُ بَابِ الْخُطْبِ وَالْخُطْبُ أَفْطَعُ

(1) طبقات ابن المعتز، ص 171.

(2) الأغاني 254/8.

(3) شعر ابن جبلة، ص 14، 68.

(4) سمط اللآلئ 330/1.

(5) الأغاني 105/18، والطبري 1153/11.

(6) شعر ابن جبلة، ص 11 (بتصرف).

(7) الأغاني 108/18.

(8) شعر ابن جبلة، ص 14، 82.

ثالث موضوعات شعره الهجاء، ويأخذ عنده شكل المقطوعة القصيرة مماثلاً له عند الشعراء العباسيين الذين تطوروا بهذا الفن، ويرأج في بعضه بين السخرية والتهكم تارة، والإقذاع تارة أخرى⁽¹⁾.

ومن موضوعات شعره الغزل فحيناً يأتي في مستهل مدائحه مُجيداً في معانيه وأسلوبه، وحيناً آخر يتخذ شكل المقطوعة المستقلة عن غيرها من الموضوعات، يُصور الشاعر هيامه ووَجْدَه دون إسفاف أو تدن⁽²⁾.

طرق شاعرنا ابنُ جَبَلَة جُلَّ موضوعات الشعر كالاغتنار والعتاب والوصف. ففي الاعتذار والعتاب يستلهم عقله الخصب، وذهنه الثاقب، لاستئلال الحقد من نفس صاحبه عليه كقوله يُعاتب أبا دُلْفَ العَجَلِيّ، ويعتذر إليه، وقد استشفع عنده صديقه حُمَيْدُ الطُّوسِيّ: لَا تُتْرَكْنِي بِبَابِ الدَّارِ مُطَرَّحاً ** فَالْحُرْلَيْسَ عَنِ الْأَحْرَارِ يَحْتَجِبُ هَبْنَا بِلا شَافِعٍ جُنْناً وَلَا سَبَبٍ ** أَلَسْتَ أَنْتَ إِلَى مَعْرُوفِكَ السَّبَبُ⁽³⁾ وصف ابن جَبَلَة عدة موصوفات كالطيف والغيث وغيرهما من الموصوفات، محاولاً الإمام بالمعنى المبتدع والفكرة الجديدة، بقوله يصف الطيف⁽⁴⁾:

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِماً ** حَذِراً مِنْ كُلِّ وَاشٍ جَزَعَا
زَائِراً نَمَّ عَلَيْهِ حُسْنُهُ ** كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْراً طَلَعَا
أسلوب شاعرنا ابن جَبَلَة يتأرجح بين السهولة والجزالة، إذ ينتخب في الغالب لقصائده ألفاظاً قريبة المعاني، ويصوغها في عبارة واضحة مستقيمة لا التواء فيها إلا في القليل النادر... ومع سهولة عبارته لا يستخدم الألفاظ العامية والعبارات الشعبية، بل يرتفع دائماً عنها، ويحرص على اللغة الفصيحة والأساليب الناصعة المتينة.

أما ديوان شاعرنا ابن جَبَلَة فلم يصل إلينا، ونهض الدكتور حُسَيْن عطوان بتحقيق ما بقي من شعره متناثراً بين مصادر الأدب والتاريخ قائلاً: (... ثم رأيتُ أن أجمع شعر علي بن جَبَلَة. وقبل أن أبدأ في جمعه أخذتُ أسأل وأبحث عن مخطوطة ديوانه، لأن ابن النديم يذكر في الفهرست أنه كان له ديوان من مائة وخمسين ورقة، ظل متداولاً بين العلماء إلى نهاية القرن

(1) شعر ابن جبلة، ص 15.

(2) نفسه، ص 15، 16.

(3) نفسه، ص 16.

(4) نفسه، ص 17، 76.

الحادي عشر الهجري، فإن عبد القادر البغدادي نصَّ في مقدمة خزنة الأدب على أنه رآه واعتمد عليه. وحين توثقت من أن مخطوطة ديوانه مفقودة، مضيتُ أجمع ما بقي من شعره من المصادر والمظان المطبوعة والمخطوطة... ولم أزل أجمع ما أثير عليه من شعره حتى اطمأننتُ إلى أنني ظفرتُ بأكثر ما حفظ منه⁽¹⁾.

المبحث الأول

مقدمة القصيدة

كَلَفَ النقاد الأقدمون بجودة مطلع القصيدة وحثوا الشعراء على تجويد مطالع قصائدهم، وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقيّاً، كان داعية إلى الاستماع لما يبيء بعده من الكلام⁽²⁾.

والشعرُ قُلٌّ أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يُجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع...، وليجعله حلوّاً سهلاً، وفخماً جزيلاً...⁽³⁾.

أما شاعرنا ابن جَبَلَة فقد أَلَمَ بضروب من المقدمات في شعره كمقدمة وصف الشيب وبكاء الشباب، والمقدمة الغزلية، والعتاب، والطللية، ووصف الطبيعة، والخمر.

أ- مقدمة وصف الشيب وبكاء الشباب:

أرسي المَعْمَرُونَ من الشعراء أصول هذه المقدمة، وألما بأكثر عناصرها غير أن أشعارهم التي تفجَّعوا فيها على شبابهم لم تكن مقدمات لقصائد طويلة، بل مقطوعات نفثوا فيها آلامهم وتمثلوا ذكرياتهم. ويبدو أن الشعراء أُعجبوا بالمعاني التي ردها المَعْمَرُونَ، أو أنها انسجمت مع واقع حياة نضر منهم بلغوا من العمر عتياً، ومروا بالتجربة نفسها، فأخذوا يرددونها في صدور قصائدهم، ثم ينفذون منها إلى موضوعاتهم وأغراضهم الأساسية⁽⁴⁾.

ولعلَّ شاعرنا ابن جَبَلَة من الذين أُعجبوا بالمعاني التي ردها المَعْمَرُونَ فما فتى يستهل غير قصيدة من شعره بوصف الشيب، ذاكرةً نزوله برأسه وازورار الجِسان عنه، وأنه لم يَرِ وقاراً يُكره كالشيب، وظلاً يُستلب كالشباب الغض، مُسْهِباً في وصف ذلكم الشباب ونضارته،

(1) شعر ابن جبلة، ص 6.

(2) الصناعتين، ص 437.

(3) العمدة 218/1.

(4) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي لحسين عطوان، ص 49.

فقد كان صاحباً عزيز المصطب، رغم أنه جعله يزهو تيماً بجماله غير أبه لحوادث الدهر ونوازله قائلاً⁽¹⁾:

رَبَعْتُ لِمُنْشُورٍ عَلَى مَفْرِقِهِ * ذَمَّ لَهَا عَهْدَ الصِّبَاحِينَ انْتَسَبَ
أَهْدَامُ شَيْبٍ جُدُّ فِي رَأْسِهِ * مَكْرُوهَةُ الْجِدَّةِ أَنْضَاءُ الْعُقُوبِ
لَمْ أَرْكَالشَّيْبِ وَقَاراً يُجْتَوَى * وَكَالشَّابِ الْغَضِّ ظِلَالاً يُسْتَلَبُ
فَنَازِلٌ لَمْ يُبْتَهَجْ بِقُرْبِهِ * وَذَاهِبٌ أَبْقَى جَوَى حِينَ ذَهَبَ
كَانَ الشَّابُّ لِمَّةً أَزْهَى بِهَا * وَصَاحِباً خُوراً عَزِيزاً الْمُصْطَبُ

وثمة مقدمة أخرى وصف فيها شاعرنا ابن جبلة الشيب، ملماً بقسمات الصورة الأولى، كيف لا وقد تحامته عيون الجسان، جافياً طرب الفتیان، غير أن الشاعر أقر مرة بأن الشيب يعني اكتمال العقل والحكمة، وأنعم به من واعظ، يقول⁽²⁾:

جَفَا طَرَبَ الْفَتِيَانِ وَهُوَ طَرَبُ * وَأَعْقَبَهُ قُرْبُ الشَّابِّ مَشَيْبُ
تَجَافَتْ عُيُونُ الْبَيْضِ عَنْهُ وَرَبَّما * مَدَدْنَ إِلَيْهِ الْوَصْلَ وَهُوَ حَبِيبُ
لَعَمْرِي لَنِعَمَ الصَّاحِبُ الشَّيْبُ وَاعْظَا * وَإِنْ كَانَ مِنْهُ لِلْعُيُونِ نُكُوبُ
خَلِيطُ نَهْيٍ مُنْتَابُ جِلْمٍ وَإِنَّهُ * عَلَى ذَاكَ مَكْرُوهُ الْخِلَاطِ مُرِيبُ

أجود ما استهل به شاعرنا ابن جبلة قصائده وصفه الشيب وبكاؤه الشباب في أجود قصائده التي مدح بها أبا دُلْفَ الْعِجْلِيِّ (ذَادُ وَرْدُ الْغِيِّ عَنْ صَدْرِهِ) ففي تلك القصيدة ذهبت نفس الشاعر حشرات على شباب مضى، ناعتاً إياه وقد تَصَرَّمت أيامه، وذوى اليانع من ثمره، لما كانت له صولات وجولات بين الفتيات النافرات. بيد أن الحشرات المتتابعات لا تُجدي نفعاً في استرجاع شباب مضى فقد احدودب الظهر كِبَرًا، يقول⁽³⁾:

ذَادُ وَرْدُ الْغِيِّ عَنْ صَدْرِهِ ** وَارْعَوَى وَاللَّهُ وَمِنْ وَطَرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا الْوَقَارَ لَهُ ** ضَحِكَاتُ الشَّيْبِ فِي شَعْرِهِ

(1) شعر ابن جبلة، ص 32-33.

(2) نفسه، ص 44.

(3) نفسه، ص 65-66.

نَدَمِي أَنَّ الشَّبَابَ مَضَى ** لَمْ أَبْلُغْهُ مَدَى أَشْرِهِ
جَارَتِ لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَنْ ** رَاحَ مَخْنِيئاً عَلَى كِبَرِهِ
وَأَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ سَلَمًا ** لَمْ أَهْجُ حَرْباً عَلَى غَيْرِهِ

ما انفك ابن جبلة يصف الشَّيْبَ في مُفْتَتِحِ قصائده، قائلًا⁽¹⁾:

رَاعَهُ الشَّيْبُ إِذْ نَزَلَ ** وَكَفَاهُ مِنَ الْعَذَلِ
وَأَنْقَضَتْ مُدَّةُ الصِّبَا ** وَأَنْقَضَى اللَّهُوَالْغَزَلُ
قَدْ لَعَمْرِي دَمَلَتْهُ ** بِخِضَابٍ فَمَا انْدَمَلْ
فَابِكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَا ** لَا عَلَى الرَّبْعِ وَالطَّلَلِ

راع الشَّيْبُ شاعرنا ابن جبلة لما وخط رأسه، منذراً إياه بانقضاء الصِّبَا وَعُفُوانِ الشَّبابِ، فقد أزف وقت اللهو والغزل، محاولاً تغيير ذلك الشَّيْبِ بالخِضَابِ ونحوه، بيد أن الشَّيْبَ يَأْبَى. فقمين بالمرء أن يبكي على شيب جَلَّ الرأس، لا على ربع خلا وطلل درس. ولعل ابن جبلة خالف في هذا المقام ما اعتاده الشاعر القديم من وصف الأطلال وبكاء الديار.

وآخر مقدمات وصف الشَّيْبِ وبكاء الشَّباب قول شاعرنا ابن جبلة⁽²⁾:

جَلالُ مَشْيٍ نَزَلَ ** وَأُنْسُ شَبَابٍ رَحَلَ
طَوَى صَاحِبٍ صَاحِبًا ** كَذَلِكَ اخْتِلَافُ الدُّوَلِ
كَأَنَّ حُسُورَ الصِّبَا ** عَنِ الشَّيْبِ حِينَ اشْتَغَلَ
زُهَا أَمَلٍ مُونِقٍ ** أَطْلَلَ عَلَيْهِ أَجَلَ
بَدَا بَدَلًا بِالشَّبابِ ** بِلَيْتِ الشَّبَابِ الْبَدَلِ
جَلالٌ وَلَكِنَّهُ ** تَحَامَاهُ حُورُ الْمُقَلِّ

بدا ابن جبلة متنازعا بين جلال الشَّيْبِ وَأُنْسِ الشَّبابِ، ففي الأول الحكمة والعظة والوقار، رغم ازورار الحسان، وفي الثاني زهو لافِتٌ لِحُورِ الْمُقَلِّ. وحاول ابن جبلة جاهداً أن يُعَرِّجِي نفسه عن رحيل الشَّباب ومُقامِ الشَّيْبِ.

(1) شعر ابن جبلة، ص 89.

(2) نفسه، ص 90.

وهكذا تبدو صور وصف الشيب وبكاء الشباب عند شاعرنا ابن جبلة متشابهة في قسماتها وإطارها العام، صورة فحواها وصف الشيب وما يتبعه من ضعف وكبر، ونفار الجِسان عن صاحبه، رغم ما فيه من الجلال والوقار. أما الشباب فقد نعتهم الشاعر بالعنفوان والزهو، واستماله قلوب الحسان، وإن تصرّمت أيامه عَجَلَى.

(ب) المقدمة الغزلية:

في شعر ابن جبلة بضع مقدمات غزليّة كقوله في مستهل قصيدة مدح بها حُمَيْدًا الطُّوسِيّ⁽¹⁾:

أَبَيْتَ فَمَا تُسْعِفُ ** وَجُرْتَ فَمَا تَنْصِفُ
وَتَحْلِفُ لِي بِالْهَوَى ** وَتَنْكُثُ مَا تَحْلِفُ
حِبَالِكَ مُنَحَلَّةً ** وَوُدُّكَ مُسْتَطَرَفُ
وَتَهْجُرُنِي وَاثِقًا ** فَثِقُ فَأَنَا الْمُدْنَفُ

خاطب شاعرنا ابن جبلة المحبوبة بضمير المذكر، ذاكراً صدودها وهجراتها، تبذل الوعد تارة وتُخلفه أخرى، ناعثاً ودّها المستطرف، وتعلّقه بحبال وصلها، وحُبّها المستكين في دواخله ملماً بشيء من وصفها الحسيّ من ثقل وهيف.

والصدود سمة تلازم محبوبة شاعرنا ابن جبلة فكَم تقيّات إساءة بحقه، ولكنها مليحة عنده، وكم استعطفها دون أن ترقّ له، يقول⁽²⁾:

تُسِيءُ وَلَا تَسْتَنْكِرُ السُّوءَ إِنَّهَا ** تُدِلُّ بِمَا تَبْلُوهُ عِنْدِي وَتَعْرِفُ
فَمِنْ أَيْنَ مَا اسْتَغْطَفْتُهَا لَا تَرْقُ لِي ** وَمِنْ أَيْنَ مَا جَرَّبْتُ صَبْرِي يَضْعُفُ

وثمة مقدمة غزلية خلّق فيها شاعرنا ابن جبلة بعيداً عن الدنيات والماديات مصوراً هُيامه بصاحبته وتعلّقه بها، وما يُقاسي من المواجد والآلام لبُعدها، وحين يسمع الناس يهتفون باسمها حتى لتكاد نفسه تنفطر حسرةً عليها، ولعلّ هذا الجانب يميّزه عن كثير من شعراء عصره الذين تدنوا في غزلهم، ومجونهم مع الجوّاري والقيان⁽³⁾.

(1) شعر ابن جبلة، ص 89.

(2) نفسه، ص 85.

(3) نفسه، ص 16.

يقول ابن جَبَلَة⁽¹⁾:

لَوْ أَنَّ لِي صَبْرَهَا أَوْ عِنْدَهَا جَزَعِي ** لَكُنْتُ أَعْلَمُ مَا آتِي وَمَا أَدْعُ
لَا أَحْمِلُ اللَّوْمَ فِيهَا وَالْغَرَامَ بِهَا ** مَا حَمَلَ اللَّهُ نَفْسًا فَوْقَ مَا تَسْعُ
إِذَا دَعَا بِاسْمِهَا دَاعٍ فَاسْمَعَنِي ** كَادَتْ لَهُ شُعْبَةٌ مِنْ مُهْجَتِي تَقْعُ

وهذه المقدمات الغزلية آنفة الذكر أُلِّمَتْ بغير قليل من حق النَّسِيب الذي ذكره ابن رشيقي القيرواني: (... أن يكون حُلُو الألفاظ، رُسُلها، قريب المعاني، سهلاً غير كَرٍّ ولا غامض،... ظاهر المعنى،... شَفَّاف الجوهر)⁽²⁾.

واستمع إليه يصف طول غرامه بصاحبته (شَكْلَة) حتَّى إنه ليرضى إذا ابتعدت منه، وصدَّت عنه أن ينظر إلى وَرْدَة تماثلها في حُسْنها وجمالها، وحتى ليزداد تعلقاً بها كلما مَطلَّته ونأَتْ بجانبها عنه، ويسعد بها كلما أمعن العُدَّال في ذمِّها، يقول⁽³⁾:

إِنِّي لَيُقْنِعُنِي تَعَهُدُ شَكْلَةً ** إِنْ حَالَ دُونَ لِقَاءِ شَكْلَةٍ حَائِلُ
وَيَزِيدُنِي كَلْفًا بِهَا هِجْرَانُهَا ** وَيَسْرُّنِي عَنْهَا الْحَدِيثُ الْبَاطِلُ
وَإِذَا تَكَلَّمَ عَاذِلٌ فِي حُبِّهَا ** أَغْرَى الْفُؤَادَ بِهَا وَرَقَّ الْعَاذِلُ

ومهما يكن من شيء، بدت المقدمات الغزلية عند شاعرنا ابن جَبَلَة مُفعمة بالهَيْام تارة، والرقّة والعذوبة تارة أخرى، بعيدة عن الإسفاف والتدنّي. موافقاً بذلك ما ذكره ابن رشيقي القيرواني في نسيب أهل الحاضرة: (... أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران، والواشين والرقباء، ومنعة الحرس والأبواب)⁽⁴⁾.

(ج) مقدمة الاعتذار والعتاب:

دَقَّق شاعرنا ابن جَبَلَة في الاعتذار والعتاب، مائلاً إلى الحِجَاج والمنطق فيهما، مستلهماً عقله الخصب، وذهنه الثاقب، لاستتال الحقد من نفس صاحبه عليه، وتجديد ما بينهما من

(1) شعر ابن جبلة، ص 78.

(2) العمدة 2/116.

(3) شعر ابن جبلة، ص 16، 97.

(4) العمدة 1/225.

المحبة والألفة، كقوله يعاتب أبا دُلف العجلي، ويعتذر إليه، وقد استشفع له عنده صديقه حُميد الطوسي⁽¹⁾.

لا تتركني بباب الدار مطرحاً ** فالحرُّ ليسَ عني الأحرارِ يَحْتَجِبُ

هَبْنَا بلا شافعٍ جُنْنا ولا سببٍ ** أَلَسْتَ أَنْتَ إلى معروفِكَ السَّبَبُ

وهو اعتذار يستوحي فيه حسَّه المُرَّهف، وحُجَّتَه البينة اللطيفة مما جعل أبا دُلف يرضى عنه ويصله⁽²⁾.

أظهر ابن جبلة في اعتذاره غير قليل من الوقار والعزَّة والكرامة مع أعظم رجال الدولة، ذاكراً صبره ورباطة جأشه، مُهْدِداً بالقطيعة والجفوة، يظهر ذلك جلياً في قوله مُعَاتِباً الحسن بن سهل وقد احتجب عنه⁽³⁾:

أَلْيَاسُ عِزُّوَالِدِلَّةُ الطَّمَعُ ** يَضِيقُ أَمْرِيَوْمًا وَيَتَّسِعُ

أَحَقُّ شَيْءٍ بِطُولِ مَهْجَرَةٍ ** مَنْ لَيْسَ فِيهِ رِيٌّ وَلَا شَبِيعُ

قُلْ لَابْنِ سَهْلٍ فَإِنِّي رَجُلٌ ** إِنْ لَمْ تَدْعُنِي فَإِنِّي أَدْعُ

أَلْيَاسُ مَالِي وَجَنَّتِي كَرَمٌ ** وَالصَّبْرُ وَالِ عَلَى لَا الْجَزَعُ

وذا عتاب استهل به شاعرنا ابن جبلة مدحه في حُميد الطوسي، عاتباً عليه تبدُّله، لما وجد برَّه قليلاً، غير آبه له، معدداً أسباب الودِّ بينه والممدوح، واعدداً إياه بأن يظل حافظاً للودِّ والعهد، ثم دلف بعد ذلك مادحاً حُميداً الطوسي قائلاً⁽⁴⁾:

بِأَيِّ مَالِكَ عَتِي ** مَائِلَ الطَّرْفِ كَلِيلَا

وَأَرَى بِرِّكَ نَزْراً ** وَتَحْفِيكَ قَلِيلَا

وَتُسَمِّيَنِي عَدُوًّا ** وَأُسَمِّيكَ خَلِيلَا

ثِقْ بَوْدٍ لَيْسَ يَفْقَى ** وَبِعَهْدٍ لَنْ يَحْوِلَا

جَعَلَ اللَّهُ حُمَيْدًا ** لِبَنِي الدُّنْيَا كَفِيلَا

(د) المقدمة الطللية:

(1) شعر ابن جبلة، ص 16، 45.

(2) انظر: الأغاني 113/18.

(3) شعر ابن جبلة، ص 17، 79.

(4) نفسه، ص 93.

أَلَمْ شَاعِرْنَا ابْنَ جَبَلَةٍ بِوصف الأطلال في مستهل قصيدة واحدة مدح بها حُمَيْدًا
الطُّوسِيَّ في يوم نَيْرُوز، قائلًا⁽¹⁾:

دَمَنْ الدَّارِ دُثُورُ ** لَيْسَ فَمِنْ مُجِيرُ
بَلَيْتُ مِنْهَا الْمَغَانِي ** مِثْلَمَا تَبْلَى السُّطُورُ
قَسَمَ الْبَيْنَ عَلَمَ ** نَ زَوَاحٍ وَبُكُورُ
فَطَوَتْ أَخْبِيَةَ الْحَيِّ ** كَمَا يُطَوَى الْحَيِيرُ
فَاسْتَجَرَّتْهُمْ فَدَوَتْ ** مِنْ نَوَى الْبَيْنِ جَرُورُ
وَبَعَيْنَيْكَ حُمُولُ الِ ** حَيِّ وَالْبَيْنُ الشَّطِيرُ
كَذُرَا النَّخْلِ أَشَاعَتْ ** زَهْوَهَا الرِّيحُ الدَّبُورُ
خُلِفَتْ بِالدَّارِ حُورُ ** وَغَدَتْ فِي الظُّلْعِ حُورُ

أقفرت الديار بعد أن تركها أهلها، فلا تجد مُجيباً فيها، وقد بليت منازلها لما تقادم عليها
الزمان، مشمهاً إياها بالسطور، ثم هبت عليها رياح الصباح والمساء طامسة آثارها. وحين أصاب
المكان جذبٌ وشدة ارتحل أهله طاوين خيامهم كطي الثوب، وقد بدت للعين هوداج تحمل
نساءً حسناً. وصورة وصف الطلل مألوفة مكررة عند جُلِّ الشعراء، بيد أن ابن جبلة لم يذكر
المواضع التي ألف الشعراء ذكرها واجترار ماضيها. وهذا يدل على أن المقدمة الطللية عند
شاعر حضري كابن جبلة تقليدٌ فيّ صرّف لا حظاً للتجربة الحقيقية فيه.

ويرى الطاهر أحمد مكّي أن المقدمة الطللية نابعة من الحنين إلى الوطن، ففي حياة
الفرد العربيّ وطنٌ متجدد متغير، وفي تذكره لأحداث الماضي تلذذ وعزاء وسلوى. والبكاء على
الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة⁽²⁾.

(هـ) مقدمة وصف الطبيعة:

وصف شاعرنا ابن جبلة الغيث مصوراً إياه تصويراً بديعاً، بين فيه كيف التفّ
السحاب الداكن من حوله، وكأنه يكتسي ثياباً رمادية، وكيف حار في السماء فإذا هو معلق بها،

(1) شعر ابن جبلة، ص 58 – 59.

(2) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، د. الطاهر أحمد مكّي ص 260-261 (بتصرف).

تميل الرياح نحو اليمين، ونحو الشمال، وما تزال به حتى يدنو من الأرض. وهو غيث يزخر بالماء، وتجد الأرض بخيراته الواسعة التي تخصب معها وتمرع، يقول⁽¹⁾:

وَعَيْثُ تَأَلَّفَهُ نَوُوهُ ** فَأَلْبَسَهُ غَلَاً أَرْبَدَا
تَظَلُّ الرِّيحُ تَهَادِي بِهِ ** إِذَا مَا تَحَيَّرَ أَوْ عَرَّدَا
صَدُوقُ الْمُخِيلَةِ دَانِي الظِّلَا ** لِي قَدْ وَعَدَ الْأَرْضُ أَنْ تَرْغَدَا

أجل، أكثر الشعراء من وصف الطبيعة في مستهل قصائدهم متحركة تارة وساكنة تارة أخرى، ولكن شاعرنا ابن جبلة - في شعره الذي وصل إلينا - ألم بوصفها في موضع واحد (وغيث... الأبيات) وربما سقط شعره في وصف الطبيعة من يد الزمان.

(و) مقدمة وصف الخمر:

في شعر ابن جبلة وصف للخمر في مستهل مدحة خص بها حميداً الطوسي، فيها المعنى الطريف والصورة النادرة، مُعَلِّلاً عكوفه على الخمر وانغماسه فيها، قائلاً⁽²⁾:

عَلَّلَانِي بِصَفْوَمَا فِي الدِّنَانِ ** وَاتْرُكَا مَا يَقُولُهُ الْعَاذِلَانِ
وَاسْبِقَا فَاجِعَ الْمَنِيَّةِ بِالْعَيْ ** شِي فَكُلُّ عَلَى الْجَدِيدَيْنِ فَانِي
عَلَّلَانِي بِشَرْبَةِ تُذْهِبُ الْهَ ** مَ وَتَنْفِي طَوَارِقَ الْأَحْزَانِ
وَكُؤُوسٌ تَجْرِي بِمَاءِ كُرُومٍ ** وَمَطِيُّ الْكُؤُوسِ أَيْدِي الْقِيَانِ

زعم ابن جبلة بأنه يشرب الخمر، ويحضر مجالس اللهو، ويستمتع إلى الغناء تخففاً من ثقال الحياة، وخطوب الزمان، واغتناماً للسوانح وهو في ريعان الشباب قبل الشيخوخة والهلاك. وزعم ابن جبلة يُفَيِّدُهُ أَبُو الْعَلَاءِ الْمُعَرِّيُّ وَهُوَ يُنْصَفُ الْخَمْرُ ذِمًّا، قائلاً: "لُعِنْتُ الْقَهْوَةَ، فلم تهبط بها رَهْوَةٌ، لا خير في الخمر، توطئ على مثل الجمر، من اصطبح فَيَهْجَأَ، فقد سلك إلى الداهية منهجاً، من اغتبق أُمَّ لَيْلَى، فقد سحب في الباطل ذَيْلاً..."⁽³⁾.

(1) شعر ابن جبلة، ص 18، 48.

(2) شعر ابن جبلة، ص 19 - 20، 112 - 113.

(3) رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، بتحقيق محمد عزت نصرالله، ص 290.

وأفضل من ذلك كله قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ (1).

آراء النقاد الأقدمين في المقدمات:

في مصادر النقد القديم فصول كثيرة، طويلة وقصيرة، تحدث فيها الأقدمون عن افتتاحات القصائد يغلب على مادتها أنها مكررة، عُتِنوا فيها بمطالع القصائد لا بمقدماتها، وهي ملاحظات تارة ونصائح تارة أخرى، وقد ذكرتُ شيئاً يسيراً من تلكم الملاحظات والنصائح في مستهل الحديث عن المقدمات (2).

آراء النقاد المحدثين في المقدمات:

كُفِّ النقد المحدثون من العرب والمستشرقين بدراسة ظاهرة المقدمات في القصيدة العربية، فهذا المستشرق الألمانيُّ (فالتر براون) الذي جعل المقدمة الطللية تعبيراً عن مصير الإنسان وموقفه من مُعَمَّيات الحياة، وعناصر الكون من فناء وبقاء (3). أما يوسف خُليف فقد ردَّ المقدمات جميعاً إلى فكرة الفراغ في المجتمع الجاهليِّ الرعويِّ، وأنها كانت الفرصة الوحيدة التي أُتيحت للشعراء كي يعبروا عن أنفسهم (4). ويرى الدكتور حسين عطوان أن المقدمات جميعاً لا تعدو أن تكون ذكريات وضرباً من الحنين إلى الماضي والنزاع إليه... فإن المقدمات ثمرة البيئة التي درج الشعراء على أرضها وألفوا نمط حياتها (5).

(1) سورة البقرة الآية 219.

(2) انظر على سبيل المثال لا الحصر: الصناعتين ص 437، والعمدة 218/1، 219، 221، 222، وغيار الشعر، ص 126، 127.

(3) انظر: مقالته الموسومة (الوجودية في الجاهلية) في مجلة المعرفة السورية، السنة الثانية، العدد الرابع، يونيو 1963م، ص 156-161. (نقلاً عن مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليِّ لحسين عطوان ص 159-160).

(4) انظر: دراسة الدكتور يوسف خُليف في مجلة (المجلة) العدد 98، ص 16-22، والعدد 110، ص 35-44، والعدد 104، عام 1965م، ص 4-15. (نقلاً عن مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليِّ، ص 160-161).

(5) انظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليِّ، ص 227-239.

ولعل رأي عطوان أقرب إلى فهم ظاهرة المقدمات في القصيدة العربية فالشاعر لا ينفك يجتُر ذكريات الماضي، ذاكرةً حنينه إليه، مصطحباً البيئة ونمط حياتها. إنَّ المقدمات قديمها وحديثها كانت تقليداً استغله الشعراء لتصوير حياتهم العاطفية، والفكرية والتعبير عن تأثرهم بها، ومواقفهم منها، كما احتفظوا لها بالحيوية والتجدد⁽¹⁾.

المبحث الثاني

التخلص

التخلص هو انتقال الشاعر من المقدمة إلى موضوع القصيدة بطريقة بارعة لا يشعر فيها السامع بمفاجأة الانتقال، وهو قسمان:

(أ) التخلص الحسن: هو ما ينبغي لكل متكلم من شاعر أو خطيب إذا كان قد أتى بما يصلح من الافتتاحات الحسنة فلا بد من مراعاة التخلص الحسن، لأنه لا بد له من تقديم الغزل، أو ذكر الفخر، أو ذكر أطروفة بأدب، ثم يذكر على أثره المدح...⁽²⁾. وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه⁽³⁾.

(ب) التخلص المفاجئ: كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها، والوجد بفراق ساكنها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: فدع ذا وسلّ الهم عنك بكذا... وربما تركوا المعنى الأول وقالوا: (وعيس أو هوجاء) وما أشبه ذلك⁽⁴⁾.

تخلص ابن جبلة تخلصاً جيداً في بعض قصائده المادحة، مُلماً بكثير من شروط التخلص الحسن، من ذلك تخلصه إلى مدح أبي دُلَف العجليّ بعد أن ابتدر القصيدة بوصف الشَّيْب، ذاكرةً المحبوبة، دالفاً إلى غرضه الرئيس، قائلاً⁽⁵⁾:

رَبَعَتْ لِمَنْشُورٍ عَلَى مَفْرِقِهِ ** ذَمَّ لَهَا عَهْدَ الصَّبَاحِينَ انْتَسَبَ⁽⁶⁾

..... **

(1) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي، الثاني ص 399.

(2) كتاب الطراز للعلوي اليميني 179/3.

(3) العمدة 237/1.

(4) الصناعتين، ص 452.

(5) شعر ابن جبلة، ص 32.

(6) نفسه، ص 33.

وَأَذْعَرَ الرَّبِّبَ عَنِ أَطْفَالِهِ ** بِأَعْوَجِي دُلْفِي الْمُنْتَسَبِ

فكان تخلّصه سلساً لم يشعر القارئ والسامع بمفاجأة الانتقال من مقدمة القصيدة إلى موضوعها الرئيس.

ومن التخلّصات الحسنة قول ابن جبلة يمدح حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ⁽¹⁾:

دِمَمْنُ الدَّارِ دُثُورُ ** لَيْسَ فَمِنْ مُجِيرُ⁽²⁾

..... **

وَأَزُورُ الْكَاعِبَ الْخَوُ ** دَتُورِهَا السُّتُورُ⁽³⁾

لِحُمَيْدٍ وَحُمَيْدٌ ** قَمَرُ الْأَرْضِ الْمُنِيرُ⁽⁴⁾

ويظهر مما تقدم بدء القصيدة بوصف الأطلال، وذكر المحبوبة ثم التخلّص لمدح الممدوح بطريقة بارعة (لِحُمَيْدٍ وَحُمَيْدٌ... البيت).

وثمة قصيدة أخرى حظيت بحسن التخلّص مدح فيها ابن جبلة ممدوحه عبدالله بن طاهر، مُبتدراً إياها بوصف الشيب، متخلّصاً لمدح الممدوح قائلاً⁽⁵⁾:

رَاعَهُ الشَّيْبُ إِذْ نَزَلَ ** وَكَفَاهُ مِنَ الْعَذَلِ

وَصَلَّ اللَّهُ لِلْأَمِيهِ ** رِعْرَى الْمَلِكِ فَاتَّصَلَ

ومن التخلّصات الجيدة أيضاً قول ابن جبلة يمدح حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ⁽⁶⁾:

بِأَبِي مَالِكٍ عَنِّي ** مَائِلَ الطَّرْفِ كَلِيلًا

جَعَلَ اللَّهُ حُمَيْدًا ** لِبَنِي الدُّنْيَا كَفِيلًا

وبعد عتاب في مُفتتح القصيدة تخلّص ابن جبلة للمدح بشيء من براعة الانتقال، غير أن ابن جبلة لم يُوفّق في التخلّص في موضعين من شعره، الأول قصيدته في مدح أبي دُلْفٍ

(1) شعر ابن الجبلية، ص 59.

(2) نفسه والصفحة نفسها.

(3) نفسه، ص 60.

(4) نفسه، ص 89.

(5) نفسه، ص 93.

(6) شعر ابن جبلة، ص 93.

العَجَلِيَّ التي تُعد أجود قصائده، مستهلاً إياها بحديث مُفعم بالحسرة على أيام الشباب التي انقضت عَجَلِيَّ، وأعقبها أيام شيب وضعف وهرم، قائلاً⁽¹⁾:

ذَا دَ وَرُدُّ الْغَيِّ عَنْ صَدْرِهِ ** وَازْعَوَى وَاللَّهُ مِنْ وَطَرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا الْوَقَارَ لَهُ ** ضَحَكَتُ الشَّيْبَ فِي شَعْرِهِ
نَدَمِي أَنَّ الشَّبَابَ مَضَى ** لَمْ أُبْلِغْهُ مَدَى أَشْرِهِ

وبعد مقدمة طويلة عن الشيب والشباب تخلّص ابن جبلة تخلّصاً مفاجئاً على طريقة القدماء (دع ذا)، يقول⁽²⁾:

دَعْ جَدَا فَخَطَّانَ أَوْ مُضَرِّ ** فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ
وَامْتَدِّحْ مِنْ وَايِلِ رَجُلًا ** عَصَرَ الْأَفَاقِ مِنْ عَصَرِهِ

والموضع الثاني الذي تخلّص فيه ابن جبلة تخلّصاً مفاجئاً، ولكن ليس على طريقة القدماء، مُفتتحاً قصيدته بالغزل، منتقلاً إلى غرضه الرئيس مادحاً حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ بلا تمهيد لهذا الانتقال، قائلاً⁽³⁾:

أَبَيْتَ فَمَا تُسْعِفُ ** وَجُرْتَ فَمَا تَنْصِفُ
وَتَخْلِفُ لِي بِالْهَوَى ** وَتَنْكُثُ مَا تَخْلِفُ
حُمَيْدُ أَبُو غَانِمٍ ** لَهُ الشَّرْفُ الْأَشْرَفُ

وفي مواضع أخرى باشر ابن جبلة موضوعه دون التقديم له بمقدمة، ومن تلكم المواضع قوله⁽⁴⁾:

جَعَلَ اللَّهُ مَدْخَلَ الصَّوْمِ قَوْزًا ** لِحُمَيْدٍ وَمُنْعَةً فِي الْبَقَاءِ

وقوله⁽⁵⁾:

غَدَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُؤْمِنُهُ ** أَبُو غَانِمٍ غَدَا نَدَى وَالسَّحَابِ

(1) نفسه، ص 65.

(2) شعر ابن جبلة، ص 67.

(3) نفسه، ص 86.

(4) شعر ابن جبلة، ص 30.

(5) نفسه، ص 41.

وقوله⁽¹⁾:

بِطَاعَةِ اللَّهِ طُلَّتِ النَّاسَ كُلُّهُمْ ** وَنُصِّحَ هَادٍ أَمِينُ الْمَلِكِ مَأْمُونٍ
حُمَيْدٌ يَا قَاسِمَ الدُّنْيَا بِنَائِلِهِ ** وَسَيَفِيهِ يَنْ أَهْلَ النُّكْثِ وَالْدِّينِ

ومما لا ريب فيه أن جُلَّ قصائد شاعرنا ابن جَبَلَةَ نالت حظها من حُسْنِ التخلّص. لا غَرْوَ فحُسْنُ التخلّص يكثر وجوده في أشعار المتأخرين... ويعزُّ وجوده في قصائد المتقدمين⁽²⁾. وهو ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم⁽³⁾.

المبحث الثالث

خاتمة القصيدة

الانتهاء قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحْكَمًا، لا تمكن الزيادة عليه، لا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قُفْلًا له⁽⁴⁾.

وينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتيم، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع... فالخاتمة في كلِّ شيء هي العُمدة في محاسنه، والغاية في كماله⁽⁵⁾.

وبعد حديث النقاد الأقدمين عن خاتمة القصيدة وشروط جودتها، حقيق بي أن أُطَبِّقَه في خواتيم شاعرنا ابن جَبَلَةَ، ولأسيما في قصائده المادحة التي أَلَمَّتْ بغير قليل من شروط جودة الخاتمة، مادحاً حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ وأبا دُلْفَ العِجْلِيَّ، ذاكراً كرم مَحْتَدِهِمَا ونائِلِهِمَا الغَمْرَ. فمن ذلك قوله مادحاً حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ جاعلاً إياه مصدراً أصيلاً من مصادر الكرم الفَيَّاضِ، فالناس يتشبهون به، وقد قَيَّضَ اللَّهُ جَلَّ وعلا لَحُمَيْدٍ نعمة إطفام الناس، ولذا أحاطت الخاتمة بكرم الممدوح وعطاياه الجَمَّة، موحية بانتهاء الكلام⁽⁶⁾:

مَلِكٌ يَأْمَلُ الْعِبَادُ نَدَاهُ ** مِثْلُ مَا يَأْمَلُونَ قَطْرَ السَّمَاءِ
صَاغَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ فِي الْأَرْزِ ** ضِيَّ صَبَاغِ السَّحَابِ لِلْإِسْقَاءِ

(1) نفسه، ص 111.

(2) انظر: كتاب الطراز للعلوي اليميني 181/3-182.

(3) انظر: عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ص 115-118.

(4) العمدة 239/1.

(5) كتاب الطراز للعلوي اليميني 183/3-184.

(6) شعر ابن جَبَلَةَ، ص 30.

ولمّا كان حُمَيْدُ الطُّوسِيّ قائداً بطالاً لا يُشْقُّ له غُبار، وجد ابن جَبَلَة في تلك الصفات
مجالاً رحباً للتغني بها، فلحُمَيْد مكارم جَمَّة، كرمًا تارة، وبطشاً بالأعداء تارة أخرى، يقول ابن
جَبَلَة مُرْتَجِزاً⁽¹⁾:

أَفَنَتُ مَسَاعِيهِ حِسَابَ الْعَدِّ ** لَهُ بِكُلِّ أَكْمَةٍ وَوَهْدٍ
سَحَابَةٌ تُغْنِي وَأُخْرَى تُزْدِي ** كَالدَّهْرِ يَعْدُو مَرَّةً وَيُعْدي
وَيُسْتَحِيلُ مَعْلَمًا وَيَهْدِي

هذه الأسطار أوحى بانتهاء الكلام وكانت قُفْلاً له، ولعلَّ صداها يبقى في الأسماع، لا
ينفك يُرَدِّد صفات حُمَيْدِ الطُّوسِيّ.

ومن الخواتيم الجيدة أيضاً قول ابن جَبَلَة يمدح حُمَيْدًا الطُّوسِيّ مُلَمًّا بكثير من شروط
جودة الخاتمة التي ألحَّ عليها النقاد الأقدمون كثيراً⁽²⁾:

وَقَحْطَانُ تَبَيَّ بِهٍ ** وَتَبَيَّ بِهٍ خِنْدِفُ
وَتُضْحِي بِهٍ طَيِّءٌ ** عَلَى غَيْرِهَا تَشْرَفُ

وقوله أيضاً⁽³⁾:

أَصْبَحْتَ لِلْمُلْكِ عِرْنِينًا تَقُومُ بِهٍ ** يَوْمَ الْكَرِيمَةِ جَدَّاعَ الْعَرَانِينِ
مُهْدِي لَكَ الْمَدْحَ مَوْزُونًا مُحَبَّرَةً ** وَتُكْسِبُنَا عَطَاءً غَيْرَ مَوْزُونِ

ففي الخاتمتين أنفقتي الذكر صفات مدح جَمَّة، فحُمَيْد رمز الفخار والسؤدد والعزة،
فكم تباهت به قحطان وخندف، وبزّت به طيئ غيّرهما من القبائل. مُوْطِدًا أركان الملك ببأسه
ورباطة جأشه في الملمات والنوازل. فقمين بشاعرنا ابن جَبَلَة أن يمدح ممدوحه بشعر موزون
مُحَبَّر، كيف لا وعطاؤه لا تحدّه حدود. ولذا جمعت الخاتمتان كثيراً من شروط الجودة؛ لأنهما
حوتا حسن المعنى، وصفاء اللفظ، وأوحتا بانتهاء الكلام.

وثمة معنى أكثر منه ابن جَبَلَة في خواتيم قصائده وصفه ممدوحه بالرأس وغيره
بالذنب، كقوله يمدح أبا دُلْف العِجْلِيَّ⁽⁴⁾:

(1) شعر ابن جبلة، ص 53.

(2) نفسه، ص 87.

(3) نفسه، ص 111.

(4) شعر ابن جَبَلَة، ص 36.

وَأَثَوِي الْأَرْضِ أَوْ اسْتَفْزِزِيهَا ** أَنْتَ عَلَيَا الرَّأْسِ وَالنَّاسُ الذَّنْبُ

وقوله يمدح حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ⁽¹⁾:

تَنَاهَتْ بِكَ قَحْطَانُ ** إِلَى الْغَايَةِ وَالْحَسَبِ

فَفَاتَتْ شَرَفَ الْأَحْيَا ** فَوَتْ الرَّأْسَ لِلْعَجَبِ

وقوله يمدح حُمَيْدًا أَيْضًا⁽²⁾:

وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى ** رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ

مقصد الشاعر أن يجعل ممدوحه في مكان عالٍ كموضع الرأس في الجسد، وغيره تابعاً متأخراً كالذنب. وإن بدا المعنى مكرراً مألوفاً عند العامة دعك عن الخاصة، فإن ابن جبلة أراد أن يختم قصائده تلك بتقديم ممدوحه على غيره.

ختم شاعرنا ابن جبلة بعضاً من قصائده، داعياً لممدوحه أبي دلف العجليّ وحُمَيْد الطُّوسِيَّ قائلاً⁽³⁾:

أَبَا دُلْفٍ بُورِكَتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ** كَمَا بُورِكَتَ فِي شَهْرِهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ

ثم قال في مدح حُمَيْد⁽⁴⁾:

وَقَلِيلٌ مِنْ أَيَادِي ** لَكَ عَلَى النَّاسِ كَثِيرُ

فَاقْبِ مَا عُدَّ مِنَ الدَّهْرِ ** رِ سُنُوهُ وَالشُّهُورُ

دعا ابن جبلة لممدوحه أبي دلف العجليّ بالبركة والخير الكثير، كما بارك الحقُّ جَلَّ وعلا في ليلة القدر التي تفضل ألف شهر، ودعا لممدوحه حُمَيْد الطُّوسِيَّ بالبقاء حيّاً على مر الدهور والسنين.

أجل، لقد كره الخُذَّاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء؛ لأنه من عمل أهل الضعف، إلا الملوك فإنهم يشتهون ذلك⁽¹⁾.

(1) شعر ابن جبلة، ص40.

(2) نفسه، ص74.

(3) نفسه، ص55.

(4) نفسه، ص63.

ورغم أن أبا دلف العجليّ وحُميداً الطوسيّ ليسا مَلِكَيْنِ، ولكنهما قائدان كبيران قمينان بالدعاء لهما، ولعلّ هذا يُسوِّغ لابن جبلة أن يختم قصيدتيه آنفيّ الذكر بالدعاء. ختم شاعرنا ابن جبلة بعضاً من قصائده بخواتيم مفتوحة لا توجي بانتهاء الكلام ومن ثمّ لا تكون قُفْلاً له، من ذلك قوله مُجيباً محمد بن عبد الملك الزيات⁽²⁾:

أَقْصِرْ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْ سَطْوَةٍ جَمَحَتْ ** إِنَّ لَا تُقْصِرُ بِهَا مَالَتْ إِلَى الْقِصْرِ

نبى الشاعر ابن الزيات عن تطاول سطوته، مُحذِراً إياه من عواقبها، فبدت الخاتمة مفتقرةً لكلام يأتي بعدها يكون قُفْلاً لها.

ومن الخواتيم المفتوحة قول ابن جبلة يمدح عبدالله بن طاهر⁽³⁾:

لَيْتَهُ حِينَ جَادَ لِي ** بِالْغِي جَادَ بِالْقَفْلِ

فالخاتمة تبدو مفتوحة، والنفس راغبة في إتمام الشاعر لذلك التميّ بعودة الممدوح إليه.

وثمة خاتمة مفتوحة لما وصف ابن جبلة خيل ممدوحه أبي دلف العجليّ، قائلاً⁽⁴⁾:

كَأَنَّ حَيْلَكَ فِي أَثْنَاءِ غَمَرَتِهَا ** أَرْسَالُ قَطْرِ تَهَايَ فَوْقَ أَرْسَالِ

يَخْرُجْنَ مِنْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ سَامِيَةً ** نَشْرُ الْأَنَامِلِ مِنْ ذِي الْقِرَّةِ الصَّالِي

مُشَبَّهاً الخيل وهي تندفع في حومة المعركة بأقصى سرعتها فوجاً تلو فوج بدفعات الغيث التي تهلّ واحدة بعد أخرى، ثم شَبَّهَ كلَّ جماعة منها وهي تظهر من بين أستار الغبار المتطاير في جو المعركة، وبعضها يسبق بعضاً بمسافات قصيرة بأصابع المِقْرُور الذي فردها لينال حظاً أوفر من الدفء، فإذا هي مستوية متوازية إلّا ما يبدو من فروق طبيعية بينها، تتمثل في طول بعضها وقصر سائرهما. وقد أخذ شاعرنا ابن جبلة هذا المعنى في بيتيه آنفيّ الذكر من الأسعر الجُعْفِيّ حين وصف الخيل قائلاً:

يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الْغُبَارِ عَوَاسِئاً ** كَأَصَابِعِ الْمَقْرُورِ أَقْعَى فَاصْطَلَى⁽¹⁾

(1) العمدة 241/1.

(2) شعر ابن جبلة، ص 56.

(3) نفسه، ص 89.

(4) نفسه، ص 96.

وعلى الرغم من جودة التشبيه في بيتي ابن جبلة، لكنَّ الخاتمة لم توحِ بانتهاء الكلام فبدأ مفتقراً لِقُلِّ.

والخاتمة المفتوحة بدت واضحة في أمِّ قصائد ابن جبلة التي مدح بها أبا دُلف العجليّ (ذاذَ وَرْدُ الغَيِّ عَن صَدْرِهِ...)، إذ ختمها الشاعر بخاتمة مفتوحة قائلاً⁽²⁾:

وَطَغَى حَتَّى رَفَعَتْ لَهُ ** خُطَّةً شَنْعَاءَ مِنْ ذِكْرِهِ

أراد ابن جبلة وصف عقوبة أبي دُلف التي أنزلها بصعلوك عاثَ في عمله يُدعى (قُرْقُور) وقد قضي عليه أبو دُلف، يقول⁽³⁾:

وَيَقْرُقُورٍ (3) أَذْرَتْ رَحَا ** وَفَعَةٍ فَلَّتْ شَبَا أَشْرِهِ

والخاتمة المفتوحة لا تغمط هذه القصيدة حقّها، فقد قرّظها غير ناقد كابن المعتز، واصفاً إياها بالغراء التي سارت في العرب والعجم⁽⁴⁾. وبأنها سارت مسير الشمس والريح⁽⁵⁾. وذكرها أبو الفرج الأصفهانيُّ بأنها من جيّد شعره وحسن مدائحه⁽⁶⁾.

والخاتمة المفتوحة في أمِّ قصائد ابن جبلة ترجع إلى إسهابه في وصف عقوبة أبي دُلف التي أنزلها بالصعلوك (قُرْقُور)، وليس شاعرنا ابن جبلة يبدع في هذا، فمن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفيس بها متعلّقة، وفيها رغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة، ألا ترى معلقة امرئ القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر، كأنَّ السَّبَاع... البيت، فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلّقات، وهي أفضلها⁽⁷⁾.

ولنا أن نقيس معلقة امرئ القيس في جودة مطلعها، وعدم جودة خاتمتها برائية ابن جبلة (أمِّ قصائده) لما ختمها بخاتمة مفتوحة.

(1) انظر: ديوان المعاني 106/2، والشعر والشعراء بتحقيق أحمد محمّد شاكر 867/2، وشعر ابن جبلة، ص23-24.

(2) شعر ابن جبلة، ص70.

(3) نفسه والصفحة نفسها.

(4) طبقات الشعراء لابن المعتز، ص171.

(5) نفسه، ص178.

(6) الأغاني 254/8.

(7) العمدة 241-240/1.

ومما تقدم ذكره من خواتيم شاعرنا ابن جبلة يتضح أنها أَلّت بكثير من شروط جودة الخاتمة، وبدا بعضها الآخر مفتوحاً لا يُوحى بانتهاء الكلام، وتبدو خواتيمه الجيدة أوفر عدداً وأرجح كفة من غيرها.

المبحث الرابع

وحدة القصيدة

يُقصد بالوحدة في القصيدة وحدة الموضوع، أو وحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع. وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير، والمشاعر وهو ما يُسمى بالوحدة العضوية⁽¹⁾.

وفي مصادر الأدب ومراجعته حديث جم عن وحدة القصيدة بدءاً من ابن طباطبا العلوي⁽²⁾، والحاتي⁽³⁾، وصولاً إلى النقاد المحدثين مثل طه حسين⁽⁴⁾، وشوقي ضيف⁽⁵⁾، ومحمد غنيمي هلال⁽⁶⁾، وحسين عطوان⁽⁷⁾.

أما وحدة القصيدة عند شاعرنا ابن جبلة فتوجد في قصيدة واحدة رثى بها حميداً الطوسي⁽⁸⁾ مطلعها:

أَلْدَهْرُ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَجْزَعُ ** وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُفَجَّعُ

وقد قرّظها أبو الفرج الأصفهاني قائلاً: "هي من نادر الشعر وبديعه..."⁽⁹⁾. وقال عنها أيضاً: "وإنما ذكرت هذه القصيدة على طولها؛ لجودتها وكثرة نادرتها، وقد أخذ البحري أكثر

(1) النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر (د.ت)، ص 373.

(2) عيار الشعر، ص 131.

(3) العمدة 2/117.

(4) حديث الأربعاء، د. طه حسين، طبع دار المعارف - مصر، ط 2 (د.ت) 1/31-32.

(5) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف - مصر، ط 1960، 3، ص 226.

(6) النقد الأدبي الحديث، ص 375-376.

(7) مقالات في الشعر والنقد، د. حسين عطوان، دار الجيل - بيروت، ط 1، م 1987، ص 215.

(8) شعر ابن جبلة، ص 81.

(9) الأغاني 18/107.

معانيها فسلخها، وجعلها في قصيدتيه اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغري: انظر إلى العليا كيف تُضام...⁽¹⁾.

رثى ابنُ جَبَلَة حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ، مُظهِراً براعة في الرثاء، مُعْزِياً جمهور العرب في ما أصابهم من الحادث الجلل، ذاكرةً الحزن والألم المُمض لوفاة حُمَيْد، مُرَدِّداً أن ابنه مُحَمَّداً هو خير خَلَفَ له، وأن الله رَأبُ صدع الأُمَّةِ به، لأنه ورث عن أبيه كلَّ خصاله من البسالة والشهامة والقيادة الحكيمة، مؤبناً إياه، مُعِدِّداً شَمائله من إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، وحماية الأعراض وقيادة الكتائب، والانتصار على الأعداء، والصمود إزاء أشد المحن⁽²⁾. يقول ابن جَبَلَة⁽³⁾:

أَلَمْ تَرِ لِلْأَيَّامِ كَيْفَ تَصَرَّمَتْ * بِهِ، وَبِهِ كَانَتْ تُذَادُ وَتُدْفَعُ
وَكَيْفَ التَّقَى مَثْوَى مِنَ الْأَرْضِ ضَيِّقُ * عَلَى جَبَلٍ كَانَتْ بِهِ الْأَرْضُ تُمْنَعُ
لَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُ انْقَضَى الْعُلَا * وَأَضْحَى بِهِ أَنْفُ النَّدَى وَهُوَ أَجْدَعُ
هُوَ جَبَلُ الدُّنْيَا الْمَنِيْعُ وَغَيْثُهَا ال * مَرِيْعُ وَحَامِيهَا الْكَمِي الْمُسَيْعُ⁽⁴⁾
بَكَى فَقَدَهُ رُوحُ الْحَيَاةِ كَمَا بَكَى * نَدَاهُ النَّدَى وَابْنُ السَّبِيلِ الْمُدْفَعُ
وَفَارَقَتْ الْبَيْضُ الْخُدُورَ وَأُبْرِرَتْ * عَوَاطِلَ حَسْرَى بَعْدَهُ لَا تَقْنَعُ
وَقَدْ رَأَبَ اللَّهُ الْمَلَا بِمُحَمَّدٍ * وَبِالْأَصْلِ يَنْمَى فَرْعُهُ الْمُتَفَرِّعُ
أَغْرَعْلَى أَسْفَا فِيهِ وَرِمَاجِهِ * تُقَسِّمُ أَنْفَالُ الْخَمِيسِ وَتُجْمَعُ
حَوَى عَنْ أَبِيهِ بِذَلِكَ رَاحَتِهِ النَّدَى * وَطَعْنَ الْكُلَى وَالزَّاعِبِيَّةُ شُرْعُ⁽⁵⁾

في القصيدة وحدة شعور حزين من مفتحتها إلى خاتمتها؛ لأنها لم تخرج عن معاني الرثاء قيد أنملة، فبدت مترابطة الأجزاء، مُلَمَّةً بضروب الرثاء، نَدْباً وتَأْيِيناً تارة، وعزاءً تارة أخرى. ولا توجد وحدة في شعر ابن جَبَلَة خلا هذه القصيدة، ولعل ذلك يرجع إلى أنه صنع صنيع الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وشعراء عصره من العباسيين في قصائدهم المادحة، مستملاً إياها بمقدمات تقليدية، مُزَاجاً بين مذهب القدماء ومذهب الشعراء المعاصرين له،

(1) الأغاني 108/18.

(2) شعر ابن جَبَلَة، ص 14 (بتصرف).

(3) نفسه، ص 81.

(4) نفسه، ص 82.

(5) نفسه، ص 83، الزاعبية: رماح منسوبة إلى زاعب وهو رجل من الخزرج كان يصنعها. (لسان العرب: زعب).

فضلاً عن أنه نظم كثيراً من شعره في شكل مقطوعات. كلُّ ذلك باعد بينه وبين وحدة القصيدة، وهذا يدلُّ على أن شاعرنا ابن جبلة أخذ من القديم نصيباً ومن شعراء عصره نصيباً آخر.

أهم نتائج الدراسة

1- استهل ابن جبلة بعضاً من قصائده بوصف الشيب وبكاء الشباب، وبدأ متنازِعاً بين المشيب وأنس الشباب، ففي الأول الحكمة والعظة والوقار رغم ازورار الجِسان، وفي الثاني زهو لافت لُحُور المُقل. مُعزِّياً نفسه عن رحيل الشباب ومُقام المشيب. داعياً إلى بكاء الشباب لا إلى الربيع والطلل، مخالفاً ما اعتاده الشاعر القديم من ذكر الأطلال وبكاء الديار.

2- افتتح ابن جبلة أيضاً بعضاً من قصائده بمقدمات غزلية، مُفعمة بالهيام والرقّة والعدوبة بعيدة عن الإسفاف والتدني. بادئاً قصيدة من شعره بوصف الأطلال- رغم مناداته بتركها - دون إكثار من حشد الرسوم البدوية، ولعلَّ المقدمة كانت تقليداً فنياً صِرْفاً لا حظاً للتجربة الحقيقية فيها، كيف لا والشاعر حضريٌّ مُوغل في الحضارة البغدادية.

3- مال ابن جبلة في مقدمة الاعتذار والعتاب إلى الجِجاج والمنطق مُستلهماً عقله الخصب وذهنه الثاقب مستلماً السخيمة من نفس ممدوحه أبي دُلف حين غضب عليه، وحيناً كان ابن جبلة يبتدر القصيدة بالاعتذار والعتاب، مُظهرًا الوقار والعزة والكرامة مع أعظم رجال الدولة ذاكرًا صبره ورباطة جأشه، مُهدداً بالقطيعة والجفوة.

4- أَلَمَّ ابنُ جبلة بمقدمة وصف الطبيعة، واصفاً الغيث وصفاً بديعاً، ذاكرًا السحاب الداكن، وكأنه اكتسب ثياباً رمادية. كما أَلَمَّ أيضاً في مقدماته بوصف الخمر، زاعماً أنها تُخَفِّف عنه أثقال الحياة وخطوب الزمان.

5- في شعر ابن جبلة تَخَلُّصاتٌ جيّدة للغاية، تَخَلَّص فيها الشاعر إلى غرضه الرئيس بطريقة بارعة، ولم يسمت سَمَتَ القدماء في تَخَلُّصاتهم على طريقة (دع ذا) (وعيس بريناه) إلّا في موضع واحد، مادحاً أبا دُلف العِجْلِيَّ، ثم تَخَلَّص بطريقة مفاجئة مادحاً حُمَيْداً الطُوسِيَّ لا على طريقة القدماء، ولكنه انتقال مفاجئ. ولعله أسهب في مقدمتي القصيدتين مما جعله يتخَلَّص تَخَلُّصاً مفاجئاً. وكان ابن جبلة في بعض قصائده يباشر موضوعه دون مقدمات.

6- ختم ابن جبلة جُلَّ قصائده بخواتيم جيّدة أوحى بانتهاء الكلام، وكانت قُفلاً له. كما ختم بعضاً منها بخواتيم مفتوحة لا توحى بانتهاء الكلام، في مقدمتها خاتمة قصيدته الرائية (وطغى حتى رفعت له...) وختم قصيدتين بخاتمتين تضمنتا الدعاء لممدوحه أبي دُلف العِجْلِيَّ

وَحُمَيْدِ الطُّوسِيِّ، رغم أن الحُدَّاق من الشعراء كرهوا ختم القصيدة بالدعاء إلا للملوك، وابن جبلة كان قد رفع ممدوحه فوق الملوك، ولذا فحريُّ به أن يدعو لهما.

7- نصيب وحدة القصيدة يسير جدًّا في شعر ابن جبلة، إذ توجد وحدة شعور في مرثيته (ألدهر تبكي أم على الدهر تجزع...) التي رثى بها حُمَيْدًا الطُّوسِيَّ، مُعَرِّيًا جمهور العرب في فقدهم الجلل مؤتياً إياه، مُعَدِّداً شمائله. وقلة وحدة القصيدة في شعر ابن جبلة تدل على أنه كان ينهج نهج الشاعر القديم في استهلال قصائده بمقدمات شتى، وإن نهج حيناً نهج شعراء عصره، وهذا كافٍ لأن يجعل وحدة القصيدة تَزَوُّرُ عنه.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط 14، 1999م.
- 2- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار الكتب المصرية، وطبعة الساسي.
- 3- امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، د. الطاهر أحمد مكي، طبع دار المعارف - مصر، ط 1، 1968م.
- 4- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، ج 9، مكتبة المعارف - بيروت، ط 2، 1990م.
- 5- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، ط 6، 1992م، الأعصر العباسية.
- 6- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج 11، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1997م.
- 7- تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ج 9، دار سويدان - بيروت (د.ت).
- 8- حديث الأربعاء، د. طه حسين، ج 1، طبع دار المعارف - مصر، ط 2، (د.ت).
- 9- ديوان المعاني، أبوهلال العسكري، مطبعة القدسي - القاهرة، 1352هـ.
- 10- رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، تحقيق: محمد عزت نصرالله، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ت).
- 11- سمط اللآلئ، أبو عبيد البكري الأندلسي، ج 1، تحقيق: عبدالعزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر، 1936م.
- 12- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ج 2، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت).
- 13- شعر علي بن جبلة الملقَّب بالعكوك، تحقيق: د. حسين عطوان، دار المعارف - مصر، ط 3، (د.ت).
- 14- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج 2، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبع دار المعارف - مصر، عام 1966م.
- 15- الصناعتين، أبوهلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة، ط 1، 1371م.
- 16- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فرّاج، دار المعارف - مصر، 1956م.

- 17- العصر الجاهليّ، د. شوقي ضيف، دار المعارف - مصر، ط3، (د.ت).
- 18- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ، ج2، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الجيل - بيروت، ط4، 1972م.
- 19- عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1982م.
- 20- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلويّ اليمنيّ، ج3، دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت)، ج3.
- 21- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، اليافعيّ، ج2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، (د.ت)، ج2.
- 22- مقالات في الشعر والنقد، د. حسين عطوان، دار الجيل - بيروت، ط1، 1987م.
- 23- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليّ، د. حسين عطوان، دار المعارف-مصر، 1970م.
- 24- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسيّ الثاني، د. حسين عطوان، دار الجيل - بيروت، ط1، 1982م.
- 25- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، (د.ت).
- 26- نكتُ الهميان في نكتِ الغميان، الصفديّ، المطبعة الجمالية - مصر، 1911م.
- 27- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج3، تحقيق د. يوسف علي طويل ود. مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية- بيروت، (د.ت).

**النقد ومدى تأثيره علي تطور الحياة الأدبية في السودان
(1940-1950)
(دراسة تحليلية نقدية)**

د المعتز سعيد فرج الله *

د صلاح عبد اللطيف **

المستخلص

تعرضت الدراسة النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان (1940م - 1950م) دراسة تحليلية نقدية، بهدف معرفة نشأة النقد والأدب في السودان، وبيان المؤثرات الأولى للنقد التي أثرت على الأدباء والنقاد وساروا على هديها واتبعت الدراسة في ذلك المنهج التاريخي التحليلي القائم على تتبع مراحل النقد والأدب. وتوصلت إلى أن الحركة النقدية والأدبية في السودان اتسمت - إلى حد كبير - بطابع الانسجام في جميع مراحلها التاريخية، وذلك المجهود الكبير الذي قام به النقاد الأوائل في تنمية ملكاتهم بالتطلع في الثقافات الأجنبية ومراجعة التراث العربي القديم.

Abstract

The study tackled the topic of criticism and the degree of its influence and the development of literacy life in Sudan from 1940 to 1950; as a critical analytical study. The main objective was to investigate the origins of criticism and literature in Sudan by identifying the first attempts of criticism that affected literacy writers and critics. The historical analytical method was used in which the phases of literacy criticism were traced Results revealed that the literacy and criticism movement in Sudan to a greater extent was conferred in all its historical phases; this was a consequence of the great effort exerted by the earlier critics as they were able to develop their skills through reading in foreign cultures and the revised of old Arabic heritage.

*أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة بحري

**أستاذ مساعد - قسم الأدب العربي - كلية اللغة العربية جامعة أم درمان الإسلامية

تمهيد:

حدّث بعضهم، فقال: "تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهمّ وعبد بن الطبيب والمخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر، أهيهم أشعر؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضح فأكل، ولا ترك نيئاً فينتفع به. وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر. وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم. وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر"⁽¹⁾.

فالنقد هو الذي يستكشف أصالة الأدب أو عدم أصالته، ويميز جيده من رديئه. وسواء أكان النقد علماً أم فناً فإنه ليس قائماً بذاته، وإنما هو متصل بالأدب، يستمد منه وجوده، ويسير في ظله يرصد خطاه واتجاهاته. وكلمة (النقد) مأخوذة في الأصل من (نقد الصيرفي الدراهم والدنانير وانتقدها) أي ميّز صحيحها من زائفها وجيدها من رديئها، ومن معانيها أيضاً (النقاش) يقال ناقد فلان فلاناً في الأمر، إذا ناقشه فيه. والنقد في ذاته قديم قدم الإنسان الذي خلُق نزعاً إلى الكمال، ومن ثم منقاداً بطبعه إلى إدراك ما في الأشياء من وجوه كمال يستريح إليها، ووجوه نقص يسعى إلى كمالها⁽²⁾.

وفي الاصطلاح هو تحليل القطع الأدبية، وتقدير ما لها من قيمة فنية، ولم تأخذ هذه الكلمة المعنى الاصطلاحي إلا منذ العصر العباسي⁽³⁾.

هدف الدراسة:

من أهم أهداف هذه الدراسة بيان مدى تأثير النقد على الأدب السوداني في تلك الحقبة الزمنية، وما هو التطور الذي حدث للأدب، ومدى الاستفادة من هذا التطور. وأيضاً توضيح أهم العوامل التي كان لها أعظم الأثر في هذا النقد وكذلك بيان البدايات المطبوعة للنقد في السودان.

منهج الدراسة:

المنهج التاريخي التحليلي.

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1978م، ص 13.

(2) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط4، 1986م، ص 8.

(3) في النقد، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، ص 8.

مشكلة الدراسة:

1. تحديد الأسس والمفاهيم المتبعة لممارسة النقد نقدهم للأدب قبل الاستقلال.
2. عدم توافر كثير من المصادر والمراجع في السابق، وذلك بسبب أن معظم النقد يكتبون مخطوطاتهم ولم تنشر لأنها تحت تصرف المستعمر.
3. كثير من مصادر الأدب والشعر السوداني ذابت وتلفت ولم تطبع من جديد.

مقدمة:

السودان لم تهيئ له ظروفه العامة وأوضاعه السياسية فيما بين أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، أن يظفر بالمناخ الملائم لشيوع الوعي وازدهاره. فقد عاش في أخريات عهد الخليفة عبد الله التعايشي (1885م-1898م) في عزلة مطبقة عن العالم الخارجي، وتفككت إلى حدٍ ما روابط وحدته القومية التي حققها المهدي بدعوته الدينية، وكفاحه المتصل. وعانى شعبه - إلى جانب ذلك - من الفقر الثقافي الذي كان نتيجة حتمية لوضع قيود شديدة الوطأة على وسائل التلقي وحرية الفكر، ويكفي أن نشير إلى أن الكتب عُدت آنئذٍ ضمن الممنوعات من التصدير إلى السودان⁽¹⁾.

وليس التأخر الملحوظ في بداية النقد الأدبي مقارناً بالحركات النقدية في مصر وبلاد الشام بمستغرب أو مستبعد، وزيادة على امتياز تلك البيئات بتراث نقدي ضارب في أعماق التاريخ، فإنها حُظيت بزوغ مبكر لفجر الوعي القومي الذي انتشر ضوؤه في أرجائها بازدهار التعليم وارتقاء مناهجه وتنوعها. وبدخول الطباعة وما استتبعه من صدور الصحف والمجلات ونشر الآثار التراثية والمحدثّة، وما صحب ذلك من اتصال بالمعارف الأجنبية التي من شأنها إثراء الفكر وإخصاب الملكات. وكل ذلك وما هو بسبيله أدى إلى تبكير ظهور الحركات النقدية في مصر والشام وتطورها على النحو المعروف.

ونجد أن من أهم العوامل المؤثرة في نشأة الحركة الأدبية في السودان:

أولاً: التعليم ومؤسساته:

لقد كان الأثر العظيم الذي أحدثته كلية غردون في مجال الأدب والنقد من أساسه إلى قسمها الثانوي الذي أنشئ في العام 1905م. ومن الملاحظ أن الذين اتجهوا إلى الأدب من خريجي الكلية لهذا العهد انصرف جهدهم في معظمه إلى نظم الشعر، وذلك في المحافظة على عمود الشعر بصورته التي أحيها البارودي، وكان إسهامهم في حركة النقد الأدبي بصورة

(1) تاريخ حياتي، بابكر بدري، مطبعة مصر بالخرطوم، 1961م، ج1، ص 128.

النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان

ضيقة، ولكنهم مهدوا بإنتاجهم الشعري ذي النزعة المحافظة لظهور حركة النقد التجريدي، والتي كان من روادها الأمين علي مدني وغيره⁽¹⁾.

وأيضاً المعهد العلمي بأم درمان الذي كان له أثر عظيم في نهوض الحركة النقدية في السودان، فقد تأسست بالمعهد أول جمعية أدبية للطلاب أسموها (جمعية الثقافة) لتخدم النشاط الأدبي والبحث العلمي إلى جانب الاحتفالات الدينية⁽²⁾.

ثانياً: الصحافة:

وقد بدأت رسمية في السودان، إذ أصدرت الحكومة في العام 1899م غازيتة حكومة السودان، ولكن باسم الجريدة الرسمية لجمهورية السودان. وكانت غايتها نشر قوانين الحكومة وقراراتها ولوائحها وأوامرها، كما كانت تنشر الأحكام القضائية وتسجيل الشركات والإعلانات التجارية وغيرها⁽³⁾.

ثم صدرت بعد ذلك صحيفة السودان في العام 1903م. وصحيفة (رائد السودان) التي صدرت في العام 1913م، وعلى صفحاتها برز الرعيل الأول من الشعراء والكتاب السودانيين في العصر الحديث بعد فترة المهديّة، ومن عناية (رائد السودان) بالنهضة الأدبية أنها كانت تنظم على صفحاتها مسابقات شعرية في التشطير والتخميس من حين لآخر، وكانت غايتها من ذلك هي الترويض على الشعر الرصين. فمن أمثلة التشطير تشطير الشيخ محمد عمر البنا لبتي شوقي في الطائفة التركية (أدرميد) وقد نال تشطيره الجائزة حيث قال⁽⁴⁾:

(يا أدرميد ألا طيري مبلّغة) خليفة الله عنا أصدق الخبر
وبلغيه عن الإسلام قاطبة رسائل الشوق من عمرو إلى عمر
إلى الذي خفقت في الأرض رايته وعززتها سيوف الله بالظفر

(1) تطور التعليم في السودان (1898م- 1956م)، محمد عمر بشير، ترجمة: هنري رياض وآخرون، دار الثقافة، بيروت، ومكتبة خليفة عطية، 1970م، ص 118.

(2) الإسلام في السودان، محبوب زيادة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، مصر، ص 137.

(3) تاريخ الصحافة في السودان، حسنين عبد القادر، دار النهضة العربية، القاهرة، ج 1، 1967م، ص 11.

(4) نقد الشعر في السودان حتى بداية الحرب العالمية الثانية، عز الدين الأمين، مطبعة جامعة الخرطوم، 1999م، ط 1، ص 29.

ثالثاً: الأندية والجمعيات الأدبية:

أحسَّ الخريجون بثقل التبعات الملقاة على عاتقهم في مجتمع رعوي متأخر. واستبدت بهم دعوات الإصلاح الاجتماعي للارتفاع بالسودان إلى مستويات الشعوب الراقية في الغرب، وشعوب الشرق التي لفحتها رياح النهضة الحديثة. فكانوا بذلك جيل التحول واليقظة. وكانت الحرب العالمية التي قرعت أبواب السودان بقوة وعنف، قد هزّت بأحداثها وعبرها وتجاربها أذهان الجيل الناشئ، وبدلت تصوراته إلى كثير من المقاييس. فبدأ يتلمس طريقه إلى النور وينتابه القلق على مصير أمته إن هي واصلت الاستكانة لدواعي الأنانية الفردية وأوهام الخرافة، ورواسب التقاليد⁽¹⁾.

فأسس الخريجون أول نادٍ لهم وهو نادي خريجي مدارس السودان بأم درمان، وهو الذي أصبحوا يتحدثون عنه فيما بعد بشيخ الأندية. وكان افتتاحه في يوم 18 مايو 1918م وانتخب حسين شريف أول رئيس له⁽²⁾.

وقد كان هذا النادي هو متنفس الخريجين، وكانت تدب فيه حركة وطنية عاتية منذ افتتاحه، ولكنها لم تكن علنية، كما كان منبراً للخطباء والشعراء في المناسبات الدينية وأعياد المسلمين الخالدة كالاحتفال بالعام الهجري أو المولد النبوي الشريف. كما كان كذلك منبراً لهم في كثير مما تدعو إليه حياتهم الاجتماعية كالتأيين والوداع ونحوها. وكذلك اتجهوا فيه نحو المحاضرات الأدبية والتاريخية.

وبعد تأسيس نادي الخريجين بأم درمان، بدأ الخريجون في تأسيس أندية في عدد من مدن السودان. وهذه النوادي رغمًا عن حداثة عهدها لا تفتأ أن تبلغ رويداً رويداً شأواً يصح بنا القول فيها⁽³⁾:

أيا لله نادٍ ضمّ قوماً لهم في العلم مرتبة سنية
علا فكأنه يحكي عكاظاً وهم يحكون عرب الجاهلية

وفي هذه الكلمة إشارة واضحة إلى أن هذه الأندية كانت تحتفل بالشعر حتى كأنها تمثل سوق عكاظ في الجاهلية من فرط عنايتها به.

(1) السودان والحركة الأدبية، حليم اليازجي، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 1985م، ج2، ص 579.

(2) سوق الذكريات، سليمان كشة، شركة الطبع والنشر، الخرطوم، ط1، 1963م، ص 56.

(3) نقد الشعر في السودان، ص 39.

أما الجمعيات الأدبية فقد انبثقت من تلك الأندية التي انتظم فيها كل من كانوا يهتمون بشؤون الأدب. وكانت تلك الجمعيات في أول أمرها تحاول جمع الشعر الذي يقال في الاحتفالات، وتعمل على نشره بعيداً عن أعين الرقابة الحكومية. وقد سببت تلك المغامرات لأعضاء الجمعيات كثيراً من المواقف الحرجة مع السلطة ولكنهم كانوا عصابة مؤمنة بمهمتها في نشر ذلك الشعر دون أن تمسه يد الرقيب، فتحذف منه ما تراه محرراً للشعور القومي والوعي الديني⁽¹⁾.

ولعل أول جمعية أدبية بالسودان، هي تلك التي تكونت بسنار، وكان ذلك عندما التقت نخبة من الأدباء بتلك المدينة عند بدء العمل في خزائنها سنة 1914م. فكونوا جمعية لهم وأسموها (روضة الشعر بسنار) وكانت تنشر أشعارها على صفحات جريدة (رائد السودان) كما كانت لها جولات أخرى في عالم الأدب. وكان من أبرز أعضائها الشاعر محمد حافظ الأمين من كبار موظفي مصلحة السكة الحديدية وفضيلة القاضي أحمد التيجاني⁽²⁾. وانتشرت هذه الجمعيات في كل أنحاء البلاد، وكانت تجمع أصحابها صداقات وتقارب فكري، حيث تلتزم كل جماعة منهم منهجاً معيناً في القراءة والاطلاع والمناقشة كجمعية (الهاشماب) و(أبوروف) ودار خلوة (الكتيبي) بالمسالمة وغيرها. وكانت تلك الجمعيات ذات أثر بعيد في النهوض بالحياة الأدبية⁽³⁾.

وقسمت هذه الدراسة إلى قسمين، الأول منها الاتجاه التقليدي، والثاني هو الاتجاه التجديدي.

القسم الأول: الاتجاه التقليدي:

إنَّ الشعر العربي الحديث في كلِّ الأقطار العربية بدأ ينطلق من إसार الجمود الذي عاشه في فترة الركود أيام المماليك والأتراك، وبدأ يتخلص من (العروضيين) كما سُمَّاهم العقاد، وكان يعني بهم أولئك الذين كانوا ينظمون القصائد ويخوضون في الشعر، لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقاً أو واجباً على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع، وما إلها من أصول الصناعة⁽⁴⁾.

(1) سوق الذكريات، ص 127.

(2) شعراء السودان، سعد مخائيل، مطبعة رمسيس بالفجالة، مصر، بدون تاريخ، ج 1، ص 315.

(3) نقد الشعر في السودان، ص 48.

(4) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، عباس محمود العقاد، مكتبة النهضة المصرية، 1950م، ص 8.

وكانت الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي أحاطت بالعالم العربي – إبان الاستعمار التركي – قد وجهت الشعر إلى أغراض تافهة بعيدة عن تصوير النفس أو المجتمع، كما أصيب بفكرة قاتلة وهي ظن أهله أن قيمته في كثرة حليته، ومازال كل جيل يزيد في هذه الحلية حتى ثقلت وأعجزته عن الحركة وأفقدته روحه⁽¹⁾.

ومميزات الشعر التقليدي المحافظ، هي نفسها مميزات الشعر الكلاسيكي المأثور الذي ورثناه عن العرب، حتى قبل عصر التجديد العباسي. فالشاعر التقليدي ملتزم بنهج القصيدة القديمة لا يكاد يتعداه إلا في أضيق الحدود. فهو لا يزال يقف على الأطلال يبكيها، ويتغزل بالمحبوبة التي لا توجد إلا في خياله، ولا بأس من أن يستطرد إلى غرض آخر قبل أن يبدأ القول فيما أراد أن ينظم فيه. وهو لا يزال محافظاً على الشكل القديم، فلا بد أن تكون القصيدة طويلة، ولا بد أن يلتزم فيها بحراً من البحور الخليلية المعروفة، وأن تكون الأبيات متحدة القافية. وليس من شك في أن شعراء هذه المرحلة التقليدية المحافظة، كان لهم فضل كبير في رد أسلوب الشعر إلى النماذج الجاهلية أو الأموية أو العباسية، من ناحية سلامة اللغة وصفاء التعبير وقوة السبك والأداء. ومعظم موضوعات الشعر التقليدي المحافظ مضاهاة للموضوعات القديمة كالرثاء والتقريض، والتهنئة والأخوانيات والمديح⁽²⁾. ومن ذلك ما قاله الشاعر محمد الطاهر المجذوب مادحاً الأمير عثمان دقنة، الذي هزم جيش الإنجليز بالقرب من سواكن، إذ يقول⁽³⁾:

هندوبُ تعرف صبرنا كيف ارتكبنا للمصاعب
وهشيم تشهد عزمنا كيف ادرعنا للمصائب⁽⁴⁾

ويظهر هنا شعر البطولات الحربية منذ العصر التركي في اللغة الفصحى، فيحتل الأدب الفصيح منطقة من مناطق الأدب الشعبي القديم، ويجول فيها جولات موفقة. ونتناول في هذا الاتجاه التقليدي الشعراء: محمد سعيد العباسي وعبد الله محمد عمر البنا وحسيب علي حسيب.

(1) د. محمد مصطفى هدارة، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 1972م، ص 80.

(2) تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، ص 83.

(3) تاريخ الثقافة العربية في السودان ، د. عبد المجيد عابدين، مطبعة التمدن المحدودة، الخرطوم، السودان، ط3، 2005م، ص 192.

(4) هشيم: مكان غرب هندوب كانت به حرب هائلة بين جند المهديّة والجيش الإنجليزيّة المصريّة.

أولاً: محمد سعيد العباسي⁽¹⁾:

والحق أن العباسي قد استطاع أن ينشر صفحة جديدة في تاريخ الشعر العربي بالسودان إذ بعث فيه الحياة، وردّ إليه الأصالة بعد أن كادت تزهقه الصنعة ويخنقه الهرج. وفي شعر العباسي نلتقي كثيراً بنفحات لشعراء العرب المتقدمين ومن سار على نهجهم في العصر الحديث.

وقد أعجب العباسي بشعر الشريف الرضي، وكلاهما من بيت زعامة دينية – وذكّرنا العباسي- من نواحٍ كثيرة – بالشاعر محمود سامي البارودي، فكلاهما باعث نهضة الشعر في أحد شطري وادي النيل. كما أن كلاهما حمل السيف والقلم وبرزت نزعة البطولة والفروسية في شعره، إلا أن شعر العباسي في إطاره التقليدي يحمل طابعاً معبراً عن شخصية متميزة، وإذا كان العباسي قد جرى على التقليد في ظاهر العبارة وتصميم القصيدة، فهو إنما ينبع غالباً من تجارب أحس بها إحساساً قوياً. وهو من هؤلاء الشعراء الذين طوعوا الأسلوب التقليدي العريق بما فيه من جزالة وقوة سبك للتعبير عن واقع حياتهم وصميم تجاربهم، ديباجة تذكرنا بفحولة الشعر القديم ومعانٍ حية فارق بها طريقة القدماء⁽²⁾.

فالعباسي حينما نظر إلى جمال الطبيعة في (مليط) من حيث كثبانها المرتفعة ونخيلها الباسق، لم ينظر إليها بعين العالم فوصفها لنا وصفاً مجرداً. وإنما نظر إلى تلك الطبيعة الجميلة نظرة الشاعر، فأعجب بها وانفعلت نفسه مع تلك التجربة التي غاصت في روحه فعانى منها وفرضت عليه ظلالاً من المعاني والأفكار لا تنطوي عليها نفسه في حالة وعيه العادي، فخيّل إليه أن تلك الكثبان العفر هي مكان الأنس للقلب الموحش لأنها تتجاوب معه فهي شبيهة به وهو شبيه بها، وكذلك فهي مصدر رزق لمرتادها لما تنبت من نبات حين ينزل عليها المطر،

(1) ولد الشاعر محمد سعيد العباسي بقرية عراذيب ود نور الدائم بالنيل الأبيض في العام 1880م. ثم انتقل والده إلى قرية الشيخ الطيب شمال الخرطوم وأدخل الخلوة وحفظ القرآن الكريم، ثم هاجر إلى مصر والتحق بالكلية الحربية ولم يكمل تعليمه بها. وكان العباسي ذا ثقافة عربية دينية واسعة قوامها حفظ القرآن الكريم ودراسة علوم اللغة العربية لنشأته في بيت علم ودين. ويعتبر العباسي من رواد النهضة الشعرية الحديثة في السودان وكان أكثر شعراء عصره جزالة وتأثراً بحياة البادية وخاصة بوادي غرب النيل الأبيض وديار الكبابيش. وكان - رحمه الله - شديد الإيمان بعرويته داعياً إليها في شعره ولقد توفي عام 1963م وخلف وراءه ديوان شعره (ديوان العباسي).

(2) انظر: الشاعر السوداني- محمد سعيد العباسي، د. أحمد عبد الله سامي، الناشر: دار البلد للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1999م، ص 109 وما بعدها.

وتوهم الشاعر أن النخيل الباسق عاشق فُتِنَ بجمال السحاب الذي يختال في السماء
كالطاووس فقبل ذيله، كما صور له ذهوله أن أشجار النخيل في الكثبان المرتفعة كأعلام جيش
بناها فوق الجبال العظيمة. إذ يقول⁽¹⁾:

كثبانك العُفرما أبهى مناظرها أنسٌ لذوي وحشة رزق لمرتادٍ
فباسق النخل ملء الطرف يلثم من ذيل السحاب بلاكيدٍ وإجهادٍ
كأنه ورمالاً حولته ارتفعت أعلام جيش بناها فوق أطواد

وإذا أمعنا النظر في (بناء القصيدة) عند محمد سعيد العباسي، فنجد أنه أكثر الشعراء
حرصاً على هذه المطالع البدوية. لأن البادية قد عاشت في كيانها كما عاش هو فيها، وأحبها
وأحبته، فوقف على الأطلال، ووصف الديار ووصف الرحلة، واستبكي الغمام، وتغزل، وذكر
أيام اللهو والشباب، وغير ذلك من أنواع المطالع التقليدية.

فمثلاً في قصيدة (يوم التعليم) التي ألهاها الشاعر بنادي الخريجين بأمر درمان في
احتفال بيوم التعليم، والذي أقيم لحث المواطنين على جمع التبرعات لإنشاء المدارس، حيث
بدأ النص بذكر الخمر، وذكريات العشق مع فتیان عفيفين مخلصين في عشقهم كانوا ذوي
وجوه مشرقة لا يرضون الذل والظلم، وقد كنت أنا قائدهم وحامل لواء العشق بينهم. حيث
يقول⁽²⁾:

مالي وللخمر رِقَّ الكأس أوراقي وللصبابة تُصلي القلب إحراقاً
مضى زمن تساقينا الهوى بهما في فتية كرموا وجداً وأشواقاً
زهر الوجوه حتى سيمو الهوان لووا سوالفاً كصوي الساري وأعناقاً
صحبٌ حملت لواء العشق بينهم من قبل أن يصبح العشاق عشاقاً

ثم ينتقل العباسي إلى الدعوة بالخير والتوفيق لكل إنسان ينفق أمواله في عمل
الصالحات، فانفقوا في سبيل الله مما أعطاكم من الأموال فإنه يضاعف الثواب، إذ يقول⁽³⁾:

(1) ديوان العباسي- محمد سعيد العباسي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط1، 2010م، ص 35.

(2) ديوان العباسي، ص 68.

(3) نفسه، ص 69.

فليشغل الخيزر والتوفيق منشغلاً بالمال والجاه إدراكاً وإنفاقاً
وجاد للعلم جود الأكرمين وما كانت عطاياه تعبيساً وإطراقاً
فأقرضوا الله مما قد أفاء لكم يُجزل ثواباً ويكسو العود إيراقاً

ويتحدث الشاعر عن العلم كمصدر للسعادة، لأنه كثيراً ما يحرر الإنسان من قيود الجهل وذل المستعمر، فعلموا الصغار الناشئين علماً يذللون به صعاب الحياة، ولكن قبل العلم علموهم الأخلاق إلى يوجهون بها علمهم. فيقول⁽¹⁾:

العلم يا قوم ينبوع السعادة كم هدى وكم فك أغلالاً وأطواقاً
فعلموا النشء علماً يستبين به سبل الحياة وقبل العلم أخلاقاً
ويرسم لنا العباسي بعد ذلك صورة للشعوب التي اهتمت بنور العلم المضيء، واتخذته قائداً لها تسير تحت رايته العالية المرفرفة، وقد صنعوا الطائرات وطاقوا بها أنحاء الجو فامتلكوا أنحاءه. كما صنعوا الغواصات التي غاصوا بها أعماق البحار فامتلكوها. وصنعوا السفن التي تجوب البحار وتجتاز المسافات البعيدة دون أن تشتكي التعب أو إجهاد السير كما تشتكي الإبل التي يعتمد عليها القوم في السودان. وواصل هؤلاء القوم بحثهم واكتشافاتهم في حقول العلم نهائياً وليلاً حتى أقاموا صروح الحضارة وتنعموا بنعيمها. فما أحسن حضارتهم تلك لو أنها وظفت لخير الإنسان وأمنه وعافيته، ولكنها وظفت لاستعمارها واستعبادها. حيث يقول⁽²⁾:

إن الشعوب بنور العلم مؤتلقاً سارت وتحت لواء العلم خفاقاً⁽³⁾
وطوّفوا ببقاع الجوف فامتلكوا عصمها وبقاع البحر أعماقاً
وكُلُّ بحر أحوالوا موجه سُفنأً لم تشكُ أينأً ولا وخذأً وأعناقاً⁽⁴⁾
في الشرق والغرب تلقاهم وقد بسطوا ظلَّ الحضارة نقّابين طرأقاً⁽⁵⁾
يا حُسْنها لو حوت أمنأً وعافية لكنها قد حوت حتفأً وإحداقاً

(1) ديوان العباسي، ص 69.

(2) نفسه، ص 69.

(3) مؤتلقاً: هي الانتلاق وهو اللمعان. يقال انتلق البرق إذ لمع.

(4) الأين: الإعياء، الوخذ: الإسراع. وكذا الأعناق بكسر الهمزة.

(5) نقابين: جمع نقاب، وهو صيغة مبالغة من نقب بمعنى بحث، وهم المغتربون للتجارة أو للاستكشاف.

طراقاً: جمع طارق من الطروق وهو في الأصل الإتيان ليلاً.

ثم يختم العباسي قصيدته بحال القوم في السودان ومكانتهم من تلك الدول والشعوب المتقدمة. فالسودان يعاني من ثلاث علل هي الجهل والفقر والأحزاب، فقد شبه ما كانت عليه الأحزاب من خلاف وتناحر ووعود كاذبة، بالإرعاد والإبراق اللذين لا يعقبهما مطر ينفع الناس، فانبذوا التحزب ووحدا صفوفكم حتى تنيروا آفاق المستقبل لهذا الشعب. وذلك بقوله⁽¹⁾:

فلودرى القوم بالسودان أين هم من الشعوب قضوا حزناً وإشفاقاً
جهلاً وفقروا أحزاباً تعيث به هدّت قوى الصبر إرعاداً وإبراقاً
إن التحزب سُم فاجعلوا أبداً يا قوم منكم لهذا السم ترياقاً
ضموا الصفوف وضموا العاملين لها لكي تنيروا لهذا الشعب آفاقاً

فالقصيدة موضوعها الأساسي هو حث المواطنين لجمع التبرعات، فقدم لها بذكر الخمر والغزل، ثم تحدث عن فضل التعليم على الشعوب المهتدية بنوره، ثم ختم النص بوصف حال السودان وما يعانيه من جهل وفقر وأحزاب.

ويتصف شعر العباسي أيضاً بالجزالة، وفي ذلك يقول الدكتور عبد الله الطيب: "الجزالة في أسلوب العباسي عامة، ولكنها بجوهرها الأصيل في أبواب من شعره، هي أشد صلة بما ذكرنا حسب ونسبه وتصوفه. فجزالة العباسي وقوته ورضانته هي أبواب النسيب من شعره، وأبواب الغزل التي يبدأ بها القصائد. وأسلوب الجزالة ليس يسيراً، فمع الثقافة والانفعال يحتاج إلى الملكة. فمن أكثر الشعراء الجزلين بعد المتنبي المعري، والأرجاني والبوصيري. ثم لا نجد بعد هؤلاء إلا البارودي في مطلع النهضة الحديثة بمصر، ومجيء العباسي فتح جديد لهذه البلاد يدل على أصالتها وعروبتها"⁽²⁾. فيقول العباسي متغزلاً⁽³⁾:

(1) ديوان العباسي، ص 70.

(2) الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي، ص 148.

(3) ديوان العباسي، ص 103.

ذكر الربوع فبات غير مفيق	قلب أسير صباية وخفوق
ذهب الصبا وهو الحميد وما	منه حميد مأرب وحقوق
إنّ الهوى لكما علمت وطالما	أصمى فؤاد مشوّق ومشوق ⁽¹⁾
بدر السماء أرى شقيقك صادني	بالمصميين بنفسج وشقيق
سامرثُ جنح الليل فيك ولم أنل	يا بدر غير مرارة التأريق ⁽²⁾
فكأنّ دمع محاجري لما همت	مخضلتاي مدامع الراووق ⁽³⁾
ولكم نظمت من البيان قلانداً	لك زنتها ببدايع التنسيق
وتحية حملتها ريح الصبا	ممزوجة برقائق التشويق

والملاحظ في هذه الأبيات، استعمال الألفاظ التي يتواجد فيها حرف الراء، وهو من الحروف السيلية، وقد استعمل الشاعر تلك الألفاظ من غير أن يتعمد استعمالها. ولكن أناة تفكيره ورزائته البدويتين هما اللتان ساعدتا على توفيقه في استعمال هذه الألفاظ القوية الجرس. ونجد أيضاً أن بحر (الكامل) الذي استعمله الشاعر في هذه الأبيات يساعد على الترتم والإنشاد. وهذان من خصائص الشاعر البدوي وتفصيلات بحر الكامل⁽⁴⁾:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

والعباسي يقول في مطلع قصيدته (سنار بين القديم والحديث)⁽⁵⁾:

خان عهد الهوى وأخلف	ظالم أحرق الحشاشة صدا
ماطل لا يرى الوفاء فإمّا	جاد يوماً أعطى قليلاً وأكدى
إن سألتُ النوال ضنّ وإن غب	عت تجني تهاً وإن زرت صدا
من معيني هذا الحبيب جفاني	ومُعيري ثوب الشباب استردا
أنا وحدي الملموم أنزلت أما	لي بمولى لم يبرع منذ كان عهدا
خلّ هذا الصدود وادن أحاجيد	ك ومهلاً زين الملاح رويدا

(1) أصمى الصبر: رماه فقتله مكانه.

(2) ارقه: أسهره، ومرارة التأريق: آلام السهر.

(3) مخضلتاي: عيناى. الراووق: المصفاة.

(4) العروض العملي، نهاد التكريتي، دار دمشق للطباعة والنشر، ص 40.

(5) ديوان العباسي، ص 29.

ونلاحظ أن الشاعر استعمل الألفاظ التي يوجد بها حرف (الدال)، وهو من الحروف القوية التي تحدث هزة في السمع. وكذلك فقد استعمل العباسي الألفاظ التي يوجد بها حرف (النون) وهي من الألفاظ التي تساعد على الغنة في الترتم. والبحر الذي استعمله الشاعر هنا هو بحر (الخفيف) وهو من البحور التي تساعد في جهرارة الصوت في الإنشاد. وتفعيلاته⁽¹⁾:

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

والناظر إلى شعر العباسي يجد أن معظم قصائده تجري على الأوزان الطويلة المنبسطة المكتملة التفعيلات، أما البحور القصيرة والمجزوءة فإنها قليلة في أوزان شعره. وقد يفسر لنا هذا أن الشاعر الجزل أميل إلى البحور الطوال، حيث يجد فيها مجالاً واسعاً لصياغة العبارة الرحبة الجبيرة الرصينة، ورقعة أفصح لينسج عليها ديباجته في ثنايا العبارة، حيث يتدفق رنين الموسيقى كأنه موجات هادرة على صفحة الماء.

وللعباسي أيضاً آراء نقدية أوضح من خلالها رأيه في بعض القضايا الأدبية التي كانت تثار بين الحين والآخر. وذلك مثل رأيه الذي يرد به على بعض الأدباء الذين دعوا إلى الأدب القومي السوداني فقال: "إن الشعر العربي هو ما قيل باللغة العربية في كل أطوارها وفي أزمانها وعصورها المختلفة بقيود الوزن والقافية وما يتبعهما. فيجب أن يظل عربياً في السودان. وإذا شئنا أن نميزه فما علينا إلا أن نقول لما انتجه شعراء السودان (الشعر العربي في السودان) كما يقال الشعر العربي في الأندلس. فكلما يجد في التعبير أو التغيير لا يخرج عن كونه شعراً عربياً قيل في القطر الذي قيل فيه متأثراً بمرئيات بيئة الشاعر التي وجد فيها. وذلك لا يمنع من أن إنتاج شعرائنا معبر عما يحيط بنا من مؤثرات"⁽²⁾.

ثانياً: حسيب علي حسيب⁽³⁾:

والناظر إلى منهج الشاعر حسيب في شعره الوطني، يجده متأثراً بشعراء عصره الذين كانوا يستغلون المناسبات الدينية في إنشاد القصائد الوطنية. وفي ذلك يقول الدكتور: صلاح

(1) العروض العملي، ص 59.

(2) سوق الذكريات، ص 180.

(3) ولد الشاعر حسيب علي حسيب بن الصديق بن الأمين بن حمد بن محمد المجذوب في قرية المكايلا بإحدى قرى بربر في العام 1896م. وأسرة الشاعر لها مكانة علمية وأدبية معروفة منذ جد الشاعر حسيب العالم، فنشأ الشاعر نشأة محافظة قوامها التربية الدينية، فلا عجب في ذلك فوالده الشيخ علي حسيب معلماً وشاعراً وأديباً. فعرف الشاعر الشيخ حسيب منذ العشرينات بأنه أحد شعراء السودان، وقد اشترك في اللواء الأبيض، ووقف معادياً للاستعمار وعانى وعُذِب حتى ترك مهنته التي كان يعمل بها وهي عاملاً قضائياً بالمحاكم. ومارس أعمالاً لا تمت لتكوين الفكر العاطفي، فافتتح مخبزاً وعمل بالتجارة. توفي في العام 1972م.

النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان

الدين المليك: "عبر ناظموها عن سخطهم على الحكم الأجنبي واستنكار أساليبه مستغلين المناسبات الدينية والدين نفسه. إن هذه القصائد التي ألقوها سلاح امتشقوه حين فقدوا أسلحتهم جميعاً وهي مجال تبصرة وإنارة ووعي ناضر. وقد كان معنى الدين هو معنى الوطن عندهم"⁽¹⁾.

فالشاعر حسيب لا يستقبل العيد كالعادة فرحاً ومسوراً، لأن دواعي المسرة والبهجة قد انعدمت من حياة الناس، وقد تبدلت الأحوال واضطربت المعايير حيث يقول⁽²⁾:

يا عيدُ حسيبك ما لي فيك من أملٍ فهلا تزدني ألاماً على ألمي
من للنفوس فقد لجّ الشقاء بها ومزقتها يد الأهواء والإزم
لا شيء منها إذا استعرضتها أبداً كما عهدت وما تلقى سوى سدم
قد ذلّ عالمها واعتزّ جاهلها وأصبح الحق فيها غير محترم

والشاعر لا يخاطب الهلال كما كانت عادتهم في المناسبات الدينية، بل عبّر عن عدم رضائه كحال بني وطنه بصفة خاصة والمجتمع العربي بوجه عام. وذلك من خلال استعراض أحداث الماضي، حيث يركز الشاعر على قوة المجتمع القديم وضعف المجتمع الحديث الذي أصبحت السيادة فيه لمن كانوا أتباعاً. فنراه يخاطب بلاده ذاكرةً اسمها دون ذكر الهلال، إذ يقول⁽³⁾:

بلادي أنت ريجاني وروحي وأنت حقيقتي ومدى خيالي
بني وطني وما ناديت إلا بني الهيجاء في يوم النزال
بلادكم تروم بكم حياةً وما الأوطان إلا بالرجال
سلوا التاريخ يخبركم بأنا بُناة المجد في العصر الخوالي

وأورد الدكتور عز الدين الأمين في كتابه: نقد الشعر في السودان حتى بداية الحرب العالمية الثانية، بعض المعارك النقدية التي دارت بين الشيخ حسيب والكاتب ابن رجاء، حيث

(1) شعراء الوطنية في السودان من عهد الفونج إلى 1970م، د. صلاح الدين المليك، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، 1975م، ص 254.

(2) شعر حسيب علي حسيب (تحقيق ودراسة)، إعداد: المعتز سعيد فرج الله، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية، 1999م، ص 130.

(3) شعر حسيب علي حسيب، ص 130.

قال⁽¹⁾: "وكان مما كتبه ابن رجا في أول مقال له قوله: استقرت روح الشعر عندنا، ولمست نفوس ناظميها من بين مبعثرات منظومهم، ورأيت كما خيل إليّ مكان من الضعف من شعرهم، وودت أن أغمض العين وفي النفس ما فيها، ولكن أسيادنا الشعراء تأبى عليهم فصاحتهم إلا أن يتعاكضوا على الناس. وهنا نقد لحسيب في قصيدته التي مطلعها⁽²⁾:

أطباء (دامرة) أطلت سهادي وأثرت شوقي وانتبهت رُقادي

وانحصر نقده في الحكم عليه بالسرقة والأخذ من غيره، حيث قال الشاعر:

هم مزقوا عرضي لغير جريرة وقضوا عليّ بأن يطول سهادي

قال إنه قول الزناتي:

هم ثلموا عرضي لغير جريرة سوى أنهم مني وأنني منهم

وأما بيت الشاعر حسيب:

يسعون في خفضي وأطلبن رفعتهم شتان بين مُرادهم ومرادي

فقال عنه ابن رجا: إنه قول الزهاوي:

رُمت الحياة لهم وراموا مقتلي شتان بين مرادهم ومرادي

وأما بيته:

إن يثلّموا عرضي وفرت عروضهم وعرضت دونهم لكل مُعادٍ

فقد صاح بأنه بيت المثقب العبدى⁽³⁾:

فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا

(1) نقد الشعر في السودان، ص 159.

(2) شعراء السودان، ص 124.

(3) هذا البيت للمقنع الكندي، وهو خطأ نسبته إلى المثقب العبدى، والبيت مشهور للمقنع في قصيدته التي

يقول مطلعها: يُعيرني بالدين قومي وإنما ** ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

الشعر والشعراء لابن قتيبية، دار إحياء العلوم، بيروت، ط6، 1997م، ص498.

وقد رد حسيب على ابن رجاء في كلمة قصيدة، مؤيداً له فيما نقده به، ومشجعاً له للمضي في معالجة النقد حيث قال مما قال: "ولا تظن أيها الأخ أني تناولت القلم لأردّ عليك، كلا فليس هنالك ما يوجب ردّاً من الوجهة الأدبية.

ولكن طالما تمنيت أن أرى هذا الباب مفتوحاً على صفحات جريدة (الحضارة) فلما تطرقت له متخوفاً، رأيت أن أشجّعك لاسيما وقد اتخذت من شعري موضوعاً لنقدك"⁽¹⁾.

وشاعرنا حسيب علي حسيب لديه نوع من السخرية أو النقد الاجتماعي الذي قال فيه الدكتور محمد إبراهيم الشوش⁽²⁾: "وقد انصرف صالح عبد القادر والشيخ حسيب علي حسيب بشعرهما إلى الهجاء الاجتماعي، وعبرا عن سخطهما واستياءهما بشعر ساخر نفثا فيه عما يحسان به من ضيق وكبت".

وتتجه هذه الظاهرة عند الشاعر حسيب إلى قطاع خاص من المجتمع حيث يقول⁽³⁾:
مالي رأيت الصديق أصبح سُبّةً فينا وخير الناس شيخاً أوهما
عجباً أرى المقدام أصبح مذنباً يُقصي وذو الوجهين أضحي مُكرماً
إنني عرفت الدهر حتى خلتني إياه فاسمع سائلي ثم احكماً
إن شئت أن تحيا سعيداً بينهم كن تابِعاً ما يشتهون مُعظماً
فالشاعر يقلب الأوضاع رأساً على عقب، فالصديق أصبح سبة، وخير الناس هو من غش الناس. والمقدام أصبح في الناس مذنباً، وذو الوجهين أصبح فهم مكرماً. والشاعر يسخر من مرتبه الذي يتقاضاه، فهو لا يكفي متطلبات المرء، وهو ينفذ قبل نهاية الشهر، فتراه يقول⁽⁴⁾:

أمرتني مالي أرا	ك قصرت عن نيل المراد
أشكوك أم أشكو إلي	ك نوازل المحن الشداد
الشهرباق جُلّه	وبقاك أذن بالنفاد

(1) نقد الشعر في السودان، ص 160.

(2) الشعر الحديث في السودان، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، 1962م، ص 104.

(3) شعر حسيب علي حسيب تحقيق ودراسة، ص 78.

(4) شعراء السودان، ص 118.

والسبب في قلة المرتب لدى شاعرنا، أن حكومة السودان قسمت مستخدميها إلى درجات متفاوتة تبدأ من الأولى إلى الثامنة وهي آخر الدرجات من سوء حظ الشاعر أن يندرج تحت الدرجة الثامنة، والتي يزداد المرتب بموجها زيادة ضئيلة كل مدة من الزمان. ونجد أن السخرية عند الشاعر حسيب علي حسيب، لم تكن تهكماً على الزمان أو عدم رضائه بواقعه، بقدر ما كانت متنفساً عما يجيش بالنفوس من ضيق وكبت وجد طريقه عبر الشعر والفكاهة إلى خارج الصدور. ويبدو لنا أن أصحاب الاتجاه التقليدي في النقد في السودان بلغ مستوى مؤثراً في الحياة الأدبية مما جعل الأدباء والنقاد والشعراء يذهبون مذاهب شتى كل حسب ثقافته وميوله الفنية.

القسم الثاني: الاتجاه التجديدي:

لقد كان التجديد في مصر يأخذ حركة راجعة دائماً إلى الجنوب، وفي الفترة الأخيرة تأثر السودان بالتجديد في مصر والشام والمهجر. ولا شك أن ظهور الرومانسية في السودان قد تأثر إلى حد كبير بميلاتها في الأقطار العربية الأخرى، فقد درس مجددو السودان إنتاج المجددين في سائر العالم العربي واستفادوا منه في المضمون والشكل على حد سواء⁽¹⁾. والرومانتيكية أساساً وجدت في أوروبا - تحت ضغط ظروف اقتصادية وفكرية معينة - لتقضي على التيار الكلاسيكي الرتيب، بكل ما فيه من معوقات تحول دون الفرد وحرية، فإذا كانت الكلاسيكية تحكم العقل والمنطق في كل صورها وأشكالها الفنية، فإن الرومانتيكية قد ثارت على سيادة المنطق والعقل على الفن، وطالبت بأن تكون العاطفة أساساً في التجربة الفنية، وكذلك الحدس. فالرومانتيكية قد اهتمت بالمضمون أكثر من اهتمامها بالشكل، أو على الأقل بصورة مساوية للشكل، وحاولت أن تحطم القواعد والتقاليد العامة التي وضعها الكلاسيكيون، ولم ترض أن يكون الشكل ثابتاً، ولهذا حاولت أن تغير الشكل التقليدي للقصيدة⁽²⁾.

وقد مجدت هذه المدرسة العودة إلى الطبيعة، وألهت النغمة، وامتألت بالحنين الطاغى، وبالكآبة والألم، وبالنفور من حياة المدينة، وبالثورة على التقاليد والشرائع. وقد سنت

(1) الاتجاهات الشعرية في السودان، د. محمد النوبي، مطبوعات معهد الدراسات العربية، 1957م، ص 87.

(2) تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، ص 180.

النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان

شريعة الحب واتخذت القلب إماماً هادياً، وغمرتها الرموز الصوفية، وثارَت على الشكل واهتمت بالمضمون وحطمت القالب اللغوي الصلب، ولجأت إلى التحليل⁽¹⁾.

ومن المجددين في السودان: التجاني يوسف بشير وحمزة الملك طمبل ومحمد المهدي المجذوب.

أولاً: التجاني يوسف بشير⁽²⁾:

لقد شارك الشعر السوداني بمواهبه الأصلية في هذا الاتجاه التجديدي وحسبنا هنا أن نذكر على رأس هؤلاء التجاني يوسف بشير، الذي كان واحداً من المتفردين في مدرسة أبولو والصانعين بشعرهم لفلسفتها واتجاهاتها العامة. وقد كان بحق طاقة ثرة تموج بأعماقها عوالم من الفلسفة المثالية تشيع بها روح الشاعر، مذ كان يافعاً، وأخذ يسمو بها بعميق وجدانه إلى مستويات العبادة. ففي قصيدته (الصوفي المعذب) نجد ذلك الينبوع الرقراق وهذه النزعة الصوفية السامية إذ يقول⁽³⁾:

(1) فن الشعر، إحسان عباس، منشورات دار بيروت، 1955م، ص 46.

(2) ولد عام 1912م بأم درمان والتحق بخلوة الكتيابي وحفظ القرآن في سن مبكرة. ثم التحق بالمعهد العلمي بأم درمان واطلع على كتب الأدب والفلسفة، فنضجت أفكاره وقال شعراً جيداً في مقتبل عمره. وكان له آراء خاصة في قضايا الأدب والفلسفة خرجت عن مألوف المعهدين كانت سبباً في فصله من المعهد بتهمة الكفر والإلحاد. فكر في الذهاب إلى مصر بعد فصله من المعهد، ولكن ظروفه المادية حالت دون ذلك. عمل بظلمة للبتزين في إحدى محاله ثم محرراً في مجلة أم درمان. لم يمنعه العمل من مواصلة الاطلاع والسهرة مع الكتب مما أثر عليه في صحته فأصيب بداء الصدر الذي قضى عليه عام 1937م قبل أن يتجاوز الخامسة والعشرين. له ديوان شعر (إشراقة) ومجموعة من المقالات الأدبية والنقدية بمجلة الرسالة المصرية والنهضة السودانية تدل على سعة أفق وتفتح ذهن وتمكن من اللغة والأدب والفلسفة.

(3) ديوان إشراقة – التجاني يوسف بشير، دار الثقافة بيروت، ومكتبة النهضة السودانية، ط5، 1967م، ص 125.

الوجود الحق ما أو	سعفي النفس مداه
والسكون المحض ما أو	ثق بالروح عراه
كل ما في الكون يمثي	في حناياه الإله
هذه النملة في رقت	هارجع صده
هو يحيا في حواشها	وتحيا في ثراه
وهي إن أسلمت الرو	حتلقها يداه
لم تمت فيها حياة الـ	لمه إن كنت تراه

والناظر إلى الأبيات يجد بها ملاحظة مهمة في قصائد الرومانتيكيين وخاصة في أوزان القصائد، حيث أنها ذات بحور قصيرة، أو على مجزوء بحور قديمة، أو ذات بحور غير مركبة التفعيلات.

فالأبيات من الرمل القصير، ووزنه:

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

وفيه يقول الدكتور عبد الله الطيب⁽¹⁾: "ونغمة الرمل خفيفة جداً. وتفعيلاته مرنة للغاية، إذ كثيراً ما تصير (فاعلاتن) (فاعلاتن)⁽²⁾ ولا يكاد يلاحظ ذلك. وفي رنته نشوة وطرب". وتقطيع الأبيات:

1. الوجود الحق ما أوسع في النفس مداه			
ال وجودل	حققما و	سع فننف	س مداهو
ه/ه//ه/	ه/ه//ه/	ه/ه//ه/	ه/ه//ه/
فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن			
2. والسكون المحض ما أوثق بالروح عراه			
وسسكونل	محضمما و	ثقبرو	حعراهو
ه/ه//ه/	ه/ه//ه/	ه/ه//ه/	ه/ه//ه/

(1) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، الدار السودانية للكتاب، دار بيروت، ج1، 1970م، ط2، ص 116.

(2) الخين: وهو حذف الثاني الساكن.

فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن
3. كل ما في الكون يمشي في حناياه الإله			
كللمافل	كونيمشي	في حنايا	هلاءهو
/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن
4. هذه النملة في رقتها رجع صداد			
هاذهننم	لتفي رق	قتها رج	عصداهو
/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن
5. هو يحيا في حواشها وتحيا في ثراه			
هويحيا	في حواشي	هاوتحيا	في ثراهو
/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن
6. وهي أن أسلمت الروح تلتقتها يداه			
وهي عنءس	لمترو	حتلقت	هايداهاو
/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلاتن
7. لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه			
لم تمتفي	هاحياتل	لاهءن كن	تتراهو
/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/	/ه//ه/ه/

فاعلاتن | فاعلاتن | فاعلاتن | فاعلاتن
ومن مظاهر التجديد عند التجاني يوسف أيضاً الاعتداد بذات الشاعر وقدراته
الخلاقة، واعتبار (القلب) منبعاً ثراً للزاد والمعرفة وتقديس عاطفة الحب والإحساس بالجمال،
في مقابل ما كان الكلاسيكيون يمنحونه للعقل من تقدير، ومن محافظة على الاتساق
والأعراف الاجتماعية العامة. ومن شعر التجاني في هذا السبيل⁽¹⁾:

عجيبٌ أنت يا قلبي فكم ذا	يهيب بك الجمال وتستجيبُ
يظل بك الهوى فرحاً وتبكي	فتشرب من مدامك القلوبُ
ترود بك الصبابة كل يومٍ	مجاهل كل أهلها غريبُ
وجن بك الهوى فهنا غريب	علقت به ومن هنا حبيبُ
وتلك وفي معاصمها سوار	وذاك وفي ترائبها (صليب)
تفرعني الهوى فلكل عيني	تمرّ عليّ في الدنيا نصيبُ

ونرى أن الشعر الرومانتيكي في السودان سجلاً لحياة شعرائه، وخاصة حياتهم
الباطنية، بما تزخر به من أفراح وأحلام، وما تجيش به من آلام وإحباطات، وأمانٍ تعثرت في
الدروب الصعبة لمجتمع يجتاز كثيراً محن الاستعمار، وموروثات التخلف والجهل. والوحدة
العضوية من أهم مظاهر التجديد في الشعر الحديث، وفيها يقول الدكتور محمد غنيمي
هلال⁽²⁾: "هي الوحدة العضوية في القصيدة ووحدة الموضوع والمشاعر التي يثيرها الموضوع، وما
استلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً إلى غاية، وعلى
أن تكون أجزاء القصيدة بالبنية الحسية لكل جزء وظيفته، يؤدي مهمته عن طريق التسلسل
في التفكير والمشاعر".

فقد تحققت الوحدة العضوية في شعر التجاني وخلا من التفكك، حيث نرى ذلك في
قصيدته (نفس) إذ يقول⁽³⁾:

(1) ديوان إشراقة، ص 55.

(2) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار النهضة، ص 395.

(3) ديوان إشراقة، ص 68.

نفس تطاير كالشعا ع وتستحيل إلى حنين
وتذوب وجداً في صبا بها وتخفت كالأتين
وترى في وجه الحيا ة وبين طيات السنين

وهنا نرى أن القصيدة تمتاز بالوحدة العضوية وقد ترابطت وتلونت بلون واحد. وهذه الوحدة نجدها عند معظم شعراء الاتجاه الوجداني.

ونقد التجاني هو حصيلة تجربة شعورية أحس بها الشاعر فعرضها بأمانة الصوفي وقدرة الفنان، فعوض بأمانته وصدق ما فاتته من أصول البحث المنهجي العلمي. وللشعر في رأيه مجرى في التفكير خاص به، يختلف عن مجرى التفكير الأدبي والتفكير الاجتماعي والفلسفي. فللشعر أنظمة دقيقة تشمل الفكرة واللفظ والصياغة. والشاعر إذ يتهيأ للنظم وينقطع إليه في إحدى ساعاته الشعرية، إنما يحاول جهده قبل ذلك أن يجعل نفسه كأوتار القيثارة كلها مرهفة دقيقة، وكلها ذات لون لدني خاص. فإذا حركها جميعاً أرسلت لحناً واحداً متناسقاً مناسباً يكمل الواضح منه الغامض، والغليظ منه الدقيق في غير تنافر.

ثانياً: محمد المهدي المجذوب⁽¹⁾ (1918م-1982م):

لم يجد المجتمع السوداني - بعد فترة من سيادة المذهب الرومانتيكي - التقدم الذي كان ينشده في مجالات الحياة المختلفة، بعد أن كان هذا المذهب ممثلاً لحركة التجديد، أصبح ينظر إليه باعتباره تقليداً مملولاً يغلب عليه التألق في الشكل والصور الخيالية الغربية، ويبعد في مضمونه عن المشكلات الحقيقية للمجتمع وتصوير الطبقات الدنيا بكل حياتها ومشاعرها⁽²⁾. فقد ظهر في عالم الأدب مذهب جديد تحاول من سبحات الرومانسية الحاملة إلى معترك الحياة، مستمداً موضوعاته من الواقع، كاشفاً عن أوجه اعوجاجه مناضلاً في سبيل تقويمها. وذلك هو المذهب الواقعي النقدي، وظهرت في فرنسا حوالي الخمسينات معبراً عن الضيق بطغيان الفردية والانتهازية، متأثراً بالتقدم العلمي مستعيناً بمنهجه في دراسة

(1) هو محمد المهدي بن الشيخ المجذوب بن الفقيه محمد بن الفقيه أحمد بن الفقيه جلال الدين. ولد بمدينة الدامر وينتمي إلى أسرة المجاذيب، فهي أسرة دينية عريقة مشهورة، بالعلم والشعر والصلاح تخرج من كلية غردون التذكارية قسم المحاسبة 1939م، وتعين محاسباً بحكومة السودان، كان أحد رواد مدرسة الغابة والصحراء في الشعر السوداني وله مساهمات نقدية واسعة، توفي في العام 1982م.

(2) تيارات الشعر العربي المعاصرة في السودان، ص 288.

المشكلات العصرية، مرتكزاً على الحيدة في نقد الواقع دون اندفاع وراء العاطفة، وتأثر بالأفكار السابقة⁽¹⁾.

فالشاعر محمد المهدي المجذوب عاش واقعياً متأثراً بواقعه، فمضى في الحياة بفلسفة عملية بعيدة عن الخيالات المتطرفة، انتهج نهجاً عملياً في الحياة يؤمن بالثوب كساء، والخبز غذاء، لا يستر عري جسمه بظل الروض ولا يتغذى بشعاع القمر. وهو القائل⁽²⁾:

أحب صفاء الخبز لا البدر فليعش على البدر مخبول العشيات جامع
ولي خرق من ظل روضٍ بساترٍ كما سترت والزهر عريان فاضح
أترك سر الدود للطين أنني شريك له كل على الطين فارح

فالمجذوب يتفاعل مع مشكلات مجتمعه، وكان أكثر ما يؤرقه من هذه المشكلات وقوع بلاده في قبضة الاستعمار محاولتها الخلاص من قيودها. ولهذا كثرت أناشيده التي يحاول فيها استنهاض الهمم وإلهاب العزائم الخاملة. إذ يقول⁽³⁾:

وطني استفق حان الوثاب وصيحة في الحق تبرق بالدماء وتقطر
نفض الحسام لها القراب وهزه غضب على إفرنده يتنمر
وطني وقاك من الدخيل وظفـره ليل الشبيبة والمشيب المقمـر

والشاعر اتخذ من الواقع أسلوباً للضراعة والدعاء. فيقول في قصديته (ليلة شاتة)⁽⁴⁾:

رب خفف على المساكين لا يمسو ن بين الكواعب الأتراب
لا نسيغ النمير حين أساغ الرب دفء الرحيق في الأكواب
رب جاعوا فما الكرى برحيم لا ولا الليل ساتر الجلباب
حررة لا ألومها تحطم الباب وتهدي رحيقها للذباب
لست أدري أمن ثيابي يغشى برد هذا المساء أم أعصابي
ودمي ما له تريث في قلـ بي وجسمي أم حفنة من تراب

(1) الأدب ومذاهبه من الكلاسيكية الإغريقية إلى الواقعية الاشتراكية، محمد حفيد الشوباشي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م، ص 121.

(2) ديوان نار المجاذيب، محمد المهدي المجذوب، مطبعة التمدن، الخرطوم، ط1، 1969م، ص 253.

(3) نفسه، ص 222.

(4) ديوان نار المجاذيب، ص 175.

ويرسم المجذوب في قصيدته (حياة) صورة تنبض بالحياة للبيئة السودانية في أواسط العامة، بحيث الفقر والتخلف والمرض واللجوء إلى الغيبيات، فيقول⁽¹⁾:

يزورُ أسرتي السقمُ

فأسقمُ

وأجرع الغموم والهموم والكدرُ

وأدمن السهرُ

وملءُ دارنا الذباب والتراب والقذرُ

وحول دارنا عُفونة الوحلُ

بريحها يختنق الأجلُ

وحول دارنا جداول

كأنها (جرادلُ)

وحول دارنا جداول ركودُ

سلاسل من طُحلب يفورُ

ففي هذه الأبيات نحس بكآبة الشاعر وحزنه، ولكنها ليست كآبة (رومانسية) ناتجة عن الصراع بين المثال والواقع أو كآبة لا تدري أحياناً لنفسها شيئاً، بل نرى حزناً قائماً يصور البيئة المتخلفة ويثور في الوقت ذاته على المتسببين في وجودها.

ولكننا نرى الشاعر أحياناً متفائلاً، وذلك من مثل قوله⁽²⁾:

ما دمت أشتي المنام في الشعرُ

وأشتي في البید رحمة الظلال والثمرُ

فإنه رجاء

ألهمة العذاب والضجرُ

وفي الوحول العفونات ينبت الزهرُ

مطهرًا يغسله المطرُ

ويستريح في جماله البصرُ

وإنه رجاء

(1) ديوان نار المجاذيب، ص 69.

(2) ديوان نار المجاذيب، ص 69.

ويا له من رجاء
من خاطر كأنه سماء
فوق التراب والذباب والقذُر

فشاعرنا المجذوب كغيره من شعراء السودان في سبيل تماسك الجبهة الداخلية للوقوف في وجه الاستعمار، يصيغون القصائد الوطنية ويرددونها، فهي دعوة إلى الوحدة الوطنية القومية. لذا كان الواقعيون يستجيبون لروح العصر، وذلك بتصوير الواقع تصويراً يكشف عن فساد السياسة السائدة، من خلال مظاهر الضعف والخور والفساد في المجتمع. وعندما انزاح كابوس الاستعمار عن السودان وتخلص من أوضاعه في العام 1956م، غنى الشعراء غناء حاراً وانتابهم حالة من الفرح العارم وابتهاجاً بكل أبناء الوطن الذين صنعوا هذا الحدث العظيم، والشاعر المجذوب - كعادته - انفعل وفرح في قصيدته (عيد الحرية) حيث يقول⁽¹⁾:

عيد ولم يك قبله من عائد	يأتي إلينا باسماً وببشّر
قد كان رهن محاجر من ظلمة	الصيح فيها أعين تتحجر
حتى إذا نضج الحفاظ أباحه	دفّ تكتمه النفوس معمر
وأفاق يشعل ناره في ليلة	تهدي الكرى للظالمين وتسهر

فالأبيات مليئة بالخيال والصور الشعرية العميقة، وهذه عادة الشاعر في تصويره فهو يعتمد على دقة الملاحظة، وحسن الانتقاء وسلامة الاختيار.

ونجد أن شاعرنا محمد المهدي المجذوب تعرف على المذاهب الأدبية والتنوع الذي حدث في مجال تطور الأدب، إلا أنه أثر أن يجد لنفسه موقفاً آخر. فكتب الشعر كيفما يريد غير ميال بأي من المذاهب، سواء أكانت تقليدية أو حديثة، لذلك نجده نظم الشعر الموزون المقفى، كما نظم شعر التفعيلة والشعر المنثور.

(1) ديوان نار المجاذيب، ص 143.

الخاتمة والنتائج:

إن الحركة النقدية في أدبنا اتسمت بطابع الانسجام في جميع مراحلها التاريخية. ونحن نرى ونلمح هذا الجهد الجبار الذي قام به نقادنا الأوائل في تنمية ملكاتهم النقدية بالتطلع عن طريق الدراسة في الثقافات الأجنبية ومراجعة تراث العرب. وذلك لاستخلاص الشواهد وحصر النماذج التي دارت حولها قضايا الاختلاف، لكي يستفيد نقادنا اليوم من كل العوائق التي أعاقحت حركة النقد في السابق. وفي هذه الدراسة ما ورد من مادة نقدية تمثل بعض الإشارات إلى الحركة الأدبية والنقدية التي شملت حيزاً كبيراً من تراثنا الأدبي والنقدي. ومن أهم النتائج:

1. الاطلاع على بعض الكتب والدوريات النقدية.
2. أن الإنتاج الأدبي تبعه النقد بكثير من النشاط والجدية، بل غزاه بقوة في اتجاهاته المختلفة من تقليدية وتجديدية وغيرها.
3. افتنان غالب الأدباء والمستمعين بالشعر التقليدي، مما صعب مهمة نقده.
4. كان المجتمع ينظر للنقاد بحذر، في أنه شخص يريد التحطيم.
5. اتباع المنهج التاريخي استقراراً للتطور النقدي مع اتخاذ المنهج الوصفي التحليلي لإعطاء صورة متكاملة عن الأعمال النقدية.
6. نجد أن الرواد الأوائل من النقاد هم خريجي كلية غردون كحمزة الملك طمبل الذين عملوا على تطوير الحياة الأدبية وبث الشعور القومي وقد تأثروا بجماعة الديوان.
7. كانت طلائع النقد الأدبي في السودان في أواخر الربع الأول من القرن العشرين بأقلام عدد قليل من النقاد ظهر إنتاجهم بمجلتي الحضارة والفجر.

المصادر والمراجع:

1. الاتجاهات الشعرية في السودان، د. محمد النوبي، مطبوعات معهد الدراسات العربية، 1957م.
2. الأدب السوداني وما يجب أن يكون عليه، حمزة الملك طمبل، الناشر: الأمانة العامة للخرطوم عاصمة للثقافة، الخرطوم، 2005م.

3. الأدب ومذاهبه من الكلاسيكية الإغريقية إلى الواقعية الاشتراكية، محمد مفيد الشوباشي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م.
4. الإسلام في السودان، محجوب زيادة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، مصر.
5. تاريخ الثقافة العربية في السودان ، د. عبد المجيد عابدين، مطبعة التمدن المحدودة، الخرطوم، السودان، ط3، 2005م.
6. تاريخ الصحافة في السودان، حسنين عبد القادر، دار النهضة العربية، القاهرة، ج1، 1967م.
7. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1978م.
8. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط4، 1986م.
9. تاريخ حياتي، بابكر بدري، مطبعة مصر بالخرطوم، 1961م، ج1.
10. تطور التعليم في السودان (1898م- 1956م)، محمد عمر بشير، ترجمة: هنري رياض وآخرون، دار الثقافة، بيروت، ومكتبة خليفة عطية، 1970م.
11. تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، د. محمد مصطفى هدارة، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 1972م.
12. ديوان إشراقة – التجاني يوسف بشير، دار الثقافة بيروت، ومكتبة النهضة السودانية، ط5، 1967م.
13. ديوان البناء، عبد الله محمد عمر البناء، ضبطه وحققه وقدم له: علي الملك، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط2، 1976م.
14. ديوان العباسي- محمد سعيد العباسي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط1، 2010م.
15. ديوان نار المجاذيب، محمد المهدي المجذوب، مطبعة التمدن، الخرطوم، ط1، 1969م.
16. الرمز الشعري عند الصوفية، عاطف جودة، بيروت، ط1، 1978م.
17. السودان والحركة الأدبية، حليم اليازجي، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 1985م، ج2.
18. سوق الذكريات، سليمان كشة، شركة الطبع والنشر، الخرطوم، ط1، 1963م.
19. الشاعر السوداني- محمد سعيد العباسي، د. أحمد عبد الله سامي، الناشر: دار البلد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م.
20. الشعر الحديث في السودان، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، 1962م.
21. شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، دار المعارف، مصر، ط2.
22. شعر حسيب علي حسيب (تحقيق ودراسة)، إعداد: المعتز سعيد فرج الله، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية، 1999م.
23. شعراء السودان، سعد مخايل، مطبعة رمسيس بالفجالة، مصر، بدون تاريخ، ج1.
24. شعراء الوطنية في السودان من عهد الفونج إلى 1970م، د. صلاح الدين المليك، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، 1975م.

النقد ومدى تأثيره على تطور الحياة الأدبية في السودان

25. شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، عباس محمود العقاد، مكتبة النهضة المصرية، 1950م.
26. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار إحياء العلوم، بيروت، ط6، 1997م.
27. العروض العملي، نهاد التكريتي، دار دمشق للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
28. فن الشعر، إحسان عباس، منشورات دار بيروت، 1955م.
29. في النقد، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2.
30. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعاتها، د. عبد الله الطيب، الدار السودانية للكتاب، دار بيروت، ج1، 1970م، ط2.
31. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار النهضة.
32. نقد الشعر في السودان حتى بداية الحرب العالمية الثانية، عز الدين الأمين، مطبعة جامعة الخرطوم، 1999م، ط1.

رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لببيد ومسدار الصيد عند الجار دلو (دراسة تحليلية موازنة)

د. عبلة الصديق عثمان محمد*

تعود علاقتي بالحيوان وقصصه وأنواعه إلى بحثي في الماجستير والدكتوراه، فقد كان الأول بعنوان: "المشوبات في جمهرة أشعار العرب" عند أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، وهي القصائد التي شابهها الكفر والإيمان، وهي سبع قصائد أختارها صاحب الجمهرة للشعراء المخضرمين وهم: نابغة بني جعدة، كعب بن زهير بن أبي سلمى، القطامي، الحطيئة، الشماخ بن ضرار، عمرو بن أحمر، تميم بن مقبل العامري.

وبحثي في الدكتوراة الذي كان بعنوان: النوابع الثلاثة (الذبياني، الجعدي، الشيباني) ففي هذين البحثين وقفت مع قصص الحيوان بأنواعه المختلفة: الناقة، وحمار الوحش وأتانه، وثور الوحش وبقرة، والظباء وتيسها، والظليم وأثاها، والسباع بأنواعها المختلفة - الأسد، والذئب، والضبع، و ...

فقد عشت في هذين البحثين مع الحيوان بأنواعه، وقصصه وربطه بأغراض الشعر المختلفة - النسيب، والمديح، والرثاء، والهجاء، والوصف، وغير ذلك من الأغراض. فقد وجدت في قصص الحيوان وربطه بأغراض الشعر جوانب إنسانية مختلفة عبر عنها الشعراء بواسطة هذه الأغراض، فالحيوان يُصرع، والحيوان ينتصر، والحيوان يفقد طفله. وفي الفترة الأخيرة رجعت إلى الشعر الشعبي السوداني، خاصة شعراء البطانة، وخاصة شعر الجار دلو، ومساديره.

فقد لاحظت هناك تشابهاً قريباً، وغريباً، وعجيباً أدهشني، وأمتعني. مما جعلني أفكر في كتابة بحث في موضوع من موضوعات هذا التشابه، أحلله، وأتناوله من جوانب مختلفة، علماً بأن هناك من سبقني من النقاد والأدباء إلى دراسات الشعر الشعبي السوداني، وتناولوه من جوانب مختلفة منهم: د. عبد المجيد عابدين، وغيره.

يقول الدكتور عبد المجيد عابدين: "ومن المفيد لدارس الشعر العربي القديم والجاهلي منه بخاصة، أن يدرسوا المسادير الاستعراضية في الشعر الشعبي السوداني. ونعتقد أنها تلقي

* أستاذ الأدب العربي المساعد بكلية اللغة العربية - جامعة أم درمان الإسلامية

ضوءاً كاشفاً على كثير من المعاني والعبارات التي وردت في الشعر العربي القديم، ولا سيما المعلقة. وربما أفادتنا المسادير في كشف وجوه من الارتباط والتسلسل بين أجزاء القصيدة الجاهلية التي تتناول وصفاً استعراضياً لحيوان الصيد، هذا بالإضافة إلى ما نجده من مشابهة واضحة بين الشعر الجاهلي والشعر الشعبي في السودان ولا سيما شعر المسادير في وصف المرأة والحيوان وتمثيل الطبيعة، والاسترسال في الوصف¹.

ويقول دكتور محمد النويهي: "وقد اعترفت في أحد كتبي السابقة بأنني لم أبدأ في الفهم الصحيح للشعر القديم إلا حين عشت في السودان وتجوّلت في باديته، وهي عظمة القرب في خصائصها الطبيعية من البادية العربية، بل هي في الحقيقة امتداد لها عبر البحر الأحمر"².

ويقول أيضاً: "فأول ما يجب أن نذكره في هذا الصدد هو أن الأدب العربي القديم لا يصور بيئة تامة الاختلاف عن بيئة الشاعر السوداني المعاصر، بل هو على العكس يصور بيئة قريبة الشبه ببيئته الحقيقية التي نشأ فيها، فالسودان من حيث هيئته الطبغرافية وأحواله الجغرافية يقترب في عناصر كثيرة من شبه جزيرة العرب، فهذه الصحاري الفسيحة، والسهول المبسوطة وما فيها من وهاد ونجاد، وما يتخللها من وديان وعيون وآبار وسيول وغدران، ومناخها وتقلبات طقسها، وتراوح فصول الجفاف والأمطار عليها، وكثير من نباتها وحيوانها، وبالتالي حياة الرعي والترحال التي يحياها السكان، وقيام نظام حياتهم على القبائل والاعتزاز بالأنساب، والكثير من عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية"³.

ويقول: "وقد نتج عن هذا التشابه المادي والاجتماعي اقتراب في القيم الخلقية التي يعزها السودانيون من تلك التي تغنى بها العرب القدماء. فهي شديدة الشبه بتلك المثل التي أملتها البيئة الصحراوية، من الكرم الذي يبلغ حد الإسراف، والنجدة، وحماية المستجير، والشجاعة وحب الفروسية. لا عجب أن تعلقوا بالأدب العربي الذي يستوحى هذه المثل ويتغنى بها"⁴.

1 من الأدب الشعبي في السودان، د. عبد المجيد عابدين، الدار السودانية - الخرطوم، ط2، 1972م، ص20 - 21.

2 الشعر الجاهلي - منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة، ج1، ص32.

3 الاتجاهات الشعرية في السودان، د. محمد النويهي، جامعة الدول العربية - معهد الدراسات العربية، 1957م، ص15.

4 المرجع نفسه، ص16.

نتيجة لذلك فقد وجدت تشابهاً يصل حد التطابق بين رحلة الحيوان ووصفه عند الحارذلو في مسدار الصيد، وعند لبيد في معلقته، ولا يفرق بينهما إلا أن المسدار بالدارجة السودانية، والمعلقة بالعربية الفصحى، فالتشابه في الرحلة، وكثرة الأماكن ووصفها، وتقلبات الطبيعة ووصفها، وعلاقة الحيوان بهذه الأمكنة ورصد حركته وقوفاً وسيراً، وما يتعرض له من مخاطر. كل هذا وغيره لاحظته في رحلة الصيد في المسدار وفي معلقة لبيد.

فقد كانت دراساتهم موسعة تناولت جوانب مختلفة في هذا الشعر، أما في هذا البحث، فقد أردت منه أن أقف عند جزئية معينة، لها أثرها في القصيدة الجاهلية، وفي شعر الحارذلو. لهذا فقد جعلت دراسة هذا التشابه موضوعاً لبحثي هذا.

ولما كان الشعراء قد أبدعوا في لغتهم الشعرية وصفاً، وسرداً، وقصصاً، لمظاهر الطبيعة، ورحلة الحيوان داخل هذه البيئة بتشكيلاتها المختلفة من صحاري، ووديان، وماء، ونبات، وسحب، وأمطار، ورعد، وبرق، لما كان ذلك كله، وغيره فقد اخترت عنواناً يناسب هذه الدراسة وهو: رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لبيد ومسدار الصيد عند الحارذلو (دراسة تحليلية موازنة).

والخطة التي اتبعتها في تناول هذا الموضوع تتمثل في الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالشاعرين.

المبحث الثاني: تشابه الحيوان الوحشي.

(أوصافه، لونه، وعيونه، وتشابه حركة الحيوان الوحشي شملت المكان والزمان، ومراتعه، وتشابه الحيوان الوحشي والكلاب).

المبحث الثالث: الرحلة ومخاطرها.

المبحث الرابع: رحلة المسداريين الواقعية والرمزية.

والخاتمة. ثم المصادر والمراجع.

المبحث الأول: التعريف بالشاعرين.

لبيد بن ربيعة العامري:

أبو عقيل، لبيد بن ربيعة بن مالك بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان¹. قال

¹ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر الأنباري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف - مصر، 1963م، ص 505.

عنه بن قتيبة: "لبيد بن ربيعة العامري كان يقال لأبيه "ربيع المقترين": لسخائه، وكان من شعراء الجاهلية وفرسانهم، أدرك لبيد الإسلام وقدم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في وفد بني كلاب فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم. ثم قدم لبيد الكوفة وبنوه، فرجع بنوه إلى البادية "بعد ذلك" فأقام لبيد إلى أن مات بها، فدفن في صحراء بني جعفر بن كلاب، ويقال إن وفاته كانت في أول خلافة معاوية، وأنه مات وهو أبن مئة وسبع وخمسين سنة"¹.

وبدفته انطوت حياته، ذاك الرجل الشهم الشريف صاحب الجود والكرم، في سنة 41هـ.

أما الحارثون:

فهو محمد بن أحمد بن عوض الكريم أبي سن (1830-1916م) ينحدر من بيت ملك مؤثر وأسرته كانت لها السيادة على جميع أرض البطانة - وما تزال- وأقرب جدوده الشيخ عوض الكريم (أبو علي) الذي كان زعيم الشكرية، وأدرك سلطنة سنار على أيام ملكها بادي وهو الذي ملكه أرض الشكرية في سنة 1791م بموجب وثيقة منحهم فيها أرضاً واسعة بين النيل الأزرق والرهة ونهر عطبرة، هي أرض البطانة ليعمر فيها قبيلة الشكرية إلى ما شاء الله لا ينزعه فيها منازع².

فالتشابه بين الشاعرين في البيئة والنشأة، والقيم الخلقية، فكلا الشاعرين نشأ في البادية والبيئة الصحراوية، وشبه جزيرة، فلبيد نشأ في شبه الجزيرة العربية، والحارثون نشأ في البطانة وهي أيضاً شبه جزيرة (النيل الأزرق، نهر الرهد، ونهر عطبرة)، وفي بيت ملك وزعامة وقبيلة تشهد لها القبائل بالمجد والسيادة والشرف، والكرم، والفروسية، والشجاعة، ونصرة المظلوم، وغير ذلك، والشاعرين على دين واحد وهو الإسلام.

فلبيد بن ربيعة العامري من قبيلة بني عامر، ينتهي نسبه إلى معد بن عدنان وهو الجد العشرون للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وأي نسب أشرف من هذا؟

والحارثون ينحدر من قبيلة الشكرية، وهي قبيلة معروفة ومشهورة في السودان، وأرض البطانة بالأخص، فهي مضرب مثل في العزة والكرم والجود حد الإسراف كما ذكر ذلك الدكتور محمد النوبي، وكذلك الشجاعة والشهامة، ويدلنا على ذلك جده الشيخ عوض الكريم أبو سن ذو

¹ الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: الدكتور عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت - لبنان، 1997م، ص 182-183.

² وثائق سنار (الأرض)، د. محمد إبراهيم أبو سليم، ص 52.

المهابة والمكانة، وحب النجدة، وغير ذلك. وهذا يدلنا على شرف أجداد الحارثلو فكانوا سلاطين ومدراء إدارات في العهد التركي.

المبحث الثاني: تشابه الحيوان الوحشي عند الشعاعين.

(أوصافه، ولونه، وعيونه).

وجد الشعراء في حياة الحيوان الوحشي فرصة للتأمل والتفكير في أمور الكون والحياة، وما يكتنفها من المخاوف والقلق والاطمئنان. لذلك وصفوه وصفاً جمالياً رائعاً، فأول ما يلفتنا في الوصف للشاعرين اللون الأبيض لدهيما، فيقول لبيد:

وَتُضِيءُ فِي وَجْهِ الظَّلامِ مُنِيرَةً كَجَمَانَةِ الْبَحْرِ سُلَّ نِظَامُهَا¹
أي وتضيء هذه البقرة في أول ظلام الليل كدرة الصدف البحري أو الرجل البحري حين سلَّ النظام منها، فشبهها بالدرة البيضاء في تألؤ لونها، ويصف لون ولدها الذي صرعت الذئب فيقول:

لَمُعْفَرٍ قَهْدٍ تُنَازَعُ شِلْوُهُ غُبْسُ كَوَاسِبُ لَا يَمُنُّ طَعَامُهَا²

و"القهد" قيل هو الأبيض الذي يخالط بياضه صفرة، أو حمرة، فيصف هذا القهد، أي ولد البقرة بأنه أبيض تخالطه صفرة، ويشاركه في اللون الأبيض الممزوج بالصفرة الحارثلو عندما رسم لنا الصورة المقاربة من تلك التي استعملها لبيد، عندما قال:

صُفْراً دِرْعَيْنِ تَدْنَى لَأَلِّهَال

وَبُيْضَتْ شَاشٌ قَرَابِينُ تَرِيعُ الْبَال³

وقوله:

لَوْنُنْ مِنْ بَعِيدٍ مِثْلُ الْبَلْبَلِ نَضَافُ⁴

¹ شرح المعلقات السبع، للزوزني، دار الجيل - بيروت، ص 146.

² المرجع نفسه، ص 144.

³ ديوان الحارثلو، للدكتور إبراهيم الحارثلو، الدار السودانية للكتب - الخرطوم، ط 3، 1983 م، ص 15.

⁴ المرجع نفسه، ص 26.

وقوله:

لُونُنْ بِشَبَهَ الْبَفْتِ الْجَدِيدِ وَالْخَامِ¹

يقول: أن هذه الطباء لهن درعة صفراء تنزل حتى عظم الفخذ، وهذا البياض الذي يأخذ اللب بجماله ويروع البال والخيال، ويؤكد ذلك بوصفه لها في الشاهد الثاني عندما وصفها بأنها شديدة البياض نظيفة كأنها هذا الطير المعروف بلونه الأبيض الناصع (البليبي) إذا أبصرتها من بعيد، ويشبه بياضها بالثياب القطنية الجديدة، فكان التشابه واضحاً عند الشاعرين، إلا أن لبيد كان أكثر وضوحاً وجمالاً في تشبيهه بالدرة. وهذا التشبيه يضفي عليها جمالاً عجباً.

فالحارذلو ذكر البياض والجمال أتى بعد سمنها فكثير اللحم على أعجازها فكانت ناصعة البياض وزاد جمالها بقوله:

وَالدُّوْفُ فَوْقَ حَقَائِيْنِ كَثَرَتْو جَمَالِ²

وربما وصف جمال اللون مع الضمور والسمن، وذلك في قوله عندما التفت إلى ذلك الجمال فرأها نحيلة ضامرة ليس من قلة الأكل ولكن خلقه ربانية، فقال:

ضُمَرُ خِلَقَةٍ مَوْمِنٍ قِلْ مَعَاشٍ ضَايَعَاتِ³

ويصف الحارذلو هذه الطباء بالعيون الزرقاء من غير كحل فهو جمال رباني، بقوله:

فِي عَاقِبِ نِهَارِ سَوْنٍ لِهِنَّ مُرْحَالِ

وَعَيْنُهُنَّ خِلَقُهُنَّ زُرْقٌ بَلَا كَحَّالِ⁴

فيقصد بذلك عندما أخذت الطباء في الرحيل فذكر جمال العيون ذات الكحل الطبيعي دون تكحيل، ويقول في مقطع آخر:

شِنْ مَا قُلْنَا فَوْقَ دُغْسِ الْعَيُونِ سَاوِنَاتِ¹

¹ المرجع نفسه، ص 32.

² ديوان الحارذلو، ص 17.

³ المرجع نفسه، ص 38.

⁴ المرجع نفسه، ص 22.

وذكر ذلك في أكثر من مقطع ووصفهن بدغس العيون وهو السواد الجميل. فالشاعر يحرك الصورة أمامنا في مهارة وجمال، فهي ذات عيون واسعة كحيلة من غير كحل. هذا الجمال الرباني تحدث عنه الحارثي، وصمت عنه لبديع في معلقته.

تشابه حركة الحيوان الوحشي:

شملت حركة الحيوان الوحشي في هذا البحث: المكان، والزمان، ومراتعه واسمائها.

ومن مظاهر التشابه بين الشعارين ذكر الأماكن والجبال، والأودية والبقاع التي تألفها الحيوانات، وكذلك زمن التحرك، أو النباتات، وغير ذلك. فالملاحظ في البيئتين "بيئة لبديع الجاهلية، وبيئة الحارثي السودانية" حدة الذكاء، والصحراء المترامية الأطراف بحياتها الرتيبة، والسهول المنبسطة، جعلتهما يلاحظان بدقة ما حولهما وما يطرأ على الطبيعة من تغيير، وبالأخص الحيوانات الوحشية التي أولعوا بوصفها (الحمار الوحشي، الثور الوحشي، والظباء، وغيرها) وبوصف تحركاتها ونزولها في بعض الأماكن كما يوضح ذلك الدكتور عبد الحميد القط الصورة التي يكون عليها الحمار الوحشي مع أتنه في قصة الورود والخوف من الصياد وتربصه في أماكن الورد بقوله: "يعايش الشاعر - في صورته حمار الوحش أكثر مما يعايش الثور ويرسمه في لحظات آمنه بين سريره مليئاً بالحياة والقوة ومعان السيطرة، ويتابعه لحظة بعد لحظة، وهو يسوق قطيعه إلى الماء هابطاً به القيعان حيناً ومشرفاً به الوهاد والكثبان حيناً آخر، مستشرفاً أي "الموارد" يأتي وأبها يدع، حريصاً على ألا يشرد من القطيع أحد، بأسلوب لا يخلو من قسوة يراد بها الخير. ويطلق الشاعر الحديث عن لحظات الحذر والترقب، والحمر تقدم رجلاً وتؤخر أخرى قبل أن ترد الماء، على ما بها من شدة الظمأ، كما يصف تحفز الصائد ولهفته وانتظاره اللحظة المناسبة، وندمه إذ يخطئ رميته، وإذ يراها تفر مذعورة إلى حيث الأمن والنجاة"²، فلبديع وصف الحمار القوي العنيف الذي ظهر على ظهره آثار العض حين دفعته الحمر عن الأتان، ودفعها حتى غلبها وأثر الصراع فيما بقي على ظهره من كدم وعض، يقول:

أوملمع وسقت لأحقب لآحه طرد الفحول وضربها وكدامها
يعلو بها حذب الإكام مسحج قد رآه عصيانها ووحامها

¹ المرجع نفسه، ص 36.

² أنظر عبد القادر القط والنقد العربي، عبد الحميد القط، مكتبة الخانجي - مصر، ط 1، 1989م، ص 193.

[بأحزّة] الثَّلْبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَهَا قَفَرُ الْمَرَاقِبِ خَوْفَهَا أَرَامَهَا
 حتى إذا سَلَخَا جُمَادَى سَنَةً جَزَاءً فَطَالَ صَيَامُهُ وَصِيَامُهَا
 رَجَعَا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مَرَّةٍ حَصِيدٍ، وَنَجَحُ صَرِيمَةٍ إِبْرَامُهَا
 وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّفَا وَتَهَيَّجَتْ رِيحُ الْمَصَايِفِ سَوْمُهَا وَسِهَامُهَا
 فَتَنَازَعَا سَيْطَانًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُهَا
 مَشْمُولَةٌ غُلِثَتْ بِنَابِتِ عَرْفَجٍ كَدُخَانِ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا
 فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَدَتْ إِقْدَامُهَا
 فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا
 مَحْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَازِ يُظْلِمُهَا مِنْهُ مُصَرَّعٌ غَابَةٌ وَقِيَامُهَا¹

حديثنا عن الحمار وأتته، والثور وبقره، والتيس وظباه يطول. فالحركة جميلة ووصفها رائع، سواء كانت مكانية أو زمانية، أو وصف المرتع ونباته. فأول ما أذكره في هذا الجانب هو: حمار الوحش وأتته، فمطاردة حمار الوحش لأتته في مشهد رائع في معلقة لبيد، حيث تنافست الفحول وازدحمت عليها، وكثر فيما بينها العراك والخصام، فقاسى الحمار في سبيلها وعرض نفسه للعض من الفحول التي كانت تريد انتزاع أتته منه لكنه كان غيوراً دافع عنها وطردها وأكثر ضررها وعضها، ثم استطاع أن يستأثر بها دون الآخر، فلبيد يصور حماره وكأنه إنسان يعلم أمور الدنيا وما يحدث لأتته، فهو يعرف حملها لأنها تعاصبه، وكانت قد علمته طاعتها وشهوته مما أدخله في شك وريبة، فالحمار هنا فحل القطيع وقائد السرب وحاميه ورائده وموجهه، فمهمته عسيرة وهي حماية أتته، ويظهر دوره البارز الملحوظ في تحركاته ومتابعة أتته له دون مخالفة، فهو يعلو بها الأماكن المرتفعة اتعاباً لها وابعاداً عن الفحول، ويكون رقيباً لها خوفاً من استتار الصيادين بأعلامها،

يذكر لبيد الفترة التي اقامتها الأتن في هذا المكان المسمى بالثلبوت حتى مرّ عليهما الشتاء ستة أشهر وجاء الربيع فاكتفيا بالرطب عن الماء وطال امساك العير وامساك الأتان عنه. ثم أسند العير والأتان أمرهما إلى عزم أو رأي محكم ذي قوة وهو عزم العير على الورد إلى مورد المياه، يسوقها حمار قوي خبير بمواقع المياه ومواردها، يسوقها بعنف في الأكام وينزل الوهاد ليعلو أنجاداً أخرى.

¹ شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 138 – 142.

بدأت رحلة الورد وكان الزمن صيفاً، ففصل الصيف تكون الرحلة شاقة ومتعبة ومخيفة، لارتفاع درجة الحرارة، وتوقع الصائد قرب المياه، وفي فصل الشتاء يقل العطش لاكتفاء العير والأتن بالنبات الرطب الذي يغني عن الماء.

تحرك الحمار وأتنه في هذا المكان وهذا الحر مع رياح الصيف القاسية وشدة حرارتها، فهنا إشارة إلى انقضاء الربيع ومجيء الصيف واحتياجهما إلى ورود الماء، وفي هذا الطريق أصاب الشوك حوافرها.

ثم مضى الحمار نحو الماء وقدم الأتان لثلاً تتأخر وكانت عادته مقدمة الأتان، وورداً عيناً مملئة ماء فدخلها من عرض نهرها وقد تجاوز نبتها.

إذن حمار لبيد خبير بالطرق والأماكن وموارد المياه كصاحبه، فهي رحلة طويلة استغرقت ستة أشهر، وبالرغم من طولها فكانت سالمة لم يتعرض لها صائد ولم تأت الكلاب فتخيفها. فلبيد في معلقته تظهر لنا معرفته التامة للطرق ومواقع المياه والوديان، وأيضاً خبرته بمسالك الأظعان وأملاك العشائر، فهو وصاف للطرق والجبال والمواقع، وكذلك إرشاد السائلين لأماكنهم دون أن يتوهوا في هذه الصحاري، فعندما يذكر حمارة وأتنه يصفه بأنه عنيف قوي غليظ يدافع عن أتنه ويلتف حولها في الورد وأماكن رعيها ويردها ويجن جنونه إن حاولت التفرق، فهو يسوق القطيع إلى الماء يهبط القيعان ويشرف بها على الوهاد.

أما التيس ذكره دائماً يأتي دلالة على القوة، ومجابهة الشدائد، فأفاض وأبدع في وصفه الحارذلو الذي أنجبته البطانة عاشت في داخله فأحسها واهتزت نفسه بمشاهدها الخلافة، وانطلق لسانه بالشعر في وصف الأطباء التي نجدها مرتبطة عند العرب بالجمال والسرعة وقد أعجب العرب منها "طول العنق ونصاعة اللون، وراقهم فيها تناسق الأعضاء، ورشاقتها، فشبهوا بها كل ما وجدوه رائعاً في نظرهم، جميلاً في نفوسهم"¹. وتيسها يسوقها إلى أماكن المياه، فكان هذا الوصف الأجمل والأروع، حيث يقول:

وتيسن زاعلن باكرمع الشهلال
خلأهن رتوع في بقل وخرجت نال
لامن دور الوادي السري سيال
فوق قمزوز طلع شاف في ملينتوزوال

¹ الطبيعة في الشعر الجاهلي، للقيسي، دار الإرشاد - بيروت، ط1، 1970م، ص142.

وَقَلَعَتْ كَوْ حَفِيرَهَا لِقِيلُو فِيهَا نُعَالٌ¹

فعندما ذكر الأطباء ذكر التيس وخوفه على ظباه عندما كانت تنتظره وباتت تترقب البرق فعاد إليها في الصباح الباكر واستنفرها "زاعلن" مع الفجر ليقودها ويهديها إلى أماكن الرعي. حيث تركها راتعة في نبات طيب محبب إليها، حتى أكتشف ذلك الوادي الذي سالت جوانبه بالماء وهي لذلك مظنة نبات ومرعى حسن.

هنا نلاحظ الحارذلو وصف لنا كيف كان يتصرف التيس، فهو يطلع أولاً ليستطلع الطريق ويرى من على البعد إذا كان هنالك من يرقبه، فيصعد فوق فوق هذا المكان (قمزوز) فيرى شيئاً (زوال) لا يكاد يتبينه، ثم ينظر فيجد ماء قليلاً في حفير قلعة كو. ويواصل حديثه عن التيس، فيقول:

خَلَاهُنْ عَلَى حَجَرِ الصِّفْيَةِ حُبُوسٌ

تَيْسُنْ لِي مَرَاتِعُنْ تَمَلِّي بِكُوسٌ

وَدِيمٌ يُقْلُ عَلَى الْبَرْقِ أَلْ بِشِيلْ حَرْقُوصٌ²

ترك التيس الظباء في المكان الذي يسمى بحجر الصفية حبيسات متطلعات إلى عودته، وهو في بحث دائم عن مراتع ومرعى الظباء وهو دوماً يتوجه نحو مظان المطر يدلّه على تلك الأماكن لمعان البرق (الحرقوص).

ويقول في مقطع آخر لقد جرى تيسهن غرباً مستكشفاً مكاناً ليناً صالحاً للولادة وبعد أن طاف بتلك الأماكن، عاد إليهن فنهضت إليه الظباء تداعبه فرحة بعودته وقام معظمها في المقدمة معلناً عن بدء الرحلة. وذلك في قوله:

تَيْسُنْ جَكْ مِعْرَبْ وَبِي الْمَلَايْنِ حَامٌ

جَاهِنٌ وَعَافَطُنْ وَجِيلٌ سَدُوهِنْ قَامٌ³

نلاحظ أن لبيد في وصفه للحمار الوحشي في معلقته يجمع شمل الأتان ثم يقدمها ويطردها أمامه، كي لا تستعصي عليه، ولا تتبدد. والتيس عند الحارذلو في مسداره يترك الظباء في مكان آمن ويتحرك حركة سريعة مستكشفاً كل الطرق. وقد يصعد إلى مكاناً عال يستطيع منه

¹ ديوان الحارذلو، ص 19 – 20.

² المرجع نفسه، ص 28 – 29.

³ ديوان الحارذلو، ص 34.

مشاهدة كل الأماكن ومعرفة الطريق ومكان الخطر، ثم يعود مسرعاً إلى الظباء فيطردها (زاعلن) أمامه مواصلاً رحلته.

فالتشابه عند كل من لبيد والحارث في حمار الوحش وأتته، والتيس وظباه، يظهر لنا في المراقبة من على البعد والخوف من الخطر، بالصعود في الأماكن العالية، ونجد العنف والغلظة عند حمار لبيد في الورود ويجن جنونه إن حولت التفرق، وفي المرعى والتفافه حولها، وتيس الحارثلو بعدما يكتشف المكان الآمن يرجع وتنهض الظباء فتداعبه فرحاً بعودته، وتقوم بذات نفسها لبدء الرحلة في طاعة كاملة دون معصية أو تفرق. أما حركة البقرة الوحشية في معلقة لبيد حركة دائرية في نفس المكان بحثاً عن ولدها، فلم تجده فيزداد حزنها وتطلق صوتها بالبغام وتجأر، فيقول:

أَفْتَلَّكَ أُمٌ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلْتُ وَهَادِيَّةً الصَّوَارِ قِوَامُهَا
خَنَسَاءٌ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرْمَعْ رَضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبِغَامُهَا
لِعُقْرِ قَهْدٍ تَنَازَعَ شَلْوُهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا
صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةٌ فَأَصْبَتْهَا إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيْشُ سَهَامُهَا
بَاتَتْ وَأَسْبَلَ وَاكْفٌ مِنْ دِيْمَةٍ يَرُوي الخَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا
يَعْدُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مَتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا
تَجْتَافُ أَصْلًا قَالِصًا مَتْنَبَذًا بِعَجُوبٍ أَنْقَاءٍ يَمِيلُ هَيَامُهَا
حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأُسْفَرَتْ بَكَرَتْ تَزَلُّ عَنْ التَّرَى أَرْلَامُهَا
عَلَيْهَتْ تَرَدَّدُ فِي نِهَاءٍ صَعَائِدٍ سَبْعًا تُوَامًا كَامِلًا أَيَّامُهَا
حَتَّى إِذَا يَنْسَتُ وَأُسْحَقَ خَالِقُ لَمْ يُبْلِهْ إِرْضَاعُهَا وَفِطَامُهَا¹

وصف لبيد البقرة الوحشية وصفاً تفصيلياً دقيقاً في مرعاها وهيئتها وحركتها عندما افترس السبع ولدها وكانت قد تركته وذهبت ترمي مع صواحيها، فأسرعت في السير طالبة لولدها، طائفة وصائحة له، وإذا به ملقي على الأرض قد افترسته الذئب أو الكلاب على غفلة منها، فباتت في هذا المكان تحت مطر دائم الهطلان، حيث دخلت في جوف أصل شجرة متنع عن سائر الشجر وقد قلصت أغصانها لتستتر به من البرد والمطر، فانهالت عليها كئيبان الرمل. وعندما انكشف وانجلى ظلام الليل وأضاء، بكرت البقرة مأواها فتزل قوائمها عن التراب الندي لكثرة المطر الذي أصابها ليلاً.

¹ شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 143 - 147.

أمعنت هذه البقرة وترددت متحيرة في وهاد هذا الموضع ومواضع غدرانه طلباً لولدها، فظلت تتحرك هنا وهناك سبع ليال بأيامها بحثاً عن ولدها.
فلاحظ أن حركة هذه البقرة كانت حركة في مكان واحد لمدة أسبوع كامل بلياليه، بحثاً عن ولدها الذي افترسته السباع.

أما تشابه حركة الأطباء عند الحارذلو نجدها إذا أمعنا النظر في بيئة السودان عندما نلمح السمات المشتركة بينها وبين البيئة الجاهلية التي انعكست إلينا في الشعر العربي القديم. ويطل علينا الحارذلو برصانته المعهودة ودقته في تصوير الأطباء في رحلتها الطويلة، بقوله:

فَوْقَ حَيَا فَوْقَ مَحَلٍّ مِنَ الصَّعِيدِ مَنْجَرَهُ

شَاخَذَ اللَّهُ الْكَرِيمُ مَا تَلَقَّى فِيهِ وَمَضَرَهُ¹

يقول عن هذه الأطباء عندما عازمت على الخروج من الصعيد ذاهبة إلى البطانة، ويسأل الشاعر الله سبحانه وتعالى ويتضرع إليه ألا تلقى هذه الأطباء أذى في رحلتها.
ويقول أيضاً متتبِعاً رحلتها عندما ابتعدت عن الأماكن التي يوجد بها الإنسان فتلجأ من حين لآخر إلى الأماكن العالية وفي هذه الأيام بالقرب من الجبل المسمى "القليعة أم غرة":

مِنَ النَّقَرِ كُلِّ حَيْثُ فَوْقَ عَلِيٍّ مَنْصَرَهُ

هَا الْأَيَّامُ مَحَارِبُهَا الْقَلِيعَةُ أُمُّ غَرَّةٍ²

أبدع الحارذلو في تتبع رحلة الأطباء وحركتها، وجسّم هذه الصورة بطريقة نقلت إلينا كمستمعين وقراء أدق تفاصيل الرحلة التي صورها لنا، عندما قال عنها في خروجها من هذه الجبال وأنها لا تنتظر المطر في بية وبلوس، بل سارت إلى جبل بيلا ومنه سارت الأطباء في حركة رائعة وهي السير صفّاً واحداً، أي واحدة تلو الأخرى دون قائد، ويمضي في متابعة رحلة الأطباء، فهؤلاء خلفن ود دعول ذاك المكان المعروف في أرض البطانة مسرعات مشفقات، ولكنه لا ينسى أن يذكر اعتدال قوامهن، ثم سرن أمام شعب جبال الحربة العالية حتى وردن قلت أمات قرود في الصباح الباكر وسبقن عليه كل حي فهو مورد من موارد الأطباء المعروفة، فيقول:

بِتْ الْمِنْ قَرِينْ مَرَقْنُ عَلَى الْجِبَالِ

وَفِي بَيْةٍ وَبِلُوسٍ مَا بَرَجْنُ الْوَبَالِ

مِنْ بِيَلَا الصَّبَاحِ اسْرَبَقْنَ هُمَّالِ

¹ ديوان الحارذلو، ص12.

² ديوان الحارذلو، ص13.

عَقَبْنِ وَدَّ دَعُولُ بِجَرْنِ شَفَاقَةِ عُدَالٍ
خَتَمْنِ مِقْرِحِ الْحَرَبَةِ الِ جُبَالِ طَوَالٍ
قَلَّتْ أَمَاتُ قَرُودُ وَرَدْنُو بِي الْقُبَالِ¹

تواصل الأطباء رحلتها حيث مالت إلى شمال جبال أمات رميلة، فهي نافرة سئمت البلد الذي هي فيه، فإنها تريد البطانة، بل أحسن مكان فيها "حقو السروال". نرى تتابع الحارذلو لرحلة هذه الأطباء كانت متابعة دقيقة، ظهر لنا التصاقه الشديد ببيئة البطانة التي عاش فيها كما ظهرت لنا معرفته بعادات هذه الأطباء، حيث ترفض مكان وتلجأ إلى آخر، وذلك في قوله:

مِنْ أَمَاتٍ رَمِيلَةٍ مَتَرَكِشَاتٍ لَا شَمَالَ
مَا بَيَاتُ الْبَلَدِ دَائِرَاتُ حَقْوِ السَّرَوَالِ²

الحارذلو يعرف بيئته جملة وتفصيلاً، يعرف سهولها ووديانها، حيوانها وطيورها، وأشجارها ونباتها، وسمائها، فيتتبعها من مكان إلى مكان فيقول:

مِنْ عِنْدِ الْمَضِيقِ مَرَقْنِ هِنَاكَ بِي سَنَافِ³

ويواصل الحارذلو في رحلة الأطباء وتحركاتها في أرض البطانة إلى أن تصل إلى ذاك المكان المسعى بالقصيرة ثم إلى فريع قلبوس، فيقول:

وَجِينْ بَيْنَ الْقَصِيرَةِ وَبَيْنَ فَرِيْعِ قَلْبُوسِ⁴

هنا نرى جانب آخر قد بلغ فيه الحارذلو غاية الروعة والجمال في تصويره لهذه الرحلة والحركة الرائعة، فهو متتبع لرحلة الأطباء ويراهما من على البعد من مكان واحد حتى صعدت ذلك المكان العالي (قوز كديس) فهب عليها برد مختلط بمطر خفيف وكان ذلك حد البطانة، فهي مرتكز وملجأ المحتاجين، فيقول:

مِنْ أَوْذِيدِ بَزَاوِلِ شَرْفَهِنِ قِيدَامِ
طَلَعْنِ قَوْزُ كَدَيْسِ جَاهِنِ صَقِيْطُ نَمْنَامِ
وَصَلْنِ حَدَ بَطَانَتِ مَرَكْزِ الْعُدَامِ⁵

¹ المرجع نفسه، ص 15 - 18.

² ديوان الحارذلو ص 19 - 20.

³ المرجع نفسه، ص 25.

⁴ المرجع نفسه، ص 27.

⁵ المرجع نفسه، ص 31.

طبيعة رحلة ظباء الحارذلو التي يتحدث عنها ووصف طريقها وسيرها، كانت في اتجاه معلوم ونحو غاية معينة وهي الوصول إلى ذاك المصب والعيش في أمن من كل طارد، يظهر لنا من خلال تتبعه لحركة الظباء، أنه أصبح كالعاشق المغرم الذي أحب هذه الظباء حباً ملاً جوانب نفسه، لذلك كان خائفاً عليها من التعب والعطش والجوع والعناء والمشقة، فظهر فرحه بنجاتها في تلك الرحلة الطويلة بقوله: وصلته واتوكرن في ضراهن، فيقول:

قَطَعَنْ وَدَّ دَعُولَ وَادَّنْ قَلِيَعَوْ قَفَاهِنْ

وَصَلُّنُوا الْمَصْبَ وَاتَوَكَّرْنَ فِي ضَرَاهِنْ¹

ويتجلى لنا هذا الخوف على الظباء والشفقة عليها، والحب لها والحرص عليها، في الابتهاال المتصل والدعاء المخلص لله أن ينجي هذه الظباء التي تحركت من مكان بعيد (الدندر والرهده) إلى مصب البطانة المعروف، فهي سائحة في الأرض بلا قائد أو راع، فهو في حالة قلق وشفقة مستمرة على هذه الظباء من المفاجآت (سواء كان بشر أو حيوان مفترس) لذلك لجأ إلى الدعاء، وذلك في قوله:

فَوْقَ حَيَا فَوْقَ مَحَلْ مِنْ الصَّعِيدِ مِنْجَرَهْ

شَاوَدَ اللَّهُ الْكَرِيمَ مَا تَلْقَى فِيهِ وَمَضَرَهْ²

وقوله:

يَا بِاسْطَ النِّعَمِ تَسْقِيهَا فِي هَا الْمَرْهْ³

وقوله:

نَوْنُ بِي النَّجِيعِ يَا سَابِلَ الْأَكْمَامِ

أَسْئِلُ سِئْرَكَ السَّابِلَ عَلَى النَّيَّامِ⁴

لذلك نجد الحارذلو عندما نجت هذه الظباء ووصلت هذا المصب بأمان، لا كلاب اصطادتها، ولا إنسان رمى شرك فاصطادها، كان فرحاً ومسروراً مبتهجاً، وذلك بقوله:

كَمْ زَوْلًا رَقَدَ فَوْقَ دَرِيْهِنْ مَمْغُوسْ

وَمِئْتُو اتَخَلَّسَنْ مَا صَيَّدَنْ جَامُوسْ¹

¹ المرجع نفسه، ص 50.

² ديوان الحارذلو، ص 12.

³ المرجع نفسه، ص 14.

⁴ المرجع نفسه، ص 34.

تشابه زمن حركة الحيوان الوحشي:

يقول لبيد:

دَمِنْ تَجَرَّمْ بَعْدَ عَهْدِ أَنْيَسَهَا حَجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا²

ويقول:

بِأَجْزَةِ الثَّلْبُوتِ يَرَبُّا فَوْقَهَا قَفَرِ الْمَرَاقِبِ خَوْفُهَا أَرَامُهَا
حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةً جَزَاءً فَطَالَ صَيَامُهُ وَصِيَامُهَا³

ويقول:

عَلَيْتُ تَرَدَّدُ فِي نِهَاءِ صَعَائِدٍ سَبْعًا تَوَامًا كَامِلًا أَيَّامُهَا⁴

يقول لبيد في هذه الآثار التي انقطع عهد الأنيس بها ومرت سنون مضت أشهر الحرم وأشهر الحل منها، ثم يذكر الحمار وصعوده على الأماكن المرتفعة ليرى هل هناك ما يخيفه على أتانته، فاستقرا في هذا المكان حتى مرَّ عليهما الشتاء ستة أشهر وجاء الربيع فاكتفيا بالرطب عن الماء وطال امساك العير وامساك الأتان عنه.

ثم يتحدث عن تلك البقرة الوحشية التي فقدت ولدها وترددت في هذا المكان سبع ليال بآيامها. ويقول الحارذلو:

أَخَذَنْ فِيهِ سَبُوعُ دَوْرَيْنِ حِسَابِنْ تَامَ⁵

هنا يقول الحارذلو أقامت الأطباء في ذلك المكان الطيب مدة أسبوعين كاملين، ولعل هذه أطول مدة تمكثها الأطباء في مكان واحد منذ أن بدأت الرحلة من الصعيد. ويقول:

الْهَبْرِيمُ طَلَّقَ جَابَ الْمَيْعِ حَوَّامُ
مِنْ شَهْرِ النَّفَّاسِ فَضَلَّنْ لِهِنْ أَيَّامَ⁶

الهبريم (النسيم) ارتبط ذكره بالرقعة واللفف، فالأشجار تتراقص لهبوبة، وماء الحفائر والميع يصفق فرحاً به، وكذلك ماء النيل. لذلك يقول الحارذلو: لقد هبت ريح الشمال وإذا هبت ريح

¹ المرجع نفسه، ص 29.

² شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 126.

³ المرجع نفسه، ص 139.

⁴ المرجع نفسه، ص 147.

⁵ ديوان الحارذلو، ص 31.

⁶ المرجع نفسه، ص 32.

رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لبيد ومسدار الصيد

الشمال انقطع المطر ولجأ الناس والحيوان إلى (الميع) للشرب، ولم يبق للظباء سوى أيام قليلة لتلد، والشاعر يتحدث عن الظباء كأنها إنسان فيستعمل كلمة نفاس. ويقول:

دِيلُ الطَّبَعَيْنِ بِالْجِيلِ خُفَافٌ وَهُمَا

فِي سَمِيرٍ وَذُ حَرِيرٍ مَضَقَلَاتٌ كُلُّ عَامٍ¹

تلك هي الظباء التي طبعت على الخفة وسرعة الحركة والنشاط، وهي تقيم كل عام في سمير ود حريري.

هنا التشابه واضحاً في ذكرهما لزمان التحرك فكل منهما ذكر: اليوم، والأسبوع، والشهر، والعام.

تشابه النبات عند الشعارين:

يقول لبيد:

فَعَلَا فُرُوعُ الْأَيْهَقَانِ وَأُطْفَلَتْ بِالْجَلْهَتَيْنِ ظَبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا²

ويقول:

فَتَوَسَّطَا عَرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مَتَجَاوِرًا قُلَامُهَا

مَحْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَاعِ يُظْلِمُهَا مِنْهُ مُصَرَّعٌ غَابَةٌ وَقِيَامُهَا³

يذكر لنا لبيد هذا النبات المسعى بالأيهقان حيث طالت فروعها واطمأنت إليه الحيوانات بعد أن خلا منه أهله وأصبحت الظباء والنعام ذوات أطفال بجانب وادي هذه الديار، ثم يأخذنا بطريقته الجميلة لوصف العير والأتن عندما تتوسط جانب النهر الصغير ويشقا العين المملوءة بالماء متجاوزة النبت. وهاتين النبتين تحبهما كل من الظباء والعير وأتانهما.

أرض البطانة المخضرة المغطاة بالأعشاب، ووفرة المياه في الأودية والخيوان، جعلها مرتعاً للظباء وغيرها من الحيوانات الأخرى، والحارذلو يقول عن هذه الظباء ورعيها لكثير من أنواع النباتات:

أَبْ عَرَّاقٍ فَتَقَّ قَرْنُو الْمِبَادِرْ شَرَّهُ

وَالْبَاشْنَدِي عَمَّتْ مَهْشَشَيْبُ الدِرَّةِ⁴

¹ المرجع نفسه، ص 33.

² شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 128.

³ المرجع نفسه، ص 142.

⁴ ديوان الحارذلو، ص 13.

ويقول أيضاً:

ولقى في الدهسريب قُمباز وعرق فُقوس
ولقَيْن في السِّميرِ حَتّاً وجيغ مَكْبوس
دَمَجاً أَرَزَق مُشهادو مو مَعْفوس¹

يصف الحارذلو مظاهر الطبيعة، فهذا أب عراق النبات المشهور في أرض البطانة قد ظهر قرنه وتفتح وأزهر وانتشر، وهجم الباشندي على الأشجار فلا تكاد ترى غيره. ثم يقول: أن التيس وجد أنواعاً من النبات مختلفة، منها القمبار وعرق الفقوس، وفي منطقة السمير وجد نباتاً مخضراً جميلاً غزيراً فيه عشب يشبه الدمج في لونه (الحنوت) وهو نوع من النبات ترغبه الطباء وتحبه، وهذا المكان لم يطرق من قبل ولم تمسه رجل، وهذا يدل على أنه مليء بالنبات الذي تحبه.

تشابه النبات عند الشعارين نجده كثيراً جداً عند الحارذلو نسبة لطول الرحلة واختلف البيئة ونباتها، بينما اكتفى لبيد بنوعين فقط من النبات.

تشابه الحيوان الوحشي والكلاب:

الحيوان الوحشي مع الكلاب نجده في معلقة لبيد في قصة البقرة الوحشية التي فقدت ولدها وظلت تبحث عنه، فذكر لبيد قصة الصيادين وتعقيمهم لها، فيقول:

حتى إذا يئس الرُماة وأرسلوا غُضْفاً دواجنَ قافِلاً أعصامها
فلَحِقْنَ واعتكرت لها مَدْرِيَّةٌ كالسِّميرِيَّةِ حَدَّها وتَمَامُها
لِتَذَوْدَهُنَّ وَأَيَقْنَتْ إن لم تَدُدْ أن قد أَحَمَّ مع الحُتُوفِ حِمَامُها
فَتَقَصَّدَتْ منها كَسابٍ فَضُرِّجَتْ بدمٍ وغُودَرِي المَكْرِ سَخَامُها²

لبيد رسم لوحة ناطقة بالحركة لهذه البقرة الوحشية الحزينة التي فقدت وليدها فدهما الخطر، ودافعت عن نفسها من الصائد وكلابه المضمرة للبقرة شراً، وهو يعبر بانتصار البقرة الوحشية على عدوها، فيقول: حتى إذا يئس الرماة من البقرة وعلموا أن سهامهم لا تنالها وأرسلوا كلاباً مسترخية الأذان معلمة، فهي ضوامر البطون جائعة، مدربة ومعدة للصيد، خبيرة بفنونه، فلحقت هذه الكلاب البقرة، ولكي تدفع الموت عن نفسها، عطفت على الكلاب بقرنيها التي تشبه الرماح في حداثها وتمام طولها، لأنها ايقنت إن لم تدافع عن نفسها، فسوف

¹ المرجع نفسه، ص 28 – 30.

² شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 147 – 150.

تقتلها الكلاب، لذلك كرت عليها وطعنتها بقرنها الحاد، فقتلت كساب من جملة الكلاب فحمرتها بالدم وتركت سخاماً في موضع كرها صريعة، بمعنى أنها قتلت هاتين الكلبتين. وانتهت المعركة بانتصار البقرة على الكلاب.

هنا نلاحظ أن لبيد وصفها وصفاً دقيقاً، فنقل إلينا جانباً حياً، فصّل في وصف البقرة والكلاب، فعمد إلى ذلك ليبرز لنا براعته في التصوير، وقدرته الشعرية في وصف المعركة بدقة. ولا غرابة أن يكون شاعرنا الحارثي مغرمًا بوصف الأطباء وصفاً دقيقاً؛ لأن نفسه ملئت بالعاطفة الفياضة وتفاعله مع ما حوله من مظاهر الطبيعة، تولدت لديه مشاعر متنوعة، جعلته ينتشي حباً وفرحاً وسروراً وإعجاباً بتلك الأطباء لذلك يتفاعل بنجاحها من الكلب، وذلك في قوله:

وَكُنْتُ أَدْرَدَقَنْ بِي مَطْبَقَ الْوُدْيَانِ
كَلْبِي الشَّارِعُو فِيهِمْ جَاءَ مِنْقَلِبَ هَقْلَانِ
اتَّحَيَّرْتُ قَعْدْتُ سَاكِتٌ بَقِيْتُ مَحْنَانُ¹

هنا يقول عن الكلب الذي أرسل خلف بالطباء في شعاب الوديان وهن مسرعات ولم يلحق بهن، بل عاد خائباً لم يظفر منهن بشيء، فاحتوت في أمري وصرت مثل الذي اصابته محنة. هذا مشهد يضع أمام أنظارنا حركتين سريعتين. حركة الأطباء تحاول النجاة من موت محتم في تلك الشعاب، وقد نجت، وحركة الكلب يلاحقها بسرعه الفائقة ثم يرجع خسران يجر أذيال الخيبة.

هنا التشابه يظهر جلياً في كلاب لبيد عندما أطلقها الصيد على البقرة وكان قد عجز عن مطاردتها، ودارت المعركة فقتلت منها كساب وسخام، والبقية رجعت تجر اذيال الخيبة، وكذلك كلاب الحارثي رجعت بنفس الخيبة تصحبها الحسرة والحيرة والمحنة، وكانت النجاة من نصيب البقرة والطباء في الحاليتين.

وكذلك نجد النجاة في قصة البقرة عند لبيد عندما سمعت الصوت الخفي فأفزعتها، وفي ذلك يقول:

وَتَوَجَّسْتُ رَزَّ الْأُنَيْسِ فَرَاغَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ، وَالْأُنَيْسُ سَقَامُهَا
فَعَدْتُ كَلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّه مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا²

¹ ديوان الحارثي، ص 45.

² شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 147 – 148.

هذه البقرة عندما يئست من ولدها استيقظ في أحشائها خوفها من القدر، وهو خوف كامن في أعماقها، ففجأة سمعت صوتاً ولم تر صاحبه فخافت وأصابتها الفزع والذعر فأصبحت لا تعرف من أين أتى هذا الصوت، هل من خلفها أم أمامها، فراحت تعدو مذعورة ولا تعرف منجها من مهلكها.

والحارذلو يصور لنا الأطباء تصويراً جميلاً في خوفها من الخطر، ويرسم لنا هذا المشهد الرائع ليمثل أمام أعيننا مشهداً بديعاً كأننا نراه، فيقول:

شَاقِنُ فِي السِّمِيرَزَوَلَةِ وَحِيَا مَتِ إِنْسَانُ

وَنَطَحَنُ هَا الْقَلِيعِ الْمَسْمِي بِالنِّسْوَانِ¹

أهتم الحارذلو بهذه الأطباء، فعندما ابصرت شيئاً في شجر السمر حسبته إنساناً وصعدت هذه الجبال التي تسمى بالنساء، خوفاً منه. ويقول أيضاً:

جَفَلَنُ مِنْ زَوَالِ شَوْفَا بَعِيدُ بَادَاهِنُ²

أي هربت عندما بدأ لها شيء حسبته صياداً. فالبقرة عند لبيد سمعت صوتاً ولا تعرفه من أي اتجاه، فالشيء الذي اخافها كان سمعياً، بعكس ظباء الحارذلو كانت تراه أمامها، وتهرب منه. بمعنى أنه بصري.

المبحث الثالث: الرحلة ومخاطرها.

ومن خلال تتبعي لرحلة الحيوان عند لبيد والحارذلو، فقد لاحظت التشابه في الاهتمام برصد مخاطر الرحلة، وهي مخاطر متعددة، يتعامل معها الحيوان بطرق مختلفة تفادياً للخطر، ومن هذه المخاطر:

الاجتماع وعدم التفرق:

الرحلة محفوفة بالمخاطر، والخطر هو الإنسان، فلا بد من الحذر حتى نهاية الرحلة، وأول وسائل السلامة الاجتماع وعدم التفرق، فإنما يأكل الذئب من الغنم الضوال، لهذا يقول لبيد في هذا المعنى:

أَوْ مَلَمْعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبٍ لَاحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكَدَامُهَا

¹ ديوان الحارذلو، ص 43.

² المرجع نفسه، ص 50.

رحلة الحيوان الوحشي في معلقة لبيد ومسدار الصيد

(الملمع) التي قد استبان حملها، (وسقت) جمعت. والمعنى أن هذه الأتن جمعت لهذا الفحل الذي يقودها في الرحلة، فهو فحل قوي مقاتل، ومطارد للفحول من الحمر. ونجد معنى الاجتماع وعدم التفرق عند الحارذلو في قوله:

مُتَماسِكٌ سَدُوهُنَّ وَبِي الحُدُوبِ شَاتَاتُ

فهن متماسكات ومجتمعات ومنتظمات في خط طويل، وكأهن مربوطات بخيط.

الطاعة مع الشدة والمدافعة:

الرحلة محفوفة بالمخاطر، والذكر هو الرائد، وهو المسؤول عن سلامة الرحلة فلا بد من الطاعة. ولا بد من القسوة، والغيرة، لهذا نجد لبيد يقول في ذلك:

يَعْلُو بِهَا حُدْبُ الإِكَامِ مُسَحَّجٌ قَدْ رَابَهُ عَصِيَانُهَا وَوَحَامُهَا

يقول: أن هذا الحمار يطرد هذه الأتن، ولا يبالي أين سلكت، وإنما الذي يخشاه هو خوف الرامي فهو يعلو بها ما أرتفع من الجبال، ولشدة غيخته فقد ارتاب في عصيانها، وامتناعها عليه بسبب وحملها وحملها، فهي تمنعه، وهو يتبعها، ويرتاب في امتناعها.

وعند الحارذلو نجد المدافعة والمزاولة والمطاوعة في قوله:

جَاهِنُ وَعَافِطُنُّوَجْنُوْ مِنْحَتَاتُ

(عافط) أحدث صوتاً بفيه وأنفه مداعباً، (منحطات) من قولك حتّ الشجر، أي أسقط أوراقه، فلما وصل إلين أقبلن عليه محدثات ذلك الصوت منتشرات بقدميه، وأسرعن نحوه وأقبلن عليه كالأوراق المتساقطة. ويقول أيضاً:

جَاهِنُ وَعَافِطُنُّوَجِيلُ سَدُوهُنَّ قَامُ

أي عاد إلين فهضن إليه يداعبته فرحة بعودته، وقام معظمهن في المقدمة معلناً ببدء الرحلة في طاعة واستسلام.

ريادة الذكر خوف الخطر:

الأتن، والطباء لا تتقدم حتى يتقدم الفحل إلى الماء فيشرب وينظر، خشية الرصد والصيد فيقول لبيد في هذا المعنى:

فمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَدَتْ إِقْدَامُهَا

يقول: مضى الحمار، وقدم الأتان حتى لا تفرد، أي لا تفر، حتى انتهيا من عدوهم إلى الموضع الذي فيه الماء.

قال التبريزي: "والأتن لا تتقدم حتى يتقدم الفحل إلى الماء فيشرب، وينظر هل يرى بالماء شيئاً يريبه"¹.

وفي هذا المعنى، أي معنى الخوف والريادة يقول الحارثي:

عَسْكَرُ خَافَ عَلَيْهِمْ فِي ضَرَا مَبِيعَاتٍ

بمعنى أن التيس استوقفهن وحبسهن خلف النبات الطويل خشية علمهن من المخاطر. وأيضاً يقول في ريادة الشراب:

جَرَنُ فَوْقُ دُورْنِ الْإِلِّ لِلْقَفْرِ عَرَّافُ

يصف الحارثي طريق التيس، أو (الدُّور) الذي يذهب أمام الظباء مكتشفاً مواضع الماء، (وجرن فوقو دورن) أي عطف أول الغنم نحو الحوض كي يتبعها الباقي، وأول من يرد الماء هو (دورن)، فإن الظباء أرسلنه ليكتشف الماء أو المرعى "القفر".

صراع الحمار والتيس في الرحلة:

يصف كل من لبيد والحارثي الحمار والتيس بالجهد ومصارعة الفحول، حتى ضعف الجسم وتغير اللون. فيقول لبيد:

أَوْ مَلَمْعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ لَاحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا

أي الحمار الذي لاحه وغيره ضرب الفحول، وعضها، وكدامها، فهو يشبه ناقته "بأتان" يتبعها حمار غير لونه وشكله ضرب الفحول في الحمر الوحشية. ومن هذا المعنى يقول الحارثي:

تَيْسِنْ جَاءَ مِنَ الرَّحِيحِ ضَبْلَانُ

فالحمار عند لبيد (لاحه طرد الفحول)، عضها وضربها وكدامها، والتيس عند الحارثي (من الرحيح ضبلان).

فهذه المشقة، وهذا الصراع، مع الحمر والتيس سببه الرحلة وما فيها من مخاطر، وصراع حول الماء والكلاً، والدفاع عن الأنثى وحمايتها من المخاطر.

الخوف من الصوت الخفي:

من مخاطر الرحلة الخوف من الرصد، والتوهم من الشبح البعيد، والظن بأنه إنسان. وفي هذا يقول لبيد:

بِأَجْزَةِ الثَّلْبُوتِ يَرَبُّ فَوْقَهَا قَفْرُ الْمَرَاقِبِ خَوْفُهَا أَرَامُهَا

¹ شرح القصائد العشر، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق – بيروت، 1980 م، ط4، ص224.

فالحمار هنا يخاف من هذه الحجارة؛ لأنه يتوهم أنها مما يخاف منه كالإنسان وغيره.
ويقول لبيد في خوف البقرة الوحشية:

وَتَوَجَّسْتُ رَزَّ الْأُنَيْسِ قَرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ، وَالْأُنَيْسُ سَقَامُهَا
فَعَدْتُ كَلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا

تسمعت البقرة الصوت الخفي (رز الأنيس) أي صوت الناس من وراء حجاب أي تسمع ولا ترى، فأصبحت خائفة من كلا جانبيها، وتحسب أن الهلاك يأتي من هذا الجانب أي الموضع الذي فيه المخافة، ويأتي منه الهلاك.

وفي هذا المعنى، أي معنى الخوف من الصوت الخفي، والبعيد يقول الحارذلو:

شَاقْنُ فِي السِّمِيرُزُولَةِ وَحِيَا مَتِ إِنْسَانُ

يقول: (زولة) أي شيء زوال، إنسان يحوم، أو شيء يحوم كأنه إنسان.

فالرحلة محفوفة بالمخاطر، والخطر هو الإنسان، فلا بد من الحذر حتى نهاية الرحلة، لهذا نجد المزاولة والمدافعة من الحمار ومن التيس، فلا بد من السرعة إذا اقضت السرعة، ولا بد من الحذر إذا اقتضى الأمر الحذر، ولا بد التوقف إذا اقتضى الأمر التوقف، ولا بد في هذا كله من الاجتماع وعدم التفرق.

النجاة من الخطر ونهاية الرحلة:

لم يرد لبيد لحمار الوحش وأتته الهلاك، وكذلك البقرة الوحشية فلم يرد لها الهلاك، وكذلك الحارذلو فإنه لم يرد الهلاك للظباء، فانتهت الرحلة عند كليهما بالسلامة والوصول إلى منتهاهما. نجد ذلك عند لبيد في رحلة حمار الوحش وأتته فيقول:

فَتَوَسَّطَا عَرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مَتَجَاوِرًا قُلَائِهَا
مَحْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَاعِ يُظَلِّلُهَا مِنْهُ مُصَرَّعٌ غَابَةٌ وَقِيَامُهَا

المعنى هنا أن الحمار والأتان انتهيا من عدوهم إلى الموضع الذي فيه الماء، وانتهت رحلة البحث عن الماء بسلامة.

وعن سلامة البقرة الوحشية فإن لبيد يجعلها تنجو من الصائد، ومن الكلاب وذلك في قوله:

حَتَّى إِذَا يَأْسَ الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا غَضُفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا
فَلَحِقْنَ وَاعْتَكُرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسِّمِيرِيَّةِ حَدَّهَا وَتَمَامُهَا
لِتَنْذَوْدَهْنَ وَأَيَقْنَتْ إِنْ لَمْ تَنْدُ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مَعَ الْحُتُوفِ حِمَامُهَا
فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسَابَ فَضْرَجَتْ بَدِمٍ وَغُودَرَفِي الْمَكْرَسُخَامُهَا

يقول حتى إذا يئس الرماة من البقرة أن ينالها نيلهم تركوا رميها، وأرسلوا إليها كلاباً مسترخية الأذان ضارية متعودة على الصيد، فلحقت الكلاب بالبقرة، فرجعت البقرة على الكلاب تدافع عن حياتها بقرون حادة كالرماح، وانتهت المعركة بين البقرة والكلاب بانتصار البقرة، وبموت "كساب" التي تركت مضرجة بدمها، وموت "سُحام" وهو اسم كلب، فضربت كساب وغودر مقتولاً سحام.

وبمثل ما انتهت رحلة الحيوان عند لبيد بانتصار البقرة ونجاتها من الصائد والكلاب، فكذا انتهت رحلة الظباء عند الحارذلو بالسلامة والنجاة من الصائد والكلاب. فالنجاة من الصائد في قوله:

كَمْ زولاً رَقَدَ فوقَ دَرْبِهِنَّ مَمْغُوسٌ
وَمِنْهُ اتَّخَلَّسَ ما صَيَّدَ جاموسٌ

يقول: أن كثيراً من الناس أراد أن يصطاد هذه الظباء فلم يستطع، وبات ممغوصاً، يعاني الحسرة، وقد نجت منه الظباء، ولم ينل الكلب منها. ونجد نجاتها من الكلاب في قوله أيضاً:

كَلْبِي الشَّارِعُو فِيهِنَّ جاءَ مَنقَلِبَ هَقْلانٍ

يقول: أني حين أرسلت كلبتي خلف الظباء جاء خائباً ولم يظفر منهن بشيء. فالحمار الوحشي وأتته عند لبيد، ينجوان وينتهيان إلى الماء والمرعى. والبقرة الوحشية تنجو من الصائد والكلاب وتنتهي رحلتها بالسلامة. والظباء عند الحارذلو تنجو من الصائد والجاموس، والكلب وتنتهي الرحلة بالسلامة حتى قلع البقر بالقضارف.

خَتَمَنُ بَيْلَةٍ فوقَ قَلْعِ البَقَرِ ذِلاهِنُ

المبحث الرابع: رحلة المسداريين الواقعية والرمزية.

اختلف الباحثون في هذه الرحلة، فمنهم من يرى أنها وصف لرحلة حقيقية للصيد، كما يرى الدكتور أحمد إبراهيم أبو سن في مثل قوله: "تتبع فيها الحارذلو رحلة الصيد فوصفها منذ قيامها سنوياً من حدود الحبشة جنوباً إلى شمال البطانة واصفاً الجبال والوديان التي تغشاها، والماء الذي وردته تحت قيادة رائدها فحل الظباء الذي يسميه "التيس" داعياً الله أن يحفظها من كل ضرر بسببه لها الصيادون وأن يرزقها الماء والكلأ..."¹.

¹ تاريخ الشكرية ونماذج من شعر البطانة، د. أحمد إبراهيم أبو سن، ص 300.

وكذلك الدكتور عبد المجيد عابدين الذي فسر المسدار بمعنى "الحكاية أو القصة، وأن "سدر" مقلوب من "سرد" العربية"¹.

أما الدكتور إبراهيم الحارذلو (شارح الديوان) فإنه يرى أنها ليست قصة حقيقية، وإنما هي وصف للمرأة الجميلة ويرمز لها بالطبيرة وذلك في قوله ردّاً على الدكتور عبد المجيد عابدين فيقول: "ولا أعلم أن لفظ مسدار في اللهجة السودانية معناها القصة أو الحكاية، فإذا أخذنا مسدار مسدار الصيد، وهو أهم عمل فتي عرف بهذا الاسم لا نجد للقصة أثراً. فهي وصف للمرأة الجميلة يرمز إليها بالطبيرة. وليس من شك أن الحارذلو قد توسع في هذا الرمز وارتفع به إلى حد جعل أكثر الناس يظنون أنه وصف للطباء والحياة والطبيعة"².

فهي رحلة رمزية، وليست حقيقة توسع فيها الحارذلو في وصف الأطباء حتى جعلها كأنها حقيقة، فالرحلة كلها رمز وليست حقيقة.

كذلك الباحثة: تهاني محمد ناصر فإنها ترجح أنها رحلة طعائن وذلك في قولها: "أغلب الظن أن الحارذلو لم يكن يصف طباء حقيقية، وإنما كان يصف أسراباً من الحسان، وهو لم يكن يصطاد للصيد في حد ذاته، وإنما كان يتمتع نفسه بمنظر الصيد وأسراب الطباء..."³.

والراجح عندي أنها رحلة رمزية وذلك من خلال كثير من الأبيات التي يخرج فيها من وصف الأطباء إلى رمزية النساء في مثل قوله في آخر المسدار:

ناسن ابن الذريح ضربوا المثل بي جناهن

فابن الذريح وأضرابه من الشعراء قد ضربوا المثل بالخشف والرشا من أولاد الأطباء في شعرهم وجعلوه رمزاً للمحبة كما عند المجنون في قوله:

أَيَا شُبّهَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي فَإِنِّي لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصْدِيقُ
فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا سِوَى أَنَّ عَظَمَ السَّاقِ مِنْكَ رَقِيقُ
وَيَا شُبّهَ لَيْلَى أَقْصِرِي الْخُطُوإِنِّي بِقُرْبِكَ إِن سَاعَفْتَنِي لَخَلِيقُ
وَيَا شُبّهَ لَيْلَى رَدِّ قَلْبِي فَإِنَّهُ لَهُ خَفَقَانٌ دَائِمٌ وَبُرُوقُ⁴

¹ من الأدب الشعبي في السودان، د. عبد المجيد عابدين، ص 20.

² ديوان الحارذلو، د. إبراهيم الحارذلو، ص 8 – 9.

³ أنظر رسالتها: "بين الشعر العربي والشعر الشعبي السوداني" بحث ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، ص 146.

⁴ ديوان مجنون ليلى، جمع الإمام أبي بكر الوالي، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع للنشر، ص 34. وأنظر قراءة جديدة لشعرنا القديم، صلاح عبد الصبور، دار العودة – بيروت، 1982م، ط 3، ص 57 – 58.

فواضح أن الطيبة هنا رمز للمحبة "ليلي" فهو صديقها، وهو خليف بقربها، وقلبه عندها "رد قلبي"، وهي "ليلي" فعيناك عيناها وجيدك جيدها.
وختاماً:

أرى في قصة التشابه بين الشعارين من حيث الديانة، فإنهما مسلمين.
وتشابهاً واضحاً بين الشعر العربي القديم، والشعر الشعبي السوداني، وكذلك تشابه البيئتين (العربية، والسودانية).

حيهما للحيوان الوحشي ووصفه باللون الأبيض، ووصف عيون الظباء بالعيون الكحيلية الواسعة عند الحارذلو، ويصمت لبعد عن ذلك في وصفه للبقرة.
وبالنسبة للحيوان الوحشي في حرصه على سلامة أنثاه، سواء كان إلى الورود للماء أو في المرعى، نجد أن حمار لبيد يسوقها بعنف ويلتف حولها، ويشرف بها على الوهاد، ويهبط بها القيعان، ويجن جنونه إن هي تفرقت. والبقرة عنده حركتها في مكان واحد بحثاً عن ولدها، لذلك يقل عنده أسماء النباتات.

أما تيس الحارذلو يترك ظباه في مكان ويذهب هو ليعلو الأماكن العالية متفقد الطريق وخوفاً من الخطر، وعند عودته تنهض إليه تداعبه فرحاً، وتعلن عند بدء الرحلة، ونجد الأفعال التي تدل على ترك الظباء في مكانها مثل: خلاهن، وجاهن.

يكثر اسم النبات عند الحارذلو في مسداده لطول رحلة الظباء، ويدل على ذلك هذه الأفعال، مثل: مرقن، عقبن، ختمن، اسربقن، طلغن، وصلن، قطعن، أخذن، ادرقن، نطحن، وجفلن.
وقصة الحيوان الوحشي مع الكلاب في المعلقة والمسدار، يرجع الكلب خائباً تصحبه الحسرة والندم والحيرة، وتنتصر كل من البقرة بعد دخولها في المعركة، والظباء دون اللحاق بها، من الموت المحتتم.

المصادر والمراجع:

1. من الأدب الشعبي في السودان، د. عبد المجيد عابدين، الدار السودانية للكتب - الخرطوم، ط2، 1972م، ص 20 - 21.
2. الشعر الجاهلي - منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة، ج1، ص32.
3. الاتجاهات الشعرية في السودان، د. محمد النويهي، جامعة الدول العربية - معهد الدراسات العربية، 1957م، ص15.
4. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، للأنباري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف - مصر، 1963م، ص505.

رحلة الحيوان الوحشي في معلقة ليبد ومسدار الصيد

5. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: الدكتور عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت - لبنان، 1997م، ص 182 - 183.
6. وثائق سنار (الأرض)، د. محمد إبراهيم أبو سليم، ص 52.
7. شرح المعلقات السبع، للزوزني، دار الجيل - بيروت، ص 146.
8. ديوان الحارثي، للدكتور إبراهيم الحارثي، الدار السودانية للكتب - الخرطوم، ط 3، 1983م، ص 15.
9. عبد القادر القط والنقد العربي، عبد الحميد القط، مكتبة الخانجي - مصر، ط 1، 1989م، ص 193.
10. شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص 138 - 142.
11. الطبيعة في الشعر الجاهلي، للقيسي، دار الإرشاد - بيروت، ط 1، 1970م، ص 142.
12. شرح القصائد العشر، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق - بيروت، 1980م، ط 4، ص 224.
13. تاريخ الشكرية ونماذج من شعر البطانة، د. أحمد إبراهيم أبو سن، ص 300.
14. من الأدب الشعبي في السودان، د. عبد المجيد عابدين، ص 20.
15. ديوان الحارثي، د. إبراهيم الحارثي، ص 8-9.
16. رسالة ماجستير بعنوان: "بين الشعر العربي والشعر الشعبي السوداني"، تهاني محمد ناصر، جامعة أم درمان الإسلامية - معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، ص 146.
17. ديوان مجنون ليلى، جمع الإمام أبي بكر الوالبي، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع للنشر، ص 34.

النص الأدبي عند الجلييلة بنت مرة الشيباني

دراسة وصفية تحليلية

د. زينب السيد فكي*

المقدمة

بسم الله الواحد الأحد بسم الله الفرد الصمد بسم الله الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأصحابه الغر الميامين، وتابعيهم ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد.....

فقد تميز العصر الجاهلي بحب الأدب والأدباء وإعلاء شأنهم، لأنهم لسان القبيلة المنافع عنها، وسجلها المخلد لكل مفاخرها وانتصاراتها، وبرغم من أن معظم الأدباء من الرجال إلا أننا نجد بعض النساء ولجن عالم الأدب وركبن هذا المركب الوعر فأجدن وتميزن. من هؤلاء الأديبات الشاعرة جلييلة بنت مرة، التي رثت زوجها كليبا رثاء فاجعا، لم تسر فيه على نهج رثاء النساء لأزواجهن بل رثت به نفسها، وكافة قبيلتها كأنها تعلم أن موت زوجها بداية الدمار وشرارة النار التي ستأتي على كل ما حولها ومن حولها، فبكت وأبكت.

وقد قسمت هذه الورقة إلى مدخل يحتوى على نبذة عن جلييلة بنت مرة، ومبحثين الأول بعنوان النص النثري عند جلييلة بنت مرة والثاني بعنوان النص الشعري للجلييلة بنت مرة، وتأتي أهمية هذه الدراسة من أنها تتناول شاعرة تكاد تكون مجهولة، وتلقى الضوء على المجتمع الجاهلي بكافة تناقضاته، كما تتحدث عن جزء أصيل من الرثاء كغرض شعري برعت فيه النساء في مختلف العصور ابتداء من العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث.

أهداف البحث:

أولاً: مد البحث العلمي بسفر من أسفار العصر الجاهلي ولا يخفى عليكم أن دراسة النصوص الجاهلية تمُدُّ البحث والباحث بذخيرة لغوية، ثرة. ثانياً: الوقوف على حياة شاعرة جاهلية ذات لغة رفيعة وعبارات بليغة وسلاسة وعذوبة. ثالثاً: التحدث عن أصدق الأغراض الشعرية ألا وهو غرض الرثاء.

* أستاذ مساعد مجمع اللغة العربية بالخرطوم.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة هذا البحث في صعوبة تحليل النصوص الأدبية عامة و مفرداته الجزلة القوية خاصة وبيان ما يكتنفها من غموض فالمفردة الواحدة في المعاجم اللغوية لها عدد لا يستهان به من المعاني ولا يمكننا تحديد المعنى ألا بدراسة النص الأدبي وتخير أقرب المعاني للسياق الذي وردت فيه المفردة موضع الدراسة، وهذا العمل يتطلب اطلاعاً على المعاجم إضافة للذائقة الأدبية لدى الباحث. وانسب المناهج لهذا البحث هو المنهج التحليلي الوصفي الاستقرائي الذي يتمثل في جمع النصوص من مصادرها وتحليلها تحليلًا دقيقاً، ومن ثم تفصيل ما فيها من صور بلاغية وأساليب نحوية وجماليات موسيقية وألفاظ سهلة ممتنعة والنفوذ من خلال هذه النصوص إلى القيم المجتمعية وطرق التفكير والحياة، مستصحبين في ذلك الأمثال والأشعار المجانسة للنصوص المختارة.

الدراسات السابقة:

رغم كثرة الكتب التي تناولت النص الجاهلي والشعراء إلا أن شاعرتنا لم تجد حظاً كافياً من الدراسة والتحليل وعندما أقول الدراسة أقصد الدراسة الكاملة الوافية لهذه الأدبية التي لا يشق لها غبار، ولا أقصد ورود أسمها أو أبيات متفرقة من قصيدتها في معرض الحديث عن حرب البسوس، فالجلييلة لم تفرد لها بحوث خاصة بل جاءت مجملة مع كافة الشاعرات في العصر الجاهلي.

أسباب اختيار الموضوع:

من أهم أسباب اختيار هذا البحث أفتتاني الشخصي بالنصوص الجاهلية منذ أن تتلمذت على يد العلامة بأكبر البدوي دشين في بداية حياتي العلمية، وأيضاً قناعتي أن غرض الرثاء من الأغراض الصادقة لانتفاء المنفعة الذاتية ومن ذلك ما ينسب للحطيطنة عندما سئل: (مَنْ أشعر الناس؟ فأخرج لساناً رقيقاً، كأنه لسان حيّة وقال: هذا إذا طمّع. ومن ذات الباب عندما قيل لكثير عزة: (لَمْ تَرَكَتَ الشعر؟ قال: ذهب الشَّبَابُ فما أعجب، وماتت عَزَّةُ فما أطرب، ومات ابن أبي ليلى فما أَرُغِب. يريد عبد العزيز بن مروان¹ وقالوا: أشعر الناس النابغة إذا رهب، وزُهَيْر إذا غضب، وجَرِير إذا رَغِب². وهذا ما قاله الخُريجي (عندما سئل ما بال مدائحك

1/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص442. والإمامي لأبي علي القالي، ج2، ص2041

2/ نفسه.

لمحمد من منصور بن زياد أحسن من مراثيك؟ قال: كُنا حينئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء¹، وبينهما بؤن بعيد. والدليل على صحة هذا المعنى وصِدْق هذا القياس، أنَّ كُثيرَ عزة والكُميت بن زيد كانا شيعيين غاليين في التشيع، وكانت مدائحهما في بني أمية أشرفَ وأجود منها في بني هاشم، وما لذلك علّة إلا قوة أسباب الطمع. ولا يخفى على عاقل ما بين الحالتين من فرق، فالراثي لا يستطيع أن يزيّف مشاعره وينتفي عنده هدف الكسب والتملق.

مستخلص

أن تتبع النصوص الأدبية وتسلط الأضواء عليها من أبجديات البحث اللغوي، وهذه الدراسات تهدف إلى أغراض عدة وهي: أولاً: تكوين صورة حية للمجتمع والبيئة وما يعترّيهما من تغيرات تشكل النسيج الاجتماعي وتصبح بمثابة القانون الذي لا يخترق. ثانياً: بيان مواطن القوة والجزالة والعدوّة في النص المختار، لبيان الجيد من النصوص الأدبية حتى يقتفى الأدباء هذا النهج ويعتمدوه في مقبل نصوصهم.

عمدت الباحثة إلى دراسة النص الأدبي عند الجليّة رغم قلة ما وصلنا من نصوصها، وقسمت البحث إلى مقدمة حوت أهمية البحث والدراسات السابقة وأسباب اختيار الموضوع، ومدخل أول تناولت فيه ترجمة مقتضبة للشاعرة، ثم مبحث أول بعنوان النص النثري للجليّة بنت مرة، وفيه نصين، ثم مبحث ثاني يحوي تحليل النص الشعري الوحيد للشاعرة، وخصصت المبحث الأخير لبيان العلاقة بين الموسيقى والأوزان والغرض الشعري ومدى ملائمة بحر بعينه لغرض بعينه، ثم ختمت بخاتمة وخمسة نتائج، ثم وضعت قائمة بالمصادر والمراجع التي استقت منها ماد البحث.

ترجوا الباحثة أن تكون قد وفقت في اختيارها للموضوع وطريقة عرضه سائلة المولى عز وجل التوفيق والسداد.

مدخل أول: نبذة عن الأدبية جليّة بنت مرة

الجليّة بنت مرة بن ذهل بن شيبان من بني شيبان بن بكر بن وائل من أوائل الشعاعرات العربيات ومن أجمل نساء بكر وهي أخت جساس بن مرة، تزوجت الجليّة من ابن عمها وائل بن ربيعة الملقب بكليب، رغما عن خالتها (البسوس) التي أرادت تزويجها من التبع اليماني، لم تقل جليّة الشعر قبل مقتل زوجها كليب على يد أخيها جساس، فقد قتل كليب ناقة البسوس فقتله جساس، وبذلك أشعل حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً، لم تتزوج جليّة بعد

1/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص442. والإمالي لأبي علي القالي، ج2، ص2041

كليب وعاشت بقية عمرها تصطلي بنيران الحرب هي وقبيلتها، توفيت الجلييلة سنة 84 ق هـ .
1538 م

أبناء الجلييلة من كليب:

لم أجد كتاب ترجم لأبناء الجلييلة ولكن كافة كتب التراجم ذكرت أن لها بنت واحدة لم يوثق لها ولم يقفوا عندها كثير بل ذكرت عرضاً حتى أنهم اختلفوا في اسمها فسميت مرة بديلة وسميت مرة اليمامة، وتفرد السوريين بذكر وجود ابن للجلييلة كان جنين في أحشائها فوضعتة عند أهلها ولم تخبره بنسبه ورباه خاله جساس وزوجه بابنته، حتى عرف الحقيقة فقتل خاله جساس نار لوالده كليب والتحق ببني أبيه.

المبحث الأول

النص النثري عند جلييلة بنت مرة

النص النثري الأول:

كان من الجلييلة أنه لما قَتَلَ أخوها جَسَّاسٌ زَوْجَهَا كَلِيبًا (اجتمع نساء الحى للمأتم، وقلن لأخت كليب: أَخْرِجِي جَلِيلَةَ أخت جَسَّاسٍ عِنا فَإِنْ قِيَامَهَا فِيهِ شِمَاتُهُ وَعَارٌّ عَلَيْنَا، فذهبت إليها أخت كليب وقالت لها: أَخْرِجِي عَن مَأْتَمِنَا فَأَنْتِ أخت قَاتِلِنَا وَشَقِيقَةُ وَاتِرِنَا فخرجت تجر أعطافها، فلقيها أبوها مُرَّةً فقال لها: ما وراءكِ يا جَلِيلَةُ؟ فقالت: تُكَلُّ العَدَدَ، وَحُزْنُ الأَبَدِ؛ وَفَقَدُ حَلِيلٍ، وَقَتْلُ أَخٍ عَن قَلِيلٍ؛ وَبَيْنَ هَذَيْنِ غَرَسُ الأَحْقَادِ، وَتَفْتَتِ الأَكْبَادِ، (على رؤوس الأشهاد)². فقال لها: أَوْ يَكْفُ ذَلِكَ كَرَمُ الصَّفْحِ، وَإِغْلَاءُ الدِّيَاتِ؟ فقالت: أُمْنِيَّةٌ مَخْدُوعٍ وَرَبِّ الكَعْبَةِ ! أَيْلُبْدُنْ تَدْعُ لكَ وَائِلْ دَمَ رَبِّهَا؟! ³

(تُكَلُّ العَدَدَ، وَحُزْنُ الأَبَدِ؛ وَفَقَدُ حَلِيلٍ، وَقَتْلُ أَخٍ عَن قَلِيلٍ؛ وَبَيْنَ هَذَيْنِ غَرَسُ الأَحْقَادِ، وَتَفْتَتِ الأَكْبَادِ)

لقد أجابت الجلييلة بنت مرة أباهاً شافياً سريعاً موجزاً واصفة ما كان وما سيكون تعالوا نحلل قولها ثكل العدد وحزن الأبد، والثكل فقد الأحبة بالموت⁴، ومما يجب الإشارة إليه

1/ الأعلام لخير الدين الزركلي / ج7/ دار العلم للملايين/ ص 318.

/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص 2042

/ الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج7، ص 521. 3

3/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص 223

هنا أن الثكل يعنى فقد الأحبة عامة وفقد البنين خاصة، إما إضافة الثكل إلى العدد فكناية عن تفشى القتل حتى يعجزنا إحصاء الثكلى والمفقودين فقداً أبدياً، كما أن مفردة العدد دون تحديد لهذا العدد دلالة على الكثرة المفرطة، ولم تكتفى بذلك بل عطفة حزن الأبد على ثكل العدد لبيان أن هؤلاء القتلى ليسوا غرباء بل من ذوى الرحم الذين يحزننا فقدهم، وفقد القريب يجعل الحزن الواحد حزينين والفاجعة فاجعتين، ويحضرنا هنا شعر قتيلة¹ في رثاء أخيها النضر الذي صورت فيه قتل الأقرباء بعضهم بعضاً بصورة فذة في قولها:

والنضر أقرب من أسرت قرابة ** وأحقهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ** لله أرحام هنالك تمزق²

أما كلمة الأبد فتعنى الدهر،³ وهذه المفردة من المفردات المألوفة في الشعر العربي انظر إلى قول أبو الطيب المتنبي:

ومن يتهيب صعود الجبال ** يعش أبد الدهرين الحفر⁴

إذن المعنى الذي أرادته الجلييلة هو أن حزننا على هؤلاء القتلى حزن أبدي لن ينتهى.

بعد أن استفاضت الجلييلة في وصف حال قبيلتها عامة انتقلت بيسر وسهولة إلى وصف مأساتها الخاصة جراء قتل أخيها جساس لزوجها كليب وهذا مما يحسب لها، فقد حملت هم القبيلة والوطن والحرب المقبلة قبل همها الشخصي وحزنها على قتل زوجها بيد أخيها، ثم وانتقلت لوصف فاجعتها قائلة (فقد حليل، وقتل أخ عما قليل)، والحليل هو الزوج الذي في فقدته ترمل وتيتم، والترمل من الفواجع والأهوال التي تشعل الأحزان وتدمى المآقي وتفقد الحياة طعمها عند الرجال فما بالكم بوقع هذه الفاجعة على الأنثى التي من تمام أنوثتها الضعف، وأما تيتم الأبناء الصغار فوقعه على الأم أشد وأنكى، وقد كان للجلييلة بنت من كليب تدعى بديلة لم تعطها الروايات التاريخية حقها اختلف الرواة حول اسمها فقيل بديلة وقيل اليمامة⁵.

1/ / فتيلة (بضم القاف) بنت الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار العبدرية القرشية، ويُقال

الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف. أسلمت وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب

6/ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب، ج2، ص211.

7/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

4/ ديوان أبي الطيب المتنبي، ج3، ص52.

5/ الأعلام لخير الدين الزركلي / ج7/ دار العلم للملايين / ص 318.

والراجح أن اسمها بديلة ولقبت باليمامة كعادة العرب على تسمية الشيء بضده فاليمامة فال السلام على نقيض ابنة كليب فهي شرارة الحرب، وهي المطالبة بالثأر من قاتل والدها، وقد ذكرها عمها في أبيات شعرية رثى بها كليباً فقال:

تسألني بديلة عن أبيها وما تدري بديلة عن ضميري

على أني تركت بواردات بجيرا في دم مثل العبير

فلو نبش المقابر عن كليب ليعلم بالذنائب أي زير¹

ثم وضحت الجليلة أن لهذين الفاجعتين الخاصة والعامة ذيول مريرة تتجلى في قولها: تفتت الأكباد وغرس الأحقاد، على رؤوس الأشهاد، انظر إلى ما ختمت به الجليلة حديثها مصطفيةً الفعل المضارع لما يحمل هذا النوع من الدلالة على الحدث المستمر، فقالت (تفتت أكباد) والتفتت في اللغة قسمين القسم الأول تفتت حسي نجده في قولنا تفتت الخبر: تقطع، وتكسر تكسراً شديداً والقسم الثاني تفتت معنوي كقولنا تفتت القلب حزناً: تألم، وتمزق، تفتت كبدي عليه حزناً: حزنت حزناً شديداً²، ولا يفوت على فطنتكم دلالة ربط التفتت بالكبد كأنها تقول إن هذا الحزن عميق داخلي يستوطن دواخلنا، واستمرت في بيان آثار تلكم الكارثة الممتدة عبر الأجيال فهي ستقتل أبناء اليوم وتغرس الأحقاد بين أبناء الغد، ولمفردة غرس دلالة لا توجد في ما عداها من مفردات الزرع فالغرس يختص بالثبوت والتمكين إضافة إلى الزراعة ولفظه الغرس من الجذر غرس وله معنيان الغرس الحسي كقولنا غرس الشجر ونحوه: أثبتته في الأرض وزرعه، والغرس المعنوي كقولنا غرس فيه فكرةً ونحوها: رسخها، أثبتها، طبعها في ذهنه³، وترى الباحثة أن الجليلة عنت الغرس بشقيه السالفي الذكر، ثم أضافت كل ما سبق إلى قولها (على رؤوس الأشهاد)، والمتعارف عليه أن الأمور المشهودة لا مجال فيها للتراخي أو العفو والصفح خوفاً من العار الذي سيلحق بالقبيلة كلها.

(أُمْنِيَّةٌ مخدوع ورب الكعبة! أيا بُدُنْ تدعُ لك وائل دم ربها!؟)

الأمنية من الجذر (ميم، نون، ياء) ولهذا الجذر عدد لا يستهان به من المعاني والتصريفات ولكنني سأكتفي بذكر ما يخص مفردة الجليلة فقد أوردها ابن منظور فقال: (...يقال أُمْنِيَّةٌ على أفعولة والجمع أمانِيٌّ، مشددة الياء، وأمانٍ مخففة، كما يقال أثارٌ وأثافيٌّ وأضاحٍ وأضاجيٌّ

1/ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج4، ص402.

2/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

3/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج5، ص412.

لجمع الأُتُفِيَّة والأُضْحِيَّة. قال أبو العباس: أحمد بن يحيى التَّمَيَّ حديث النفس بما يكون وبما لا يكون، قال: والتمني السؤال للرب في الحوائج. وفي الحديث: (إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ)، وفي رواية: فَلْيُكْثِرْ؛ قال ابن الأثير: التَّمَنَّى تَشَبَّيْ حُصُولِ الْأَمْرِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ وَحَدِيثُ النَّفْسِ بِمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ، والمعنى إِذَا سَأَلَ اللَّهُ حَوَائِجَهُ وَفَضَّلَهُ فَلْيُكْثِرْ فَإِنْ فَضَلَ اللَّهُ كَثِيرَ خَزَائِنِهِ وَاسْعَةً. وَتَمَنَّيْتُ الشَّيْءَ أَيَّ قَدَرْتَهُ وَأَحْبَبْتُ أَنْ يَصِيرَ إِلَيَّ مِنَ الْمَنَى وَهُوَ الْقَدْرُ. وتقول تَمَنَّيْتُ الشَّيْءَ وَمَنَّيْتُ غَيْرِي تَمْنِيَةً. تَمَنَّى الشَّيْءَ: أَرَادَهُ، وَمَنَّا إِياه وبه، وهي الْمِنْيَةُ وَالْمُنْيَةُ¹.

استهلّت الجليلة ردها على تساؤل والدها، بالرفض الصريح القاطع فقد وصفت تساؤل أبيها بالأمنية وهذا الوصف دليل على الاستحالة أو الصعوبة على أقل تقدير، والراجح أنها تريد الاستحالة لأنها ألحقت مفردة أمنية بلفظة مخدوع وهي لفظة لا تقل عن سابقتها في الدلالة على استحالة الصلح، ولفظة مخدوع من الجذر خَدَعَ يَخْدَعُ، خَدَعًا وَخُدْعَةً وَخَدِيعَةً وَخِدَاعًا، فهو خَادِعٌ، وَخِدَاعٌ وهي خَدُوعٌ وَالْجَمْعُ: خُدُوعٌ، والمفعول مَخْدُوعٌ وَخَدُوعٌ وتخدعه الآمال: تستميله بمظاهر بَرَاقة²، واللفظتين من السهل الممتنع الذي يجري على كل لسان ويفهمه البليغ والعبي ولكنّه في هذا الموضع يكتسب بهاء ووقع في نفس السائل مؤكدا استحالة قبول ال كليب بالدية مهما عظمت وجلت.

ثم ألحقت ردها القاطع بقولها (وربّ الكعبة) فقد أقسمت بهذا الحلف الذي يكثر عند الجاهلين ومن مترادفاتهِ وربّ البيت و ربّ البنية، ونجد هذا القسم في غالبية الشعر الجاهلي. ومما أثار انتباهي ترتيبها للجملة فقد استخدمت أسلوب القسم لتأكيد قولها، وأسلوب القسم من الأساليب البلاغية التي يمكن الشئ في النفس وتقويه وقد افتتح القرآن الكريم كثيراً من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقساماً في ثنايا عدد غير قليل منها، وفي كل هذا المواضع ورد القسم في بداية الجملة أما عند الجليلة فقد أخرج القسم للهفتها على الرد على والدها بما يعرف ويحذر لتقطع أمله بردها الحاسم وأتت بالقسم في خاتمة الجملة للتوكيد اللفظي.

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج3، ص112.

2/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص223

ثم افتتحت الجملة الثانية بسؤال إنكاري في قولها (أبالبدن تدع لك وئل دم رهبا) والبدن من الجذر (الباء، والبدال، والنون) ومعناها الناقة أو البقرة، وتسمن وتُنحر بمكة قُرباناً والجمع بدنات وبدن¹، والتسأل هنا تقريرى إنكاري يفيد الاستحالة، مع نبرة حزن ساخرة.

(تدع لك) أي تترك لك، ومرة أخرى تستخدم الجليلة الفعل المضارع الذي يفيد الاستمرارية ومفردة (الدم) بمعنى الثأر والثأر أجرى في لسان العامة والخاصة من مفردة دم وتعريف الثأر في اللغة هو:

الثَّأْرُ وَالتُّؤْرَةُ: الدَّخْلُ. قَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: الثَّأْرُ: الطَّلَبُ بِالدَّمِ، وَقِيلَ: الدَّمُ نَفْسُهُ، وَالْجَمْعُ: أَثَارٌ وَأَثَارٌ، عَلَى الْقَلْبِ. وَقِيلَ: الثَّأْرُ: قَاتِلُ حَمِيمِكَ، وَالْإِسْمُ: التُّؤْرَةُ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَذْرَكَ فُلَانٌ تُؤْرَتَهُ: إِذَا أَذْرَكَ مَنْ يَطْلُبُ ثَأْرَهُ. وَيُقَالُ: ثَأَرْتُ الْقَتِيلَ وَبِالْقَتِيلِ ثَأَرًا وَتُؤْرَةً، فَأَنَا ثَائِرٌ: أَيُّ قَتَلْتُ قَاتِلَهُ. وَالثَّائِرُ: الَّذِي لَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يُدْرِكَ ثَأْرَهُ. وَأَثَارَ الرَّجُلُ وَأَثَارَ: أَذْرَكَ ثَأْرَهُ. وَثَأَرَ بِهِ وَثَأْرَهُ: طَلَبَ دَمَهُ. وَيُقَالُ: ثَأَرْتُ فُلَانًا وَاثَّارْتُ بِهِ: إِذَا طَلَبْتَ قَاتِلَهُ. وَالثَّائِرُ: الطَّالِبُ. وَثَأَرْتُ الْقَوْمَ ثَأْرًا: إِذَا طَلَبْتَ بِثَأْرِهِمْ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: ثَأَرْتُ فُلَانًا وَثَأَرْتُ بِفُلَانٍ: إِذَا قَتَلْتُ قَاتِلَهُ. وَثَأَرَكُ: الرَّجُلُ الَّذِي أَصَابَ حَمِيمَكَ. وَالتُّؤُورُ بِهِ: الْمُقْتُولُ. وَتَقُولُ: يَا ثَارَاتِ فُلَانٍ: أَيُّ يَا قَتَلَةَ فُلَانٍ².

تعريف الثأر في الاصطلاح

الثأر هو أن يقوم أولياء الدم «أقارب القتيل» بقتل القاتل نفسه أو قتل أحد أقاربه انتقاماً لأنفسهم دون أن يتركوا للدولة حق إقامة القصاص الشرعي³.

وائل: اسم قبيلة كليب وهي من أشهر القبائل في العصر الجاهلي وتربطها وشائج الدم بقبيلة القاتل جساس فشجرة النسب تفيد أن القبيلتين أبناء عمومة، والمعنى أن قبيلة كليب لن تترك ثأرها عند جساس⁴.

رهبا من الجذر (الراء، والباء، والياء) والجمع: أرباب ورُبوب، المؤنث: رَبَّة، والجمع للمؤنث: رَبَّات ورياب، والرَّبُّ: اسم الله تعالى والرَّبُّ: المالك والرَّبُّ: السيد وربُّ المَعْمَلِ: مَالِكُهُ، صاحِبُهُ⁵، وبهذه

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج5، ص422.

2/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج5، ص1882

3/ نفسه. 3

4/ الأعلام لخير الدين الزركلي / ج3/ دار العلم للملايين/ ص4201

5/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج4، ص5123

المفردة ختمت الجلييلة تسألها الشديد اللهجة كأنها تقول لوالدها أن كليباً رأس قبيلته لذلك لن تفرط في دمه وثأره مهما كانت الدية ولن ترضى بغير الدم والحرب. إذن فهي تخبر والدها بما يحذر ويتوقع لذلك لم يجادلها ليقينها أن الحرب مقبلة لا محالة ولا مهرب عنها وقد تذهلون لخوف الجلييلة وقبيلتها من الحرب وهم الشجعان الفرسان لكنه خوف العالم بعاقبة الحروب فالجاهلي يعيش حياته بين حرب انتهت وأخرى مقبلة، وبين هزيمة وانتصار وفي كلا الحالين يدفع ثمن الحرب غالياً.

النص النثري الثاني

ثم بلغ جلييلة أن أخت كليب قالت حين ترحلت جلييلة عن مأتم كليب: (...رحلة المعتدي وفراق الشامت .. ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة)¹ فردت الجلييلة بقولها: (...) وكيف تشمت الحرة بهتك سترها، وترقب واترها، أسعد الله جدّ أختي، أفلا قالت نفرة الحياة وخوف الاعتداء)². بدأت الجلييلة نصها بتساؤل رقيق في ظاهره قوي في باطنه جمعت فيه النقيضين بعذوبة وسلاسة في قولها: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها؟؟؟ وهذا التساؤل الإنكاري الهادئ يضح بالحزن ويحمل في طياته التعجب والاستهجان لقول أخت كليب، وهو دليل دامغ على الفطنة والحكمة والتمكن من ناصية البيان، وثبات الجنان في موقف عصيب، ثم حملت ذات تساؤلها تفجع على زوجها وأجادت فقد قرنت بين فقدتها لزوجها بهتك السر ولهذه الصورة البيانية دلالتها العميقة الموحية، كما اختارت ألفاظاً غاية في السلاسة، توصل المعنى وتدل على البكائية والتفجع، أنظر ألي لفظة تشمت وهي من الجذر شمت وله معاني كثيرة، الشّماتة: فرح العدو؛ وقيل: الفرّح ببليّة العدو؛ وقيل: الفرّح ببليّة تنزل بمن تعاديه، والفعل منهما شمت به، بالكسر، يَشْمَتُ شِمَاتَةً وشِمَاتاً، وَأَشْمَتَهُ اللهُ به³. وفي التنزيل العزيز: (فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ)⁴؛ وفي حديث الدعاء: أَعُوذُ بِكَ مِنْ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ؛ قال: شِمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ فرّح العدو ببليّة تنزل بمن يعاديه⁵.

وهذه اللفظة كثيرة الدوران على ألسنة الشعراء على اختلاف عصورهم من ذلك قول الشاعر

1/ الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج2، ص506.

2/ الأغاني لابي الفرج الأصفهاني، ج2، ص506.

3/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج2، ص203

3/ سورة الأعراف، الآية 150.

5/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج3، ص102.

إذا جر الدهر كلاله ** أنـاخ بأخـرين

فقل للشامتـين بنا أفيقوا ** سيلقى الشامتون كما لقينا¹

جذر الحاء والراء والهاء أي الحره وهي مفردة معروفة تعني ضد العبدية، وتفيد في مضمونها الاعتزاز ومما يحضرني هنا استخدام هند بنت عتبة لذات المفردة في بيعة العقبة عندما قال الرسول الكريم أبييكن على أن لا تزني ولا تسرقن فقالت هند بنت عتبة بتعجب يشي بالقيم الجاهلية في العصر الجاهلي: (أو تزني الحرة يا رسول الله؟)² وأوردها صاحب المثلث فقال:

الْحَرَّةُ الْجَبَّارَةُ ** وَالْجَرَّةُ الْحَرَارَةُ

وَالْحَرَّةُ الْمُخْتَارَةُ ** مِنْ مُحْصَنَاتِ الْعَرَبِ³

لفظة هتك من الجذر (هاء تاء كاف) هتك هتك، هتكًا، فهو هاتك وهتكًا، والمفعول مهتوك هتك السِتْر: قَطَعَهُ، حَرَقَهُ، مَزَقَهُ هتك الثَّوب: شَقَّه طَوْلًا هتك الله سِتْرَهُ: فَضَحَهُ⁴. (وترقب واتها) وهنا تتسأل أيضا وكيف ترقب واتها فاضافة ها ضمير المتكلم لمفردة الوتر تفيد الحصر كأنها المختصة الوحيدة بهذه الفاجعة.

ثم انتقلت بسلسلة للدعاء بقولها: (أسعد الله جد أختي) وأسعد فعل رباعي متعد وقد نستغرب هذه الدعوة في هذا المكان لكن عند إعمال الفكر قليلاً نجد أن هذه الدعوة ظاهرها طلب السعادة من الله لأخت كليب وباطنها تهديد من الغد ذلك المجهول المخيف كأنها تقول لها إلا تخشى تقلبات الحياة وتصاريف الدهر فربما صرت مكاني أو ابتلاك الدهر بأشد من بلائي هذا، ومفردة الجد هنا من الجذر (جيم دال دال) والجمع: أَجْدَادٌ، وَجُدُودٌ وَجُدُودَةُ الْجَدِّ: أَبُو الْأَبِّ، وَأَبُو الْأُمِّ الْجَدُّ: الرَّزْقُ الْجَدُّ الْمَكَانَةُ وَالْمَنْزِلَةُ عِنْدَ النَّاسِ⁵، والجد الحظ ورجل محدود أي محظوظ، وفي الحديث (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)⁶ ونجدها في الشعر العربي كثيراً. (أفلا قالت نفرة الحياء وخوف الاعتداء)، فمفردة نفرة من الجذر (النون الفاء الراء)، نَفَرًا وَنُفُورًا وَنِفَارًا، فهو نافر، والمفعول مَنُفُور، نَفَرَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهَا: أَعْرَضَتْ وَصَدَّتْ نَفَرًا فَلَانًا

1/ ديوان الحماسة

2/ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب، ج2، ص211

2/ مثبت قطرب

4/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص333

5/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج5، ص406.

5/ صحيح البخاري

من الشيء: أفزعه ودفعه نَفَر من صُحبة فلان: كرهها، وأنفها، وانقبض منها غيرَ راضٍ عنها نَفَرَ من المكان نَفَرًا: تركه إلى غيره¹، والجليلة هنا تصف حالها عند خروجها من مأتم زوجها فقد خرجت كارهة منقبضة النفس حياء من مقامها في مأتم زوجها الذي قتله أخوها جساس وأيضاً خوفاً من أهل زوجها أن يأخذوها بجريرة جساس ويعتدون عليها مفرغين أحزانهم في شخصها الضعيف وهي بينهم وحيدة بلا ناصر ولا معين.

المبحث الثاني النص الشعري للجليلة بنت مرة

إنَّ الجليلة ليست أول من رثي زوجه من الجاهليات فقد حدث الأصمعي² أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهي تبكي وتقول:

خدي تقيك خشونة اللحد ** وقليلة لك سيدي خدي

يا ساكن القبر الذي بوفاته ** عميت علي مسالك الرشد

اسمع أبئك علي فلعلني ** أطفي بذلك حرقة الوجد³

لا أدري أرثت الجليلة قبيلتها أم رثت زوجها كلياً بهذه القصيدة الرائعة التي وصفها ابن رشيق بقوله: (فانظر... ما أشجى لفظها، وأظهر الفجعة فيه!! وكيف يثير الأشجان، ويقدم شر النيران)⁴،

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا ** تعجلي باللوم حتى تسألي

فإذا أنت تبينتي التي ** عندها اللوم فلومي واعذلي⁵

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج1، ص112.

2/ ولد أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار بن بلال بن بُلَيْل بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو الأوسيا لأنصار سنة 76 هـ في الكوفة ونشأ بهاتوفي أبوه وهو صغير في وقعة دير الجماجم سنة 82 هـ، فاعتنى به أخوه عيسى طلب ابن أبي ليلى العلم من تابعي الكوفة حتى بلغ منزلة عالية في الفقه، فاختر للقضاء في عهد الدولة الأموية، وكان أول من استقضاه على الكوفة يوسف بن عمر الثقفي، وظل من بعدها قاضياً للكوفة مدة 33 سنة، حتى عهد الدولة العباسية حيث كان قاضياً على الكوفة وقت ولاية عيسى بن موسى على الكوفة وأعمالها وقد توفي ابن أبي ليلى بالكوفة في رمضان سنة 148 هـ، له من الكتب كتاب الفرائض.

3/ سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ج5، ص272.

4/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص13.

4/ المرجع السابق.

ابتدرت جلييلة قصيدتها بالرد المباشر على أخت كليب في لطف وضعف فقد نادتها ببناء القريب وليس المقصود هنا القرب المكاني ولا الزماني فقط بل قرابة النسب والدم فهما ابناء عمومة أولاً وأصهار ثانياً وفي ذلك نوعاً من الاستعطاف والتذكير بما بينهما من الصلات الطيبة التي لا ينبغي بأي حال من الأحوال تناسيها، ثم عاتبها عتاب رقيق لا يحمل حقداً ولا غضب بل طلبت منها التآني قبل لوم ابنة عمها وزوج أخيها على ما كان، وأتي البيت الثاني مكماً للأول فقد افتتحتته الجلييلة بإذا الشرطية كأنها تؤكد أن لا شيء صدر منها يوجب اللوم والعتاب.

وأجمل مفردات هذه القصيدة مفردة مُت: من اللوم وهو العذل أي الملامة¹ وهذه المفردة من مفاتيح القصائد الوجدانية التي كانت وما زالت تتسلل إلى قلوب السامعين وتعلق بأذهانهم ورغم استخدامها في العصر الجاهلي المشهور بألفاظه الوعرة أنها استخدمت في كافة العصور لرقمتها ومناسبتها للقصائد العاطفية نحو قصيدة الشاعر الفذ ابن زريق والتي يقول في مطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ** قدقلت حق لكن ليس يسمعه²

إن تكن أخت امرئ ليمت على ** جزع منها عليه فافعلي³

في هذا البيت وقفة جلييلة وقفة المواسي لا الشامت، مذكراً أخت كليب بكثرة من مات من الرجال وبكثمت أخواتهم دون أن يمتن من حزن أو بكاء، ثم مدحت كليباً بأنه أهل لأن تموت أخته بكاءً عليه، وهنا يحضرني قول تماضر الخنساء في رثاء أخيها صخر بيتاً مشابهاً لبيت جلييلة من حيث المعنى في صياغة اللفظ وعبارة أوضح وفيه تقول:

فلولا كثرة الباكين حولي ** على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكين مثل أخي ولكن ** أسلي النفس عنه بالتأسي⁴

وهذا الموقف الكريم مما يحسب لجلييلة فهي تواسي أخت زوجها في قمة مأساتها وذروة فاجعتها ولا يقف هذا الموقف الرائع ذو جنان ثابت.

فعل جَسَّاسٍ على ضيبي به ** قاطع ظهري ومُدِّنٍ أجلي

لُوبَعَيْنٍ فُديت عيني سوى ** أختها وانفقات لم أحفل⁵

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج7، ص402.

2/ ديوان ابن زريق البغدادي، دار بيروت، ص102.

3/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص3.13.

4/ ديوان الخنساء، دار الفكر بيروت، ص113.

5/ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص5.13.

في هذين البيتين تناولت جليلة المشكلة ووصفتها وصفاً دقيقاً، انظر إلى قولها فعل جساس تأكيد على أن القاتل جساس ولا ذنب لها في ذلك، وفي رواية ثانية استبدل الراوي كلمة (ضني به) بكلمة (وجدي به) وعند المفاضلة بين اللفظين نجد أن معنى ضني به أشمل فهو يحوي المعنى الأول ويضيف إليه بعد غير موجود في لفظة وجدي فالوجد الحب ولا توجد أخت لا تحب أخاها حباً فطرياً جبل عليه الإنسان، أمل لفظة ضني به فتعني شدة التمسك ولا يتمسك الإنسان إلا بالنفيس والعزير، وهذا البيت يشتمل على استعارة مكنية في مفردة (قاطع) فقد شبهت فعل جساس بالسيف بجامع القوة والإيلاام في كل ثم حذفت المشبه به وأنت بشيء من لوازمه وهي لفظة (قاطع) على سبيل الاستعارة المكنية، وبدأت البيت الخامس بوصف دقيق لحالها وكيف أنها بين شقي الرحي ضاربة المثل بعينها لبيان موقع كل من زوجها وأخوها في نفسها وصاغت هذا الحساس النبيل في عبارة واضحة بقولها (فلو فُقئت عينٌ – على سبيل الثأر- بعينٍ أخرى غير أختها فانفقت لم أبالي) لكنها فُقتت بأختها تريد لو أن شخصاً آخر غير أخها هو الذي قتل زوجها لم تبالي أي لم تبالي بأخذ الثأر من قاتل زوجها ولكن الأمر أن أخاها هو قاتل زوجها وهو المطلوب للثأر فهي لذلك تتحسر على زوجها وأخها، وهذا البيت هو لب القضية التي تقوم عليها قصيدة الجليلة بنت مرة وحرب البسوس التي استمرت زهاء الأربعين عاماً.

تَحْمِلُ الْعَيْنُ قَذَى الْعَيْنِ كَمَا ** تَحْمِلُ الْأُمُّ قَذَى مَا تَفْتَلِي

إِنِّي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةً ** فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْتَحَاحَ لِي¹

إن العين إذا وقع فيها قذى فإن العين الأخرى تشاركها في وقوع الضرر عليها كذلك تتحمل الأم أذى ما تنجب من أولاد وللعرب في هذا الباب أمثلة كثيرة ولنا في العامية السودانية مثلاً شهير وهو (البلدي ديب بلولي)²، وأنا هنا أحمل وزر أخي مدفوعة بالعاطفة أولاً وبالأخوة ثانية، وبالقبيلة ثالثاً، فانا ممزقة بين أخي وزوجي، فمصيبتي لا مثيل لها لأنني القاتلة المقتولة، ولا منجاة لي ولا فرار سوى التوسل إلى الله عز وجل أن يخفف مصابي ويرزقني الصبر والفرج ويمن علي بفضله الواسع.

يَا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ ** سَقَفَ بَيْتِي جَمِيعًا مِنْ عِلٍّ

وَرَمَانِي فَقْدُهُ مِنْ كَثَبٍ ** زَمِيَّةَ الْمُصْعَى بِهِ الْمُسْتَأْصَلِ

1/ العمدية في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص13.

2/ الأحاجي السودانية ل، ص162.

يا قتيلاً نصب المنادى هنا وإن كان نكرة مقصودة فحقه البناء على الضم لأن الشاعر يجوز له عند الاضطراب تنوين المنادى بالضم أو النصب إذا كان نكرة مقصودة، وقد ورد السماع بكليهما وهذا البيت شاهد للنصب، قَوَّضَ: هدم¹، وكل مهدوم مقوض، وليس كل مقوض مهدوم، بيتي بتشديد الياء مثني بيت أصله بيتين لي فحذفت النون للإضافة واللام تخفيفاً لكثرة الاستعمال ثم أدغمت الياء في الياء فصار بيتي، من عَلٍ: من العلو أي من فوق²، والجلييلة هنا تنادى زوجها المقتول وتقول له: لقد هدم الدهر بقتلك بيتي جميعاً.

أما في هذا البيت فتصف الجلييلة وقع قتل كليب عليها كمن رمى بسهم صائب وهذا الرامي شديد القرب منها في قولها: (من كَثَبٍ) أيمن قريب. ولفظة المُصْبِي من الفعل أَصْبَى على وزن أَفْعَلَ وهو مزيد ثلاثي بالألف، وفعله المجرد (صَبَى) على وزن (فَعَلَ) يقال: صَبَى الصيْدُ يُصْبِي صَمِيًّا من باب رمى: إذا مات وأنت تراه، ثم يتعدى الفعل بالألف فيقال: (أَصْمَيْتُهُ) إذا قتلته بين يديك وأنت تراه³، وفي الحديث: (كُلُّ مَا أَصْمَيْتَ وَدَعَّ مَا أَنْمَيْتَ)⁴ معنى (أَصْمَيْتَ) أن يأخذ الكلبُ صيداً بعينك ويسيل دمه فتلحقه وقد قتلته فهذا الصيْدُ يؤكل والمعنى: كُلُّ مَا قَتَلَهُ كَلْبُكَ وَأَنْتَ تَرَاهُ وقد اقتصر الأزهري في التفسير على الكلب على سبيل التمثيل والسهم ملحق به، وظاهر الحديث عام فيهما. ومعنى أنميت غاب عن عينك فمات ولم تره فلا تدري هل مات بسهمك وكلبك أم بشيء عرض⁵. ويقال: (أَصْبَى الرَّمِيَّةُ) أنفذ فيها السهم ونحوه⁶. المستأصل استأصل الشئ: قلعه من أصله أو بأصوله، واستأصل القوم: قطع أصلهم⁷، جَعَلَتْ قَتْلَ زَوْجِهَا كَلِيبٍ كَالصَّائِدِ وجعلت نفسها كالصيد الذي يُرْمَى، فهذا الصائد قد رماها بسهم نفذ فيها وقلعها من أصولها، أرادت أن قتلَ زوجها رماها رميةً شديدة جداً لأنها جعلته يرمى من قريب، ثم وصفت الرمية بأنها رمية الذي يُصْبَى بالسهم أي يصاب به فينفذ فيه فيقتله [أو يُصْبَى بالسهم أي يصيب به الصيد فيقتله] فإن جعلت قولها: (المُصْبَى المُسْتَأْصَل) اسْمُ مَفْعُولٍ فِيهِ

1/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج1، ص112.

2/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج7، ص402.

3/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص373.

4/ لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر بيروت، سنة 2003م، الطبعة الثانية، ص117.

5/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج2، ص100.

6/ لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج1، ص109.

7/ المعجم الوسيط، الفيروز أبادي، ط1، ج1، ص103.

تريد وصف الصيد الذي رُمِيَ (أى نفسها) بأنه أصيب فنفذ فيه السهم فقتل فاقطعه السهم من أصوله. وإن جعلت قولها: (المُصْبِي المُسْتَأْصِل) اسمي فاعل فالمراد وصف الصائد الذي رَمَى بأنه أصاب الصيد وأنفذ فيه سهمه فقتله واقتطعه من أصوله. وقولها (المُسْتَأْصِل) تتميم، وذلك أن المعنى قد تَمَّ عند قولها (المصميه) فإن المعنى أن قتل زوجها الذي هو الصائد قد رماها من قريب رمية شديدة فأصابها ونفذ فيها سهمه. وهذا معنى تام فلما قالت (المُسْتَأْصِل) زادت معنى جديدا لم يكن ليظهر بدون هذه الزيادة فهي تقول إن السهم قد أصابها ونفذ فيها وفعل بها ما يفعل السهم في الرَّمِيَّة ، وليس هذا فحسب بل إنه مع هذا قد اقتلعتها من أصولها. فهذا تتميم أفاد المبالغة فلو طُرِحَ نقص المعنى واختل حسن التركيب فإن المرأة إذا أساء زوجها عَشْرَتَهَا كان لها في أهلها مندوحة عن إساءاته، وإن عَقَّهَا أهلها كان لها في بيت زوجها متنفس عن عقوقهم وأما هذه فقد اقْتُلِعَتْ من أصولها فلا هناء لها في بيت أهلها ولا بيت زوجها فلم يُعَدَّ لها أصل تركن إليه.

فائدة بلاغية:

البيت الثاني من أعقد أبيات قصيدة الجلييلة وقد استشهد به البلاغيون في قضية وضع المضممر موضع المظهر ونجد هذه القضية في قول الجلييلة: (المُسْتَأْصِل) والضمير في يمين قولها: (المصبي به) يعود على السهم وإن لم يجر له ذكر في الكلام وثوقا بمعرفة السامع به وهذا في الكلام البليغ كثير منه قوله تعالى: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} ¹ أي الشمس ولم يجر لها ذكر، وقوله أيضاً: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ² أي القرآن ولم يجر له ذكر في الكلام وغير ذلك كثير وهذا النوع يسميه علماء المعاني وضع المضممر موضع المظهر، وانفرد ابن جني بتسميته شجاعة الفصاحة؛ لأن الفصح لا يكاد يستعمله في كلامه إلا وفصاحته جريئة الجنان غزيرة المواد ³، وإن كان هذا البيت من أعقد أبيات الجلييلة من حيث تركيبته اللغوية فهو أيضا مرتبط بالفرس وعين المشكلة التي تواجهها الجلييلة أما عند الروائيين فيسمى قمة الحبكة وعقدة النص.

هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُهُ ** وَسَعَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ

والجلييلة في هذا البيت تخاطب زوجها القاتل وتبثه أشجانها في عبارات رقيقة حزينة واصفة حالها بعده بقولها هدم الدهر بقتلك بيتي الذي استحدثته بزواجي لأنك كنت ركن البيت

1/ سورة ص، الآية 32.

2/ سورة القدر، الآية 1.

3/ الخصائص لابن جني، ص 42.

وعموده فلما قُتِلَتْ هُدِمَ ركن البيت فهُدِمَ البيت ، وسعى - أي الدهر - في هدم بيتي الأول وهو بيت أبيها وهنا إشارة واضحة لما تتوقعه الجليلة من سعى قبيلة زوجها للانتقام من أخيها وقبيلته وقد تحقق ما خافته الجليلة وظلت الحرب مستعرة بين وائل وتغلب زهاء أربعين عاماً.

مَسْنِي فَقَدْ كَلَيْبٍ بِلْخَلَّى ** مِنْ وَرَائِي وَلَخَلَّى مُسْتَقْبِلِي

وتابعت الجليلة شكوها بذات اللغة الرفيعة العذبة مصورة حالها بمن تحيط به النيران من أمامه وخلفه ولا مفر منها، فقد خصني قتل كليب بنار تتوقد من ورائي حيث إن المقتول زوجي، وبنار توقد من أمامي حيث إن المطلوب بالثأر أخي وكلاهما أقرب أقربائي.

لَيْسَ مَنْ يَبْكِي لِيَوْمَيْنِ كَمَنْ ** إِنَّمَا يَبْكِي لِيَوْمٍ يَنْجَلِي

ليس من يبكي على يومين يوم مضى وقعت فيه مصيبة ويوم مقبل ينتظر وقوع مصيبة أخرى مثلها كمن يبكي ليوم ينجلي فالجليلة هنا تبين أن كارثة قتل كليب لن تبكي ليومين وتنسي بل هي شرارة الأحزان وبداية القتلى من القبيلتين أبناء العمومة وأصهار الأمس أعداء اليوم، وتلكم لعمرى مأساة تاريخية وعداوة لن تنتهي بل سيرثها الأجيال، وهذه هي الكارثة الحقيقية.

دَرَكُ الثَّائِرِ شَافِيهِ فِي ** دَرَكِي ثَارِي ثَكْلُ المَثَكِلِ

يشتفى يقال: اشتفى بكذا: نال الشفاء وتشفى من غيظه. الثكل فقدان الحبيب أي من كان له ثأر فأخذه اشتفى به ولكن في ثأري فقدان الأحبة لأن ثأري عند أخي.

لَيْتَهُ كَانَ دَمِي فَاحْتَلَبُوا ** دَرًّا مِّنْهُ دَمِي مِنْ أَكْحَلِي

دَرًّا دَرَّ اللَّبَنُ وَالدَّمْعُ وَنَحْوُهُمَا يَدِرُّ وَيَدُرُّ دَرًّا وَدُرُورًا وكذلك الناقة إذا حُلِبَتْ فَأَقْبَلْ مِنْهَا عَلَى الْحَالِبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. أَكْحَلَى الْأَكْحَلَ عَزَقُ فِي وَسْطِ الذَّرَاعِ يَفْصِدُ أَوْ يَحْقِنُ يُقَالُ لَهُ النَّسَا فِي الْفَخَذِ وَفِي الظَّهْرِ الْأَبْهَرِ. وَقِيلَ: الْأَكْحَلُ عَرَقُ الْحَيَاةِ يَدْعَى نَهْرَ الْبَدَنِ وَفِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ شَعْبَةٌ لَهُ اسْمٌ عَلَى حِدَةٍ فَإِذَا قُطِعَ فِي الْبِدَنِ لَمْ يَرَقْ الدَّمْلِيَتِ هَذَا الثَّأْرُ كَانَ دَمًا فَأَخَذُوهُ مِنِّي بِأَنْ يَحْتَلَبُوا مِنْ أَكْحَلِي دَمًا كَثِيرًا حَتَّى يَدْرِكُوا ثَأْرَهُمْ.

المبحث الثالث الموسيقى والأوزان

إنَّ لكل نص أدبي موسيقى، سواء كان نصاً نثرياً أو شعرياً، ولكن مما يميز النص الشعري اشتماله على نوعين من الموسيقى الأولى موسيقى خارجية والثانية موسيقى داخلية، ورغم أن النص النثري ليست له موسيقى خارجية إلا أن موسيقاه الداخلية تتوقف على براعة الأديب وتكسب النص رونقاً وبهاءً لا نجدهما في الحديث العادي.

إنَّ الموسيقى الخارجية للقصيدة تسير على قدمين (القافية والبحر)، والقافية هي آخر البيت ولها ستة أحرف أهمها حرف الروي لأن القصيدة تبنى عليه فنقول ميمية ورائية وهكذا، وتعتبر القوافي من الأمور الشاقة التي تشمس حيناً وتواتيك حيناً آخر، لذلك لا بد للشاعر من اختيار القافية الملائمة لمعانيه وأغراضه، وهذا عناه صاحب الصناعتين في قوله: (وإذا أردت أن تصنع شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها في فكرك وأخطرها على قلبك، واطلب لها ...، وقافية تحتملها فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية، ولا تتمكن منه في أخرى)¹، وهذا ما جعل الشاعرة تتخير قافيتها من القوافي اليسيرة التي يسهل القول فيها لكثرة المفردات المختومة بحرف الروي اللام ولم تكتفِ بذلك بل جعلت اللام مكسورة لمناسبة الكسر للياء.

إذا نظرنا إلى القصيدة مناط البحث لوجدنا أنها جاءت على بحر الرمل² وهذا البحر ذو موسيقى خفيفة رشيقة مناسبة، وفيه شيء من العاطفة الحزينة دون كآبة أو تفجع³ وهذه النغمة الغامضة هي ما تجعله أنسب البحور للثناء ففيه الترنم والرقّة والحزن كما أن فيه رقّة وعذوبة على ما فيه من الأسى، إذن فقد أجادت الشاعرة اختيار البحر الذي يعبر عن حزنها وفجيعتها في زوجها وأخيمها على حد سواء، وهذا ما عناه العلامة عبد الله الطيب عندما أقر أن الأغراض الشعرية تلعب دوراً بارزاً في اختيار البحر في قوله: (... مرادي أن أحاول بقدر المستطاع تبين أنواع الشعر التي تناسب البحور المختلفة)⁴، لا نريد هنا إن نقول أن الشاعرة تركت حزنها وتخيرت البحر لكننا نرمي إلا أن الفطرة السليمة والسليقة السوية تقودها إلى هذا البحر دون سواه.

الخاتمة

إنَّ العصر الجاهلي من العصور التي حظيت بدراسات ومقالات وافرة، وقلما نجد كاتباً من الكتاب لم يخص العصر الجاهلي بكتاب أو اثنين من المؤلفات القيمة التي تعين الباحث وتكاد تصور البيئة الجاهلية بكافة تفاصيلها ولكن مازال فيها الغريب والمجهول وخاصة شعر النساء

1/ انظر أسس النقد الأدبي عند العرب، ص 1.55

2/ أحد البحور الخمسة عشر التي وضعها الخليل، يناسب هذا البحر الغناء والنواح على حد سواء

3/ انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها لعبد الله الطيب، ج 1، ص 3.158

4/ المرجع السابق، ج 1، ص 4.93

لذلك هدفت إلى إبراز شاعرية الجلييلة من خلال نصوصها الأدبية الثلاثة رغم أن أدبية بهذه القوة والسلاسة والدقة والحس الفني العالي لا أظن أنها لم تقل سوى هذه المقطوعة اليتيمة وأعتقد أن أشعارها أكثر مما وصلنا لكنها عاشت فترة عصيبة طمست الحرب معالمها وأذهلت الرواة عن تتبع نصوصها كما لم أقف على سفر ترجم لها ترجمة وافية فأغلب ما وجدته تحدث عن واقعتين لا غير الأولى زواجها من كليب وغضب التبع اليماني والثانية مقتل زوجها كليب على يد أخيها جساس، والخبران غالباً ما يكونا مقتضبين كأنهما مدخل للولوج للموضوع الرئيس ألا وهو حرب البسوس وأيامها وامتدادها لأربعين عاماً وتخليد بطولات فرسانها، دون أي ذكر للجلييلة.

النتائج

- 1/ إن شاعرية المرأة تألفت في هذا الرثاء تألقاً عظيماً، وقد أسهمت المرأة فيه إسهاماً لم يحققه إلا قلة من الرجال كيلاً، وهو إسهام لم تقدم مثله في سائر الفنون الشعرية كمّاً.
- 2/ إن فن الرثاء هو من أبرز الفنون الشعرية وأكثرها صدقاً وغناء بالتجربة الإنسانية.
- 3/ إن الجاهليين لم يبكوا عادة سوى قتلى الحروب والثارات فيما بينهم. أما الموت الطبيعي فلم يكن ليثير داعية الرثاء لديهم. وقد تغير هذا مع تطور الحياة، وصار الرثاء يتناول كل ميت استوجب الندب والتحسر عليه، سواء مات شهيداً أو مغتالاً أو حتف أنفه.
- 4/ من الصعوبة تحديد إطار عام لقصيدة الرثاء. فعلى الرغم من أن الشاعر - أو الشاعرة - يركز جهده في تعداد مآثر القتل أو الأسرة المنكوبة، أو البلد السليب، وهو المحور الأساسي في كلّ رثاء، فإن قصيدته تظل ذات طابع خاص من حيث بنائها الفني وعناصرها وتنوع الأساليب فيها، ومن حيث الزاوية التي يدخل منها الشاعر على موضوعه، والرؤية الفنية والوجدانية حيال هذا الموضوع.
- 5/ لم يصلنا من الجاهليين أي رثاء للزوجات والجواري. ولعل لذلك أسباباً قبلية واجتماعية، جعلت الرجال يأنفون من ذلك، لكيلا يُحسب عليهم ويحط من قدرهم بزعمهم.
- 6/ شاركت قصيدة الرثاء مختلف الفنون الشعرية الأخرى في تطورها الفني أسلوباً وصوراً ومعاني وعناية بالترصيع البديعي، واتصافاً بوحدة البيت أو الوحدة الموضوعية، أي أنها تطورت خلال المراحل نفسها التي مرت بها فنون الوصف والمدح والهجاء والحماسة والفخر والغزل.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الأحاجي السودانية ل، ص162.
3. الأعلام لخير الدين الزركلي / ج7/ دار العلم للملايين/ ص 318.
4. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج7، ص521.
5. أنظر أسس النقد الأدبي عند العرب، ص55.
6. انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها لعبد الله الطيب، ج1، ص158.
7. الخصائص لابن جني، ص42.
8. ديوان ابن زريق البغدادبي، دار بيروت، ص102.
9. ديوان أبي الطيب المتنبي، ج3، ص52.
10. سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ج5، ص272.
11. السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب، ج2، ص211.
12. العقد الفريد لابن عبد ربه، ج2، ص204.
13. العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ط2، ص13.
14. لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، ج3، ص112.
15. مثلث قطرب
16. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية القاهرة، دار الدعوة



نشأة كلية اللغة العربية وأهدافها

لما كانت العناية باللغة العربية وآدابها من الأهداف، والمقاصد المؤكدة لجامعة أم درمان الإسلامية، فقد صدر قرار مجلس الجامعة في 22/2/1988م بإنشاء كلية مستقلة للغة العربية، حيث ألتحقت أول دفعة من الطلاب والطالبات في العام الدراسي 1994/93م ولما كانت رسالة جامعة أم درمان الإسلامية الأساس نشر الإسلام، ولغته الشريفة في السودان وفي خارجه، فإن كلية اللغة العربية تمثل واحدة من من هذه الرسائل والأدوات في أداء هذه الرسالة، وتتعاظم هذه المهمة في هذا الزمان الذي تجابه فيه أمتنا تحديات عظيمة، أبرزها محاولات حصار الإسلام، وعرقلة مسيرة إنتشاره، ومن ثم وقف إنتشار العربية، إذ أن اللغة العربية هي وعاء الإسلام، فهما متلازمان، فحصار أحدهما أو التشكيك فيه يعني حصار الآخر والتشكيك فيه تماماً، ولمجابهة التحديات المذكورة أنشئت هذه الكلية

أهداف الكلية

- 1- رفد المجتمع السوداني وغيره من المجتمعات بالكوادر العلمية المدربة في مجال تدريس اللغة العربية وآدابها
- 2- تنمية ملكات الطلاب ورعاية إبداعهم العلمي والأدبي
- 3 - إعداد الباحثين في مجال الدراسات اللغوية والأدبية إعداداً رفيعاً يمكنهم من حمل أمانة البحث ؛ ليسهموا _ من ثم _ في ترقية اللغة العربية
- 4- دراسة تراث السودان اللغوي والأدبي وتحقيقه شعراً ونثراً ، ونشره بكل وسائل النشر
- 5 - العناية باللهجات السودانية ، دراسة وتأصيلاً وتحقيقاً ونشراً
- 6 - تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها داخل السودان و خارجه

